منهج الدعوة عند الإباضية



تأليف

الدكتور / محمد صالح ناصر

نشر

مكتبة الاستقامة

مسقط - سلطنة عمان

١٤١٨ هـ - ١٩٩٧م

منهج الدعوة عند الإباضية

تأليف

الدكتور/ محمد صالح ناصر

نشر

مكتبة الاستقامة

مسقط - سلطنة عمان

١٤١٨ هـ - ١٩٩٧م



مقدمة

من بين المواد التي أدرِّسها في معهد القضاء الشرعي والوعظ والإرشاد، بسلطنة عمان، مادة عنوانها «**منهج الإباضية في الدعوة**». تدريس هذه المادة دفع بي إلى الاطِّلاع على الكثير مما كتب حول الإباضية تاريخاً وفكراً، قديماً وحديثاً. وكنت أثناء قراءاتي لهذه المراجع كثيرا ما تستوقفني أسئلة محيرة، ولعلَّ أبرزها:

1- لماذا يغلب على تلك المراجع طابع التكرار، والنقل الحرفي للمعلومات حتّى إنَّ اللاحق لينقل عن السابق دون تمحيص أو مقارنة بين هذه المراجع وبين المراجع التي كتبها الإباضية أنفسهم. وكأنَّ ما في تلك المراجع ولاسيما القديمة منها، هو العلم النهائي، والحقيقة المطلقة؟

2- لماذا تكتفي أغلب تلك المراجع بسرد الحوادث والوقائع التاريخية دون تحليل أو تعليل، فهي لا تحاول النفاذ إلى أبعاد ما ترويه بعرض الحيثيات المختلفة، وبالتالي الوصول إلى النتائج التي قد لا يصل إليها القارئ العادي من تلقاء نفسه، وهو ما يضفي على تلك المراجع السطحية والسذاجة الفكريَّة أحياناً.

على أنِّي أقول وبكلِّ موضوعية إنَّ بعض الدراسات التاريخية الصادرة في هذه السنين الأخيرة تجاوزت تلك النظرة الأحادية، تعمَّقت الأحداث بالنفاذ إلى بواطنها، وقارنت بين وجهات نظر الفرق الإسلامية رجوعاً إلى مصادرها، وهو ما أدى إلى نتائج حضارية إسلامية هامَّة، بتقريب

وجهات نظر فرقاء الأمّة الإسلامية، والتقائهم على حلقات الحوار والتشاور، ولو على صفحات الكتب والدوريات. فيم ظلّت فيه بعض الجهات التي تعرف نفسها على التعصب المقيت، والإصرار على أنَّ الحق في جانب واحد وحده.

ورغبة منّا في أن يزداد أنصار الحوار الهادئ، والاعتراف والتعارف والمعرفة على حدٍّ تعبير الشيخ علي يحي معمر، فإنّي أضع اليوم بين يدي القارئ المسلم هذا الكتاب الذي حاولت مخلصاً أن يصب في هذا الرافد، عسى أن تتجمع هذه الروافد لتسقي الشجرة الطيّبة التي يستظل كلُّ المسلمين بظلها الوارف.

وأحبُّ أن أذكّر أنَّ هذا الكتاب يدخل ضمن اهتماماتي العقدية والفكرية والعلمية، إيماناً منّي بأن واقع المسلمين لن يتغيَّر ما لم يغيروا ما بأنفسهم، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿**إنَّ الله لا يغيِّر ما بقوم حتى يغيِّروا ما بأنفسهم**﴾(سورة الرعد: 11)، وقد سبق لي أن أصدرت كتابين في هذا الاتجاه، أولهما مكانة الإباضية في الحضارة الإسلاميَّة حلقتان، منذ خمس سنوات. وثانيهما تراثنا الإسلامي والعصر، منذ ثلاث سنوات.

وقد نهجت في الكتاب الأوَّل نهجاً يعتمد الجمع والرصد لكتابات بعض الكتَّاب المسلمين المعاصرين الذين يهمُّهم وحدة الأمَّة الإسلامية من دعاة التحاور والتشاور ونبذ الخلاف، المتجاوزين ما في بعض الكتب التراثية من حدَّة وصراعات، وبما أن الكتاب لم يكتب له النشر الذي تمنيته له، فإنّي أحب أن أنقل هنا بعض ما جاء في مقدمته، يقينا مني أنَّ الواقع الإسلامي اليوم لم يتحسن عما كان عليه قبل خمس سنوات عند صدور ذلك الكتاب، بل أستطيع القول مطمئناً إنَّ الواقع تدهور تدهوراً فظيعاً

ويكفي دليلاً هذه الدماء التي تسيل أنهاراً في كل الأوطان الإسلامية، وهي لا تسيل دفاعاً عن أرض مقدسة أو وطن سليب، بقدر ما تسيلها أيادي تدَّعي تصفُّح القرآن ومدارسته.

إن الناظر في تحولات العالم الإسلامي في إطار الصحوة الإسلامية الأخيرة، يدرك بأنَّ الصحوة لن تؤتي ثمارها إلا بإصلاح ذات البين بين المسلمين الذين يكوِّنون هذا المجتمع الإسلامي العريض، وكلُّ مشروع حضاري نهايته الخيبة والفشل ما لم يبنِ أسسه على التسامح والودِّ والمحبة بين أفراده، ولن يصل غايته إن لم يمهِّد لطريقه وخطواته بالاحترام المتبادل والتقدير الكامل بين طوائفه وأحزابه، مادام الهدف واحداً وهو بناء مجتمع إسلامي متطور في ظلِّ راية التوحيد.

ولعلَّ الواقع المرير الذي نشهد مآسيه من حين إلى آخر هنا وهناك يعود إلى أسباب سياسية ودينية في الأغلب الأعمِّ، لقصور نظر لدى الساسة والمتزعِّمين. فإنَّ السؤال الذي ينبغي أن ينشغل به المصلحون والمخلصون هو: كيف يمكن أن توظَّف القيم الدينية لتكون ركائز للتقدُّم، والنهضة، والتحرُّر، لا أن تصبح سبباً إلى تكريس التخلُّف، والتحجر، والتقهقر؟ فإنه عوض أن يتصارع المسلمون بدافع مذهبي أو حزبي، كان الأولى بهم أن يوجِّهوا قواتهم إلى عدوِّهم المشترك عدوِّ دينهم وأمتهم وقرآنهم ونبيهم، فإنَّ المعركة الحقيقية شئنا أم أبينا، أدركنا ذلك أم لم ندركه، ينبغي ألا تكون بين المسلمين مذاهب وأحزاباً، وإنَّما هي صراع حضاري بين كفر وإيمان، وتنافس محموم على السيادة والسيطرة بين حضارة الهلال ومدنيَّة الصليب، حتَّى وإن حاول أعداء الإسلام داخلاً وخارجاً أن يَطبَعُوا هذا الصراع بغير هذا الطابع، وإن اتخذوا أساليب تكتيكية سياسية واقتصادية

أخرى. فإن لم يدرك المسلمون هذا الواقع و لم يستبطنوا خفاياه فإنّهم لا يزالون في توجيه أسلحتهم الفتاكة ضدَّ بعضهم البعض، متغافلين عن عدوِّهم الأساسي الذي يدس السلاح في أيديهم، ويؤلب الحكّام الفجرة عليهم، ليتحكّموا في منابع الثروات المادية والأدبية، ويخذلوا قواهم الاقتصادية والروحية.

إنّهم يتسمون للمسلمين في ودٍّ كاذب، وتملُّق منافق، ليوجهوا وجوهنا قِبل البيت الأبيض، والساحة الحمراء، وليصرفوا وجوهنا عن الكعبة، والقبة الخضراء، وأولى القبلتين، وليس أدل من هذه المؤامرة التي تجلت واضحة وضوح شمس الهاجرة في سماء الجزيرة العربية، فيما يطلقون عليه اليوم (أزمة الخليج)، وإنَّ أخوف ما نخافه أن نتفطن إلى عدوِّنا الحقيقي ونحن نردِّد في حسرة وندامة: «إنَّما أُكلتُ يوم أُكل الثور الأبيض»، فإنَّ نفسا مسلمة واحدة تموت في ساحة المسجد الأقصى، أو في رمال الجزيرة، أو في واحات غرداية، أو على ضفّة النيل، لهي خسارة عظمى للمسلمين جميعهم[1]، ومن هنا فإنَّ الواقع الذي دفع إلى تأليف كتاب: «مكانة الإباضيَّة» قبل خمس سنوات هو الدافع نفسه الذي دفع بي إلى تأليف كتاب: «منهج الدعوة عند الإباضيَّة» اليوم.

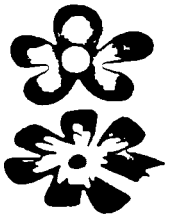
وتحقيقا لهذا المنظور الساعي إلى تقريب شقّة الخلاف، وإيجاد وسائل الحوار والتفاهم بين المسلمين، رأيت تقسيم الكتاب إلى قسمين كبيرين: قسم يهتمُّ بالجانب التاريخيِّ، وقسم يهتمُّ بالجانب الحضاريِّ، وأحسب أنَّ القسم الأخير هو الذي يهدف إلى تبيان بعض ما قد يخفى على غير المتمذهبين بالمذهب الإباضيِّ، لأنّه محاولة للكشف عن بعض مميِّزات

1 – مكانة الإباضية في الحضارة الإسلاميّة، ص9–10.

الإباضيَّة فكراً وسلوكاً، رجوعا إلى النصوص وتحليلا للمواقف. فالوقوف عند هذا الجانب أهمُّ من الاكتفاء بالجانب التاريخيِّ فيما أقدِّر.

ودون أن أُثقل على القارئ الكريم، بعرض محتويات الكتاب عليه، فإنِّي أفضِّل أن أترك ذلك له، يدركه من تصفح الكتاب وقراءته عن كثب، داعياً الله أن يجمع شمل المسلمين تحت راية القرآن وسنة المصطفى على الخير، ويوحِّد صفوفهم ضدَّ قوى الشر، ويجعل أعمالهم خالصة لوجهه الكريم، ومنطلقاتهم رفعة لدينه القويم، والله ولي التوفيق.

محمد صالح ناصر



تمهيد

1- ما المنهج وما الدعوة؟

2- نشأة الإباضية.

3- التمييز بين الإباضية والخوارج.

«ليس لنا مذهب إلاَّ الإسلام، فمن ثمَّ تجدنا نقبل الحقَّ مِمَّن جاء به، وإن كان بغيضاً، ونردُّ الباطل على من جاء به، وإن كان حبيباً، ونعرف الرجال بالحقِّ. فالكبير عندنا من وافقه، والصغير من خالفه، ولم يشرع لنا ابن إباض مذهباً، وإنَّما نسبنا إليه لضرورة التمييز، حين ذهب كلُّ فريق إلى طريق، وأمَّا الدين فهو عندنا لم يتغير والحمد لله» [1]

الشيخ السالمي

---

1 – إنَّ هذه الكلمات الخالدة وردت في ردِّ الشيخ السالمي على رسالة وجهها إليه الشيخ سليمان الباروني باشا يسأله عن أسباب افتراق المسلمين، وهل في الإمكان توحيد مذاهبهم؟ نقلاً عن إيضاح التوحيد بنور التوحيد، لسعيد بن ناصر الغيثي، تحقيق محمَّد موسى باباعمي، ومصطفى بن محمَّد شريفي، نشر معهد القضاء الشرعي، سلطنة عمان، ط1: 1417هـ/1996م. ج1/ص194.

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

يجدر بنا قبل الدخول في تفاصيل منهج الدعوة عند الإباضية أن نوضّح بعض المفاهيم الضرورية، مثل كلمة منهج ودعوة، كما يجدر بنا الوقوف عند الظروف السياسية والاجتماعية التي نشأت الإباضية في ظلّها باعتبارها مذهباً من المذاهب الإسلامية الأصيلة.

تعريف المنهج والمنهاج:

1- **المنهج لغة:** الطريق، يقول ابن منظور في لسان العرب: «طريق نهج بيّن واضح، وطرق نهجة، وسبيل منهج، ومنهج الطريق وضحه، والمنهاج كالمنهج»[1]، وجاء في القرآن الكريم : ﴿ **لكلٍّ جعلنا منكم شِرعة ومنهاجاً**﴾ (سورة المائدة: 48) .

2- **المنهج اصطلاحاً:** هو الخطة أو التخطيط لإعداد شيء ما، أساسه التفكير، أكان هذا الشيء مادياً أم معنوياً، لذا نستطيع القول : إنّه علم التفكير أو طريقة كسب المعرفة. فثمة تخطيط لبحث أو كتاب وهو ما يطلق عليه خطة البحث.

والشريعة الإسلامية أساسها منهج ربّاني واحد، عمدته القرآن الكريم، وسنّة الرسول الكريم ﷺ قولاً، وفعلاً، وتقريراً، إلى جانب القياس، والإجماع، واجتهاد علماء الأمّة ولابدَّ أن نوضّح منذ البداية أنَّ

1 - يراجع لسان العرب، مادة: نهج.

المنهج الإسلامي واحد مهما اختلفت آراء علماء الأمّة، لأنَّ كلمة التوحيد وحَّدت خطاهم، وتشريع القرآن حدَّد طريقهم، لذا نلحظ في القرآن الكريم مفردات لغوية أخرى مثل السبيل، والصراط، ولكنها تدلُّ كلها على معنى واحد هو الطريق، وهي التي عبر عنها الرَّسول ﷺ بالمَحجَّة حيث يقول: «**تركتم على المحجة البيضاء ليلها كنهارها**».

وفي القرآن الكريم : ﴿**قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني**﴾ (سورة يوسف: 108) .

فالمنهاج إذاً في الاصطلاح - كما تدل عليه مصادر التشريع - هو الطريق الذلول الموصل إلى رضى الله رب العالمين.

تعريف الدعوة لغة:

الدعوة يراد بها عدة معان: فمنها الرغبة إلى الله، والفعل دعا والمصدر هو: الدعاء والدعوى، والاسم الدعوة والدعاوة. ومن معاني الدعوة الاستغاثة، قال تعالى: ﴿**وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين**﴾ (سورة يونس: 38).

والدعوة لغة مأخوذة من الدعاء، وهو النداء لجميع الناس، وحثهم على العمل له كما يتضح من قوله عزَّ وجلَّ: ﴿**والله يدعو إلى دار السَّلام**﴾(سورة يونس: 25).

ودعاه صاح به، والمصدر دعوة. وداعية اللبن ما يترك في الضرع ليدعو غيره.

ومثلما سبق أن رأينا فإنَّ كلمة دعوة تفيد لغوياً المحاولات القولية والفعلية من أجل تحقيق هدف أو عمل، ومن المعلوم أنَّ الأقوال لها ثقلها وصعوبتها لأنَّ فيها المناداة والطلب، والإلحاح، وفيها الجهد والعمل.

كما أنَّنا نطلق على المحاولات المذكورة اسم «الدعوة»، نطلق على الدين الإسلامي الاسم نفسه، وهذا ما يجعلنا نذكر أنَّ كلمة «الدعوة» من الألفاظ المشتركة التي تطلق على الإسلام، وعلى عملية نشره بين الناس، وسياق إيرادها هو الذي يحدِّد المعنى المراد[1] وقد أصبحت الدعوة من هذا المفهوم مصطلحاً يعني الرسالة الإسلامية، وأصبح الرسول الكريم يسمَّى داعي الله أي صاحب الدعوة إلى توحيد الله، لهذا اعتبر دين الله دين الرسالة أو دين الدعوة، أي أنَّه دين الله الداعي الإنسانية لاعتناق المبادئ التي ينادي بها القرآن وسنة نبيِّه الكريم[2].

وقد أدرك الإباضية أبعاد هذه المعاني التي جاءت في كتاب الله، فكان من التسميات التي أطلقوها على أهل مذهبهم وقد شاعت في مصادرهم: أهلُ الدعوة والاستقامة[3] إيماناً منهم بأنَّ الدعوة إلى الله واجب كلِّ مسلم يؤمن بالله ويستشعر مسؤولية تبليغ الرسالة المحمدية في كلِّ مكان وزمان، وإنَّهم لا يدعون إلاَّ إلى ما دعا إليه القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، وقد تجسَّد هذا المفهوم عملياً في سيرة السلف الصالح في مراحل الظهور والكتمان على السواء عند العلماء والتجَّار، وفي تاريخهم مواقف سياسية استطاعوا من خلالها أن يبلِّغوا الرسالة المحمدية إلى آفاق بعيدة عن أوطانهم، وأمكنة تجمعاتهم، يكفي أن نذكر هنا جهود العمانيين في نشر الإسلام بشرق إفريقيا والهند والصين وما جاور هذه البلاد البعيدة، وجهود المغاربة

1- د/أحمد غلوش: **الدعوة الإسلامية**؛ دار الكتاب المصري، ط:1987، ص10.

2- للتوسع انظر حسني محمد ابراهيم غيطاس: **الدعوة الإسلاميّة**، المكتب الإسلامي، بيروت 1985، ص17، 18.

3- فقد استخدموا هذا المصطلح أكثر من استخدامهم لمصطلح الإباضية .

الذين قطعوا الصحاري والقفار حاملين الدعوة الإسلامية إلى مجاهل وأدغال إفريقيا السوداء، كما سنوضح ذلك بالتفصيل في مكانه من هذا البحث.

ومفهوم الدعوة من مدلولها اللغوي، أنها نداء وصيحة وطلب للاجتماع على كل شيء أو الاشتراك فيه، والاصطلاح هو الذي يحدد ويعين المعنى المراد من النداء أو الطلب، وبغير بيان المقصود يبقى المعنى عاماً شاملاً.

الدعوة اصطلاحاً: أما الدعوة اصطلاحاً فهي الدعوة إلى الله، والإيمان به إلهاً واحداً لا شريك له، والإيمان بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، وصرف الناس وعقولهم إلى عقيدة صحيحة ومصلحة نافعة. والدعوة اسم جامع لرسالة الإسلام وتعاليمه من عقيدة وعبادة ومعاملات وشرائع وأحكام، وهي أيضاً اسم جامع لسائر وسائل حمل الناس على هذه الرسالة المحمدية، وسائر أساليب التبليغ عن الله ورسوله على اختلاف مراحلها. ولئن وردت كلمة الدعوة في القرآن في عدة مواضع، فقد حدّد مراد الدعوة في الإسلام في آيات كثيرة منها:

قوله تعالى: ﴿**ولتكن منكم أمّة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر**﴾ (سورة آل عمران: 104).

وقوله: ﴿**ادع إلى سبيل ربّك بالحكمة والموعظة الحسنة**﴾ (النحل: 125)

وقوله مخاطباً رسوله الكريم: ﴿**وادع إلى سبيل ربّك إنك لَعَلى هدى مستقيم**﴾ (سورة الحج: 67) .

ومن هنا يتبيَّن أنَّ الدعوة إلى الإسلام هي منهج السلامة والطريق المستقيم الذي انتهجه الله لعباده المؤمنين كما جاء ذلك في قول الرسول

الكريم مخاطباً «هرقل» ملك الروم في رسالته حيث يقول: «**ادع برسالة الإسلام أسلم تسلم...**».

ومن هنا نستطيع القول إذا كان المنهاج واحداً، ومفهوم الدعوة إسلامياً واحداً، فلمَ أطلق على هذا الكتاب اسم: منهج الدعوة عند الإباضية. أكان للإباضية منهج دعوى خاص بهم غير ذلك المنهج الإسلامي الوحيد؟

وهذا تساؤل وجيه ينبغي الإجابة عنه، لأنَّه يوضِّح بعض الجوانب المتعلقة بموضوعنا، بل يوضِّح المنطلق لفهم توجهاته.

لا نعتقد أنَّ المذاهب الإسلامية الصحيحة تختلف في المنهج مادام هو المنهج الرباني الذي خطه القرآن العظيم، وأوضح معالمه الرسول الكريم. ولكن بما أنَّ المذاهب الإسلامية تنشأ عن منهج تفكير بشري، والناس يختلفون في طريقة التفكير، كان لا بدَّ أن يختلفوا في تصوُّر المشاكل كما قال تعالى: ﴿**ولا يزلون مختلفين إلا من رحم ربُّك ولذلك خلقهم**﴾(سورة هود: 118) . والاختلاف في طريقة التفكير يؤدِّي إلى أن يصبح الاختلاف عصبية، ثم يتحوَّل إلى عقيدة راسخة مستحكمة في العقل والوجدان، مستعصية على الحجة والبرهان، لا تتزعزع لمحرك، ولا تنقاد لداع. في حين أنَّ القرآن يوصينا على عدم التفرق والاختلاف ﴿**ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البيِّنات**﴾ (سورة آل عمران: 105)، ﴿**فإن تنازعتم في شيء فرُدُّوه إلى ا لله والرسول إن كنتم تؤمنون با لله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً**﴾(سورة النساء: 59).

وأعظم الفراق ضرراً كما يقول الشيخ أحمد الخليلي ما كان متعلقاً بأصول الدين، لأنَّه يكون أدعى للتنابز والشقاق من الفروع.

وليس هذا النزاع في أصول الدين مع وحدة المصدر الذي تنهل منه العقول المتنازعة إلا نتيجة لتباين المدارك واختلاف التصورات عند أيمة الفرق، ثم يؤصّله تعصب الجماهير لأقوال أيمتهم بحيث تجعل كل طائفة قول إمامها أصلاً، تطوّع له الأدلّة المخالفة له بكل ما تخترعه من التأويلات المتكلفة، فتوزعت الأمة شيعاً وأحزاباً[1].

ومن هنا يتبين لنا أنَّ السبب في الاختلاف يعود إلى منهج التفكير عند البشر، وهو بعبارة أوضح وأدق يعود إلى الوسائل والأساليب التي يستخدمونها للوصول إلى الغاية. فإذا كان المنهج - كما رأينا - هو الخطّة، فإنَّ الأسلوب هو الفنُّ أو الطريقة، فإذا قلنا مثلاً أساليب الدعوة، فإنَّنا نعني بها فنونها التي هي مثلاً: الحكمة، والموعظة، والقدوة، والقوة، والترغيب، والترهيب، وما إلى ذلك...

كما أنَّ الوسائل يراد بها قنوات التوصيل كما نعبِّر اليوم، فثمة داعية يستخدم المنبر أداة توصيل، وثمة آخر يستخدم المذياع، وآخر يستخدم الشريط، وآخر يستخدم الصحيفة، وهكذا. وما من شكٍّ في أنَّ قنوات التوصيل مع تعددها تختلف من زمن إلى آخر، فإنَّ قنوات التوصيل أو أدواتها في زمن الرسول والصحابة الكرام هي غيرها اليوم، إذاً فإنَّ الدعوة هدف من أجلها كان المنهج الذي يستخدم من أجله الأساليب والوسائل[2]. ولا بدَّ من القول أنَّ الأساليب والوسائل المستخدمة إنما تخضع للظروف الزمانية والمكانية، وعادة ما تكون وليدة اتجاهات سياسية أو عقدية أو اجتماعية أو اقتصادية، وسنرى عند التعرض لنشأة المذهب

1- الشيخ أحمد بن حمد الخليلي: **الحق الدامغ**؛ مكتبة الاستقامة، ص7.

2- علي جريشة: **مناهج الدعوة وأساليبها بتصرف**، المنصورة ج.م.ع، 1987. ص16

الإباضي - موضوع البحث - كيف خضعت وسائله وأساليبه الدعوية - شأنه في ذلك شأن المذاهب الأخرى - إلى هذه الظروف، وبالترتيب التصاعدي تقف الوسائل في القاعدة، لأنَّها مجرد أدوات للوصول إلى هدف ما، وتأتي بعدها الأساليب وهي الشكل الذي يتم به الأداء موعظة، وجدلاً، وإيحاء...الخ

وهذه الوسائل والأساليب تتشابك تشابكاً لا انفصام ولا انفصال فيها، تبعاً للمرحلة التي تمر بها الدعوة. فمرحلة التبليغ والنشر، غير مرحلة التربية والتكوين، وهما غير مرحلة المواجهة والتنفيذ. فالأسلوب الصالح للمرحلة الأولى قد لا يصلح للمرحلة الثانية، وهو لا يصلح للثالثة، والوسيلة التي تصلح لهذه المرحلة قد لا تصلح إطلاقاً لمرحلة أخرى، ومن هنا نفهم الخلاف الحاصل بين الفرق والمذاهب والأحزاب في طرق دعوتها وجهادها من أجل بقائها.

ونحن حين النظر إلى واقع الدعوة الإسلامية أو ما يعرف اليوم بالصحوة الإسلامية التي يشهدها العالم الإسلامي في دياره وبين حدود دوله، وفي ديار غربته في المشرق والمغرب في أوربا وأمريكا وغيرهما، نستطيع أن نقول القولَ نفسه، أي إنَّ الاختلاف هو اختلاف في الوسائل والأساليب.

يقول علي الطنطاوي وهو من رواد الحركة الإسلاميَّة[1]: «لقد ظهر كثير من هؤلاء المجدِّدين في كثير من بلاد الإسلام، وكثير من الدعاة إلى الله، ولقد اطَّلعت على سيرهم جميعاً، ووقفت على دعواتهم، فوجدتها تلتقي كلُّها في المبدأ والغاية، مبدؤها جميعاً من الكتاب والسنَّة، وغايتها ردُّ

1- علي الطنطاوي: **طرق الدعوة إلى الإسلام**؛ دار المنار، جدة، 1991م.

هذه الأمّة إلى دينها، ولكن طرقها مختلفات، كل داع يختار لدعوته طريقاً يصل مبدأها بغايتها».

يقول: «وقد عرضت هذه الطرق في ذهني فوجدتها تجتمع على اختلافها في شوارع ستة كبرى تتفرع عنها جواد (جمع جادة) وسبل، وهذه الشوارع الستة هي :

1- طريق الدعوة إلى الله بإصلاح الملك أو الحاكم (كما فعل السرهندي في الهند) [1]

2- طريق الدعوة الشعبية التي يحميها الحاكم ويؤيدها بسلطانه (محمد عبد الوهاب في نجد).

3- طريق الدعوة الشعبية التي تحميها الثورة المسلحة (أحمد بن عرفان في الهند، الأمير عبد القادر في الجزائر، وعز الدين القسَّام في فلسطين).

4- طريق الدعوة ببث الأفكار ونشر الحقائق على أفراد الناس في المجالس والمجامع والطرق وفي كل مكان، وبالأسلوب المناسب دون دخول في جدل أو اشتباك مع مخالف (جمال الدين الأفغاني وشعاره: قل كلمتك وامض، طاهر الجزائري كيف كان يقدم الكتب الصحيحة بأسلوب لين حيث يكتب أو يقول: إني وجدت هذا الكتاب في مكتبتي و لم أدر ما فيه، وأنا أحبُّ أن تنظر فيه ثم تخبرني هل هو نافع لي فأقرأه أم هو من الكتب الضارَّة).

5- الدعوة إلى الله عن طريق التعليم والإقراء والتأليف، ويدخل في هذا الإطار عدد غفير من الدعاة في القرن العشرين ولاسيما الذين نزعوا نزعاً

1- أحمد بن عبد الأحد السرهندي المعروف بمجدد الألف الثاني. توفي 1034هـ.

إصلاحياً (الدهلوي، عبده، رضا، ابن باديس، الكواكبي، نور الدين السالمي، اطفيش قطب الأيمة، الشيخ بيوض، وغيرهم.

6- الدعوة عن طريق الإعلام المكتوب (الصحف، المجلات، المقالات، المباحث: محب الدين الخطيب (أبو الحركة الإسلامية في مصر)، أبو إسحاق، أبو اليقظان، شكيب أرسلان (كاتب الإسلام الأوَّل في المهجر)، أبو مسلم البهلاني العماني.

وإذا سمى الأستاذ علي الطنطاوي هذه الطرق شوارع أو جواد، فإنَّ الذي نفهمه منها هي أنَّ منهجها واحد، لأنَّها توصل لغاية واحدة وإن اختلفت الوسائل والأساليب.

وفي هذا الإطار ينبغي أن نضع مفهوم منهج الدعوة عند الإباضية، فقد كانوا باعتبارهم فرقة نشأت في ظروف سياسية متميزة سباقين إلى وضع أساليب ووسائل خاصَّة، تلخص نظريتهم ومواقفهم من الحكم والحكام، ووضعوا القواعد الثابتة للتعامل مع غيرهم من أتباع مذهبهم أو مخالفيهم، سواء كانوا حاكمين ظاهرين أو محكومين مضطهدين، وقد عرفت هذه السياسة الشرعية عندهم بمسالك الدين، وهي: الظهور، والشراء، والدفاع، والكتمان[1].

وسوف نرى حين التحدُّث عنها بالتفصيل أنَّها وسائل وأساليب مستقاة من المنهج الواحد الوحيد وهو القرآن الكريم والسنَّة النبوية الشريفة، استعملوا فيها توجيهات القرآن الكريم أو استمدوها من سيرة الرسول ﷺ في جهاده الطويل ضد الكفر والطغيان.

1- تراجع كتب التوحيد والعقيدة عند الإباضية. مثل: الجيطالي، **قواعد الإسلام**. الشيخ اطفيش: **شرح عقيدة التوحيد**...

نشأة الإباضية:

حول نشأة الإباضية يدور جدل كبير يطرح عدة تساؤلات أهمها:

متى نشأ الإباضية وكيف؟

هل يعتبرون فرقة من فرق الخوارج؟

أتعدُّ الأسباب التي ساعدت على نشأة الإباضية سياسية أم دينية؟

الواقع إنَّ الدارس الموضوعي يجد عنتا كبيراً في الوصول إلى حقيقة تاريخية يطمئن إليها كلَّ الاطمئنان، ليقول في النهاية هذا هو الخبر الصحيح أو هو التأويل الصائب، لسبب بسيط وهو أننا في معالجتنا لهذا الموضوع تواجهنا مشكلة المرجعية، فثمة مصادر إباضية وثمة مصادر غير إباضية، وبين هذه وتلك من الاختلاف في التعليل والتقييم والحكم ما يصل أحياناً إلى حدِّ التضاد، وقد يعود هذا أساساً إلى أن المؤرخين عادة ما يعتمدون في مرجعية أخبارهم إلى مصادر غير إباضية، وأغلب تلك المصادر كانت تتخذ موقفاً مسبقاً من الإباضية، زعما من تلك المصادر أنَّها فرقة من فرق الخوارج، ففي غياب المصادر الإباضية - لأسباب سياسية معروفة - اعتمد المؤرخون والكتاب إلى عهد قريب على ما في هذه المصادر على أنها مسلّمات ووثائق صحيحة، على الرغم من أنَّهم يعرفون جيداً أنَّ بعض هذه المصادر كانت تستجيب لهوى الحاكم، وتنظر إلى الأحداث من زاوية تعصبية منحازة. ولم يعد خافياً عن أهل الاختصاص أنَّ أغلب تلك المصادر القديمة تفتقد الموضوعية، ليس في موضوع الإباضية وحدهم، بل في كثير من الموضوعات التاريخية ذات الحساسية القبلية أو المذهبية، فالمصادر الصادرة في العهد الأموي كانت تسعى إلى تلبية هوى الحكام الأمويين

فتظلم بذلك خصومهم، والمصادر العباسية كانت تنحاز إلى العباسيين فلا تبين من العهد الأموي إلا الجانب المظلم فيه، وهكذا دواليك، هذا إضافة إلى أنَّ أغلب المؤرخين كانوا يكتبون تحت تأثير نزعاتهم التعصبية وانتماءاتهم المذهبية.

ومن هنا وقف المؤرخون من هذه القضية موقفاً متعنتاً، بعضهم أغفل الحديث عن تاريخهم إغفالاً تاماً فكتموا بذلك صفحات تاريخية هامة، وبعضهم كتب عنهم ولكن بطريقة منحازة ضدَّهم منذ البداية، وإلى هذا أشار بعض الكتاب المحدثين بقوله: «والحقيقة أنَّ ما تركه لنا قدامى الكتاب والمؤرخين في هذا المجال مجرد إشارات عابرة خلال الحديث عن علماء المذهب في هذه البلدان» [1]

والحق أنَّ المتأمل فيما كتب حول الخوارج بعامة و الإباضية بخاصة، يخرج بانطباع عام هو أنَّ أغلب الكتاب عندما يكتبون عن الحركة الخارجية اليوم إنَّمَا يكتبون عن (حكم مسبق) و(موقف تقليدي)، وهو إدانة هذه الحركة، ومن ثمَّ فهم يقفون منها موقف الشانئ الرافض، اعتقاداً منهم أنَّ الخارجية وصمة عار، ودليل إدانة، ومروق من الدين، دون أدنى محاولة منهم التحليل أو التفهم للظروف السياسية والاجتماعية أو عرض ما في هذه الحركة من جوانب إيجابية. وهذا الموقف المتطرف هو الذي يبعدهم عادة عن الرجوع إلى مصادر أصحاب هذا الفكر، ومن ثم فهُم - أي الكتاب المحدثون - لا يختلفون عن الكتاب القدامى ولا يأتون بشيء جديد، لأنَّ المصادر القديمة التي ينقلون عنها ويعتبرونها موثقة دون نقاش أو

1- يتعلق الحديث هنا عن الإباضية في مصر، ينظر: د. رجب محمد عبد الحليم: **الإباضية في مصر والمغرب**، ص 8.

نقد أو تمحيص قلّما تقدم على الكتابة عودة إلى المصادر الأساسية لأصحاب هذه الحركة، وقد تفطّن بعض الكتاب الأكاديميين المحدثين إلى هذه الظاهرة فتفادوها، ومن أجل ذلك جاءت أحكامهم مغايرة لأحكام بعض الكتاب السابقين، فيها كثير من الإنصاف والموضوعية.

يقول الدكتور فاروق عمر: «ولكي نكتب عن الإباضية يجب العودة إلى كتب الفقه الإسلامية، وكتب الشعر، والآداب، وأما الكتب العامة مثل الطبري، وابن الأثير والمسعودي فلا وجود لمادّة خبرية هامّة فيها، لذلك ينبغي العودة إلى نوع آخر من المصادر وهي: كتب التاريخ الحولي المحلي، كتب التاريخ الإباضي الذي كتبه الإباضية أنفسهم»[1].

والإخلاص للعقيدة والثبات مع المبدأ من أهم سمات الدعوة عند الشراة وقد ظهرت هذه السمات بارزة في مراحل جهادهم ضد الباطل، وتجلت بعمق في أدبياتهم، فإنَّ كلَّ الذين كتبوا عن تلك الأدبيات منبهرون بهذه السمة التي غدت ميزة لأدبهم لا ينافسهم فيها أحد من الفرق الأقوى سنية كانت أم غير سنية.

وقد دفع الإعجاب بهذه الميزة لأدبهم ومواقفهم بعض الكتاب فاتُّهموا بالانحياز إليهم.

فمن المعروف أن المبرد صاحب الكامل في اللغة والأدب يعدُّ المصدر الأوَّل لأخبار الشراة، اهتم بهم ونقل بأمانة ما يعرفه عنهم، دون تحيز أو مماالاة، ولكنّه لم يسلم رغم ذلك فاتهم بالانحياز إليهم. كما نجد ذلك عند ابن أبي الحديد في شرحه لنهج البلاغة، فقد ذهب ابن أبي الحديد إلى أنَّ المبرد يرى رأي الخوارج لإطنابه في سيرتهم، واعتداله في الحكم عليهم.

1- د. فاروق عمر: مجلة البيان، جامعة قسنطينة، ع 3 (1994) ص50.

وقد رد الدكتور طاهر أحمد مكي هذا الادعاء بقوله: «والحق أن ميل المبرد إليهم كان إنسانياً وأدبياً، أكثر منه سياسياً، فللخوارج من ألوان البطولة الخارقة، والمقاومة المؤمنة والعقيدة ما يهز الناس جميعاً في عصرهم وبعد عصرهم، وفي أدبهم من الصدق والقوة والجمال ما يثير إعجاب المبرد وغير المبرد، وكان (أبو العبّاس) في حديثه عنهم مستجيباً لكلا العاملين، فأورد من تاريخهم ما يجعل من (الكامل) أصح مرجع لكتابته وسجّل من نصوصهم الشيء الكثير...» [1]

وعلى الرغم من أنَّ أغلب الذين كتبوا عنهم (أي الخوارج) كما يسمونهم متفقون على تدينهم واستقامة أخلاقهم، إلاّ أنَّ ذلك لم يكن كافيا ليقفوا موقفاً موضوعياً من حركاتهم، حتّى أنَّ كاتباً عقلانياً مثل الجاحظ حينما تحدث عن الخوارج وحركتهم في البصرة لم يفرِّق بينهم وبين اللصوص والسّفاحين، ويكاد الجاحظ يعنيهم وقد قرنهم إلى اللصوص في قوله: «لأنّك لا تعرف فقيها من أهل الجماعة لا يستحلُّ قتال الخوارج، كما أنّا لا نعرف أحدهم لا يستحلُّ قتال اللصوص... »[2]

والعجيب في الأمر أنَّ المؤرخين لم يكلّفوا أنفسهم عناء التمييز بين فرقهم المعتدلة والغالية، بين من استحلَّ استعراض الناس بالسيف، ومن احتفظ برأيه وعقيدته لنفسه، لا يقاتل أحداً، ولا يدعو إلى مفارقة أو خروج مثل الشراة الإباضيَّة.

ولعل عدم التفريق هو الذي جعل الكثير يظلمون الشراة، حيث

1- د/ طاهر أحمد مكي: **دراسة في مصادر الأدب**؛ ط 1944، دار المعارف ص163.

2- **البيان والتبيين**،ج2 ص87. وانظر د/نعمان القاضي: **الفرق الإسلاميَّة في العصر الأموي**، دار المعارف، مصر، ص166.

راحوا يعاملون المعتدلين القعدة وعلى رأسهم أبو بلال مرداس معاملتهم للأزارقة والنجدات والصفرية، بل إنَّ الوجود الإباضيَّ تعرَّض إلى النكران والجحود في بعض الأمصار الإسلامية، فأهمل ذكرهم عمداً، فقد أغفل التاريخ الحديث عن الإباضية في مصر وعن علاقتهم بإباضية عمان والبصرة، رغم أنَّه كان للإباضية في مصر نشاط كبير، وكان لهم فيها العلماء البارزون الذين وصلوا إلى درجة الفتيا، وكان لهم وجود قوي، حتى أنهم تدخلوا في مجرى الأحداث السياسية منها...»[1]

وبعد هذا التمهيد الضروري نعود إلى السؤال الأوَّل: **متى نشأ الإباضية وكيف؟**

لا يمكن للدارس الموضوعي أن يفصل نشأة الإباضية عن الظروف السياسية التي عرفها المسلمون حكاماً ومحكومين، وهم يتنازعون حول السلطة، ولاسيما بعد مقتل الخليفة الثالث عثمان بن عفان في سنة 36هـ، فقد أفرزت تلك الظروف انقسامات خطيرة في صفوف المسلمين لم تكن معروفة من قبل، انحرفت بها عن مفهوم الأمَّة الإسلامية الواحدة الخيِّرة، التي أخرجت للناس، لتصبح فرقاً وطوائف وأحزاباً تتعصب للعشيرة والقبيلة، وتركن إلى الدنيا وشهواتها، وتلك أمور معروفة مشهورة في كتب التاريخ لا نحب ولا نرغب في بسط القول فيها إلا بقدر ما نمهد به لموضوع بحثنا وهو نشأة الإباضية، ولا خلاف بين الباحثين في أنَّ النشأة تعود بالدرجة الأولى إلى النزاع حول إمامة المسلمين، ومن يستحقها وما هي شروطها، وفي ظل نشأة الطوائف الحزبية المتطلعة إلى الحكم والسيادة راحت كلُّ طائفة تبرِّر رأيها وموقفها بالجدال أحياناً، وبالسيف أحياناً،

1- د/رجب محمد عبد الحليم: **الإباضية في مصر والمغرب**؛ ص8.

وكلّ طائفة ترى أنَّ الحق إلى جانبها وأنَّ غيرها على باطل، وهكذا تفاقم الوضع بين المسلمين إلى صراع مسلّح مات فيه خلق كثير، وعرف تاريخ المسلمين معارك دموية مثل معركة الجمل بين علي وأنصاره من جهة، وطلحة والزبير وعائشة من جهة أخرى سنة 36هـ، تلتها معركة صفين بين علي وأنصاره من جهة، ومعاوية وعمرو بن العاص ومن معهما من جهة أخرى سنة 37هـ، ثم معركة النهروان[1] بين علي وأنصاره الذين بقوا إلى جانبه بعد التحكيم في صفين، وبين الذين انشقوا عنه من أنصار الأمس بعد أن اختلفوا معه في قبوله التحكيم، ورأوه انسلاخاً عن الخلافة وإمامة المسلمين لصالح معاوية وفئته الباغية، فانحازوا إلى مكان يدعى «حروراء» قرب البصرة، وانتخبوا إماماً لهم من الصحابة يدعى عبد الله ابن وهب الراسبي[2] ودامت المفاوضات بين علي من جهة والحروريين أو المحكّمة من جهة شهوراً باءت إلى الفشل الذريع، وتتابعت الحوادث بصورة متدهورة لتنتهي إلى مأساة مروعة تعرف بمعركة النهروان في صفر من سنة 38هـ .

ويمكننا القول نظراً إلى النتائج التي تمخّضت عنها معركة النهروان، إنَّها من أهمِّ المعارك دموية وفظاعة، فقد قتل في هذه المعركة من المحكّمة خلق كثير من أفاضل الصحابة وقرَّاء القرآن على رأسهم عبد الله بن وهب

1- موضع عند سامراء في العراق شمالي بغداد عند قناة تتفرع عند دجلة يسمى مجرى النهروان، وهو المكان الذي وقعت فيه المعركة، وتختلف المصادر في عدد القتلى، فيقال إنهم عشرة آلاف، ويقال أربعة آلاف، ويقال ألفان، ولكن المصادر متفقة على أن هزيمة المحكّمة كانت منكرة، إذ لم ينج حسب تلك المصادر سوى عدد قليل جداً.

2- عبد الله بن وهب الراسبي: صحابي جليل، يطلق عليه ذو الثفنات لكثرة عبادته، وقد انتخبه أصحابه في حروراء بالإجماع خليفة للإمام علي بعد أن قبل مهزلة التحكيم.

الراسبي، وحرقوص بن زهير السعدي، وزيد بن حصن، وغيرهم كثير[1]، ولم تمض فترة حتى تأثرت المحكّمة بمقتل الكثير منهم في النخيلة[2] حيث قتل معاوية بتأييد الحسن بن علي كثيرين منهم، وهكذا تتابعت الانهزامات والمآسي المروعة مِمَّا كان له شأن كبير في توجيه الفكر الإسلامي بعد ذلك، كما أدَّت هذه المآسي إلى أن يفقد المحكّمة الزعيم القائد الذي يجمع كلمتهم ويوحد صفوفهم.

وبتولي زياد بن أبيه السلطة على العراق، شدَّد الملاحقة والاضطهاد لكلّ مناوئي السلطات الأموية، فكان زياد ثم من بعده عبيد الله يقمعان كل حركة تقف ضدَّ الأمويين، ويزجان في السجون كلَّ من يظن فيه الخروج عن السلطة الحاكمة.

وهكذا أدت هذه الوقائع المتتالية إلى أن ينقسم المحكّمة إلى قسمين:

• قسم فضَّل مراجعة النفس والرجوع إلى السلم، والتفكير في استخدام أساليب أخرى، ومن هؤلاء زرعت بذرة الاتجاه المعتدل الذين منهم الإباضية.

وقسم آخر فضلوا الاستمرار على المنهج نفسه منهج مواجهة السلطات بالعنف، واحتكموا إلى السيف انتقاماً لقتلاهم، بل ازدادوا تطرفاً حين اعتبروا كلَّ من خالفهم عدواً لهم، بل هو مشرك يستحل دمه وماله، وعن هذا المنهج تبلورت الأزارقة والنجدات، والصفرية.

وكان على رأس الذين اختاروا العمل في الكتمان وتحول الحركة من

1- تنظر تراجمهم في كتب الرجال وكتب التاريخ، مثل: ابن حجر العسقلاني، الطبري، كامل ابن الأثير، سير الشماخي وطبقات المشايخ للدرجيني.

2- موقع قرب الكوفة على سمت الشام، ينظر (**السير والجوابات**) ج1 ص116.

العلنية إلى السرية أبو بلال مرداس بن حدير التميمي[1] هذا التابعي الجليل الذي اشتهر بورعه وتقواه، كما عرف بصلابته في الحق والجهاد ضدَّ جور الأمويين وظلمهم، واتخذ هو وجماعته مدينة البصرة مقراً لهم، مؤثرين العمل في سرية تامة، داعين إلى انتهاج الحوار و الدعوة إلى الله بالحسنى، وما لبثت هذه الجماعة أن تعززت بانضمام الإمام جابر بن زيد إليهم، وهكذا نشأ تيار فكري وعقدي جديد، سيعرف فيما بعد بالإباضية، وعرفوا عند القسم الذي آثر استعراض الناس بالسيف (بالقعدة) لأنهم في تصورهم قعدوا عن الجهاد ضدَّ الحكام الأمويين كما سنوضح ذلك في مكانه.

ـ العصبية القبلية في ظل الدولة الأموية:

ولكي تكتمل الصورة بكل جوانبها وزواياها، وتتضح بخفاياها وظلالها، نحاول أن نقدِّم الجانب الآخر وهو الجانب الأموي، وسوف نعتمد على مصادر غير إباضية احتراساً من أن تكون هذه مدفوعة إلى القدح في الأمويين بحكم عاطفتها العدائية لهم.

وَأَوَّل ما نلاحظ في أحداث هذا العصر (الأموي) أنَّ العراق احتلَّ مكانة خطيرة في التاريخ الأموي، بالرغم من أنَّ الشام كانت مركز الخلافة لأنَّ العراق يمثِّل مركز الثقل السياسي والاقتصادي في الدولة الأموية.. ومن تم كان الأمويون يولون العراق جلَّ اهتمامهم ويرسلون إليه أقدر ولاتهم مثل: المغيرة بن شعبة، وزياد بن أبيه، وعبيد الله بن زياد، والحجاج بن يوسف الثقفي، وخالد القسري، وغيرهم من الولاة الجبابرة الأشداء، نظراً إلى أنَّ العراق أصبح مركزاً لتجمُّع المعارضة ومستقرَّ جماعة كبيرة من

1- تنظر الفصل الثاني من الباب الأول.

التابعين والقراء، فكان لا بدَّ إذاً من ابتداع كل الوسائل لإخضاع هذا الجانب من الدولة لمطامعهم. وكان من وسائل الأمويين استغلال العصبية القبلية فإنَّ زمراً من القيسية نقلوا ديارهم إبان الفتوح ـ كما لم يفعل من قبل ـ ناحية الشمال وبخاصة إلى الشام، وقويت شوكتهم حتى أصبحوا عاملاً سياسياً وحربياً له خطره، وجعلتهم قوميتهم الشمالية وهم المضرية النزارية خصوماً ألدَّاء لجماعة كلب الجنوبية اليمانية.

وقد كان الخلفاء من بني أمية يعتمدون على الكلبية حيناً، وعلى القيسية حيناً آخر، تبعاً لروابط الصهر والزواج بين البيت الأموي من ناحية، وبين هاتين الجماعتين المتنازعتين من ناحية أخرى[1].

...ولم تقض هذه الجهود على العصبية القبلية قضاء تاماً، بل لم تذهب الفتوح المستمرة شرقاً وغرباً بريحها، ولم تنقلب عليها النزعة العالمية التي اتجهت إليها الدولة، بعد أن دخلت فيها عناصر جديدة ليست عربية كالفرس، والترك، والبربر.

ذلك أنَّ يزيد بن عبد الملك كان مرغماً أن يلقي بنفسه إلى هذه العصبية التي لم تبرأ منها الدولة الأموية في يوم من أيامها.

بل إنَّ من أسباب ثورة البربر في المغرب الإسلامي على الأمويين سياستهم الرعناء التي كانت تعامل البربر أهل البلاد معاملة الأسياد للعبيد، وما علموا أنَّ البربر لا يسوءهم شيء قطُّ مثل هذه المعاملة التي تهينهم في أنفسهم، وتذلهم في أعز ما يملكون وهي العزة النفسية، والتوق إلى الحرية. كما سنرى ذلك في مكانه.

1- د/ عبد الحميد يونس: **الهلالية في التاريخ والأدب الشعبي**، دار المعرفة، مصر، 1968م؛ ص48-59 (بتصرف). نقلاً عن ابن الأثير: **الكامل** ج5، ص59.

وقد طبق يزيد بن عبد الملك النزوع العصبي تطبيقاً عملياً، حين ولى وجهه شطر القيسية طلباً لنصرتهم في محاربة بني المهلب الأزدي.

ونتج عن هذا أن جنحت الحكومة التي ارتفعت أيام عبد الملك فوق الأحزاب حتى أصبحت حزبية قيسية صارخة. [1]

وامتدَّ شرر هذه العصبية القومية بين القيسية واليمانية في كلِّ اتجاه، ولم يقتصر على الشام والعراق، بل شمل خرسانة وسائر الولايات الإسلامية وبخاصة في شمال إفريقيا والأندلس.

..ولا نبالغ إذا قلنا إنَّ تاريخ الدولة الأموية كله لا يفهم على وجهه إلاَّ في ظل هذه العصبية القبلية أو القومية. [2]

وإضافة إلى روح العصبية المتسلطة، فإنَّ الحكم الأموي قام على الظلم والجور باستثناء بعض الحكام مثل الخليفة الراشدي الخامس عمر بن عبد العزيز، وفترة سليمان بن عبد الملك التي عرفت هدنة نسبية، ومن هنا كان تعامل الحكام الأمويين على جميع المستويات مع الرعية تعامل من لا يرى إلاَّ إلى السلطة الدنيوية، ولو أدى ذلك إلى إخضاع رقاب العباد بالسيف، كما وقع في زمن الحجاج بن يوسف الثقفي.

والحق أنَّ سنة 53 هـ تعدُّ معلماً بارزاً في هذا الصدد، إذ أصبح زياد بن أبيه والياً على الكوفة، فأخذ أهلها بما أخذ به أهل البصرة من الغلظة، وأعمل في أهل السجن التنكيل، وقطع أيدي ثلاثين رجلا حصبوه في المسجد، واوقع بحجر بن عدي وصحبه من الشيعة، وكان يقيم ستة أشهر في الكوفة وستة أشهر في البصرة، فاستخدم ضدَّ كل الخارجين عليه أقسى

1- المصدر نفسه.

2- المصدر نفسه.

وسائل التقتيل، وكان من أشدّ من لاقوا منه العنت بطبيعة الحال أبو بلال وجماعته، مما دفع حركتهم إلى العمل في الخفاء والدخول إلى مرحلة الكتمان، وكان حكم ابن عبيد الله أقسى وأفظع[1].

وقد استمر الحكم الأموي في أغلب فتراته على هذا النحو، بل كانت هذه السياسة سبباً للإطاحة بالدولة الأموية.

فقد اشتعلت العصبية في البوادي والحواضر، وتفاقم خطرها، فلم يقتصر بعض الولاة على التقريب والإيثار، أو الإبعاد والحرمان، بل تجاوز ذلك إلى سفك الدماء، فكان معن بن زايدة والي اليمن يقتل اليمنية تعصباً لقومه من ربيعة وغيرها من نزار، وكان عقبة بن سائم يرد على هذا بعمان والبحرين فيقتل عبد القيس وغيرهم من ربيعة مكايدة وعصبية لمعن، وعصبية لليمنيين من قومه[2].

وجعل الكثير من الولاة يفعل مثل ذلك، فكانت نيران العصبية لا يخبو أوارها في كل صقع، وإذا خبا فإنَّه لا يلبث أن يشتعل. وعلى هذا الأساس خطّطت الكوفة والبصرة: قسم لليمنيين، وقسم للنزاريين، وتعدَّى ذلك إلى مواليهم وأرقائهم.

والأمويون بهذه السياسة الرعناء - التي حسبوها خيراً لهم في أول

1- يمكن مراجعة هذه الأخبار في المصادر التالية:

*الطبري، ج6 ص108-118 *البيان والتبيين ج2، ص243 * الكامل لابن الأثير ج7 ص208. ومن المراجع الحديثة: الحياة الأدبية في البصرة، ص239 * د/نعمان القاضي: الفرق الإسلامية في العصر الأموي، دار المعارف، ص166.

2- د/أحمد الحوفي: أدب السياسة، ص462 نقلاً عن مروج الذهب للمسعودي ج2 ص197.

الأمر- جرُّوا على أنفسهم شراً كثيراً، فإنَّ العصبية لم تختصر في إقليم واحد، بل انتشر شررها في الدولة كلها، ففي كل بلد حزبان حضري ويمني يتداولان النفوذ حسبما كان الولاة من شدة ولين وتعصب وسماحة، وبهذا صارت العصبية مرضاً في المجتمع، ونجمت عنه فتن وثورات، ومنازعات في كل الأمصار الإسلامية بخرسان، وفارس، والعراق، والشام، ومصر، وإفريقية، والأندلس[1].

وقد لخّص الإمام أبو حمزة الشاري الحكم الأموي في خطبته في المدينة حيث يقول: «أصابوا إمرة ضائعة، وقوماً طغاة جهلاء لا يقومون لله بعهد، ولا يفرّقون بين الضلالة والهدى، ويرون أن بني أمية أرباب لهم، فملكوا الأمر، وتسلّطوا فيه تسلُّط ربوبية، بطشهم بطش الجبابرة، يملكون بالهوى، ويقتلون على الغضب، ويأخذون بالظنّ، ويعطلون الحدود بالشفاعات، ويؤمّنون الخونة، ويقصون ذوي الأمانة، ويأخذون الصدقة في غير وقتها على غير فرضها، ويضعونها في غير موضعها، فتلك الفرقة الحاكمة بغير ما أنزل الله...»[2]

علاقة الإباضية بالإمام عبد الله بن إباض والإمام جابر بن زيد:

الواقع بما أنَّ الإباضية قد تزامن ظهورهم بظهور الخوارج، ويلتقون معهم في مبدأ الحكم لله، ورفض مبدأ القرشية في الحكم، فإنَّه من الصعب البت في هذه القضية بتحديد تاريخ معين أو واقعة معينة لظهورهم، لأنَّ الجماعات والأحزاب تتكون مع مرور الزمن بالتفاف الناس حولها شيئاً فشيئاً، ولا نتخيل تكونها في ذلك العصر مثلما تتكون الأحزاب اليوم في

1- يراجع د/ أحمد الحوفي، مرجع سابق؛ ص 462 ومابعدها نقلاً عن **الأغاني** ج14 ص156.

2- **الأغاني**، تحقيق، سمير جابر، ط. دار الفكر، 1986. ج23، ص255.

مؤتمرات تأسيسية لها تاريخ معين.

ولكن مع ذلك فإنَّه من المؤكَّد أنَّ الإباضية أخذوا يظهرون على مسرح الأحداث بمبادئهم المتميزة عندما انفصلوا عن الخوارج معارضين نهجهم العنيف في قتال المسلمين، وإن لم يتسموا بهذا الاسم منذ البداية.

وهو ما جعل أغلب المصادر غير الإباضية تنسب هذه الفرقة إلى الإمام عبد الله بن إباض المري التميمي الذي ظهر في الساحة السياسية سنة 64هـ، عندما تجمَّع المحكِّمة في البصرة قاصدين مكة للدفاع عن الكعبة من حصار القائد الأموي حسين بن نصير السكوني الذي تولى القيادة بعد مسلم بن عقبة سنة 63هـ، والوقوف إلى جانب عبد الله بن الزبير. والواقع إنَّ أغلب الذين كتبوا عن شخصية الإمام عبد الله بن إباض لا يسعفوننا بالكم المقنع من الأخبار حول هذه الشخصية مقارنة بدوره العظيم الذي قام به في إعلان المواجهة بينه وبين عبد الملك بن مروان الحاكم الأموي، فإنَّ الدارس عندما يعود إلى رسالته[1] التي توجه بها إلى عبد الملك يلحظ علماً واسعاً ودهاءً بعيداً، وورعاً بالله شديداً، يجعلنا نتساءل مرة أخرى:

كيف يغفل التاريخ ترجمة شخصية بهذا الحجم؟ أيعود هذا إلى إغفال متعمد ؟ وإذا كان هذا صحيحاً فلِم لم تقم المصادر الإباضية بهذه المهمة حين أغفلتها المصادر الأخرى؟

أمام هذه الإشكالية سنكتفي بما جمعناه من هنا وهناك من ملامح نحاول من خلالها أن نجمع أطراف الصورة التقريبية لهذه الشخصية التاريخية العظيمة.

1- يراجع ملحق النصوص.

وبعيداً عن الخلاف الذي وقعت فيه بعض المصادر القديمة حيث خلطت خلطاً كبيراً في اسمه وتاريخ وفاته، فإننا سنكتفي بما صار حوله شِبه إجماع من المؤرخين الإباضيين وغير الإباضيين.

أصل الإمام عبد الله بن إباض من بني صريم بن الحارث بن مقاعس من بني تميم، وهي إحدى القبائل الرئيسية المتفرعة عن مضر، ويرى الشيخ محمد بن يوسف اطفيش الإباضي الجزائري أنَّ ابن إباض هاجر من موطن قبيلته في نجد إلى البصرة، ويذكر أيضاً أنَّ هنالك روايات تفيد بأنَّه كان صحابياً لفترة قصيرة من حياته[1] في حين نجد أغلب المصادر الإباضية مشرقاً ومغرباً متفقة على أنَّ ابن إباض تابعي عاش في النصف الثاني من القرن الهجري الأوَّل، وظهر لأوَّل مرَّة في البصرة حين تجمع المحكّمة متوجهين للدفاع عن الكعبة كما ذكرنا سابقاً، وكان لهم لقاء مع عبد الله بن الزبير الخصم اللدود للأمويين. ويبدو أنَّهم حاولوا استمالة ابن الزبير إلى صفّهم والاقتناع بوجهة نظرهم من الفتنة السابقة في عهد عثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، لكن عبد الله رفض موافقتهم على آرائهم فتركوه وشأنه، ورجع بعضهم إلى البصرة، وكان عبد الله بن إباض من بين أولئك النفر.[2]

وفي غضون التطورات السريعة للأحداث واستتباب الأمر للأمويين واجهت المحكّمة - وهي الخصم اللدود للأمويين المتسلطين - فقدان القيادة الموحَّدة الراشدة، وتفاقم الأمر وازداد خطورة عندما رأى أبو راشد نافع بن الأزرق سلوك طريق العنف واستعراض المسلمين المخالفين له في الرأي

1- د/ عمر النامي، دراسات...(مخ) ص27.

2- د/ عمر النامي: مرجع سابق، ص68.

بالسيف، مُصدرا فيهم حكماً قاسياً، وهو أنهم مشركون، هذا الحكم الذي ابتنى عليه استحلال أموال المسلمين وأعراضهم ودمائهم.

في هذا المنعطف التاريخي الخطير برز عبد الله بن إباض قائدا محنكاً رافضاً شعار الحرب والقتال الذي تبنّاه نافع بن الأزرق ومن معه من أنصار عرفوا بعد ذلك بالأزارقة، وراح ابن إباض يجادلهم ويحاججهم ويعلن البراءة منهم، وصار هذا الموقف الذي اتخذه عبد الله بن إباض هو الموقف.الواضح في السياسة الشرعية عند الإباضية كما سنوضح ذلك في مكانه.

وهنا تجدر الإشارة إلى أن المصادر غير الإباضية ترى أن ذلك الموقف قد جسَّد حقيقة بداية ظهور مذهب الإباضية، وأنَّ الفضل في ذلك يرجع لعبد الله بن إباض الذي تعتبره معظم المصادر التاريخية المشار إليها بأنَّه الرمز القيادي الذي قام بتأسيس هذا المذهب[1].

هذا الرأي الغالب الذي نجده في أغلب المصادر غير الإباضية قديماً وحديثاً، أمَّا المصادر الإباضية فلها وجهة نظر أخرى مغايرة لذلك الرأي، حيث تذهب كلُّها إلى أنَّ المؤسس الحقيقي لمذهب الإباضية هو الإمام جابر بن زيد قبل أن يظهر عبد الله بن إباض على الساحة السياسية، على أنها تعترف بذلك الدور السياسي الذي قام به عبد الله بن إباض في بلورة الفكر الإباضي وتحديد موقفهم من الأمويين من جهة ومن الخوارج من جهة أخرى، بل إنَّ هذه المصادر تذكر أنَّ النشاط السياسي الذي قام به عبد الله بن إباض إنَّمَا كان بتوجيه من الإمام جابر بن زيد، الذي سبق له وجود نشط في البصرة مع الشراة الأوائل من أمثال الإمام أبي بلال مرداس

1- د/ عمرو النامي: مرجع سابق، ص69.

بن حدير وأخيه عروة، هذان القائدان اللذان كان لهما دور نشط فعَّال في بلورة الحركة الإباضية قبل أن تعرف بهذا الاسم[1]، ولكن المصادر الإباضية عندما تذكر أيمتها أو ما تطلق عليه نسب الدين، تضع الإمام أبا بلال مرداس مَعْلَماً تاريخياً بارزاً في سير الحركة، والواقع أنَّ الدارس لسيرة هذا الإمام يلحظ الدور القوي الذي قام به في فترة ما بين وقعة النهروان 38هـ وسنة وفاته سنة 61هـ شهيداً على يد جيش عبيد الله بن زياد كما سنفصل ذلك في مكانه.

بعد وفاة أبي بلال انتقلت زعامة الفرقة إلى عبد الله بن إباض، الذي أعلن انفصاله عن الخوارج، كما أشرنا إلى ذلك لخلاف منهجي وعقدي، ومكث مع أصحابه بالبصرة بعد خروج المتشددين منها، وهكذا بدأت المرحلة الأولى من تاريخ نشأة هذه الفرقة في ظل مرحلة الكتمان. فيكون إذاً مكوث عبد الله ابن إباض بالبصرة ومن معه مؤشراً حقيقيا لتبلور آراء الإباضية .

غير أنَّ الذي ينبغي التأكيد عليه هو: أنَّ التأسيس الإيدلوجي أو الفكري إنَّمَا تم على يد التابعي الكبير الإمام جابر بن زيد الأزدي العماني[2] الذي عاش بالبصرة وانضمَّ إلى جماعة أبي بلال، وكانت بين الإمامين علاقة حميمة كما سنبين ذلك.

فكان لانضمام الإمام أثر بالغ في نشأة الإباضية وتحديد معالم أفكارها وآرائها.

1- يراجع الرقيشي: **مصباح الظلام**، (مخ) ورقة38.

2- هنالك من الكتاب المحدثين من يحاول إلغاء هذه العلاقة مع أنَّ المصادر الإباضية كلها تؤكدها.

والحقُّ أن الإمام جابر بن زيد بانضمامه إلى هذه الجماعة مكّنها من القاعدة الدينية والعقدية التي ترتكز عليها، فآثرت المسالمة على المواجهة حرصاً منها على حفظ دماء المسلمين أن تسفك من أجل السلطة الدنيوية، وحتى لا يقدِّم العذر لخصومها الذين يودُّون القضاء عليها، ولاسيما تحت حكم طاغية جبار مثل الحجاج بن يوسف الثقفي؛ ولذلك فضلت الدخول في مرحلة الكتمان والسرية، وعليه أخذ الإمام ينشر دعوته سراً.

ومنا لبث الإمام أن حظي بالمكانة الرفيعة لعلمه وتقواه وورعه، واكتسب ثقة من أدركهم من صحابة رسول الله ﷺ، ويكفي أن يكون تلميذاً لحبر الأمَّة عبد الله بن عباس، وأمِّ المؤمنين عائشة، وعبد الله بن مسعود، وغيرهم رضي الله عنهم أجمعين.

لقد استطاع الإمام لعلمه الواسع أن يجمع حوله الطلاَّب والمؤيدين والمعجبين، وأصبحت له مجالس العلم والفتوى يجلس حولها طلاَّب أذكياء منهم من يأخذ عنه وعن غيره: كقتادة، وأيوب السختياني، وعمرو بن دينار، وحيان الأعرج، وأبي المنذر تميم بن حويص؛ ومنهم من يأخذ عنه أكثر مما يأخذ عن غيره أو يكاد يختص بمجلسه، كأبي عبيدة مسلم، وضمام السائب، وأبي نوح صالح الدهان، والربيع بن حبيب، وعبد الله بن إباض .

ومن هؤلاء الطلاَّب من كان يهتم أثناء التحصيل وبعد التحصيل بالشؤون العامة، وانشغالاً بالمسائل السياسية ومطارحتها مع حكام الدولة الأموية في ميدان الكلمة، دون استعمال السيف، كعبد الله ابن إباض، أو جلوسا إلى الإمام، ولأخذ مكان الإمامة كأبي عبيدة، وأبي نوح صالح الدهان، إذا دعت الظروف السياسية إلى ذلك، لأنَّ إعداد الدعاة لا يقل

أهمية عن إعداد القادة.

من هنا كان المنطلق إذاً، وفي مدرسة جابر بالبصرة تكونت هذه المدرسة، وتخرج فيها حملة العلم الذين اشتهروا في جميع أنحاء العالم الإسلامي، فركّزوا آراءهم ومنهجهم المعتدل الثابت في: اليمن، وحضرموت، والحجاز، وعمان، وخراسان، والسند، وفي المغرب الإسلامي، حيث كونوا دولة قوية قفزت بهم من مرحلة الكتمان إلى مرحلة الظهور، كما سنبين ذلك في مكانه من هذا البحث.

وتعبيراً عن تعلق الإباضية بإمامهم جابر فيما يبدو، لا نجد في المصادر الإباضية استخداماً لهذه التسمية، ولعلَّ الذين عمَّموها في المصادر غير الإباضية هم بنو أمية لعلاقتهم الظاهرة بابن إباض، فإن المتتبع للمصادر المشرقية بخاصة يلحظ غياب هذه التسمية عند الحديث عن المذهب وإنما يستخدم بدلا عنها مصطلح: الشراة أو المسلمين، أو أهل الدعوة والاستقامة. هذا على الأقل إلى القرن الثالث عشر الهجري، ويبدو أنَّ إباضية المغرب كانوا أسبق إلى استخدام هذا المصطلح، ولعلَّ أول من استخدمه من المغاربة كما يذهب إلى ذلك الدكتور عمرو النامي هو العالم الشيخ عمروس بن فتح في أواخر القرن الثالث الهجري[1] في كتابه الدينونة الصافية. وقد عبر الشيخ نور الدين السالمي في القرن الرابع عشر الهجري عن هذه الإشكالية بقوله:

فما الإباضيون إلا غُلمـــا ... لخلفاء الحق منا فاعلمَـــــا

ونحن الأولون لم يشرع لنا ... نجل إباض مذهبا يحملـــــنا

ونحن في الأصل وفي الفروع ... على طريق السلف الرفيـــع

1- د/ عمر النامي: مرجع سابق، ص 316.

ونأخذ الحق متى نـــراه لو كان مبغض لنا أتـــاه...

...ونسبوا من كان في طريقته إليه لاشتهار حسن سيرتـــه

من ذاك لا تلقى له في المذهب مسئلة نرسمها في الكتـــب

إن المخالفين قد سمونـــا بذاك غير أننا رضينـــا

وأصله أنَّ فتى أبـــاض كان محامياً لنا وماضـــي

مدافعاً أعداءنا بالحجـــة وحامياً إخواننا بالشوكـــة[1]

هذه هي العلاقة الوطيدة بين الإمام جابر ومذهب أهل الدعوة والاستقامة، كما تؤكدها المصادر الإباضية، في الوقت الذي نجد فيه بعض المصادر غير الإباضية تحاول جاهدة نفي هذه العلاقة، قاصدة في ذلك إلى قص جذور هذا المذهب عن مصادره الأساسية التي هي القرآن والسنة والسلف الصالح من الصحابة والتابعين، وربط الإباضية بالخوارج تشويهاً وتعتيماً، فهل كان للإباضية حقاً علاقة بالخوارج؟

وهل الإباضية خوارج؟

للإجابة على هذا السؤال ينبغي أن نوضح ما يلي:

* **أولاً**: وردت كلمة (الخوارج) لأوَّل مرة في المراسلات والخطب المتحدثة عما وقع بين الإمام علي وبين الجماعة الذين انشقوا عنه بعد قبوله التحكيم في موقعة صفين سنة 37هـ، وعرفوا بعدها أيضاً بالمحكمة، والحروريين[2] والمارقة، وأهل النهروان، غير أنَّ كلمة (خوارج) كانت أظهر

1- سالم بن حمد الحارثي: **العقود الفضية**، ص122.

2- نسبة إلى حروراء وهو المكان الذي تجمع فيه المحكمة بعد خروجهم عن الإمام علي وانتخبوا لهم إماماً وهو الصحابي الجليل الإمام عبد الله بن وهب الراسبي.

وأسْير، ولاسيما في العصر الأموي الذي كثر فيه خروج الجماعات الغاضبة الثائرة على الأمويين وسياستهم الجائرة، وعلى الرغم من أنَّ استخدامها في السنوات الأولى (37-40) كان يراد بها الخروج السياسي[1] أو الخروج عن طاعة الإمام، فإنَّ هذا الاستخدام ما لبث أن تطور عند كتاب المقالات بعامَّة ومؤرِّخي السلطة الأموية بخاصَّة ليصبح له مدلول ديني وهو الخروج عن السنَّة والجماعة، كما استخدمت كلمة (خوارج) أو (الخوارج المسلمون) عند الإباضية أو الشراة وهم يعنون بها الخروج في سبيل الله جهاداً وثورة على الظلم، مصداقاً لما جاء في القرآن: ﴿**ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عُدَّة**﴾(سورة التوبة: 46) ، فنجد الإمام أبا بلال مرداس بن حدير إمام الشراة يقول لأتباعه: «إنك تخرج جهاداً في سبيل الله وابتغاء مرضاته، لا تريد شيئاً من أعراض الدنيا، ولا لك في الدنيا حاجة، ولا لك إليها رجعة...» [2]وهو ما أوضحه الشيخ أبو إسحاق - وهو من الكتاب الإباضية المعاصرين - حيث يقول : «إنَّ لفظ الخوارج الذي طنطن به الكاتبون ولاكه المنتقدون، جمع خارجة أي طائفة خارجة، يطلق على الطوائف الخارجة إلى الجهاد والخارجة عن الإمام الجائر، فتكون مدحاً وثناء، وعلى الخارجة عن الحقِّ أو الإمام المقسط فتكون ذماً وضلالاً» [3] .

وهكذا كل فئة تفسِّر هذه الكلمة حسب رأيها وموقفها ونظرتها إلى الفتنة.

1- يراجع: **ردُّ عبد الله بن عباس على علي بن أبي طالب في سير الإباضية** (مخ) رقم 158ص29-35، مكتبة السيد محمد بن أحمد البوسعيدي، السيب سلطنة عمان. وانظر قسم النصوص في هذا البحث.

2- **السير والجوابات**، ت: السيدة اسماعيل كاشف، نشر وزارة التراث القومي، عمان ج1، ص240.

3- **النقد الجليل**، ص 29.

* **ثانياً** : إذا كانت كلمة (الخوارج) تقصد لمدلول سياسي كما نشأت، وكما ذهب إليها الإمام علي نفسه، بل وكما استخدمها الخوارج أنفسهم، فإننا نقول إنَّ الإباضية يعودون في أصولهم إلى الفئة التي خرجت عن الإمام علي بعد أن قبل التحكيم، وإطلاق الكلمة بهذا المفهوم على جماعة الخوارج وحدهم محل نقاش كما سنوضح.

أما إذا كان يقصد بها مدلولاً دينياً وهو الخروج عن السنّة والجماعة كما يفعل ذلك أغلب كتّاب المقالات ومن تبعهم من كتاب محدثين، فيخلطون بين الإباضية وبين غيرهم من الفرق الخارجية الأخرى كالأزارقة، حيث يعتبرونهم فرقة واحدة ويصنفونهم في خانة واحدة، فالردُّ على هذا الزعم يكون كالآتي:

إنَّ الذين يكفّرون الإباضية باعتبارهم فرقة كافرة سواء أكانوا من القدامى أو المحدثين، يجنون جناية فاضحة على أنفسهم أولاً، وعلى الحقيقة التاريخية ثانياً لأنَّ الرسول ﷺ شدَّد النكير على المسلم الذي يتهم أخاه بالكفر حيث يقول: «**من قال لأخيه: يا كافر، فقال له: أنت كافر، فقد باء أحدهما بالكفر والبادئ أظلم**»[1].

هذا ولم نر إجماعاً على قوم مثل إجماع المؤرخين على تديُّن الخوارج وشدَّة إيمانهم بالله، وحدبهم على كتاب الله حفظاً وفهماً وتلاوة، وقد شهد بذلك صديقهم وعدوهم، ويكفينا هنا أن نستشهد بشهادة حبر الأمَّة عبد الله بن عباس حيث يقول: «عشرة آلاف منهم البدري، والعقبي، وذو البيعتين، وذو الشهادتين، وذو القبلتين، وأكثرهم صحب الرسول ﷺ، وفقه عنه...أصحاب البرانيس، وحملة الكتاب، وأخيار

1- الحديث: رواه الربيع 64/1 رقم 65. ورواه أحمد بلفظ مختلف قليلاً 112/2.

الإسلام، ورهبان الليل ليوث النهار...»[1].

أما جنايتهم على الحقيقة التاريخية فتعود إلى انسياق اللاحق من أولئك الكتّاب إلى السابق، دون نقد أو تمحيص، ظناً منهم أنَّ ما جاء في تلك الكتب هو الحق، فكيف خفي عنهم أنَّ أغلب ما أُلّف في عصور الفتنة أو عنها ولاسيما في العصرين الأموي والعباسي إنَّمَا يخضع لدواعي وأسباب غير موضوعية أملتها العواطف الملتهبة مذهبية تارة وطائفية أخرى، فالعصبية كانت الظاهرة الاجتماعية المتحكمة في تلك الكتابات، وبعض تلك الكتب كانت تؤلّف لتُهدَى لهذا الحاكم أو ذاك، فهل يعقل في تلك الظروف أن يكتب الكاتبون شيئاً يخالف هوى الحكّام ومذاهبهم، علماً بأنَّ السلطة الأموية لم تكن تتورع في وضع الأحاديث الكاذبة، ودس العيون والجواسيس لتنفر الناس عن هؤلاء الذين صمدوا أمام جبروتهم مطالبين بتطبيق الشريعة الإسلامية في الحكم، وذلك حتّى لا تتحد بهم القوى الساخطة الأخرى مثل: الشيعة والتوابين، وقد عبر زياد بن أبيه في خطبته البتراء المشهورة عن هذا المنهج العنيف قائلاً: إنه سيأخذ البريء بالمذنب، والمطيع بالعاصي، والمقبل بالمدبر، إلى آخر ما جاء في خطبته التي لم يقف أمامها سوى الشاري الإمام بلال بن مرداس، وهو ما جعل زياداً يتوعده هو وأصحابه قائلاً: «والله لن نبلغ منك ومن أصحابك حتى نخوض إليكم الباطل خوضاً»[2].

1- يراجع: المبرد: **الكامل في اللغة**، ج2 في صفحات متعددة، وانظر ملحق النصوص من هذا البحث.

2- الجاحظ: **البيان والتبيين**. ت هارون، ط3 القاهرة، ج2، ص62-65. وانظر المبحث الخاص بأبي بلال من هذا الكتاب.

وسلك بعده ابنه عبيد الله مسلكاً أشدَّ، وأقسى، وأفظع، فاستخدم الإبادة الفردية والجماعية، وزجَّ في السجون كلَّ من يشتم منه رائحة الخروج والسخط على السلطة، وكان يقتل بالظن، وكان إذا قتل صلب ومثّل وعرى النساء[1].

وهكذا تأثر الإعلام الأموي تأثراً بالغاً، وسار في النهج الذي رسمه له الجبابرة، فأصبح الكتاب ينظرون في الأغلب الأعمّ من عين الحاكم ويصدرون عن أوامره.

وإلى جانب هذه النظرة المنحازة إلى الحكم الأموي، كانت هناك النزاعات المذهبية والطائفية، فلم تتقيد بالمواقف السياسية وحدها بل تجاوزتها إلى الجانب الفكري، فأهملت آثار الخوارج تاريخية وأدبية ولاسيما فيما جمعه الشيعة من أمثال أبي الفرج الأصفهاني، والمسعودي، فبدت شخصية الشراة من خلال ذلك الأدب مبتورة لا تتناسب مع شهرتهم الأدبية والفكرية التي اكتسبوها، ويكفي لنعلم مدى ما انصب عليهم من اضطهاد أنَّ ابن قتيبة لم يشر إلى أحد منهم في كتابه «الشعر والشعراء»، إلاّ ماكان من ذكر الطرماح، بصدد سرقاته عن غيره، بينما لا يشير ابن سلام في طبقاته إليهم من قريب أو بعيد ...»[2]

*ثالثا- إن الناظر في تطورات الأحداث التي فرقت بين أتباع أبي بلال مرداس بن حدير وجابر بن زيد، وبين الأزارقة ومن معهم من غلاة الخوارج، يجد أنَّ سبب الافتراق أمر جوهري يتعلق بالعقيدة الدينية أساساً،

1- يراجع المبرد: **الكامل في اللغة والأدب**، ففيه تفاصيل كثيرة عن فظاعة الحكم الأموي في البصرة خصوصاً.

2- د/النعمان القاضي: **الفرق الإسلامية في العصر الأموي**، ص406.

وهو تكفير مرتكب الكبيرة التي يعتبر الأزارقة صاحبها كافراً كفر شرك، فيما ذهب الإباضية أو أتباع أبي بلال وجابر ثم ابن إباض إلى أنَّه كافر كفر نعمة، وهذا الموقف من الإباضية انبنى عليه أحكام هامة، فهم لم يستحلُّوا دماء إخوانهم المسلمين، ولا استباحوا أموالهم أو سبي ذراريهم ونسائهم، ولا استعرضوا الناس بالسيف، فكيف تسنى للكتاب أن يصنِّفوا الإباضية ضمن الخوارج مع وجود هذا الفارق العقدي الأساسي

*رابعا: الواقع أنَّ المصادر الإباضية قديماً وحديثاً تؤكِّد أنَّ الخلاف بين الإباضية والخوارج بعد الافتراق الحاصل سنة 64هـ خلاف جوهري، لأنَّه خلاف عقدي كما ذكرنا، ومن تم فإن كلَّ ما يقال من تقارب بين الإباضية والخوارج - إذا ما نظرنا إليه من هذه الزاوية الأساسية - يغدو باطلاً، وإذا حصل في بعض المسائل الأخرى تقارب، فإنه يغدو تقارباً سياسياً أملته ظروف زمانية أو مكانية، ولا علاقة له بالعقيدة أو المذهب، وليس أدلَّ على ذلك من موقف أيمة الإباضية وعلمائهم وفتاواهم ضدَّ الخوارج عبر العصور، من ذلك موقف الإمام عبد الله بن إباض في رسالته إلى عبد الملك بن مروان، حيث حدد موقف أتباعه من الأزارقة قائلاً: «إننا نبرأ إلى الله من ابن الأزرق وأتباعه من الناس، لقد كانوا خرجوا حين خرجوا على الإسلام فيما ظهر، ولكنهم ارتدوا عنه وكفروا بعد إيمانهم فنبرأ إلى الله منهم»[1].

وسبق الإمام ابن إباض موقف أبي بلال الذي حرم على أتباعه الخروج واستعراض الناس بالسيف، واعتبر ذلك ظلماً وعدواناً، ودعا إلى التقية، وحرَّم خروج النساء، وتبرأ من قُريب وزحاف وحركتهما

1- سالم بن حمد الحارثي: **العقود الفضية**؛ ص25.

عندما خرجا في البصرة.[1]

يكفي دليلا موقف الإمام جابر الذي كان يجادلهم بالحجة والبرهان في مناسبات عديدة، وبالعودة إلى سيرة سالم بن ذكوان(2) المعاصر للإمام جابر، وأحد أعلام الإباضية الأوائل، نلحظ من خلال المسائل التي ناقشها وجادل الخوارج فيها رفضاً صريحاً وحاسماً لكلِّ آرائهم ومواقفهم، وردوده فيما نحسب من أقوى ما كتبه المخاصمون للأزارقة والنجدات وغيرهم.

وجعفر بن السماك الذي قاتلهم مع الحبيب بن المهلب وحتات بن كاتب، فقتلا في حربهم فتكلم الناس فيهما، لكن أبا عبيدة أظهر ولايتهما واعتبر جهاد الخوارج طاعة لاستحلالهم ما حرم الله من دماء المسلمين وأموالهم[3].

ونذكر أيضا موقف الإمام الربيع بن حبيب فحين تحدَّث الناس إليه عنهم وعن معتقداتهم قال: «دعوهم حتى يتجاوزوا القول إلى الفعل، فإن بقوا على قولهم فخطأهم محمول عليهم، وإن تجاوزوه إلى الفعل حكمنا

1- كان قُريب الأزدي وزحاف الطائي أيام زياد يتعرضان الناس بالسيف ويشيعان الفزع والهلع فقال أبو بلال: «قُريب لا قربه الله من الخير، وزحاف لا عفا الله عنه، ركباها عشواء مظلمة» . **الكامل**، ص185.

2- سالم بن ذكوان: كان من ضمن الوفد الذي أوفده الإباضية إلى الخليفة عمر بن عبد العزيز، وسيرة سالم بن ذكوان ضمن مخطوط سير الإباضية (مخطوط) بمكتبة السيد محمد بن أحمد برقم 158 بالسيب سلطنة عمان، (ينظر ملحق النصوص من هذا البحث).

3- د/ عمر النامي: **دراسات**، ص62 وانظر **مدونة أبي غانم الخرساني** ج2، ص69

فيهم بحكم ا لله»[1].

وبناء على ما سبق يتضح لنا بصورة جلية أنَّ ما احتوت عليه المؤلفات والمقالات الإباضية القديمة نفي قويٌّ لكلٌ نقطة اتفاق بين الإباضية والخوارج، ولاسيما في القضايا ذات الطابع العقدي، ونقطة الاتفاق الوحيدة بين الطرفين هي توافق رأي الطرفين حول التحكيم، وعدم اشتراط القرشية في الإمام.

وبالتالي نرى المؤرخين الإباضية إلا من شذَّ يصرُّون على تأكيد هذه الحقيقة التاريخية الهامة التي قد يغفل عنها المؤرخون من غير الإباضية، أو هم لا يولونها ما تستحق من الدراسة والاهتمام، على أننا نجد في بعض كتب التاريخ القديمة من المواقف والأحداث التاريخية ما يدل دلالة قطعية على اختلاف منهج الإباضية عن الخوارج[2] بل عن حروب ووقائع بعضها في عمان، وبعضها الآخر في المغرب الأوسط، تؤكّد العداء المستحكم بين الإباضيَّة والخوارج، وهو ما يلخّصه الشيخ أبو إسحاق - من مفكري الإباضيَّة المعاصرين - حيث يقول: «فلمَّا ظهرت بدعتهم طردهم أصحابنا من مجالسهم، وطاردوهم في كلٌ صوب، معلنين البراءة منهم، فلمَّا تجاوزوا القول إلى الفعل أعلنوا الحكم بكفرهم، لأنَّ الكفر في استحلال ما حرَّم ا لله نصٌّ في كتاب ا لله قطعيٌّ، وقد استشرى فعلهم يومئذ فاشتدُّوا على أهل التوحيد بفتنتهم، فسلُّوا السيوف على الرقاب بغير ما أنزل ا لله،

1- أبو إسحاق اطفيش: **الفرق بين الإباضية و الخوارج**، الضامري للنشر والتوزيع عمان. د.ت ص112.

2- يراجع **الكامل للمبرد**، و**تاريخ الأمم والملوك**، للطبري، و**أنساب الأشراف** للبلاذري، و**الكامل** لابن الأثير.

فعظمت محنتهم، فكانت بلاء عظيما»[1]

يقول الشيخ علي يحي معمر وهو إباضي معاصر حريص على إظهار هذه الحقيقة في كتاباته: «إنَّ الإباضية لا يريدون أن ينتسبوا إلى الخوارج، ولا يحسبون أنفسهم كذلك، ولا يعتزون بالخارجية لسبب بسيط، لأنهم لا يحكمون على غيرهم من المسلمين بأحكام المشركين ولا ينفّذون فيهم تلك الأحكام»[2].

***خامسا:** إذا اعتبر الخروج خروجاً سياسياً، أي يطلق على كل من خرج عن الإمام أكان الإمام على حق أم على باطل، فلا غضاضة في النتيجة لأنَّ الموقف السياسي اجتهاد بشري لا نعلم وجه الصواب أو الخطأ فيه، وهو ما عبر عنه الخليفة عمر بن عبد العزيز: «تلك دماء طهَّر ا لله منها أيدينا فلنطهِّر منها ألسنتنا».

على أنَّنا نقول: لماذا يخص بها الخارجون عن الإمام علي بالذات في وقعة صفين؟ أليس الأولى أن تطلق الكلمة على أولئك الذين ابتدعوا الخروج عن الإمام، بل على الإمام منذ وقعة الجمل إلى وقعة صفين؟، والعجيب في الأمر أنَّ التسمية هنا لم تطلق على معاوية وفئته التي اتفق المؤرخون أنها هي الباغية بدليل قوله ﷺ لعمَّار بن ياسر : «**ستقتلك الفئة الباغية**»[3].

وانقلبت الأمور رأساً على عقب فأطلقت الكلمة على الذين ناصروا

1- ابو اسحاق: **الفرق بين الإباضية والخوارج**، ص12.

2- علي يحي معمر: **الإباضية بين الفرق الإسلامية** ، ص474.

3- هذا الموقف نجده في رد عبد ا لله بن عباس على الإمام علي في شأن أهل النهروان. ينظر **سير الإباضية** مخ ص 34.

الإمام علي ووقفوا إلى جانبه، بل هم وقفوا ضدَّ الانحراف في الحكم منذ البداية، ولا ذنب لهم سوى أنهم خرجوا على أيمة الجور، علماً أنَّ الإمام علي نفسه كان يستخدم الكلمة ويعني بها الخروج السياسي، فإنَّ المصادر كلها حتى تلك التي تشيعت للإمام علي تؤكد على تعاطف الإمام علي مع الخوارج، وندمه على قتالهم قائلاً : «إنهم إخواننا بغوا علينا فقاتلناهم»[1] وما استباح لهم مالاً ولا حكم بكفرهم، فقد ذكر ابن تيمية أنَّه تندم كثيراً وبكى طويلاً، وقد أجملت ذلك الموقف الكلمة التي أوثرت عنه وأكدتها المصادر الشيعية نفسها وهي: «لا تقاتلوا الخوارج من بعدي، فليس من طلب الحقَّ فأخطأه كمن طلب الخطأ فأصابه»، وسماهم خيار الأمَّة، وقد غضب حين قال له رجل: «هؤلاء الذين لا يحسنون صنعاً». قال: «ويحك أولئك أهل التوراة والإنجيل»[2].

***سادساً**: الملاحظ أنَّ الإباضية أنفسهم قد استخدموا هذا المصطلح، وهم يعنون به أنفسهم عندما يتعلق الأمر بالخروج السياسي، مدركين أبعاده ودلالاته، لأنَّ الخروج على الحاكم الجائر جائز في بعض الحالات، ويغدو واجباً وفرضاً في بعض الحالات الأخرى، فصلَّت الحديث عنها كتب الفقه والأصول عندهم.

ورد هذا الاستخدام في النصوص القديمة، وكان يقرن أحياناً بكلمة (المسلمين) فيقال: (الخوارج المسلمون) وهم يعنون بالمسلمين كما هو معروف أهل الدعوة والاستقامة. ولأنهم يعنون بها الخروج في سبيل الله مصداقاً لقوله تعالى: ﴿**ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله**﴾ (سورة

1- يراجع **نهج البلاغة** شرح ابن أبي الحديد. **والنقد الجليل**، ص19.

2- أبو إسحاق ابراهيم: **النقد الجليل**، ص24.

النساء: 100)، وقد استخدم الإمام عبد الله بن إباض هذا المصطلح ورضيه في رسالته إلى عبد الملك بن مروان، حيث يقول بعد أن أوضح لعبد الملك سيرة الخوارج: «فهذا خبر الخوارج نشهد الله والملائكة أنّا لِمن عاداهم أعداء، وأنّا لمن والاهم أولياء، بأيدينا وألسنتنا وقلوبنا، وعلى ذلك نعيش ما عشنا، ونموت على ذلك إذا متنا، غير أنّا نبرأ إلى الله من ابن الأزرق وأتباعه من الناس، لقد كانوا خرجوا حين خرجوا على الإسلام فيما ظهر لنا، ولكنهم ارتدوا عنه وكفروا بعد إيمانهم فنبرأ إلى الله منهم»[1].

***سابعا:** إنَّ الإباضية بناء على موقفهم الثابت في كون الحكم ينبني على الكفاءة لا على العصبية، وأنَّ الإمام العادل الذي تختاره الأمَّة ليس من حقه التخلّي عن هذه المسؤولية الشرعية انتهجوا الخروج عن الإمام إذا أخلَّ بشرط من شروط ذلك العقد.

...فإذا ظهرت المعاصي، وانتهكت الحرمات في الأموال والأبدان أو الدين، ولم تقم الحدود وترفع المظالم، وجب على أهل العلم وهم العين الحارسة للدين والأمة والناقدة لكل حيف، المؤيدة لكل منقبة، أن ينكروا المنكر فإن أبى الإمام خلعوه، وإن ناصبهم قاتلوه ماوجدوا لذلك قوة، وعلى هذا مضى الصحابة، وما وقعتا الجمل وصفين إلا نتيجة الخروج، وقد خرج سعيد بن جبير على بني أمية وهو من كبار التابعين[2]. وقد وردت أحاديث كثيرة صحيحة منها ما ورد بالتواتر في وجوب الخروج عن الأيمة لأنَّ الإسلام دين الله الذي لا يدان إلا به، فلا يقام بالظلم والعصيان، ومن ذلك قول الرَّسول ﷺ: «**استقيموا لقريش مااستقاموا**

1- ينظر **السير والجوابات** ج2، ص346.

2- أبو إسحاق: **النقد الجليل**، ص29 بتصرف.

لكم، فإن لم يستقيموا لكم فضعوا سيوفكم على عواتقكم ثم أبيدوا خضراءهم...»[1] وأمثال هذه كثيرة.

وللإباضية عقيدة واضحة في جواز الخروج عن الإمام الجائر ووجوبه بشروط مثبوتة بدقة متناهية في كتب الفقه والعقيدة عندهم[2] وهم بهذا يختلفون عن المذاهب التي ترى عدم الخروج عن الإمام ولو كان جائراً بدعوى ﴿**الفتنة أكبر من القتل**﴾ (سورة البقرة: 217)، وهو موقف أنكره كثيرون من أتباع تلك المذاهب اليوم. بعد أن تأكد خطر هذا الموقف ولاسيما على ضوء الواقع التاريخي للمسلمين، الذي أباح للظالمين الجور والظلم والبغي، فأهلكوا الحرث والنسل، ووضعوا السيوف في رقاب المحكومين، وحكموا الشعوب بغير ما أنزل الله، وقادوها بقوانين غربية مسيحية أو علمانية أو ملحدة، ويحميهم في هذا الاتجاه بعض علماء السلطة الذين تحجَّرت أفكارهم أو أغرتهم المصالح الدنيوية فكانوا بذلك من أسباب الظلم والاضطهاد.

***ثامناً:** وعلى الرغم من اختلاف منهج الإباضية الدعوي عن الخوارج اختلافاً بيِّنا لا شكَّ فيه، وعلى الرغم من عقيدتهم المتميزة، فإنَّ مؤرخي الفرق الإسلامية قديماً وحديثاً ينسبونهم إلى (الخوارج) أحياناً تعمداً، وأحياناً عن جهل وعدم تمييز، وأعدلهم طريقة هم الذين يقولون: «الإباضية أقرب فرق الخوارج إلى السنة». ولسنا هنا في صدد البحث عن الأسباب، فذلك أمر يطول شرحه، ولكن نشير فقط إلى سبب قديم نراه جوهرياً

1- يراجع **النقد الجليل** ص 29-31. الحديث في **الجامع الصغير، ومسند أحمد** عن توبان عن الطبراني عن النعمان بن بشير.

2- ينظر فصل نظرية الحكم، من هذا البحث.

وهو العصبية المذهبية القبلية، والصراع من أجل الحكم، وقد صاحب هذا الاتجاه كلَّ مراحل الفتنة عبر العصور، وهذا الذي يعنيه الشيخ أبو إسحاق حيث يقول: «إنَّ الذي يمحِّص التاريخ بإنصاف وعلم يرى في إطلاق لفظ الخوارج على الإباضية -وهم من الخوارج برآء - مغزى، وهو أنهم رأوا أنَّ الإمامة لا تختص بقريش، بل هي تصحُّ لكل من اختاره المسلمون لسياسة دولتهم ورياستها، وهذا هو الحق الذي دلَّ عليه كمال البصيرة، إذ ليس من الحكمة أن يجعل الله أمر البشر على سائر أجناسه وأممه تابعاً لقبيلة واحدة، سواء أحسنت أم أساءت، والوضع الطبيعي في البشر هو الذي أيَّد ماذهب إليه أصحابنا وحملوا عليه حديث: «**الأيمة من قريش**»[1]، ومن المكابرة ومجانبة الحقِّ أن يزعم الزاعمون اختصاص سياسة الأمم بقريش، ولم يرتضه الأنصار وهم أفهم لما بعث به ﷺ حيث قالوا لأبي بكر: «**منَّا أمير ومنكم أمير**»[2]، ولا أبو بكر حين ردَّ على الأنصار: «**منَّا الأمراء ومنكم الوزراء، إنَّ العرب لا تدين إلا لهذا الحي**» يعني قريشاً، فعلل الحكم بانقياد العرب لقريش لا لشيء آخر مما يزعم أهل الأهواء

1- الحديث رواه **الإمام أحمد** في مسنده، باقي مسند المكثرين، رقم 11859. قال: «حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن سهل أبي الأسد قال حدثني بكير بن وهب الجزري قال قال لي أنس بن مالك: أحدثك حديثا ما أحدِّثه كل أحد، إنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قام على باب البيت ونحن فيه، فقال: «**الأئمة من قريش إن لهم عليكم حقا ولكم عليهم حقا مثل ذلك ما إن استرحموا فرحموا وإن عاهدوا وفوا وإن حكموا عدلوا فمن لم يفعل ذلك منهم فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين**»

2- الحديث رواه **البخاري** في المناقب، رقم 3394 كاملا.

السياسية والمذهبية[1].

وما يزال من الكتّاب المعاصرين من يعد هذه القضية من أهم القضايا التي من أجلها «يدرج الإباضية ضمن الخوارج» وتجعلهم في «عداد الفرق و الأهواء»، يقول الدكتور ناصر بن عبد الكريم العقل الذي يحمل نظرة عدائية شوفينية ما يلي:

«من أصول أهل السنّة طاعة الأئمة والولاة وهم الحكام أبراراً كانوا أو فجاراً، والصلاة خلفهم والجهاد معهم وإن جاروا، وإن ظلموا أو فسقوا، وإنّه لا يجوز الخروج عليهم ولا قتالهم إلا أن ترى الأمّة منهم كفراً بواحا عليه من الله برهان...أما الإباضية فإنهم خالفوا السنة في ذلك وفارقوا جماعة المسلمين كغيرهم من الخوارج في أمور كثيرة من مسائل الإمامة والجماعة والخروج، بل إنَّ هذه القضية تعد من الأصول الكبرى التي فارقوا بها أهل السنة»[2] .

...وهكذا فإنَّ كل ما كتبه الكاتبون وزعموه من الأقوال مخالفة لهذا، فباطل يتحملون إثمه يوم تكون كلُّ نفس بما كسبت رهينة، ولم يستحل أهل الاستقامة في يوم من التاريخ، ولا في كتاب من كتبهم قطرة من الدم لموحِّد، بل الدماء من أصعب الصعب عندهم إلا بحقها.

«...هم أشدُّ الناس ورعاً وأبعدهم عن الفحشاء ولو تعالى عن ذلك المتعصبون...»[3] هذا في الوقت الذي نجد فيه بعض العلماء والمفتين المعاصرين من غير الإباضية ـ بناء على ذلك التصور الخاطئ ـ يصدرون

1– أبو إسحاق: **الفرق بين الإباضية والخوارج**، ص19.

2– د/ناصر بن عبد الكريم العقل: **الخوارج**، دار الوطنية الرياض، ط1: 1416هـ ص.99

3– أبو إسحاق: **مصدر سابق**، ص14.

فتاوى في حقّ الإباضية تهدف إلى إشعال فتنة عمياء بين المسلمين[1] بل كثيراً ماكانت سبباً دافعاً إلى حوادث دموية فظيعة، يروح ضحيتها أناس أبرياء لا ذنب لهم سوى أنهم من معتنقي المذهب الإباضي، وعند الله تجتمع الخصوم.

***تاسعاً:** إنَّ الدراسات الأكادمية الحديثة بصفة خاصة بدأت تتفهم هذه الوضعية المجحفة في حقّ هذه الفرقة الإسلامية، بفضل ما ينشر من مصادر الإباضية، وبفضل مؤرخيهم وعلمائهم الذين ما فتئوا يبيِّنون وجهة نظر مذهبهم عقيدة وفقهاً، وتاريخاً، وهذا ماجعل أغلب الدارسين المحدثين[2] يتفطنون إلى اختلاف المنهج الفكري والسلوكي والعقدي بين الإباضية والخوارج، وتوضَّح لديهم ما يتميز به الإباضية من اعتدال ووسطية لا تختلف في شيء عن المذاهب الإسلامية الأخرى.

يقول الدكتور فاروق عمر: «إن الحركة الإباضية مثّلت منعطفاً نوعياً بارزاً في تاريخ الحركة الخارجية لثلاثة أمور جوهرية هي:

- **أولاً:** الاعتدال الذي ميز موقف الإباضية عن غيرها من الفرق الأخرى، والواقعية التي أبعدتها عن المثالية والحماس الديني.

- **ثانياً:** مثلت الإباضية تحولاً واضحاً في ثورات الخوارج من حركات

1- يراجع **فتاوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء**، المجلد الثاني، دار عالم الكتب الرياض 1991.

2- ينظر على سبيل المثال: مهدي طالب هاشم: **الحركة الإباضية في المشرق العربي**؛ دار الاتحاد العربي للطباعة، مصر، 1991. أيضاً د/عوض خليفات: **نشأة الحركة الإباضية**، مطابع دار الشعب عمان، 1978. د/ نايف عبد جابر السهيل: **الإباضية في الخليج العربي**، دار الوطن، الكويت، 1994م.

هوجاء غير مخطط لها، إلى دعوة سرية منظّمة مخطط لها، تتميز بتنظيماتها الدقيقة التي تشبه تنظيمات الأحزاب السرية المعاصرة، وبذلك تكون إمكانات نجاحها أكثر بكثير من إمكانات نجاح الفرق الأخرى، وهذا ما أثبتته الوقائع التاريخية.

ـ **ثالثاً**: إنها حركة حاولت التغيير والتبديل نحو الأفضل، وعارضت النظام القائم ضمن مفاهيم ومبادئ وأهداف داخل إطار الإسلام، وقيم العروبة، وهي بذلك تختلف عن العديد من حركات المعارضة الأخرى التي تبرقعت بالاسلام، وأضفت عقائد بعيدة عنه وعن الإرث العربي المعروف».[1]

ومن هنا نستطيع القول إنَّ الفضل في بقاء الإباضية إلى يومنا هذا يعود إلى أنَّهم يملكون فكراً منهجياً واضحاً مستخدمين القرآن والسنّة، يخطط للمستقبل ويستمد من الماضي، ويتكيف مع الحاضر.

ومن الدراسات الأكاديمية التي ينبغي التنويه بها الدراسة القيمة التي كتبها الدكتور نايف عبد جابر السهيل تحت عنوان «الإباضية في الخليج العربي»، فإنَّ هذه الدراسة تعدُّ من أبرز الدراسات التي لم تتأثر بالموقف العدائي الذي عرفته بعض الدراسات الصادرة في الخليج ولاسيما في المملكة العربية السعودية، لأنَّ المؤلف حاول ـ اعتماداً على المصادر الإباضية ـ أن يدرس فكرهم ومواقفهم بكل موضوعية، وأبرز من خلال ذلك الفروق الجوهرية التي تتميز بها الإباضية عن الخوارج. وقد انتهى في كتابه هذا إلى نتائج هامَّة، مثل قوله:

1- د/فاروق عمر: **التاريخ الإسلامي وفكر القرن العشرين**، دار اقرأ، بيروت، 1985. ص40.

«إنَّ الفكر الإباضي يختلف اختلافاً بيناً في وسائله وأهدافه عن فكر الخوارج الآخرين من أزارقة ونجدات وصفرية وغيرهم. لا تسام الفكر الإباضي بالاعتدال، وعدم اللجوء إلى العنف، ويصفهم بالتعقل والرصانة حيث يقول: «إنَّ الإباضية في كلِّ مؤلفاتهم تقريباً كانوا أكثر هذه الفرق تعقلاً في إبداء آرائهم، فعلى الرغم من شدَّة هجومهم على الدولة الأموية، وهذا ليس بمستغرب على نشأة الفرقة ودواعي مقاصدهم، وشدة هجوم الأمويين عليهم، إلا أنهم كانوا شديدي التعقل في آرائهم في ولاة الأمر، وبخاصة مسألة خلافة عثمان رضي الله عنه، فلم يجرحوا هذا الخليفة كما جرحته فرق كثيرة، ولم يشككوا في خلافته كما فعلت أيضاً فرق كثيرة، وهذه نقطة تحسب للإباضية وتزيد من رصيدهم باعتبارهم إحدى الفرق الإسلامية الأصيلة... ويظهر موقف الإباضية الصريح من رفض غلاة الخوارج حيث قال ابن إباض في جلاء: «أما زعيم الخوارج ابن الأزرق فنحن نتبرأ منه لغلوه، وتشدده، وإفراطه في الأحكام، حين حكم في المسلمين المذنبين بالكفر»، وهذه الجملة تحدد التطور الفكري لفرقة الإباضية من جماعة الخوارج وأفكارها، ولاسيما من حيث حكمها على المسلمين بالكفر واستحلالهم دماء المسلمين، ومن ثمَّ يعلن ابن إباض انضمامهم - أي الإباضية - إلى الركب الإسلامي في نفوره من الغلو في فكر الخوارج والالتزام بالاعتدال، أي الفكر الذي شهده التاريخ الحضاري للإسلام منذ نشأته».[1]

1- د/نايف عبد حابر السهيل: **الإباضية في الخليج العربي**، ص190

الباب الأول

(المهاد التاريخي)

الفصل الأول : من الفتنة إلى ظهور الشراة المعتدلين

1- خلافة عثمان بن عفان (ذو النورين)

2- خلافة الإمام علي بن أبي طالب (كرّم الله وجهه)

3- أحداث صفين، والنهروان

المهاد التاريخي

انتقال الخلافة إلى أبي بكر وعمر - رضي الله عنهما - بعد وفاة الرسول ﷺ:

وضعت وفاة الرسول ﷺ الأمَّة الإسلامية أمام مشكلة خطيرة ألا وهي مشكلة الخلافة وقيادة الأمَّة، والإشراف على شؤونها الدينية، والدنيوية:

أما الناحية الدينية فقد اكتملت نواحيها ورسخت جذورها، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿**اليوم أكملت لكم دينكم، وأتممت عليكم نعمتي، ورضيت لكم الإسلام ديناً**﴾ (سورة المائدة: 3).

ولكن هذا الدين الذي جاء إلى البشرية جمعاءكان وما يزال في حاجة إلى من يبلّغه إلى أقاصي الأرض وأطراف العالم، ولن يقوم بذلك إلاّ أمَّة قوية بزعامة رشيدة، وقيادة قدوة، على أنَّ هذه الأمَّة الفتية كانت في تلك الآونة في حاجة إلى أن تحافظ على مكتسباتها المعنوية والروحية التي جاءت بها، وهي تعلم أنَّ أعداءها وخصومها من الداخل والخارج من العرب وغيرهم يتربصون بها الدوائر ويكيدون لها. هذه الأسباب كلُّها كانت دافعاً قوياً إلى إيجاد البديل الذي يخلف مكانة الرسول ﷺ في قيادة شؤون الأمَّة.

وقد رأى الأنصار أنَّهم أحقُّ من غيرهم في هذه الزعامة، نظراً لما لهم من فضل إيواء الدين الإسلامي ونصرته، ووقوفهم إلى جانب الرسول الكريم حين تخلّى عنه بل طرده وجفاه أبناء عشيرته. فرشَّحوا سعد بن عبادة الخزرجي لمنصب الخلافة، وعندما سمع المهاجرون بذلك سارع عدد

منهم إلى سقيفة بني ساعدة حيث يجتمعون عادة وطالبوا بأحقّيتهم في الخلافة، لأنّهم أسبق الناس إسلاماً، ولأنّهم أهل الرسول وعشيرته، ولأنّهم ما هاجروا إلى المدينة إلاّ من أجل نصرة هذا الدين، ثم «لأنَّ العرب لا تعرف هذا الأمر إلاّ لهذا الحيِّ من قريش، وهم أوسط العرب داراً ونسباً».

ودار نقاش حادٌّ بين الصحابة مهاجرين وأنصاراً، انتهى فيه الرأي إلى إسناد الخلافة إلى المهاجرين، وأشار أبو بكر على المجتمعين أن ينتخبوا عمر بن الخطاب أو أبا عبيدة عامر بن الجرَّاح، إلاّ أنَّ الاثنين رفضا الأمر وناديا بمبايعة أبي بكر لأنَّه أفضل المهاجرين، وثاني اثنين إذهما في الغار، وخليفة رسول الله ﷺ في مهام عديدة أثناء حياته.

تمت بيعة أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، واستطاع المسلمون أن يتجاوزوا هذا الامتحان العسير بسلام، وأن يتغلّبوا على هذه المشكلة التي واجهتهم وهم في أمسِّ الحاجة إلى تدعيم أسس الدولة، ونشر رسالة الإسلام خارج الجزيرة العربية.

ظلَّ الخليفة نموذجاً حيًّا للاستقامة والعدل والاهتمام بشؤون الأمَّة، فكان من أبرز أعماله: محاربة المرتدِّين، وإكمال بعض الفتوحات التي بدأ بعضها في حياة الرسول الكريم.

وفاة أبي بكر ومبايعة عمر بن الخطاب.

عندما شعر أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بدنوِّ أجله أحسَّ بضرورة إسناد خلافة الأمَّة لمن يراه كفؤاً لذلك، حتّى يجنِّب الأمَّة الفتن والاختلاف، ولعلّه اتعظ بما وقع في السقيفة، وبعد تفكير عميق وجد أنَّ الشخص الصالح

الكفؤ لخلافة المسلمين من بين الصحابة الموجودين هو عمر بن الخطاب أفضل الموجودين حقاً.

وذلك لمكانته العظيمة من رسول الله ﷺ، ثم لخدماته الجليلة ومواقفه العظيمة في الإسلام، إضافة إلى أنَّه لم يكن فرعاً بارزاً من قريش، فيخاف من استبداد عشيرته وأقاربه في الحكم، ومع كلِّ هذه المواصفات المؤهلة لم يشأ أبو بكر أن يستبدَّ برأيه، بل شاور كبار الصحابة الموجودين في المدينة ولقي تجاوباً وموافقة من معظمهم. وقد أملى أبو بكر على عثمان بن عفان وثيقة عهده لعمر بن الخطاب التي جاء فيها:

«بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما عهد به أبو بكر بن أبي قحافة في آخر عهده في الدنيا، خارجاً منها، وعند أوَّل عهده بالآخرة، داخلاً فيها، حيث يؤمن الكافر، ويوقن المرتاب الفاجر، ويصدِّق الشاك المكذِّب. إنِّي استخلفت عليكم بعدي عمر بن الخطاب فاسمعوا له وأطيعوا، فإنِّي لم آل الله ورسوله ودينه ونفسي وإياكم خيراً، فإن عدل فذاك ظني به وعلمي فيه، وإن بدَّل فلكل امرئ ما اكتسب، والخيرَ أردت ولا يعلم الغيب إلا الله...»

والذي نستنتجه من هذه الوثيقة جملة أمور وهي:

أولاً: أنَّ أبابكر قام باستشارة الصحابة.

ثانياً: أنَّه اختار ولياً للعهد من غير أقاربه.

ثالثاً: اتخذ مقياساً للخلافة، وهو الكفاءة حسب اجتهاده ومعرفته.

رابعاً: أنَّه جعل المسؤولية بعاتق عمر لتنفيذ هذه الوصية.

خامساً: جعل الأمَّة مراقباً له ومتابعاً.

سار عمر بن الخطاب في تسيير شؤون المسلمين سيرة حسنة، حتّى أصبح مضرب المثل في العدل والاستقامة والنزاهة، واستطاع بسيرته تلك أن يفرض هيبة الأمّة الإسلامية داخلاً وخارجاً. فاتسعت رقعة الفتوحات، وانتشر الإسلام في أصقاع بعيدة. ولكنَّ الخنجر المجوسي المسموم الذي طعنه به أبو لؤلؤة المجوسي أفنى حياته.

هذا الخليفة الذي ظلَّ اسمه مرتبطاً أبداً بالعدل والنزاهة والحزم، وحق أن يطلق عليه الفاروق، لأنَّه فرق بين الحق والباطل. ويبدو أنَّ الخليفة عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فكّر قبل مماته فيمن يتحمَّل المسؤلية من بعده، وكانت تراوده فكرتان:

الأولى: أن يستخلف من الصحابة واحداً، ولكنّه لم يكن مطمئناً لأحد بعينه.

والثانية: أن يترك الأمر للمسلمين لاختيار من يريدونه.

وبعد أن طعن عمر في المسجد، وحمل إلى بيته، استقر رأيه ـ بعد إلحاح من الصحابة بضرورة الاستخلاف ـ على أن يجعل الأمر شورى، وقد حددها في ستة من الصحابة: علي بن أبي طالب، عثمان بن عفان، طلحة بن عبيد الله، عبد الرحمن بن عوف، سعد بن أبي وقاص، الزبير بن العوام.

وقد بيَّن عمر أسباب اختياره لهؤلاء النفر من الصحابة، بقوله: «إنّي نظرت فوجدتكم رؤساء الناس، وقادتهم، ولا يكون الأمر إلا فيكم، وقد قبض رسول الله ﷺ وهو عنكم راض»، ثم أردف قائلاً: «إنّي لا أخاف اختلاف الناس عليكم إن استقمتم، ولكني أخاف عليكم اختلافكم

فيختلف الناس»[1].

اجتمع مجلس الشورى، وطالت المناقشات، وعهدوا إلى عبد الرحمن بن عوف ليقوم باستطلاع رأي المسلمين ممثلين بوجهاتهم وقياداتهم في المدينة...واستقرَّ رأيه على أنَّ أقوى المرشَّحين المفضَّلين لدى الناس هما علي بن أبي طالب، وعثمان بن عفان، وفي أنَّ أكثريتهم كانت تفضِّل عثمان.

جعل عبد الرحمن بن عوف العمل بكتاب الله وسنة نبيِّه، وسنة الخليفتينْ أساساً للترشيح، وفي اليوم الرابع من انعقاد مجلس الشورى، وبعد أخذٍ وردٍّ بين علي وعثمان، وافق عثمان على الشروط التي وضعها عبد الرحمن بن عوف، وأعلن موافقته على العمل بكتاب الله وسنَّة رسوله، وأن يسير على سنَّة الخليفتين من قبله، وهو ما لم يقبله علي، لأنَّه رفض التقيد بالخليفتين من قبله، وإنَّما سيعمل بكتاب الله وسنة نبيِّه، وبمبلغ علمه وجهده، وطاقته[2].

وتمت بيعة عثمان في ذي الحجة من سنة 23 هجرية.

1- خلافة عثمان بن عفان:

تمت البيعة للخليفة عثمان بن عفان على النحو الذي مرَّ معنا سنة 23هـ.

وقد سار الخليفة في بداية أمره على النحو الذي سار عليه الخليفتان من قبله، ويحدِّد المؤرخون ذلك بستِّ سنوات، ولكن ما لبث حتى ظهرت

---

[1]- راجع: الماوردي: **الأحكام السلطانية**، القاهرة 1346. وانظر أيضاً: عوض خليفات: **نشأة الحركة الإباضية**، ص48.

[2]- المصدر السابق ص48.

اختلافات بين المسلمين حول سيرته في الحكم، فأخذوا عليه ميله إلى أقاربه، وانتقدوا عليه مواقف وتصرفات لا مجال لذكرها هنا، فهي مبثوثة في المصادر التاريخية لمن يريد العودة إليها[1]، والذي يعنينا هنا أنَّ هذه الانتقادات ما فتئت أن تجمَّعت وتفاقمت، فتحوَّلت إلى غضب ثم إلى ثورة ضدَّ الخليفة، انتهت بمقتله بصورة مروعة ما تزال محنة أليمة في تاريخ المسلمين.

لقد كان مقتل الخليفة عثمان بن عفان سابقة خطيرة في مسيرة الحضارة الإسلامية، إذ نتج عن هذا الحادث الأليم المفجع حرب أهلية ذهب ضحيتها آلاف المسلمين. وكانت هذه الحادثة البذرة الأولى التي تفتَّقت عنها الأحزاب والفرق الإسلامية التي نشأت مختلفة حول منصب الخلافة، ومنذ ذلك الحين أصبح للسيف وزن في تقرير أمر الخلافة وقيادة الأمَّة الإسلامية، أضف إلى ذلك أنَّ حادث اغتيال عثمان كان عاملاً رئيسياً في انقسام قريش على نفسها...ذلك الانقسام الذي استمر زمناً طويلاً بعد ذلك... وكانت هذه الفتنة هي الحادثة الأولى التي عبرت فيها القبائل عن وجهة نظرها في سياسة الخليفة وأحقيته في البقاء في الحكم، ومنذ ذلك التاريخ أصبح للقبائل دور كبير في اختيار الخليفة وتثبيته في منصبه، بعد أن كان هذا الدور مقصوراً على أهل المدينة ممثلين بكبار الصحابة من المهاجرين والأنصار[2].

لقد استغلَّت الأحزاب والعصبيات بمختلف ألوانها وأشكالها هذه الحادثة بعد ذلك أسوأ استغلال، مِمَّا أدَّى إلى فتن وحروب سوداء، سال

---

[1]- يراجع: د/أحمد شلبي: **موسوعة التاريخ الإسلامي**، م1، ص601

[2]- عوض خليفات: **نشأة الحركة الإباضية**، ص50 بتصرف.

فيها من دم المسلمين الكثير، وحفرت بينهم أخاديد من الكراهية والعنف والتمزُّق، ورفع بعضهم الدعوة للثأر لعثمان وسيلة للوصول إلى الحكم والسلطة، فجرت الحادثة مجرى المثل، فقيل لكُلِّ عمل يتخذ وسيلة لغرض مخفي: «كقميص عثمان»، ولا بُدَّ من القول إنَّ الأحداث الدامية التي شهدتها الساحة الإسلامية بعد ذلك لها صلة وثيقة، من قريب أو من بعيد، بهذه الفتنة العمياء، كما سنرى.

ـ خلافة علي بن أبي طالب «كرم الله وجهه»:

بعد مقتل الخليفة عثمان على النحو الذي ذكرناه سابقاً، اختير علي بن أبي طالب لتولي منصب الخلافة وقيادة الأمَّة الإسلامية المضطربة، ولا بدَّ من القول إنَّ علياً لم يحز على الإجماع، فقد كان غرة بني هاشم، وكان يطلب بالخلافة باسم القرابة من الرسول، وكان له أعداء كثيرون يكتمون العداوة أو يظهرونها، وحكم علي معناه العودة إلى حكم الصرامة والحزم، وقد وجد كثير من الناس الراحة في سهولة عثمان وتسامحه، وكان هناك كثيرون أثرَوْا بالباطل، وحصلوا ظلماً على نفوذٍ كبير، ومعنى حكم علي ضياع تلك المكاسب.

وقد تمّ اختياره بضغط من القبائل العراقية والمصرية التي اقتحمت المدينة، وبتأييد من أهل العاصمة، وخاصَّة الأنصار والهاشميين، وقد أدرك على نفسه أنَّ اختياره كان وليد فتنة قادها رجال القبائل من الأمصار خارج الحجاز، مِمَّا جعله يتردد بادئ الأمر في قبول منصب الخلافة، وقد واجهته فعلاً مشكلتان أساسيتان:

1) إعادة الاستقرار والأمن للدولة التي مزَّقتها الفتن والعصبيات،

وتصحيح بعض ماورثه عن خلافة عثمان.

2) القصاص من قتلة عثمان الخليفة السابق.

وقد بادر عقب توليه إلى إصدار أمرين في منتهى الصرامة، وهذان الأمران هما:

أ ـ عزل ولاة عثمان، وقد أرسل علي ولاةً بدلهم، ولكنَّ أكثر ولاته عادوا ولم يستطيعوا الدخول إلى الولايات التي حددها لهم.

ب ـ استرداد القطائع التي أقطعها عثمان لأقاربه، واسترداد الهبات التي منحها عثمان من بيت المال.

ونجح علي في بعض ما أراد ولكن الشام ـ حيث كان معاوية بن أبي سفيان ـ عصت أمر علي وتمردت عليه.

وقد تمخّض التمرُّد الذي عاناه من الشام ومن غيرها عن موقعتين حربيتين كبيرتين، تركتا آثاراً عميقة في نفوس المسلمين إلى يومنا هذا، والموقعتان هما: موقعة الجمل، وموقعة صفين.

1) موقعة الجمل:

بينما علي بن أبي طالب يجهز الجيش للسير إلى بلاد الشام، وإخضاع معاوية ومن معه، حدث ما لم يكن في الحسبان، إذ ثار عليه طلحة والزبير، وانضمت إليهما عائشة أم المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وجاءت عائشة وطلحة والزبير إلى البصرة، وانضمَّ إليهم خلق كثير، كان فيهم مروان بن الحكم وبعض بني أمية، وأيدها بعض أهل البصرة وعارضها آخرون، ووقعت معركة عنيفة بين الطرفين بعد أن لم تنجح السفارات بينهما، وكانت هذه أوَّل معركة تدور رحاها بين جيشين مسلمين، وقد سقط فيها عدد من المسلمين

يقدِّره بعض المؤرخين بعشرة آلاف، ويقدِّره آخرون بأكثر من ذلك.

ولا نحبُّ أن نخوض في تفاصيل هذه الموقعة للبحث عن أسبابها الحقيقية أو عن المسؤول الأوَّل في حدوثها[1]. فذلك كلُّه يبعدنا عن موضوعنا، إضافة إلى أنَّ الحقيقة تبقى نسبية على كلِّ حال، لأنَّ الحقيقة يعلمها الله وحده.

ولكن نتيجة هذه المعركة تركت أخاديد أليمة عميقة في نفوس المسلمين، أثَّرت في أحداث بارزة أخرى، أوتسببت فيها.

وإذا كان من نتائجها انتصار علي بن أبي طالب فإنَّ ذلك كان على حساب من قتل من المسلمين يقدرهم المؤرخون بخمسة آلاف أو أكثر[2]، فضعف بذلك جيش علي وخسر من أهل مكة والمدينة والبصرة عدد أكبر من ذلك، وخلف هؤلاء القتلى أحقاداً على علي، وليس معه مال يغدق على الأبطال وينعم على الشجعان، وعلى هذا كان مع علي أشتات من الناس أكلت منهم الحروب، وليس هناك ما يكلم جراحهم.

معاوية في الميدان:

وفي الجانب الآخر من العالم الإسلامي بسط معاوية يده على الشام، وهو الداهية الذي علَّمته الأيام كيف يملك القلوب عن طريق الدهاء أو العطاء، والشام بلاد غنية لم يعرف سكانها منذ دخول الإسلام حكماً أزهى ولا أطول من حكم معاوية.

---

[1]- يراجع د/أحمد شلبي: **موسوعة التاريخ الإسلامي**، ج1 ص622 وخليفات: **نشأة الحركة الإباضية** ، ص51.

[2]- ينظر **المصدر السابق**، ص626.

وبينما كان علي يخوض معركة الجمل، ويفقد من جيشه عناصر صالحة، كان معاوية يقوّي جيشه ويدعمه، ويفرق على أتباعه المال، ويثير هممهم ضدَّ قتلة عثمان.

في هذا الجو المشحون بالثورات النفسية والعصبية القبلية، واضطراب الأمر سياسياً وعسكرياً، زحف علي صوب الشام لإجبار معاوية على الخضوع، وحاول علي كما فعل مع ثوار البصرة - أنصار طلحة والزبير - أن يحل المشكلة سلمياً ودون إراقة دماء، وأرسل وفوداً إلى معاوية محاولاً إقناعه بالعدول عن رأيه، والرجوع إلى الجماعة، ولكن معاوية أصرَّ على موقفه معتمداً على تأييد أهل الشام له، وتقابل الطرفان في صفين في ذي الحجة من عام 36 (هجري).

2) موقعة صفين:

التقى الجيشان ووقعت المعارك عدة أيام، وكانت على شكل مناوشات حتى محرم من 36 هجري، حيث توقف القتال، وأعاد علي محاولته لإقناع معاوية ولكن دون جدوى، وفي صفر من العام نفسه تجدَّد القتال عنيفاً بين الطرفين، وقتل عدد هائل من الطرفين، واستطاع علي أن يكون قوة غالبة كادت أن تكسب له النصر، غير أنَّ معاوية عندما أدرك هزيمة جيشه لجأ إلى الحيلة، وهو أمر كان يفتقده علي في جميع مواقفه، فنجده قد انتصر في المعارك التي خاضها كلّها ولكنه كان يهزم في مواقف الدهاء، لأنَّه فيما أعتقد لا يؤثر الدنيا على الدين.

لمَّا أدرك معاوية أنَّ هزيمة جيشه وشيكة الوقوع صاح بعمرو بن العاص: «هلّم مخبأتك يا ابن العاص فقد هلكنا»، فهتف عمرو بجنده: «من كان معه مصحف فليرفعه على رمحه»، فرفعوا المصاحف منادين: «كتاب

الله بيننا وبينكم». وقد أدت هذه المكيدة من جانب الشاميين إلى نشوب الجدل والنزاع بين أتباع علي بن أبي طالب، إذ أنَّ فريقاً منهم كان يرى وجوب الاستجابة لطلب أهل الشام، واللجوء إلى تحكيم كتاب الله، وفريق آخر على رأسه علي بن أبي طالب رأى في رفع المصاحف خدعة من قبل الشاميين، ولكنّه تحت ضغط الأكثرية من جيشه لجأ إلى قبول فكرة التحكيم[1].

وقال إنَّ الاختلاف في جيش علي لم يكن حول فكرة التحكيم، وإنَّما تعداه إلى تعيين الشخصية التي تمثّلهم في أمر التحكيم، وبعد نقاش حاد ـ ظهر التنافس القبلي بين اليمنيين والقيسيين ـ اختير أبو موسى الأشعري ليمثّلهم في التحكيم على غير رغبة عليٍّ الذي كان يفضل عبد الله بن عباس، أمَّا الشاميون فقد اختاروا عمرو بن العاص، ولم يختلفوا حوله.

اجتمع الحكمان في شهر رمضان من عام 37 هجري. ولم يكن تكافؤ في هذا التحكيم، فعمرو بن العاص معروف بدهائه وحيلته، وكان في أبي موسى الأشعري طيبة ويسر، وكتب كتاب التحكيم بين الطرفين حيث ذكر اسم علي بن أبي طالب مجرداً من لقبه (أمير المؤمنين)، وتقول بعض المصادر[2] إنَّ النقاش بين الحكمين تحوَّل إلى اقتراح عزل علي و معاوية وترك الأمر للمسلمين ليولوا أمرهم من يشاؤون، وقدم

---

[1]- تجدر الملاحظة والتنبيه هنا إلى أنَّ المصادر التاريخية تختلف في إيراد تفاصيل هذه الموقعة، تنطلق في ذلك من منطلقات عصبية أو مذهبية، ينبغي على المسلمين اليوم تجاوزها لأنَّ الله وحده هو أعلم بحقيقتها، ومهما اجتهد الباحث في الموضوع فلا بد أن يكون منحازاً إلى وجهة نظر معيّنة، والله نسأل اللطف والسداد.

[2]- يراجع د/ أحمد شلبي: **موسوعة التاريخ الإسلامي**. ج1. ص630، وج2 ص640.

أبو موسى الاقتراح فوافق عليه عمرو، وتقدم موسى فأعلن الاقتراح، وتبعه عمرو فأعلن موافقته على عزل علي وأعلن تثبيته لمعاوية، وهكذا استعمل الحيلة والدهاء مرة أخرى .

نتيجة التحكيم:

بعد قراءة كتاب التحكيم ظهر نزاع جديد بين العراقيين حول فكرة التحكيم، وعارضه بعضهم بشدَّة مبررين ذلك أنَّه لا حكم إلا لله، وأنَّه لا يجوز تحكيم الرجال في أمرٍ وضح فيه أمرُ الله، وانتقدوا على عليٍّ رضوخه لمهزلة التحكيم، لأنَّه اعترف ضمنياً بأحقية خصومه بمجرد الشك في أحقيته هو في خلافة المسلمين، واستمرَّ الجدل والنقاش في صفوف العراقيين وهم في طريق العودة إلى الكوفة، وقد عبر المؤرخون عن هذا الخلاف الحاد بقولهم: «خرج الناس إلى صفين وهم أحباء متوادون، ورجعوا وهم أعداء متباغضون يضطربون بالسياط».[1]

وقبل وصولهم إلى الكوفة انشق جماعة من علي مِمَّن رفضوا التحكيم، ونزلوا بمكان قرب الكوفة يدعى حروراء، فعرفوا بعد ذلك عند المؤرخين بالحرورية، نسبة لهذا المكان. وتقول المصادر إنَّ الاتصال بين علي ومنتقديه ظل مستمراً، ومحاولة الوصول إلى حلٍّ سلمي عن طريق النقاش هو بغية الطرفين، وظلت جماعة منهم كانوا يصلون خلفه في الكوفة ينادون لا حكم إلا لله، وكانوا يطالبون علياً برفض فكرة التحكيم، وعدم إنفاذها، ولكن علياً ظلّ هو الآخر رافضاً طلبهم مصراً على موقفه وعدم النكث بما وعد به أو رضيه، وعندما يئس أصحابه منه لم يجدوا بدّاً من الانشقاق عنه

---

[1]- عوض خليفات: نشأة الحركة الإباضية، ص53.

والتفكير في انتخاب إمام جديد لهم يؤمن بفكرتهم، ويحقّق هدفهم واتفقوا على عبد الله بن وهب الراسبي إماماً لهم، وكاتبوا مؤيديهم في البصرة لينضموا إليهم وكان هذا الإجراء بداية لسلسلة من المواجهات العنيفة بين علي وأنصاره بالأمس جرى فيها دم كثير، وأزهقت نفوس مسلمة أغلبهم من الصحابة والقراء حملة كتاب الله[1].

3) موقعة النهروان:

تدل الوقائع التاريخية أنَّ موقعة النهروان سبقت بمفاوضات طويلة بين علي من جهة والذين انشقوا عنه عندما أصر على إنفاذ التحكيم من جهة أخرى.

وكان من بين الذين شاركوا في هذه المفاوضات الصحابي الجليل عبد الرحمن بن عوف، وعبد الله بن العباس، الذي أوفده علي لمناظرة الخارجين عنه، آملاً منه في أن يقنعهم للعدول عن موقفهم، وجرت بين عبد الله بن عباس وبينهم مناقشات طويلة، كانت نتيجتها عكس ما توخاه علي بن أبي طالب، وتذكر المصادر الإباضية أنَّ ابن عباس اقتنع بوجهة نظر المحكمة، واعتزل ابن عباس معسكر علي وفارقه. [2]

بعد فشل المفاوضات اضطر علي بن أبي طالب أن يسير إلى الخوارج جيشاً، وخطب فيهم يحثُّهم على الطاعة والعودة إلى رحابه، واشترطوا عليه

---

[1]- تختلف المصادر السنية والشيعية والإباضيَّة في إيراد التفاصيل والجزئيات، والله أعلم بالحقيقة.

[2]- ينظر السير الإباضية (مخ) رقم 158 مكتبة السيد محمد بن أحمد، سلطنة عمان رسالة موجهة من ابن عباس إلى علي. ورقة،30.

أن يتوب عما بدر منه، وينضوي تحت لواء إمامهم الجديد عبد الله بن وهب الراسبي، وذلك ما رفضه علي بصرامة.

ومن هنا يُفهم من المصادر الإباضية أن الخروج الحقيقي للمحكمة قد بدأ بالمسير إلى النهروان وليس قبل ذلك، وأنَّ المحكمة الأوائل لم يفارقوا علياً وهو في طريق العودة من صفين إلى الكوفة، بل بعدما تأكدوا من إصراره على إنفاذ ما وعد به معاوية، ففارقوه، ونزلوا حروراء حيث انتخبوا عبد الله بن وهب الراسبي إماماً، وبقيت الاتصالات جارية بين علي وأتباع عبد الله إلى حين يأسهم من تقريب الطرفين في مكان يطلق عليه النهروان، وقتل فيها علي من المحكمة أربعة آلاف رجل، وكان على رأسهم إمام أهل النهروان عبد الله بن وهب الراسبي. وتشير المصادر الإباضية إلى أنَّ أغلب القتلى كانوا من القراء والفقهاء، وأهل الشرف في الدين والرأي، منهم أويس القرني، وحرقوص بن زهير السعدي، وغيرهما من أفاضل الصحابة (رضوان الله عليهم).

ويبدو أنَّ نتيجة هذه المعركة كانت حداً فاصلاً بين علي وأنصاره، إذ تخلى عنه خيار أصحابه، وقيل خرج عنه في يوم واحد اثنى عشر ألفاً، وما زالت أيامه في الإدبار من يومهم، إذ نزع منه معاوية اليمن والحجاز ومصر، وغارت خيله على الأنبار، وقتلوا عماله، فلم يعد يسمع له كلام أو يمتثل له أمر، وقد تركت آثاراً كبيرة في نفوس المسلمين بعد ذلك.

بل تذكر المصادر الإباضية أنَّ علياً ندم ندماً شديداً على قتله أهل

النهروان[1] لأنَّهم أنصاره بالأمس، وكان يبكي بكاءً مراً لتذكرهم، واعترف علي نفسه أنهم ليسوا مشركين، ولا منافقين، بل كانوا من خيار المسلمين في الدين والرأي، وبهذا يكون خصمهم شاهداً على صدق نواياهم، وصلاح عقيدتهم، وهو ما يؤكد أنَّ المؤرخين الذين جاؤوا بعد هذه الأحداث المؤلمة، اجتهدوا في تشويه صورة الخارجين عن الإمام عليٍّ تشويهاً كبيراً.

فموقعة النهروان ذات نتائج خطيرة أهمها أنَّه لم يعد هناك أمل في عودة الخوارج إلى صفوف علي أو إلى صفوف الجماعة، وكان الخوارج يتذكرون ما حل بإخوانهم في النهروان فتشتد حماستهم، وتتأجج ثاراتهم، إذ لم يبق من الذين خاضوا النهروان في صفوف الخوارج إلا عدد قليل جداً، في نفوسهم جميعاً الثبات على المبدأ، والوفاء لمن قتل في النهروان، وقد انضم إليهم في تلك البلاد جمهور من الساخطين الناقمين، الذين جمعهم هدف واحد، وهو تحكيم كتاب الله في أمور الدين والدنيا، والوقوف أمام جبروت الأمويين وتسلطهم وهو هدف واضح بعكس ما تدعيه بعض الكتابات المعاصرة، حيث تزعم أنَّ الخوارج ثاروا ثم حاولوا أن يجدوا سبباً لثورتهم، بدعوى أنَّهم كانوا إلى البداوة أقرب، وكانوا قليلي الصلة بالثقافات الخارجية، وأن أفكارهم كانت قليلة العمق[2]. و«أنَّ الطبيعة

---

[1]- إن المصادر تختلف حول العدد الحقيقي للذين ماتوا من اهل النهروان، ولكنها متفقة على ارتفاع هذا العدد، ولكننا نلحظ مبالغة في بعض المصادرة المنحازة ضد الخوارج. يقول ابن قتيبة في **الإمامة والسياسة** ج1، ص144، «والله ما لبثوا إلا فواقا حتى صرعهم الله كأنهم قيل لهم موتوا فماتوا، ويقولون إنَّه لم ينج منهم إلا عدد لم يبلغ العشرة، وما قتل من المسلمين إلا أقل من عشرة» والنص لا يحتاج إلى تعليق.

[2]- د/أحمد شلبي: **موسوعة التاريخ الإسلامي**، ط5 1978 مكتبة النهضة المصرية القاهرة، ص239.

البدوية خلقت من جموعهم نفوساً مؤمنة متعصّبة، ولكنها ضيّقة العقول، ومتهورة مندفعة، لأنّها نابعة من الصحراء، وزاهدة في الحياة» [1]

ويصف أحد مصادر الشيعة معركة النهروان كالتالي:

«... وقتلت الخوارج كلها، وأمر علي بمن كان منهم ذا رمق أن يدفعوا إلى عشائرهم، وكانوا 400 رجلاً، وأمر بأخذ ما كان في عسكرهم من سلاح ودواب، فقسمه في أصحابه، وأمر بما سوى ذلك فدفع إلى ورّاثهم، وقيل لم يقتل من أصحاب علي إلا سبعة، أولهم زيد بن نويرة».

ويضيف المصدر وهو يتحدث عن الصحابي عبد الله بن وهب الراسبي إمام أهل النهروان: «...فلم يقع اختيارهم إلا على عبد الله بن وهب الراسبي، أعرابي بوّال على عقبيه، لا سابقة له ولا صحبة، ولافقه، ولا شهد الله له بخير، فمن أضل ممن هذه سيرته، واختياره...» [2]

يصف الكاتب بهذه الكلمات صحابياً جليلاً اشتهر بذي الثفنات لكثرة عبادته، معروف بعلمه وتقواه.

وهذا نموذج مختصر لاختلاف المذاهب حول نتائج موقعة النهروان وأسبابها، مِمَّا يؤكّد مرَّة أخرى واجب التحرِّي والتثبُّت من أخبار هذه المصادر المتضاربة.

---

[1]- د/عبد جابر السهيل: **الإباضية في الخليج العربي**، ط1994، ص45 ومابعدها.

[2]- خير الله طلفاح: **علي بن أبي طالب المسلم الأول...** ج15، بغداد 1983، ص193.

الفصل الثاني

نشأة الإباضية (مرحلة الكتمان)

1 ـ أبو بلال مرداس بن حدير، إمام الشراة المعتدلين.

2 ـ الإمام جابر بن زيد، العالم المؤسِّس.

3 ـ عبد الله ابن إباض، الزعيم السياسي.

4 ـ أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة، المخطِّط المحنّك.

أهل الدعوة في البصرة (الشراة المعتدلون):

بعد معركة النهروان بين علي وأنصاره السابقين تشتت أمر المسلمين المواجهين لسلطة معاوية، وضعف جيش علي ضعفاً كبيراً.

أمَّا تأثير النهروان على حركة المحكمة فقد كان عظيماً، إذ أصاب وحدتهم بالتمزق، وصفوفهم بالتشتت، وهذا يعود إلى عوامل متعددة منها:

1- فقدان القيادة الموجهة، والإمامة الموحدة، بعد مقتل إمامهم عبد الله بن وهب الراسبي، إذ لم يتفقوا على الشخص الذي يخلفه، وقد قتل أغلب أفاضلهم وقرائهم في معركة النهروان.

2- إنَّ هذه الجماعة شاعت فيها الفرقة، وساد الاضطراب حين افتقدوا وحدة المنهج، فتطرف من تطرف، وغالى من غالى، إذ تنكبوا الطريق السوي، باستعراض المسلمين بالسيف، واستباحة قتل الصبية والنساء في طيش ورعونة.

3- اشتداد أمر الأمويين وتقوية صفوفهم، ورسوخ دولتهم، بعد أن أطاحوا بالإمام علي وهزموه معنوياً وميدانياً، فلم يبق للأمويين عدوٌّ يحاربونه سوى الخوارج والشيعة، فشددوا قبضتهم على الخوارج بصفة خاصة فشتتوهم في البلاد، وأصابوا حركتهم بالضعف والوهن والتمزُّق.

حاولت بعض فرق الخوارج القيام بثورات متعددة ضد السلطة القائمة في الكوفة والبصرة، إلاَّ أن نشاطهم العسكري في الكوفة لم يستمر طويلاً، ولم يأت عام 59هـ، إلاَّ وقد قضي عليهم، وباءت حركاتهم هناك بالفشل، ولاسيما بعد تولي زياد بن أبيه (45-53هـ) الذي اتخذ إجراءات صارمة،

واستخدم طرقاً إبادية فظيعة، وكان مركزهم الأساسي البصرة، التي فرض زياد على أهلها التهديد والوعيد، حتى لا يتهاونوا في محاربة الخوارج أو قبولهم بين ظهرانيهم، ويروى عنه أنه كان يخطب في أهل البصرة قائلاً: «يا أهل البصرة، والله لتكفنني هؤلاء الخوارج أو لأبدأنكم، والله لئن أفلت منهم رجل لا تأخذون من عطائكم درهماً».

وهدَّد أيضاً القبائل العربية في البصرة بإجلائها وقطع عطائها، إن لم تساهم في قتال الخوارج، وكان يتبع سياسة القمع والتقتيل الفظيع حتى ضدَّ النساء، فإذا ظفر بامرأة من الخوارج، قتلها وعرَّاها وصلبها، وقد وضع هذا الأسلوب الوحشي حداً لخروج النساء اللاتي يخفن من الفضيحة والعري أمام الخلق.[1]

بينما كان الخوارج المتطرفون من الأزارقة والنجدات يقومون باستعراض المسلمين بالسيف، ويستحلُّون ما حرَّم الله من دماء المسلمين وأموالهم، قامت جماعة من أتباع الإمام عبد الله بن وهب الراسبي يستنكرون هذا السلوك المضاد للدين، ويخاصمون المتطرفين بالمراسلات والمناظرات محاولة منهم لإرجاعهم إلى الطريق السوي الذي نشأت من أجله حركتهم.

ولكن المساعي آلت إلى الفشل الذريع، بل إنَّ الخوارج المتطرفين زادوا في ثوراتهم واستعراضهم بشاعة وغلوًّا.

في هذا المناخ السياسي الصعب، ونظراً للعوامل السابقة، نشأت جماعة معتدلة انشقَّت عن الخوارج بعد معركة النهروان، واتخذت مدينة البصرة

---

[1]- يراجع **الكامل في اللغة والأدب** للمبرد، فهو من المصادر القديمة التي ساقت تفاصيل ووقائع هامة في هذا الصدد.

مقراً لها، ومركزاً أساسياً لحركتها، ومنهجها ـ كما سنوضحه ـ إيثار السِّلم، وعدم اللجوء إلى السيف إلا دفاعاً عن النفس، وكان زعيم هذه الحركة التي تعد نواة أولى للإباضية هو أبو بلال مرداس بن حدير التميمي.

فمن هو أبو بلال مرداس بن حدير؟ وماهي الحركة التي وضع بذرتها الأولى؟ وكيف اشتدت هذه الحركة وصار لها في التاريخ شأن وأي شأن؟ وما المنهج الدعوي الذي سلكه؟

ذلك ماسنتعرض له في المباحث اللاحقة إن شاء الله.

١ ـ أبو بلال مرداس بن حدير وجهاده:

ـ من هو أبو بلال؟:

هو مرداس بن حُدَيْر، وقد يقال: ابن أدية، وأدِّيَة أمه، وقيل جدته. وهو من قبيلة تميم، نشأ بالبصرة وعاش بها.

يعتبر أبو بلال من زعماء الإباضية ومؤسسي مذهبهم، لِما عرف عنه من جهاد في سبيل عقيدة أهل الدعوة والاستقامة، ولِما اتصف به من التقوى والعلم والشجاعة والاعتدال.

وبلغ من حسن سيرته أنَّ عدداً من الفرق والجماعات الإسلامية فيما بعد ـ كالشيعة والمعتزلة ـ ادعت نسبته إليها واعتبرته من أتباعها.

وأبو بلال ممن شهدوا مع علي بن أبي طالب «كرم الله وجهه» واقعة صفين، وحارب في صفوفه وأبلى بلاء حسناً، غير أنَّه وقف ضدَّ التحكيم بحزم، وأنكر على الإمام قبوله له.

وقد خرج أبو بلال مع من خرج إلى النهروان، ولكنه بعد أن شاهد ما

وقع بها من سفك دماء المسلمين، ورأى القتلى من أهله وعشيرته بالآلاف[1] ازداد يقيناً بأنَّ الغلو في فهم الأمور يؤدي بالأطراف المتقاتلة إلى ما لا تحمد عقباه.

وعلى الرغم من قناعته بموقف الرافضين للتحكيم إلاَّ أنَّه لم يرض بحال أن تؤول حال المسلمين إلى ما آلت إليه من تقاتل وتدابر واستحلال ما حرَّم الله من نفس ومال.

لذا فإنَّه مضى بعد انتهاء معركة النهروان عائداً إلى البصرة، حيث كانت قبيلته تميم، وكان بها الأحنف بن قيس أحد الوجهاء والزعماء وأحد القادة المجاهدين، إذ يقال إنَّه هو القائد الذي فتح جمهوريات الاتحاد السوفياتي الوسطى (طاجكستان حالياً).

وكان يميل إلى رأي المحكمة موافقاً على مسلكهم وخطتهم، فأوى إليه أبو بلال وأتباعه، فأسبغ عليهم حمايته، وقد أتاحت لهم هذه الحماية الفرصة لنشر دعوتهم المتميِّزة بالاعتدال والدعوة بالحسنى، مما جذب إليه الأنصار والأتباع، وكانت لأبي بلال علاقة حميمة بجابر بن زيد، ويقال: إنه كان يستشيره في خططه، وكانا يخرجان معاً من البصرة إلى مكة لطلب العلم من الصحابة[2]

وقد تزايد عدد أتباعه حتى لقد ابتَنوا لهم مسجداً خاصاً بهم في البصرة، ولم يكن أمرهم بطبيعة الحال خافياً على زياد الطاغية والي البصرة، ولكنه هادنهم لرأي رآه ولخطة محكمة ينسجها، ثم إنَّ ميلهم إلى الاعتدال

1- يقدرهم بعض المؤرخين بعشرين ألفاً ولكن العدد الصحيح يبقى مجهولاً.

2- ينظر في هذا الشأن: الرقيشي: مصباح الظلام(مخطوط) ورقة 19. والدرجيني: طبقات، ج2 ص88. الحارثي: العقود الفضية، ص157.

وتركهم مواجهة السلطة كلُّ ذلك جعل زياداً ينصرف عنهم، حتى يتفرغ لقتال الخوارج، وحتى لا تتعدد جبهات القتال أمامه.

2- دعوة أبي بلال:

كل المصادر التي كتبت عن أبي بلال قديمة كانت أو حديثة تنظر إلى هذه الشخصية الفذة بإعجاب شديد، باعتباره رمزاً من رموز الثورة على الظلم دون تهور، وطلباً للحق دون تجبر.

يقول الرقيشي في مصباح الظلام: «وأبو بلال المرداس بن عمرو بن حدير التميمي «رحمه الله»، وحُدَيْر بضم الحاء المهملة، وأخوه عروة بن عمرو بن حدير، ويعرفان بابني أُدية، وهي جدة لهما...وكان من حديثه وخبره أنه خرج «رحمة الله عليه» عهد الفاسق عبيد الله بن زياد، حين رأى ما انتهك من المسلمين، فلم يحمله ذلك وإن أخيف وانتهك من أوليائه من القتل والبغي وقطع الأيدي والأرجل وسمل الأعين بغير الحق، أن يستحل من قومه أمرا لم يحله الله، وأن يسير فيهم سيرة لم يسرها أحد ممن كان قبله من المسلمين. فسار أبو بلال رحمه الله حتى نزل فارس لا يدَّعي هجرة ولا ينتحلها، ولا يخيف آمناً ولا يستحل استعراضا، ولا يحل حرمة ولا يغنم أموالاً، ولا يسبي ذرية، ولا ينزل قومه منزلة أهل الأوثان، ولا يخرج مع النساء ولا العبيد، إلا أنَّ امرأة من أهل البصرة كانت مشهورة بالجمال، وكان طلبها عدوُّالله عبيد الله بن زياد، فخافت على نفسها أن يبطش بها، فانطلقت معهم هاربة بدينها من غير أن ترى الخروج عليها، فلما بلغوا الأهواز توفيت بها»[1]

1- الرقيشي: مصباح الظلام، مخطوط. ورقة 39ظ

رغم هذا الواقع الأليم الذي اتفقت المصادر كلها ـ حتى تلك المناوئة للشراة ـ على فظاعته، فإنَّ أبا بلال واجهه بقلب المؤمن الصابر الذي يحاسب نفسه على كلِّ كلمة يتفوه بها، وعلى كلِّ عمل يقوم به، استشعاراً منه بالمسؤولية العظيمة أمام الله، وإدراكاً بمنزلته القيادية عند قومه، والرائد لا يكذب أهله.

ونحسب أنَّ أبا بلال هو أوَّل من سنَّ في القعدة سياسة حربية إنسانية رائعة مستمدة من كتاب الله وسنة رسوله الكريم ﷺ.

وفي هذا الصدد يقول الدكتور نعمان القاضي مستنداً في قوله إلى المصادر القديمة: «وكان أبرز الخوارج في البصرة أبو بلال مرداس بن أدية التميمي، وهو شخصية نبيلة وفذّة حتى لتكاد تكون شخصية أسطورية في تاريخ الخوارج السياسي والعقدي، لأنَّه خالف عن كثير من معتقداتهم، فكان لا يرى اشتراك النساء في الحروب، وكانت حماستهن في القتال أمراً مشهوراً»[1].

إنَّ ما تميزت به دعوة أبي بلال هي إنكاره العنف طريقة ومنهاجاً، بناء على شخصيته المؤمنة التقية، واستناداً إلى تجربته الجهادية، واقتناعاً منه بأنَّ ذلك ليس من طبيعة الدين الإسلامي السمح، ثمَّ لأنَّه اتعظ من المصير الدامي الخطير الذي آلت إليه معركة النهروان، فكان يأمر أتباعه بعدم استعراض المسلمين بالسيف، وألاَّ يقاتلوا أحداً من مخالفيهم إلا إذا تعرضوا لعدوان أو واجهوا قتالاً، فالسلاح لا يستخدم إلاَّ في حالة الدفاع عن النفس، وكان يقول: «إنَّ تجريد السيف، وإخافة السبيل لأمر عظيم، ولكنا

1- د/نعمان القاضي: مرجع سابق ص169 نقلا عن الأغاني ج6، ص6.

نشذ عنهم، ولا نجرد سيفاً ولا نقاتل إلا من قاتلنا»[1]

حتى إن ابن زياد كان يقول عن مرداس وأتباعه: «لكلام هؤلاء أسرع إلى القلوب من النار في اليراع».

إنَّ دعوة أبي بلال حين اختارت الاعتدال والمخاطبة بالحسنى، لم تختر هذا المنهج إيثاراً للسلامة، وقعوداً عن الجهاد، كما ظن ذلك بعض أعداء الاعتدال، بل إنَّه كان يقف أمام الباطل بكل جرأة، ولعله كان يفعل ذلك في وقتٍ يلجأ فيه الجميع إلى الصمت وإيثار السلامة، ومواقفه في هذا الصدد أكثر من أن تحصى، وهي مشهورة معدودة في كتب التاريخ مثل الكامل للمبرد وغيره. ويكفي أن نذكر هنا أن أبا بلال وقف متحدياً الطاغية عبيد الله بن زياد حين وقف وقفته المستبدة المشهورة في البصرة، يتهدد الشراة (أو الخوارج) كما سماهم، يتوعدهم بالسجن والإبادة والمحق، وكان سلاح أبي بلال أمام الطاغية بسيطاً عفوياً، ولكنّه قوي مزلزل، إنه حُكم الله كما ورد في كتابه الكريم، وتذكر المصادر التاريخية هذا الموقف على النحو التالي:

«ومما جاء في خطبة ابن زياد المدعوة (البتراء) - لأنَّه لم يحمد الله فيها، ولم يصلِّ على النبيِّ -:

...إني رأيت آخر هذا الأمر لا يصلح إلا بما صلح به أوله، لين في غير ضعف، وشدة في غير عنف، وإني أقسم بالله لآخذن الولي بالمولى، والمقيم بالظاعن، والمقبل بالمدبر، والمطيع بالعاصي، والصحيح منكم بالسقيم، حتى يحذر الرجل منكم أخاه فيقول: انج سَعْداً فقد هلك سعيد، أو تستقيم لي قناتكم.

1- الدرجيني: **طبقات**؛ ج2 ص218

و أيْمَ ا لله أن لي فيكم لصرعى كثيرة، فليحذر كلٌّ منكم أن يكون من صرعاي...

فقام إليه أبو بلال مرداس بن أدية، وهو يهمس ويقول: أنبأنا [ا لله] بغير ما قلت، فقال: ﴿**وإبراهيم الذي وفى ألا تزر وازرة وزر أخرى وأن ليس للإنسان إلا ما سعى**﴾ (سورة النجم: 38)، وأنت تزعم أنَّك تأخذ البريء بالسقيم، والمطيع بالعاصي، والمقبل بالمدبر.

فسمعه ابن زياد فقال : إنا لا نبلغ ما نريد فيك وفي أصحابك، حتى نخوض إليكم الباطل خوضاً»* [1]

من الواضح الفرق البين بين الموقفين موقف الاعتدال الذي وقفه أبو بلال، وموقف العنف والتطرف الذي وقفه الطاغية ابن زياد، هما ينبئ منذ البداية أنَّ أسلوب الدعوة بالحسنى سيصطدم بصخرة العنجهية الأموية، وقد أدَّى ذلك فعلاً إلى أن يغيِّر أبو بلال منهجه في الوسيلة لا في الهدف.

استشهاد:

ما لبثت دعوته هذه أن تأصَّلت، وكثر حولها المريدون و الأتباع، ولكنَّ الأمر لم يستمر طويلاً، إذ سرعان ما تغيرت الأوضاع السياسية من

---

* - فسر محمد قرقش هذه الجملة الأخيرة على أنها إعلان من ابن زياد لمهادنة أبي بلال وجماعته، وهو خطأ واضح، وتفسير غريب، لأن المعطيات التاريخية كلها تضاده. (ينظر محمد قرقش: **عمان والحركة الإباضية**، ص 147.)

1- وردت الحادثة بنصوص مختلفة قليلاً : ينظر الجاحظ: **البيان والتبين**، ج2 ت: هارون، ط2 القاهرة 1388 ص62-65. أيضاً الطبري: **تاريخ الأمم**، ت: أبو الفضل القاهرة، 1971 ج5، ص217-221. **الكامل** للمبرد.

قبل السلطة الأموية، فحين تولى عبيد الله بن زياد مكان أبيه (سنة 55هـ) استعمل الشدَّة والقسوة المتناهيتين، وأعمل السيف في الرقاب دون رحمة أو لين، وطارد الفرق المعارضة لحكمه وعلى رأسها المحكّمة، وفتح السجون على مصراعيها، فعذّب، وقتل، ومثّل، وصلب، ولم تنج منه حتى النساء اللاتي كان يمتهن كرامتهن بشكل تتقزّز له الأبدان هوْلاً وفظاعة.

ولمَّا رأى أبو بلال ما حلَّ بمعارضي ابن زياد، وعلم أنَّه يجدُّ في طلبه، وأنَّه ظافر به لا محالة، عزم على الخروج من البصرة في ثلاثين رجلاً، وقيل أربعين، وقال لأصحابه: «إنَّه والله لا يسعنا المقام بين هؤلاء الظالمين، تجري علينا أحكامهم، مجانفين للعدل، مفارقين للفضل، والله إن الصبر على هذا لعظيم» وكان ذلك سنة 61هـ.

فاجتمع إليه أصحابه، فكان يقول لمن يلقاه موضحاً أصول دعوته: «إنِّي لا أجرِّد سيفاً، ولا أخيف أحداً، ولا أقاتل إلاَّ من قاتلني»، ويقول: «إننا لم نخرج لنفسد في الأرض، ولا لنروِّع أحداً، ولكن هرباً من الظلم، ولسنا نقاتل إلاَّ من يقاتلنا، ولا نأخذ من الفيء إلا أعطياتنا».

ونزل أبو بلال ببلد (آسك) من نواحي الأهواز في موضع بين رام هرمز وأرجان، غير أنَّ ابن زياد ما لبث أن أرسل جيشاً قوامه ألف رجل، ودار بين أبي بلال وقائد الجيش (ابن زرعة) حوار، ولمَّا حمل أصحاب أبي بلال عليهم حملة صادقة إيمانية، انهزم ابن زرعة هو وأصحابه بغير قتال خوفاً وهلعاً، فلما بلغ ذلك ابن زياد غضب من هزيمة جيشه غضباً شديداً، فاختار قائداً آخر هو (عبّاد بن أخضر) ووجَّه معه هذه المرة أربعة آلاف، فأتبع أبا بلال وأصحابه حتى لحقهم، وجرى بين أبي بلال وعبّاد الحوار التالي:

قال أبو بلال: ماتريد؟

قال: أردكم.

قال: أتدعونا إلى طاعة من يسفك الدماء، ويأخذ المال الحرام، ويعطّل الحدود، ويرتشي في الحكم، ويتسلط بالجبرية، ويقتل بالظنة، ويأخذ على التهمة، لا يقيل عثرة، ولا يقبل معذرة.

قال: نعرف ما تقولون، ولكن لهم مع ذلك الطاعة.

وقيل قال: كذبتم هو خير منكم، وأنتم أولى بالضلال منه.

وقدم القعقاع بن عطية الباهلي من خراسان يريد الحج، قال: ماهذا. قيل له: الشراة. فحمل عليهم، وانتشبت الحرب في يوم جمعة، وأبو بلال يتلو : ﴿**من كان يريد حرث الأخرة نزد له في حرثه**﴾(سورة الشورى: 20).

فأسروا القعقاع، فقال: لست من أعدائك، وإنما غُدرت ولم أعلم. وأطلقه، فرجع يقاتل، فحمل عليه (حريث وكهمس) فأسراه فقتلاه، فلما جاء وقت صلاة الجمعة ناداهم أبو بلال: «إنكم في يوم عظيم، فدعونا حتى نصلي وتصلوا». فأجابوهم.

فلما دخلوا الصلاة حملوا عليهم، فقتلوهم بين راكع وساجد، وقائم وقاعد.[1]

وهكذا استشهد أبو بلال ومن معه من أصحابه، ولم ينج منهم أحد ثباتاً و صموداً، وإيماناً، وهكذا طويت صفحة هذا الداعية الورع الذي آثر الاعتدال والدعوة إلى الله بالحسنى، فلم ينج من الظالمين الجورة، كما غدا قاتلوه مثالاً للجبن والجور وحبٍّ الدنيا.

---

[1]- الشماخي: السير؛ ص62. أيضًا الكامل، ج2، ص158.

أثر استشهاد أبي بلال في الدعوة من بعده:

كان لمقتل أبي بلال على أيدي الأمويين الجورة صدى عميق في نفوس أتباعه، وأثار الأحقاد والترات في نفوس الشراة، وعزموا على الانتقام له، والثأر من قاتليه، كما انبرى شعراء الخوارج يمدحونه ويعدونه من أبطالهم ورموزهم، وأصبح مرداس مثالاً للثبات والإيمان والصمود أمام الباطل، فلم يكن من السهل أن يترك الشراة دمه يذهب هدراً، ولذلك صمموا على الانتقام من عباد بن علقمة المزني قائد الجيش الذي أباد أبا بلال وأصحابه، ومنذ ذلك أصبح الاغتيال السري وسيلة من وسائل الدفاع والشراء معاً، ولم يكن منه بد أمام ازدياد ملاحقة ابن زياد، وتنكيله الشديد بالشراة، فقد ازدادت نقمته عليهم، فزجَّ قسماً منهم في السجون، وقتل عدداً آخر بطرق فظيعة منهم أخو أبي بلال عروة بن أدية التميمي.

وتورد المصادر الإباضية وغير الإباضية ما جرى من تمثيل وصلب وتعذيب للشراة في سجون ابن زياد، مما جعلهم يدخلون مرحلة جديدة من مراحل الكفاح، وهي مرحلة الكتمان حفاظاً منهم على مسيرة الدعوة، ووحدة الصف، واستمرار الجهاد، إلى أن يأذن الله بالنصر والظهور.

وقد ذكرت كتب غير إباضية واعترفت أنَّ أبا بلال كان ينتقد الاستعراض، ويتبرأ من أصحابه، ولم يتفطن إلى هذا التفريق والتمييز سوى بعض الكتاب المحدثين المنصفين، بالنظرة الموضوعية. وقد أشار الدكتور نعمان القاضي إلى موقف أبي بلال بهذه النظرة الفاحصة، حيث تكلم عن حركات الخوارج في البصرة فقال عمن تميز منهم بالاعتدال قائلاً: «وكان الشرفاء من الخوارج أمثال أبي بلال يتبرؤون منهم ويسخطون

عليهم...»[1].

والحق إن كتب التاريخ قد تذكر أعمال الخوارج باستنكار شديد، وتحامل ظاهر، ولكن بعضها لا يمر على بعض المواقف الإنسانية مرور الكرام لأنَّ ما في هذه المواقف من أخلاق سامية، وعظات بالغة، تنتزع الإعجاب انتزاعاً، وتملك على المسلم حنايا نفسه وتملؤها حدباً وعطفا.

يذكر الطبري أنَّ عبيد الله بن زياد قبض على مرداس أبي بلال، وأودعه السجن، ولكن السجان رأى عبادته وصلاحه، فكان يأذن له في مطلع الليل فينصرف إلى داره ويعود إلى السجن في مطلع الفجر دون أن يعلم ذلك أحد، وكان لعبيد الله بن زياد جليس على صلة صداقة بمرداس، فسمع هذا الجليس من ابن زياد ذات ليلة أنَّه ينوي قتل من بالسجن من الخوارج إذا أصبح، وصدرت الأوامر للسجان بتقديمهم صباحاً إلى السياف، فعرف مرداس وهو في بيته ذلك الخبر من جليس ابن زياد، وقيل لمرداس: انج بدينك ولا تعد إلى السجن، قال مرداس: إنِّي أكره أن أواجه ربي غادراً. وعزم على أن يعود في مطلع الفجر كعادته. أما السجان فأمضى ليلة سوداء إشفاقا من أن يعلم مرداس الخبر فلا يرجع.

فلما كان الوقت الذي يرجع فيه، إذا به يعود، فقال له السجان بعد أن شمله السجن: هل بلغك ما عزم عليه الأمير؟ قال: نعم. قال: ثم غدوت؟ قال: نعم، ولم يكن لي أن أخون، ولا أن أقابل إحسانك لي بفرار تعاقب أنت بسببه.

وفي الصباح جلس ابن زياد، وقدم الخوارج للموت، حتّى جاء دور مرداس فوثب السجان، وكان ظئراً لابن زياد، وأخذ بقدمه وقال: هب لي

1- الفرق الإسلامية في العصر الأموي؛ ص407.

هذا، وقصَّ عليه قصته. فوهبه له وأطلقه[1].

إنَّ المرء عند ما يحلل هذه المواقف لا يسعه إلا أن يطأطئ الرأس إكباراً وإعجاباً بهذه النفوس المؤمنة العظيمة، التي تحمل أرواحها في أكفها حباً في الشهادة، واستهانة بالدنيا، ليس في نظرتها أو تحليلها للأمور سوى أمر واحد: الإخلاص للعقيدة، والانقطاع لله.

هذه الخصائص النفسية العالية، والسلوك الإسلامي العظيم يجعل أقسى القلوبْ، وأعتاها تجبراً تلين وتصفح.

وممن غدا عند الشراة مثلاً في الجرأة على قول الحق في هذه المرحلة، ومواجهة الطغاة دون خوف، أو وجل، عروة بن حدير أخو بلال، هو في أشهر الروايات أول من رفض التحكيم في صفين، وكان له أتباع وأصحاب وشيعة، ولسنا ندري أي الأخوين أكبر عروة أم بلال.

يروي الطبري[2] أنَّ ابن زياد كان قد خرج في رهان له، فلما جلس ينظر الخيل اجتمع الناس، وحسبها عروة مناسبة ليقول كلمة الحق صادعة، وابن زياد في أوج جبروته، وأبهته، فيذكره بجرائمه، وتعديه لحرمات الله، فانطلق يقول له: «خمس كنَّ في الأمم قبلنا قد صِرن فينا، قال تعالى: ﴿**أتبنون بكل ريع آية تعبثون...**﴾ (سورة الشعراء: 128) ، ففهم ابن زياد من كلامه أنَّه بداية فتنة تقام، وترك رهانه، وأضمر الشرَّ لعروة الذي أدرك خطورة ما قام به، فتوارى.

غير أنَّ ابن زياد طلبه حتى قبض عليه، ومثل به أمامه، فقطعت يداه

1- الطبري: **تاريخ...** ج5، ص322.

2- يراجع الطبري ج6، ص175. أيضاً د/نعمان القاضي: **الفرق الإسلامية**، ص169.

ورجلاه، وقال له: كيف ترى؟ قال: أفسدت علي دنياي، وأفسدت عليك آخرتك».

وفي رواية أخرى: «...وكان عروة آية في التجلد والصبر، فعندما ظفر به ابن زياد، قال له: لأمثلن بك، فقال عروة: اختر لنفسك من القصاص ماشئت. فلمَّا أمر به فقطعت يداه ورجلاه، وصلبه على باب داره، التفت إلى بعض أهله فقال لهم، وهو مصلوب: انظروا إلى هؤلاء الموكَّلين، فأحسنوا إليهم فإنهم أضيافكم.

وأرسل ابن زياد إلى ابنة عروة فقتلها، ولقيت المصير نفسه امرأة أخرى شديدة الحماسة تدعى البلجاء، كانت تخطب خطباً ناريةً، مثيرة ضد ابن زياد، فقبض عليها وقتلها في سوق البصرة. وقد كان لكل هذا أثره البالغ في نفس أبي بلال...[1]

وقد عرف عروة إضافة إلى خصائصه الجهادية المشار إليها آنفاً، بعلمه وتواضعه، وأخلاقه الإسلامية العالية، وكان أبو عبيدة مسلم الذي سيصبح زعيماً محنكاً، وخليفة لجابر بن زيد مولى لعروة بن حدير، مما كان له أبلغ الأثر في مسيرة حركة أهل الدعوة، ولعله أثر لا يقل نجاعة من أثر أخيه أبي بلال مرداس. لذا يعده الإباضية من أيمتهم الأوائل المعدودين، ولكن كتب التاريخ لا تحله محله اللائق به، وقلما قرأنا من يحاول إبداء دور عروة في مسيرة حركة الإباضية؛ اللهم إلا إشارات خاطفة هنا وهناك من كتب السير.

والناظر في بعض الوقائع التاريخية التي حدثت في هذه المرحلة، يدرك

1- ينظر **لسان الميزان**، ج4، ص 162، **شرح نهج البلاغة** لابن أبي حديد، ج1، ص380، **المعارف** ص141، **العقد الفريد**، ج1 ص271. د/نعمان القاضي **مرجع سابق**، ص170.

أبعاد هذا النظام العجيب الذي لم يكن كتمانا عن خوف، أو سرية عن جبن، بل هو كتمان من أجل الوصول إلى مرحلة الظهور، وسرية حفاظاً على وحدة الجماعة، وتماسكهم أمام خصومهم، حتى لا يأخذهم على غرة أو فرقة. وقد عرف منهم شخصيات مرموقة، بلغت أعلى المناصب لأداء رسالة الشراة وإبلاغهم بما عساه يقع من أخطار محتملة.

فقد عرف عنهم صالح بن عبد الرحمان كاتب الحجاج وصاحب دواوينْ العراق، والذي قلب الدواوين إلى العربية، ثم كان على خراج العراق أيام وُلِي يزيد بن المهلب فأشجى يزيد، وقد كان يزيد بن أبي مسلم المقرب من الحجاج أيضًا يرى رأيهم ويتظاهر بغيره.[1]

ومن هذه النظم الدالة على حس سياسي وتنظيمي دقيق، أنهم كانوا يبثون العيون والأعوان حتى في أشد مواقع الحكم والسلطان عداء وخطراً.

فإن أبا بلال مؤسس هذا النظام كان من قواعده بث العيون في مجالس زياد وابنه عبيد الله، فكان هؤلاء الأعوان يخبرونه بما يعزم الحاكم عليه من إجراءات ضد الشراة قبل أن يباغتوا بها. حتّى كان يتخذ الحيطة والحذر، من ذلك مثلاً أن غيلان بن خرشة الضبي، سمر ليلة عند زياد ومعه جماعة، فذُكر أمر الخوارج، فأنحى عليهم غيلان، ثم انصرف بعد ليل إلى منزله، فلقيه مرداس بن أدية فقال له: «ياغيلان، قد بلغني ما كان منك الليلة عند هذا الفاسق من ذكر هؤلاء القوم الذين شروا أنفسهم وابتاعوا آخرتهم بدنياهم، مايؤمنك أن يلقاك رجل منهم أحرص - والله - على الموت منك على الحياة، فينفِذَ حِضنَيْك برمحه» فقال غيلان: «لن يبلغك أني ذكرتهم

1- المبرد: **الكامل**، ج1 مكتبة المعارف بيروت (و.ج) ص355.

بعد الليلة»[1].

فإذا صحت هذه الرواية التي رواها المبرد، دلتنا على النظام الدقيق والسرعة العجيبة التي بلغ بها الخبر أبا بلال.

ويروي المبرد أنَّ غيلان هذا هو الذي حدث أبا بلال عن عزم عبيد الله بن زياد بقتل البلجاء، إحدى البطلات اللائي بعن أنفسهن لله، وعدم التطأطئ حتى للجور والمذلة. فهل كانت الحادثة الأولى التي وقعت في عهد زياد فرصة لتوبة هذا الرجل وانضمامه إلى الشراة، حتى أصبح عيناً لهم وعونا في مجالس عبيد الله بن زياد، بعد أن جاء إلى الحكم بعد أبيه زياد.

هكذا يورد المبرد الرواية متحدثاً عن أبي بلال وسيرته ومكانته عند الشراة : «...وهو أحد بني ربيعة بن حنظلة، تعظمه الخوارج، وكان مجتهداً كثير الصواب في لفظه، فلقيه غيلان بن خرشة الضبي، فقال: يا أبا بلال إني سمعت الأمير البارحة عبيد الله بن زياد يذكر البلجاء، وأحسبها ستؤخذ. فمضى إليها أبو بلال فقال لها: إنَّ الله قد وسَّع على المؤمنين في التقية فاستتري، فإنَّ هذا المسرف على نفسه، والجبار العنيد، قد ذكرك. قالت: إن يأخذني فهو أشقى بي، فأمَّا أنا فما أحبُّ أن يعنت إنسان بسببي، فوجه إليها عبيد الله بن زياد، فأتي بها، فقطع يديها، ورجليها، ورمى بها في السوق. فمر أبو بلال، والناس مجتمعون، فقال: ما هذا؟ فقالوا: البلجاء، فعرج إليها فنظر، ثم عضَّ على لحيته، وقال لنفسه: لَهذه أطيب نفساً عن بقية الدنيا منك يا مرداس»[2].

ثم إن عبيد الله تتبع الخوارج فحبسهم وحبس مرداساً، فرأى صاحب

1- **الكامل في اللغة والأدب**، ج2، ص158.

2- المبرد: **الكامل**، ج1 ص 182

السجن شدة اجتهاده، وحلاوة منطقه فقال له: إني أرى لك مذهباً حسناً، وإني لأحب أن أوليك معروفاً، أفرأيت إن تركتك تنصرف ليلاً إلى بيتك أتدْلَجُ إليّ؟ قال: نعم. فكان يفعل ذلك به، ولج عبيد الله في حبس الخوارج وقتلهم، فكُلِّم في بعض الخوارج فلجَّ وأبى وقال: «أقمع النفاق قبل أن ينجم، لكلام هؤلاء أسرع إلى القلوب من النار في اليراع».

فلما كان ذات يوم قتل رجل من الخوارج رجلاً من الشُّرَط، فقال ابن زياد: «ما أدري ما أصنع، كلما أمرت رجلا بقتل رجل منهم، فتكوا بقاتله، لأقتلن من في الحبس منهم...» [1]

وهكذا نرى التقية عند الشراة لم تكن استسلاما للظلم، أو رضوخاً للذلّ، ولكنها أسلوب يصاحب مرحلة الكتمان، ولا يتجاوزها من القول إلى الفعل. هذه نظرة الشراة إلى التقية عملياً كما دلتنا على ذلك هذه الحوادث، ورؤيتهم إليها مبدأ وعقيدة، كما تفصح عن مدلولها كتب العقيدة عندهم.

وشتان بين التقية عند الشيعة والتقية عند الشراة، تلك تقية القول والفعل يقف وراءها الخوف، والجبن، وهذه تقية الإيمان بالمبدأ والإصرار عليه.

وتروي كتب التاريخ مشاهد بطولية في مواقف الشراة من الظّلمة، تشهد لهم بالصلابة أمام الحقّ، والجرأة ضدَّ الباطل، والصدع بالحقّ أمام السلطان الجائر.

1- المصدر نفسه.

2 ـ الإمام جابر بن زيد، العالم المؤسس:

إنَّ المطّلع على الفكر الإباضي قديماً وحديثاً يلحظ مدى اهتمام المؤرّخين والكتاب بإرجاع التكوين المذهبي للإباضية إلى الإمام جابر بن زيد الأزدي العماني، هذا التابعي الجليل الذي تشهد المصادر كلُّها على فضله وعلمه، وورعه وتقواه، وذلك ما جعل بعض الكتابات المناوئة للإباضية تنفي علاقة جابر بن زيد بالإباضية وتنكر أخذه بمبادئ المحكّمة، وذلك حتّى يجردوا هذا المذهب من أحد عناصره القوية، بل أن يقوّضوا أساسه ومعتمده.

ويدل تعلق الإباضية بهذا الإمام، وإرجاع أصولهم إليه على الاهتمام الذي يولونه إلى الجانب العقدي والديني والفكري في نشأة المذهب وواضع أسسه، وهم لا ينكرون في الوقت نفسه أنَّ تسمية الإباضية بهذا الاسم إنَّمَا تعود إلى عبد الله بن إباض التميمي المُرّي، اعترافاً بفضل ابن إباض وما قام به من دور في ترسيخ قواعد المذهب سياسياً ولاسيما في بداية أمره، ولكنهم لا يولون عند التأصيل الجانب السياسي ما يولون الجانب العقدي، مما يؤكدّ نظرتهم إلى أنَّ الفارق بينهم وبين مخالفيهم ليس سياسياً بقدر ما هو عقدي ديني، ولو بدأ الخلاف حول قضية تبدو سياسية وهي نظرية الحكم. وهناك أسباب أخرى يعود إليها حرصهم على الانتساب إلى الإمام جابر سنذكرها في مكانها من البحث.

ومن هنا فإنَّ معرفة المنهج الدعوي الذي سلكه هذا الإمام باعتباره المؤسس الرئيس، والمخطط الأساسي لأصول المذهب ومبادئه ضروريٌّ للوقوف على مدى موافقة الأصول التي اعتنقها أتباع المذهب للكتاب والسنّة، باعتبار أنَّ الإمام جابر بن زيد يعدُّ من أوَّل التابعين تتلمذا على كبار الصحابة

رضوان ا لله عليهم، وأقرب أيمة المذاهب وأسبقهم أخذاً عنهم.

من هنا يعدُّ الإمام جابر بن زيد المؤسس الحقيقي للمذهب الإباضي، فهو الذي أرسى أسسه العقدية ودوَّن فقهه، ونظّم حركته. وتلامذته هم الذين واصلوا المسيرة من بعده، ونشروا المذهب في كل أصقاع المعمورة.

فمن هو جابر بن زيد؟

هو أبو الشعثاء جابر بن زيد الأزدي الجوفي البصري من قبيلة اليحمد العمانية، وقد اختلف في معنى نسبته إلى (الجوف)، أهي (درب الجوف) في البصرة حيث استقر مع أسرته، أم هي (جوف الحميلة) وهي المنطقة التي تقع فيها (الفَرْق) حيث ولد[1].

وقد اختلف في سنة ميلاده مابين 18و22 هجري، ويبدو أنَّه نشأ بعمان ثمَّ انتقل إلى البصرة في وقت مبكر من حياته، حيث راح يطلب العلم، وكانت البصرة قبلة طلاب العلم لما اشتهرت به من حركة علمية وثقافية واسعة، إضافة إلى اعتبار البصرة بلداً ثانياً للعمانيين لما كانت تعج به من قبائلهم التي استقرت بها منذ عهد بعيد.

وقد تتلمذ جابر بن زيد على أيدي كثير من الصحابة والتابعين، وأخذ عنهم مختلف العلوم التأسيسية، وكان جابر يقول: «أدركت سبعين بدرياً فحويت ما عندهم من العلم إلا البحر» ويعني به عبد ا لله بن عباس بحر الأمة وترجمان القرآن، فقد كان هذا الإمام يستمد علمه بالشريعة الإسلامية من مصادرها، ويعب سلسالها من منابعها، ويكفي أنَّه تتلمذ في ذلك على عائشة أم المؤمنين زوج الرسول ﷺ، وعبد ا لله بن عمر، وعبد ا لله بن

1- تقع الفرق على يمين الذاهب إليها من نزوى على بعد 130 كلم من مسقط.

مسعود، وأنس بن مالك، وهم يعدون من كبار الصحابة، ومن أقرب المقربين إلى رسول الله ﷺ، وهذا الاقتراب من الرسول يجعلنا على ثقة كاملة من المعلومات التي وصلتنا عن طريق الإمام جابر بن زيد، سواء أتعلق ذلك بالأصول أم بالفروع.

وقد أجمعت الأمَّة على ورعه وتقواه، وسعة تبحره في العلم، ويكفيه فخراً شهادة بحر الأمة عبد الله بن عباس فيه. وقد كان جابر من أنجب تلامذته، حتى قال فيه ابن عباس: «لو أنَّ أهل البصرة نزلوا عند قول جابر ابن زيد لوسعهم علماً عما في كتاب الله»، وكان يحيل سائليه على تلميذه جابر ويقول: «اسألوا جابر بن زيد ، لو سأله أهل المشرق والمغرب لوسعهم علمه»، وعندما يسأله أناس من أهل البصرة كان يرد عليهم بقوله: «كيف تسألونني وفيكم جابر»، وقد وصفه عبد الله بن عمر بأنَّه من فقهاء أهل البصرة البارزين، وشهادات الصحابة في جابر بالحفظ والعلم والتثبت والورع كثيرة، يمكن الرجوع إليها في مصادرها[1].

إن أبرز سمة اشتهر بها إمام الإباضية جابر بن زيد هو سعة علمه، وتبحره في الفقه، ودرايته بالسنة، وقد اشتهر بصفة العالم الذي أعطى حياته للعلم، وليس أدل على ذلك من أنَّ كل الذين تحدثوا عن شخصية جابر وقفوا مبهورين أمام تفقهه في الدين، وتبحره فيه، والذي يعطي القيمة العلمية لهذه الشهادات كونها صادرة عن فقهاء أجلاء من صحابة رسول الله ﷺ ومن كرام التابعين الذين كانت لهم مكانة

1- ينظر مثلاً: البخاري: **التاريخ الكبير**، ج1 ق6، ص204 . **حلية الأولياء**، ج2، ص85. ابن حجر: **تهذيب التهذيب**، ج2 ص61. الذهبي: **تذكرة الحفاظ**؛ ج1، ص68، 72. وغيرها من المصادر الإباضية مثل: الدرجيني: **طبقات**، والشماخي: **سير**...

معتبرة في العلم والدين.

ولعلَّ حرص جابر بن زيد على العلم والتعلُّم طوال حياته رغم مسؤولياته السياسية العظيمة كان امتثالاً لقوله تعالى: ﴿**فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقّهوا في الدّين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلّهم يحذرون**﴾ (سورة التوبة: 123). هذا الامتثال هو الذي كان سببا في عدم ظهوره للناس زعيماً سياسياً للفرقة الإباضية بالبصرة، مما جعل كل الذين كتبوا عن هذه القضية يتساءلون عن الأسباب التي جعلت شخصية مثل جابر، مشهودا له بالعلم، مشهوراً في الأوساط العلمية أنئذ، لا يتفطن لدوره القيادي ذاك.

إنَّ انشغال جابر بالتكوين العلمي، وإرساء قواعد المذهب على أسس علمية دينية ثابتة، هو الذي منعه من الانشغال بالسياسة، فكان أن كلّف بها أحد تلامذته مثل عبد الله بن إباض أو أحد زملائه وأصحابه مثل مرداس بن حدير.

فقد ارتبط بجابر في البصرة جماعة كبيرة لأخذ العلم عنه سواء من التابعين أي من طبقته أو من تابعي التابعين، ومن أشهر هؤلاء قتادة شيخ الإمام البخاري، وعمرو بن دينار، و عبد الله بن إباض، وأبو عبيدة مسلم، وضمام بن السائب، وأبو نوح صالح الدهان، وسلمة بن سعد الحضرمي حامل المذهب الإباضي إلى المغرب، وواضع الحركة بها، كما تخرج على يد جابر تلامذة من عمان وخراسان، وحضرموت، واليمن وغيرها، وهكذا أصبح مؤسساً لمدرسة فكرية مستقلة في عصره، وظل متفرغاً للعلم والدراسة طول حياته، رافضاً تولي المناصب الإدارية في ولاية البصرة رغم إغراءات الحجاج وأمثاله[1].

1- الدرجيني: **طبقات** ج2 ص 61، وانظر قرقش: الحركة الإباضيَّة في عمان. ص130-131.

والمصادر غير الإباضية تعتبره من أهم علماء المسلمين في البصرة، فكان في نظرتها حجَّة في أقواله وتفسيراته، واحتجَّ بأقواله مجموعة من المفسِّرين والفقهاء، فقد وردت إشارات بمكانته العلمية عند السيوطي وابن حجر، وقال عنه ابن تيمية بأنَّه أعلم الناس في زمانه، وروى علماء السنة في البصرة عنه الحديث، وأجمعوا على عدالته وحفظه، بل إنَّه يعتبر من رجال أصحِّ الأسانيد.[1]

من الشهادات المتقدمة يتبين لنا بوضوح أنَّ جابراً قد اكتسب علماً واسعاً، وأنَّه أصبح من أكابر العلماء في عصره، ولاسيما في علوم الشريعة الإسلامية، وكان يعتبر لمكانته تلك من أبرز المفتين في البصرة، ولعلَّه ثاني اثنين بها مع الحسن البصري، فقد كان الحسن من أعز أصدقائه، وكان ينيبه في الفتيا عندما يتغيب عن البصرة، وقد ساعد جابراً على الوصول إلى هذه المكانة المرموقة انصرافه الكلي إلى العلم وازوراره عن مباهج الدنيا وزخارفها، وقد أثرت عنه في سلوكه هذا آثار تدعو إلى الإكبار والتقدير، فقد كان يقول: «سألت ربي عن ثلاث فأعطانيهنَّ، سألت زوجة مؤمنة، وراحلة صالحة، ورزقاً كفافاً يوماً بيوم.» وكان يخاطب أصحابه ويقول: «ليس منكم رجل أغنى منِّي، ليس عندي درهم وليس عليَّ دين».

والواقع أن المصادر السنية و الإباضية تسهب في الحديث عن زهد جابر وانصرافه إلى الدرس والتحصيل، حتَّى أصبح بعلمه مرجعاً لكل سائل في أمور الفتيا والفقه الإسلامي، وكان بعض الناس ممن يسكنون خارج البصرة يكتبون إليه مستفسرين عن مسائل ومشاكل فقهية، فيجيبهم

1- أبو نعيم الأصفهاني: **حلية الأولياء**، ج3، ص12.

عليهن، وتبعاً لذلك فقد وصفه أتباعه بأنه بحر العلم وسراج الدين.[1]

إنَّ دور جابر لم يقتصر على ميدان العلم والفتوى، وإنما كان نموذجاً لهذا الصنف من العلماء الذين يسخرون علمهم لإسعاد الأمَّة الإسلامية، ومحاولة تغيير الواقع السيء إلى واقع أفضل، فجاهد لإحياء سنة رسول الله بالقول والعمل، ودعا إلى التمسُّك بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ سراً وعلناً، وحارب الظلم والجور، وواجه الانحراف والانحلال، فكان يبارك الدعوة التي تسعى إلى الإطاحة بالظلم بالثورة عليه، وتسعى إلى نزع الحكم من أيدي الجبابرة إلى أيدي العدول من أمة محمد ﷺ.

كان لابد عندئذ أن تكون له صلة قوية بأهل الدعوة، بل كان لابد أن يكون هو قائدها ومنظمها ورائدها، ولوسلك في ذلك سبيل السرية والتقية كما سنوضح.

فكيف بدأت علاقة جابر بأهل الدعوة. ومتى؟

الإمام جابر وصلته بالقعدة.

حسب المعطيات التاريخية، والاستنتاجات المعتمدة على بعض الأحداث التي وقعت في حياة جابر، يحتمل أن يكون اتصاله بالقعدة بدأ بعد لجوء مرداس بن حدير التميمي وأصحابه إلى البصرة في أواخر العقد الرابع من القرن الأول الهجري، وبالتحديد ما بين (56-64)هـ ، وكان عمره إذ ذاك ثلاثا وعشرين سنة، فقد ذكر أنَّ جابراً كان يصلي الجمعة في المسجد الجامع في البصرة خلف ابن زياد، ربما إمعاناً في التقية والسرية،

1- ينظر **رسائل الإمام جابر** (مرقون) بالمكتبة الإسلامية روي سلطنة عمان. ويراجع، الأستاذ يحي بكوش: **فقه الإمام جابر**، دار الغرب الإسلامي بيروت 1987.

حتى لا يلفت أنظار الأمويين إليه، وهم يتتبعون أهل الدعوة بالسجن والقتل والتعذيب، وثمة رواية تؤيد صلته الوثيقة بالحركة وقيادته لها، يقول أبو سفيان محبوب بن الرحيل: «إنَّ شيخاً من الإباضية يدعى أبو سفيان قنبر قد أخذه عبيد الله بن زياد وجلده ليدل على أحد من المسلمين [الإباضية] فلم يفعل، قال جابر بن زيد : وكنت قريباً منه، وماكنت أنتظر إلا أن يقول هذا هو، فعصمه الله.»[1].

ويذكر أبو سفيان أنَّ جابراً كانت له علاقة وطيدة حميمة بزعيم القعدة أبي بلال، وكانا يخرجان معا إلى مكة أداءً للعبادة وطلباً للعلم عن ابن عباس وعائشة.

وقد أدرك أبو بلال مكانة جابر العلمية والسياسية ـ ولاشك ـ مما جعله لا يفارقه آناء الليل وأطراف النهار، وقد ذكر صاحب بيان الشرع عن أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة أنه قال: «لقد كان أبو بلال رحمه الله يبكي في جوف الليل حتى ما يطيق أن يقوم، ولقد كان من تشوقه إلى إخوانه أنَّه يخرج من عند أبي الشعثاء جابر بن زيد بعد العتمة، ثم يأتيه قبل الصبح فيصلي معه، فيقول له جابر: يا أخي شققت على نفسك، فيقول : والله، ولقد طال ما هبت نفسي بلقائك شوقاً إليك حتى أتيتك».[2]

يتضح مما تؤكده المصادر الإباضية أنَّ جابراً كان وثيق الصلة بالحركة منذ البداية، وأصبح زعيمها وإمامها[3]، وقد ارتكزت زعامته على مايلي:

1- الشماخي: **سير** ص96.

2- الحارثي: **العقود الفضية**، ص107.

3- يقول الرقيشي: «وقد بلغنا أن أبا بلال مرداس بن حدير رحمه الله، وغيره من أيمة المسلمين، لم يكونوا يخرجون إلا بأمر إمامهم في دينهم جابر بن زيد العماني رحمه الله ومشورته، ويحبون ستره عن الحرب لئلا تموت دعوتهم، وليكون لهم ردءا». الرقيشي: **مصباح الظلام**، مخ ورقة 39.

1ـ سلك الإمام جابر طريقة الكتمان والعمل المفتوح معاً، فهو ينهج منهج الكتمان في إطار العمل السياسي، وهو يعمل بطريقة مفتوحة أمام الجميع في المساجد في الإطار الديني، والأمور العامة التي تنأى عن السياسة، حتّى لا يلفت أنظار الأمويين إليه، فكان ينشر آراءه، ويبث أفكاره بين الناس من خلال أحاديثه الدينية، وفتاويه، وأجوبته.

2 ـ الحذر الشديد في اختيار المنضمّين إلى أهل الدعوة، وإمعاناً في كتم أمر دعوته، فقد كان يأمر أتباعه بالقضاء على كل من يدل على عورات أهل الدعوة أو يكشف أسرارهم، أو يبوح بأسمائهم، فإن حدث أن ترك أحد أتباع الفرقة مذهبه، وتخلى عن مبادئه دون طعن أو إفشاء سرٍّ تركوه، ولكن إذا ثبتت خيانته وعمله مع السلطة الأموية بإفشاء أسرار الجماعة، والجوسسة عليهم، أحلوا دمه وتخلصوا منه.

فقد جاء شاب إباضي إلى جابر يسأله عن أفضل الجهاد، فقال: «قتل خردلة» وكان خردلة هذا عيناً للسلطة الأموية، نال المسلمين بوشايته ظلم كبير وكان الشاب لا يعرفه، فأراه إياه رجل من المسلمين [الإباضية] في المسجد بأن وضع يده على كتفه حتى لا يخطئه، فضربه الشاب بين كتفيه بخنجر مسموم فمات.».

وبعض العلماء يتخذ من هذه الحادثة ـ إن صحت ـ دليلاً على جواز الاغتيال السري، وسيلة لمقاومة السلطة الغاشمة عندما تقوم الأدلة على ثبوت خيانة الشخص[1].

3 ـ تجنب الاحتكاك المعادي للسلطة، اعتباراً بما وقع من عبيد الله بن زياد من ملاحقة أهل الدعوة وتعذيبهم وسجنهم، وعلى الرغم من أنَّ

1– **العقود الفضية**، ص101.

جابراً كان ينشط تحت حكم الحجاج إلا أنَّ الحجاج لم يستطع أن يتفطن إلى حقيقة أمره في البداية، فكان جابر يتستر بالصلاة خلف الحجاج، وقبول أعطياته، وكان يزور الحجاج ويتردد عليه، ويقال إنَّ هذه السياسة نجحت بفضل فطنة جابر، وتوسط كاتب الحجاج يزيد بن أبي مسلم الذي كانت له علاقة حميمة بجابر وكان يرى رأيه، ويذهب مذهبه، ولكن هذه العلاقة لم تصل حدَّ التعاون مع السلطات الجائرة، إذ عرض الحجاج القضاء على جابر فرفضه متعللاً بضعف شخصيته، ولعلَّه فعل ذلك تمويهاً على الحجاج حتى يطمئن إلى أن رجلاً بلغ من الضعف درجة كبيرة لا يمكنه أن يقوم بتأسيس حركة سرية منظمة، لأنَّ جابراً كان مستهدفاً من قبل السلطات الأموية. ويدل على ذلك ما جاء في رسائله وفتاويه، حيث ينهي رسائله غالباً بالطلب من مستفتيه بإحراق الرسالة حتى لا تتفطن السلطات وأمراء الجور إليه.[1]

4 ـ نشر الدعوة بالحوار والإقناع، ومذاكرة دروس العقيدة والفقه حيثما حلَّ، ومن هنا يفسَّر حرص جابر على الحج كل سنة لأنَّ الحج كان ملتقى خيِّرا يجمع الأصحاب للمذاكرة، والمراجعة، والتخطيط، وظلَّ حريصاً على موسم الحج الذي يربطه بأهل المذهب مدَّة عشرين سنة أو تزيد.

وكان جابر يستخدم طرق الإقناع للتأثير في الناس حتى يتقبلوا دعوته، ووجه قسماً كبيراً من نشاطه إلى إقناع بعض آل المهلب حتى ينضموا إلى حركته، لأنَّ مكانة هذه القبيلة معروفة ومرموقة في العراق، فقد كانت زعيمة الأزد بها، حيث استطاعوا بدهائهم ونفوذهم أن يتسللوا إلى أجهزة

1- يراجع رسائل الإمام جابر.

الحكم الأموي. وقد نجح جابر فعلاً في خطته إلى أبعد الحدود، ولعلَّ ذلك أكسبه تغطية من آل المهلّب لدى الحكام، وستراً يقيه من أن يتعرضوا له بأذى. وبفضله انضم كثير من النساء المهلبيات إلى حركة الشراة وقدَّمن جهوداً كبيرة لنصرة المذهب الإباضي ببذل أموالهن، ومساعدة المحتاجين من المذهب.

ظلَّ هذا هو أسلوب جابر إلى أن تفطن الحجاج، وانقلب على آل المهلب، فانكشف أمرجابر وزج به الحجاج إلى السجن، ثم نفاه إلى (عمان) وما علم الحجاج أنَّ نفي جابر إلى عمان سيكون كلُّه خيراً وبركة لأنَّه أعاد البذرة إلى تربتها الصالحة، حيث المناخ الملائم لتزعرعها بين ذويها وأهلها. ومن عمان امتدت مخططات جابر لتشمل كلَّ الأمصار الإسلامية[1].

وهكذا وبفضل حنكة جابر، وبُعد نظره لم تعد الدعوة معتمدة على العنصر القبلي التميمي كما كانت إبان معركة النهروان، فقد استطاع أن يؤثِّر على قبائل أخرى، وامتدَّ إشعاع دعوته إلى اليمن، وحضرموت، وعمان، والحجاز، وخراسان.

ولم يمت جابر بن زيد إلاَّ وقد غدت الدعوة الإباضية حركة إسلامية شاملة اجتذبت عناصر مختلفة، وأخذت القناعات المذهبية لدى كثير من أتباع الدعوة تحلُّ محل الولاءات القبلية والعرقية.[2]

ومن هنا فإن خليفة جابر في زعامة الحركة كان من الموالي وهو أبو

1- يراجع، **العقود الفضية**، ص102 وما بعدها. كذا **طبقات المشايخ** للدرجيني. **وسير الشماخي...**

2- خليفات: **نشأة الحركة الإباضية**؛ ص98

عبيدة مسلم بن أبي كريمة مولى بني تميم، وكان عمله هذا إرهاصا لما تم على يد تلميذه الداعية العظيم أبي عبيدة الذي درَّب الدعاة، وأرسل بهم إلى مشارق الأرض ومغاربها، وحقّقت الدعوة على يده نجاحاً باهراً لم يسبق له مثيل، وعلى النحو الذي سنوضّحه بحول الله.

وهكذا فقد تمخّضت مرحلة الكتمان عن قائدين عظيمين هما الإمام جابر بن زيد وأبي بلال مرداس بن حدير، وقد ظهرت حنكة هذين القائدين في تغيير أسلوب الدعوة، ووسيلتها، استفادة من المرحلة السابقة، وعملا للمرحلة اللاحقة، فقد رأيا أنَّ أسلوب العنف والمواجهة ولا سيما مع الأمويين الجبابرة يؤدّي إلى سفك دماء أبناء الأمَّة الإسلامية دون أن يحقّق أهل الدعوة نتيجة تذكر، وهكذا عاش الإباضيون في أكثر الأحوال مسالمين للدولة في البصرة ، وتتفق المصادر الإباضية وغير الإباضية على أنَّ مرحلة الكتمان والعمل في سرية تامَّة بدأ التخطيط لها منذ بداية النصف الثاني من القرن الأوَّل، ولئن ظهرت بعض الثورات والخروج هنا وهناك من حين لآخر فإنها كانت من أعمال أفراد لم يلتزموا بالمنهج الإباضي الذي خطط له القائدان جابر بن زيد وأبو بلال. وتذكر تلك المصادر براءة أبي بلال من (قُرَيْب) و(زحاف) اللذين قاما بثورة في البصرة في عهد عبيد الله بن زياد أدَّت إلى سفك دماء الأبرياء، ونهاية هذه الحركة بالفشل. ومن أبرز الوسائل التي لجأ إليها القائدان في هذه المرحلة العمل في السرية التامَّة، وبثُّ الدعوة عن طريق الحلقات السرية التي يختار المنضوون تحتها بدراسة دقيقة، والاتصال بالأنصار في سائر الأقطار لإعداد الدعاة، وبث المتحمسين

بالدعوة الإباضية داخل أجهزة الحكم الأموي ذراً للرماد في أعين السلطة الأموية، اطلاعاً ومتابعة لمجريات الأحداث عن قرب حتى لا يؤخذ الإباضية على غرة.

وكان من الوسائل التي استخدمت للاتصال بالدعاة والعلماء والأنصار الإباضيين موسم الحج الذي استغلوه أحسن استغلال، فممَّا لا شكَّ فيه أنَّ موسم الحج كان الفرصة السانحة لتجمع الدعاة والأنصار من كل مصر وقطر، على أنَّ الموسم يوفر في حدِّ ذاته ملاذا آمناً وحماية شبه مؤكدة من ملاحقة السلطة الحاكمة[1]، وبهذه الوسيلة الفعالة التي دلت على حنكة سياسية وبعد نظر أصبح الحج موسماً لبذر بذور المذهب من خلال الالتقاء بالأنصار في مكّة والمدينة، ما لبثت هذه البذور أن نبتت في كلِّ الأمصار الإسلامية في الجزيرة العربية، والمغرب وعمان، وخراسان، وغيرها من الأقطار القاصية والدانية.

ومن هنا نفهم حرص الإمام جابر بن زيد على أداء فريضة الحج كل سنة مهما تكن الظروف، حتى قيل عنه إنَّه حج في حياته عشرين حجة، وتذكر المصادر أنَّه كان من رفقائه في بعض هذه الرحلات أبو بلال مرداس.

والحق كان الحج من الوسائل الهامة في نشر المذهب الإباضي، ساعد على ذلك أنَّ الإباضية اشتهروا بكثرة حجهم فكانت القوافل الطويلة تفد إلى الحج من المغرب والمشرق، ولهم في هذا المجال قصص غريبة ترويها كتب السير والطبقات.

وكان لكثير منهم في البصرة نجائب من الإبل يحملون عليها غير

1- د/نعمان القاضي: مرجع سابق، ص200.

القادرين من إخوانهم إلى مكة لأداء هذه الفريضة ، «وبتكرار الحج ازداد اللقاء بين علماء المذهب من مختلف الأقطار والأمصار في موسم الحج من جهة، وفي نشر المذهب في البلدان التي يمر بها هؤلاء الحجاج سواء في رحلة الذهاب أم في رحلة العودة من جهة ثانية، أم في أثناء لقائهم بالحجاج الآخرين من غير الإباضية في مكة من جهة ثالثة»

وقد كانت مصر بحكم موقعها الجغرافي محطة للحجاج الإباضية القادمين من شمال إفريقيا وبلاد السودان، وكان لابد لهؤلاء الحجاج أن يتركوا أثراً فيها، ذلك أنهم كانوا يقيمون عادة عاماً أو بعض عام لمن يريد الحج مرة واحدة، وعدة أعوام لمن يفضل أداء هذه الفريضة مرات متتالية.

وكان للقاء حجاج الإباضية من عمان والبصرة في مكة بالحجاج المصريين والمغاربة لا شك تأثيره الكبير في تدعيم المذهب ونشره بين غيرهم من الناس. [1]

ـ الإمام عبد الله ابن إباض : الزعيم السياسي :

من هو عبد الله بن إباض؟

يتفق أغلب المؤرخين على انتمائه إلى قبيلة تميم القاطنة بالبصرة، التي كان لها شأن عظيم بين القبائل العربية جاهاً ونفوذاً.

وهو عبد الله ابن إباض (على اختلاف بين المشارقة والمغاربة بين فتح الهمزة وكسرها) من بني مرة بن عبيد رهط الأحنف بن قيس التميمي.

ذكر الأزكوي في كتاب «كشف الغمة» أنَّه نشأ في زمان معاوية بن

1- محمد زينهم محمد عزب، وأحمد عبد التواب عوض: **دراسة في تاريخ الإباضية** ...ص35.

أبي سفيان، وأنَّه عاش إلى زمن عبد الملك بن مروان، ويذهب الشيخ علي يحي معمر إلى أنَّه عاش بعد وفاة جابر بن زيد أي أنَّه توفي ما بعد 93 هجري.[1]

ومن المؤكّد حسب الوثائق التاريخية أن ابن إباض شارك في الدفاع عن مكة والمدينة مع المحكّمة سنة 64هـ، ويتّضح من الرسالة التي بعث بها إلى عبد الملك بن مروان سنة 65 هـ أنَّه كان مدركاً مميزاً، وعلى جانب كبير من الرصانة والفكر، مما يدل على أنَّه كان حصيفاً قد جاوز مرحلة اليفاعة، ويقدّر بعض الباحثين المحدثين أنَّه كان آنذاك فوق العشرين.[2]

والواقع يصعب على المرء أن يحدّد سنة بعينها لوفاته، غير أنَّنا نجزم أنَّه عاش بعد سنة 67 هـ لما ذكرناه من مشاركته في أحداث تاريخية شهيرة حدثت في هذه الفترة.

شخصيته:

يتمتع عبد الله بن إباض بشخصية قوية ذات دهاء وحنكة سياسية، إلى جانب اتصافه بالورع والتقوى، والتمسك الشديد بأهداب الشريعة الإسلامية من مصادرها القرآن والسنة، كما تدل على ذلك رسالته إلى عبد الملك بن مروان[3]. هذه الصفات أهلته لأن يحمل راية أهل الدعوة في ظرف سياسي صعب. بما ينبئ عن الخصائص العظيمة التي أهَّلته لهذه المكانة السامية، وقد جمع الدرجيني صفات ابن إباض في كتابه طبقات المشايخ

1- لم يقدم الشيخ وثيقة تاريخية لرأيه هذا، انظر **الإباضية في موكب التاريخ** الحلقة الأولى ط: 1994، ص151.

2- مهدي طالب هاشم: **الحركة الإباضية** . ص49.

3- ينظر ملحق النصوص.

حيث يقول: «عُرف عبد الله بن إباض بأنَّه إمام أهل الطريق، وجامع الكلمة بعد التفريق، فهو العمدة في الاعتقادات، والمبيِّن لطرق الاستدلالات والاعتمادات، والمؤسِّس للأبنية وهي مستندات.»

دوره في الدعوة ومنهجه:

إن استقراء الحوادث التاريخية تدل على أنَّ ابن إباض كان في مطلع شبابه فترة حكم معاوية، فقد جاء في رسالته إلى عبد الملك ما يشير إلى أنَّه أدرك مُعاوية وهو في سنٍّ تسمح له بالتميز وإبداء الرأي في الحوادث والأشخاص، والنفاذ إلى حكم شخصي من خلال دراستها، وتعمقها.

وقد برز عبد الله بن إباض على مسرح الأحداث السياسية والعسكرية بعد ظهور المحكّمة، وصراعهم مع السلطة الأموية إبان خلافة يزيد بن معاوية سنة 64هـ . وقد كانت الأحداث الأليمة في المدينة المنوَّرة على يد القائد الأموي مسلم بن عقبة في وقعة الحرة عام 63هـ، واستباحتها حافزاً إسلامياً قوياً دفعت المحكّمة مجتمعين إلى المشاركة في الدفاع عن مكة المكرمة، حتى لا يحل بها ما حل بالمدينة من قتل وتدمير، فاشترك عبد الله بن إباض إلى جانب شخصيات أخرى مثل نافع بن الأزرق، ونجدة بن عامر، مناصرة منهم لعبد الله بن الزبير، رغم اختلاف وجهات نظر كل فريق ولاسيما في قضية الخلافة.

وفي عام 64 هـ نجد ابن إباض مع مجموعة من أبرز قيادي المحكّمة، وقد زُج به في السجن، ولم يغادره إلا بعد وفاة يزيد بن معاوية في العام نفسه. وقد اختلف عبد الله ابن إباض مع نافع بن الأزرق الذي دعاه إلى الخروج معتبراً المخالفين مشركين يجوز استعراضهم بالسيف، وعدم جواز مناكحتهم وموارثتهم. وقد تأثر ابن إباض لما جاء في رسالة نافع بن

الأزرق من تطرف وغلو، فردَّ على ابن الأزرق برسالة تعتبر من أهمِّ الوثائق التاريخية تدليلاً على تميز الإباضية عن الخوارج في نظرتهم العقدية والحكم على المخالفين. وقد جاء فيها:

« قاتله الله، أي رأي رأى، صدق نافع بن الأزرق لو كان القوم مشركين كان أصوب الناس رأياً وحكماً فيما يشير به، وكانت سيرته كسيرة النبي ﷺ في المشركين... إنَّ القوم كفار بالنعم والأحكام، وهم براء من الشرك، وما سوى ذلك من أموالهم فهو علينا حرام».[1]

لابد من الإشارة إلى أنَّ القعود بدأ مع أبي بلال مرداس (الذي توفي سنة 61 هـ)، وهذا السلوك يعود إلى طبيعة الظروف السياسية التي جُوبه بها الخوارج ولاسيما بعد تولي عبيد الله بن زياد، مما اضطر الإباضية معه إلى تعميق هذه السياسة التي كان على رأسها الإمام جابر و عبد الله بن إباض، وقد استمرت حتى خلافة مروان الثاني عام 129 هـ.

وقد صرح عبد الله بن إباض عن اختلاف منهجه مع الخوارج المتطرفين، حيث رفض الخزوج على مسلمين يسمع الأذان والقرآن من مساجدهم. فقال لأصحابه: «أعن هؤلاء أخرج؟».

فرجع واختفى مؤثراً البقاء وعدم مفارقة الجماعة.[2]

وقد كانت نتائج هذه السياسة إيجابية استطاعت حركة أهل الدعوة معها أن تحافظ على وجودها فيما تعرَّضت الحركات الخارجية الأخرى إلى الإبادة الساحقة، والزوال.

1- الطبري: **تاريخ الرسل والملوك**، 5/568.

2- الحارثي: **العقود الفضية**، ص122.

علاقة عبد الله بن إباض بجابر بن زيد :

إنَّ السؤال الذي يفرض نفسه هو مدى العلاقة بين الإباضية مذهباً و عبد الله بن إباض.

تتفق المصادر التاريخية إباضية أو غير إباضية على نسبة الإباضية إلى عبد الله بن إباض، ولكنها تختلف في أهمية هذه النسبة علمياً وعملياً، ونظرياً وتطبيقياً.

ونجد هذا الاختلاف بين المؤرخين الإباضية أنفسهم، فالدرجيني يعتبره إمام أهل الطريق المؤسس لأبنية هي مستندات الأسلاف، والشماخي يقول بإمامة جابر بن زيد، ويعطي دوراً ثانوياً لعبد الله بن إباض، بل إنَّه يذهب إلى أنَّ ابن إباض كان يصدر في تحركاته عن شيخه جابر.

والذي يبدو أنَّ هناك اشكاليات تتعلق بهذه القضية نجملها فيما يلي:

أولاً: لقد برز عبد الله بن إباض زعيماً سياسياً، وبطلاً ميدانياً محنكاً، ومناظراً صلباً، مِمَّا لفت إليه أنظار السلطة الأموية، فنسبوا الفرقة إليه، وقد يكون هذا أيضاً من عمل الخوارج المتطرفين الذين اختلف معهم، ولاسيما بعد استعراضهم المسلمين بالسيف، والحكم عليهم بالشرك، فقد تميزت الفرق في تلك المرحلة بأسماء زعمائها، فكانت الأزارقة نسبة إلى نافع بن الأزرق، و النجدات نسبة إلى نجدة بن عامر النجفي، والصفرية إلى عبد الله بن الصفار، و الإباضية إلى عبد الله بن إباض لاسيما وأنَّه كان إلى جانبهم في الدفاع عن مكة سنة 64 هـ.

ثانياً: إنَّ إهل الدعوة لم ينكروا هذه التسمية و لم يردوها نظراً للمكانة التي يتبوؤها من الحركة تقوى وصلاحاً، علماً وحزماً، وبذلك ارتضوها

فصارت اسماً للجماعة، وعلماً عليها بعد أن صار لكل طائفة أو فرقة اسم تعرف به، وفي هذا يقول الشيخ نور الدين السالمي:

ونسبوا من كان في طريقته إليه لاشتهار حسن سيرته
إن المخالفين قد سمونا بذاك غير أننا رضينا
ونحن في الأصل وفي الفروع على طريق السلف الرفيع[1]

ثالثاً: إن أهل الدعوة كانوا ضنينين بشخصية إمامهم وعالمهم جابر بن زيد من أن تصل إليه يد الجبابرة من الأمويين، وقد كانوا يلاحقون العلماء والمعارضين بالتعذيب والتقتيل. وحتى يصرفوا الأنظار عنه، دفعوا إلى الواجهة أحد تلامذته ومريديه القادرين على التحرك لاسيما وأنَّ ابن إباض ينتمي إلى تميم إحدى أهم قبائل البصرة جاهاً، ونفوذاً، مما يضمن له الحماية من قبيلته، والدفاع عنه إذا تعرض لمكروه، على أنَّ العلاقة بين ابن إباض وجابر أكدتها المصادر التاريخية. وفي هذا يقول الشماخي في السير: «إنَّ ابن إباض يصدر في أمره عن رأي جابر بن زيد» [2]وفي هذا يقول الرقيشي في مصباح الظلام: «فقد بلغنا أن أبا بلال مرداس بن حدير وغيره من أيمة المسلمين لم يكونوا يخرجون إلاَّ بأمر إمامهم جابر بن زيد العماني، ومشورته، ويحبون ستره عن الحرب لئلا تموت دعوتهم وليكون ردءاً لهم...» [3]

وهكذا يتضح لنا من خلال هذه النصوص أنَّ ابن أباض لم يكن إلا شخصية مشهورة عبرت عن وجهة نظر الإباضية، فنسب المذهب إليه، لأنَّ

1- الحارثي: مرجع سابق، ص122.

2- الشماخي: السير؛ ص.77

3- مصباح الظلام، مخطوط ورقة 39.

السلطة الأموية لم تعرف غيره من قادة المحكّمة المعتدلين.[1]

ومن المحتمل أنَّ جابراً كان الإمام الروحي وفقيه الإباضية ومفتيهم، وكان بالفعل هو الشخص الذي بلور الفكر الإباضي بحيث أصبح متميزاً عن غيره من المذاهب الإسلامية، وكان بن إباض المسؤول عن الدعوة والدعاة في شتى الأقطار، ولذلك سمته المصادر: رئيس القعدة في البصرة وغيرها من الأمصار، وتاريخ الدعوة الإباضية يشير إلى اشتراك بعض الأشخاص البارزين والمجتهدين في المسؤولية إلى جانب الإمام الأكبر لهم.[2]

وفاة ابن أباض والمرحلة الموالية:

لا تذكر المصادر الإباضية وغير الإباضية شيئاً عن وفاة ابن إباض ومتى كانت، ويبدو أنَّ نشاطه الدعوي قد توقف لسبب أو لآخر لا نستطيع البث فيه، بعد مراسلاته إلى عبد الملك بن مروان، فلا تذكر عنه المصادر شيئاً.

أما ما أورده بعض المؤرخين من أمثال الشهرستاني والقزويني عن اشتراكه في ثورة طالب الحق التي بدأت سنة129 هـ ضد مروان بن محمد فيبدو أنه غير صحيح، فقد عرف مثل هذا الخلط عن الشهرستاني بصفة خاصة، ومعلوماته لايوثق فيها.

والمصادر الإباضية لا تذكر هذا على الإطلاق، إذ لو شارك في هذه الثورة لورد اسمه مع المشاركين فيها، وهو ليس شخصية مغمورة حتى يغفل

1- مهدي طالب هاشم: **الحركة الإباضية**، ص55.

2- خليفات: **نشأة الحركة**، ص80.

بمثل هذه الكيفية.

على أن المصادر التاريخية الأخرى مثل الطبري، والبلاذري، وصاحب الأغاني، لم تورد هذه الأخبار عن ابن إباض، زد على ذلك أن كتب الطبقات عند أهل الدعوة تصنفه ضمن رجال الطبقة الثانية، أي الذين عاشوا خلال النصف الثاني من القرن الأول، وعليه فإنَّه يكون قد توفي قبل سنة 100هـ .

ج - الإمام أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة: المخطط المحنك.

من هو الإمام أبو عبيدة؟

أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة، هو مولى بني تميم، ويقال إنه كان مولى لعروة بن أدية التميمي أخ مرداس.

ولد بالبصرة وعاش بها، ويقال إنَّه كان زنجياً أسود اللون، أعور، وقد عمي آخر عمره، عاش فقيراً يقتات من عمل السعف، يصنع منها القفاف ولذلك لقب بالقفّاف، يمكن القول أنَّ ولادته كانت حوالي سنة 45هـ حسب بعض القرائن التاريخية. وكُنِيَ الإمام أبو عبيدة بابنته عبيدة التي أخذت العلم عن والدها، فرويت عنها آثار في كتب الفقه الإباضي.

أخذ الإمام أبو عبيدة العلم عن شيوخ أجلاء مثل الصحابي صحار العبدي، وجابر بن زيد، وجعفر بن السماك، وضمام بن السائب، وهم أشهر علماء الإباضية في مرحلة الكتمان.

وقد اشتهر بالتقوى والورع والزهد والانقطاع للدعوة إلى الله، فكان مضرب المثل في كل ذلك، حتى قيل إنه تعلم أربعين سنة، وانقطع للتعليم

أربعين أخرى، وترك تلامذة أعلاماً حملوا الدعوة من بعده، ونشروها في أصقاع الأرض من المشرق والمغرب.

توفي حوالي سنة 145هـ، وروى أنَّه أدرك من أدرك جابر من الصحابة، وقد روي عنه قوله: «من لم يكن له أستاذ من الصحابة فليس هو على شيء من الدين، وقد منَّ الله علينا بعبد الله بن عباس وعبد الله بن مسعود، وعبد الله بن سلام، وهم الراسخون في العلم، وعلى آثارهم اقتفينا، وبقولهم اهتدينا، وعلى سيرتهم اعتمدنا، وعلى منهاجهم سلكنا.»[1].

تبوأ أبو عبيدة مكانة في الدعوة الإباضية عملياً بعد وفاة الإمام جابر سنة93هـ وبعد خروجه من سجن الحجاج بعد وفاة هذا الأخير سنة 95هـ.

وما من شك في أن التجربة التي مربها شيخه من قبله، وما تعرضت له الحركة من ظلم الأمويين، والمدة التي قضاها في السجن إلى جانب إخوانه من الدعاة، هذه العوامل كلها إلى جانب الخصائص القيادية التي امتاز بها، أهلته ليكون القائد العظيم في هذه المرحلة العصيبة.

وعلى الرغم مما تورده المصادر حول العلاقة الحسنة التي كانت بين أهل الدعوة وبين سليمان بن عبد الملك ثم عمر بن عبد العزيز إلا أن مدتها لم تطل، إذ سرعان ماتطورت الأحداث لغير صالح أهل الدعوة، ولكن هذه الفترة كانت كافية لتسترد الحركة فيها أنفاسها، وتراجع تنظيماتها وتوسع خططها، وتخرج من إطارها الضيق إلى إطار أوسع، وهذا ما تحمل عبأه الداعية المحنك أبو عبيدة، فكيف كانت مؤهلاته في هذا المجال؟

1- الشمَّاخي: سير.

أبو عبيدة الداعية.

اتصف الإمام أبو عبيدة بأخلاق عالية أهلته لأن يكون من أكبر دعاة الإباضية وأئمتهم، فقد كان إلى جانب ما عرف عنه من ورع وتقوى، سديد الرأي نيِّر البصيرة، تتفجر ينابيع الحكمة من قلبه، وتطلع من لسانه شموس العلم، وبهذا استطاع أن يتولى زعامة أهل الدعوة بالبصرة بعد وفاة الإمام جابر بن زيد، ويلمَّ شعثها، وينظّم شؤونها. وعلى يده تبلورت وبعثت.

وقد اتصف باليقين وقوة الصبر، تلك كانت عدته في مواجهة جبابرة الأمويين، وملاحقتهم له، فعندما سجنه الحجاج مع غيره من فقهاء المسلمين وخيارهم، كان ضمام بن السائب يضيق مما يلاقونه من عناء وضيق في سجن الحجاج، فكان أبو عبيدة يقول له :«على من تضيق ياضمام؟» وكان شديداً في ذات الله عزوفاً عن الدنيا لا يحب التقرب إلى الأمراء ولا أخذ أعطياتهم، وقد صقلته المحن التي مرت به، وما رآه من استشهاد أغلب الأئمة من مثل أبي بلال وأخيه عروة الذي كان مولاه، وهذه العلاقة التربوية في حد ذاتها لا بد أن تترك آثاراً في سلوك أبي عبيدة واتجاهه، إذ أهلته لأن يكون المشعل الذي قبس منه حملة العلم أنوار الدعوة إلى المشرق والمغرب.

طرق الدعوة ووسائلها:

اهتم الإمام أبو عبيدة بأمر الدعوة إلى الله وبث الروح الإسلامية بين المسلمين اهتماماً بالغاً، وأعطاها جهده المتواصل، ولم يزده الضغط السياسي في البصرة يومئذ إلا تمسكاً بأهداب الشريعة، ولم تؤثر فيه التناقضات

الاجتماعية والثقافية الموجودة في مجتمعه، بل جعلته صامداً أمام الأحداث والمؤثرات حتى لقي الله وهو عنه راض.

يدل تاريخ الإمام أبي عبيدة عن مخطّط سياسي محنّك، ولا أدل على ذلك من الوسائل المنهجية التي كان يتبعها فاستطاع أن ينشر دعوته، ويبلغها إلى الآفاق البعيدة تحت سمع الحكومة الأموية الجائرة وعينها. وقد سلك في سبيل ذلك وسائل تنظيمية في غاية الدّقة[1]:

أوّلاً- تكوين الدعاة: ركّز أبو عبيدة في منهجه الدعوي على الأسلوب الذي استخدمه إمامه وشيخه جابر بن زيد وهو الاعتماد على تكوين الرجال وإعدادهم إعداداً علمياً وسياسياً ممتازاً، فالرجال المختارون بعناية هم الذين سيتوزعون على الأمصار الإسلامية لتبليغ الدعوة، وبثها بين المسلمين هناك.

وما من شك في إن إعداد الرجال في تلك الظروف الصعبة يحتاج إلى خبرة وتجربة واسعتين، وعناية فائقة في تعليمهم وتكوينهم مع فقدان الوسائل وضعف الإمكانات، ولكن أبا عبيدة بعلمه الغزير، ويقينه الثابت، وحنكته السياسية استطاع أن ينجح في خطته إلى حد بعيد. وكانت خطوته العملية تتكون مما يلي:

1- المجالس المنظّمة:

أ- المجالس العامة: وهي تضم كل الذين دخلوا المذهب وشايعوه،

1- يراجع، د/عمرو النامي: **دارسات عن الإباضية** (مترجم) من الإنجليزية، تحت الطبع، ففيه تفاصيل هامة وقد سبق الدكتور النامي إلى التوصل إلى هذا النظام العجيب، ونقلته عنه بعض المصادر المطبوعة دون الإشارة إلى أنها نقلت ذلك عنه، وليس هذا من الأمانة العلمية في شيء.

وكانت هذه المجالس تعقد سراً في أحد بيوت المشايخ التي بها سراديب أعدت لذلك، وفيها كان يجرى شرح أصول المذهب، ودراسة أمور الدين، وكان حرصهم شديداً على التخفي والتستر أمام أعين السلطة المتربصة بهم، حتى أنهم كما روى ذلك أبو سفيان : «كانوا يأتون المجالس ويغيرون ملابسهم العادية، ويحملون قرب الماء والمتاع ليظهروا أمام الناس وكأنهم فقراء وبياعون، وأحياناً يتخفون في ثياب النساء.» [1].

ب ـ **مجالس المشايخ**: وهذه يقصر حضورها على كبار أئمة المذهب وحدهم، وكانت تعتمد في هذه المجالس الخطط والطرق التي ينبغي انتهاجها مع الأتباع والخصوم، وإيجاد الحلول لكل ما يواجه الدعوة من مشاكل في البصرة، أو في غيرها من الأمصار، وكانت شروط الالتحاق بها شديدة قاسية حيطة وحذراً.

جـ ـ **مراكز تدريب الدعاة**: ويتخرج في هذه المراكز من يعرفون في تاريخ الإباضية بحملة العلم، وكان هؤلاء يأتون من مختلف الأمصار لتلقي العلم عن إمام المذهب، وفيها يتم تدريبهم السياسي والديني، وكان أبو عبيدة هو الذي يتولى هذه الأمور بنفسه، وقد اتخذ لذلك سرداباً تحت الأرض لا يعرفه غير أتباعه وشيوخه، وفيه يتظاهر الإمام والطلاب بصنع القفاف، ويضعون على مدخل السرداب سلسلة من الحديد، يحركها أحد الحراس عندما يستدعي الأمر ذلك ليتظاهر من بداخل السرداب بصنع القفاف؛ وعادة ما يختار الدعاة من حملة العلم من أبناء الأمصار التي يرسلون إليها ضماناً للتبليغ والقبول، وأهل الأمصار أدرى بمعرفة أحوالها وطباع أهلها[2].

1- الشماخي: سير.

2- دبوز: تاريخ المغرب الكبير. جـ 3 .

2ـ **الحج والتجارة:** اهتم الإمام أبو عبيدة بموسم الحج اهتماماً بالغاً، فقد كان ـ أسوة بإمامه جابر ـ لايفوته الحج إلا نادراً، وإذا فاته أناب عنه زميله وتلميذه ضمام بن السائب[1]. وذلك للاستفادة من اجتماع الأمة الإسلامية، وتبليغ الرسالة على أوسع مجال، وكان يرمي من حرصه الشديد هذا إلى تحقيق فوائد جليلة يمكن حصرها فيما يلي:

ـ الأجر والثواب من جراء تأديته الحج ولو نافلة.

ـ الاجتماع بفقهاء وعلماء ودعاة الأمصار، وخاصة بمن بقي من الصحابة وكبار التابعين، وقد يتعذر مثل هذا الاجتماع في غير الحج للظروف السياسية والاجتماعية المعروفة.

ـ التعرُّف بالحجاج الإباضيين القادمين من الأمصار: كعمان، وخراسان، واليمن، وحضرموت، ومصر، والمغرب، وغيرها، بالإضافة إلى من كان بالحجاز.

ـ فرصة سانحة لحل المشاكل التي قد تطرأ في طريق الدعوة أو التوسط لحل المشاكل التي قد تحدث بين الجماعة الإباضية في الأقطار النائية، فيقوم هو أو أحد المشايخ بفض الخلاف وحل النزاع. كما حدث من قبل لأهل حضرموت إذ وقع بينهم خلاف كبير بعد مقتل الإمام طالب الحق، كاد يؤدي إلى الفرقة لولا أنهم كتبوا إلى الإمام أبي عبيدة بالبصرة، فأرسل إليهم حاجب الطائي في موسم الحج يحل المشكلة.[2]

ـ الرد على استفسارات الحجاج فيما يخص حجهم أو أمورهم الدينية

1- د/مبارك الراشدي: **أبو عبيدة مسلم وفقهه**، ص211. أيضاً د/محمد رجب عبد الحليم: **الإباضية في مصر والمغرب**، ص9

2- الدرجيني: **طبقات**، ج2، ص252.

أو الدنيوية الأخرى، وإرسال الردود مع الحجاج العائدين، وتبليغ الرسالة إليهم عن طريق وفودهم.

3ـ **المراسلات:** وكانت رسائل الإمام أبي عبيدة تحمل في مطاويها العلم، والفتوى، والتنظيم السياسي للحركة، آية ذلك: تلك العلاقة التنظيمية، والصلة الوثيقة التي كانت بينه وبين الدعاة الإباضية في المشرق والمغرب، من ذلك. رسالته الشهيرة في الزكاة إلى أهل الدعوة بالمغرب، ورسالته إلى الإمام طالب الحق في حضرموت واليمن، ومحتوياتها تدل على الاتصالات السرية الصادرة عن البصرة التي كانت مركز الدعوة الأم للتنظيم، وهي تقيم الدليل على استمرار التنظيم الإباضي حتى مطلع العقد الرابع من القرن الثاني الهجري إبان قيادة أبي عبيدة الدعوة الإباضية، وقد بلغ التنظيم الإباضي أوج نشاطه حين تبلورت تنظيماته على يد أبي عبيدة على النحو الذي أوضحناه سابقاً.

وقد أفرزت هذه الحقبة مجموعة من المشايخ الإباضية يتحلون بقدر كبير من الدهاء السياسي، والتجربة العسكرية، والتعمق في العلم، ومن أهم هذه الشخصيات التي كانت إلى جانب أبي عبيدة حاجب أبو مودود الطائي، الذي ظهرت كفاءته في حل المشاكل التي كانت تحدث للدعوة، وتوفير الجانب المالي لها، ومراقبة مجالس الدعاة، والحفاظ عليها بشكل لا يسترعي انتباه السلطة الأموية. [1]

ولعل من أبرز أعمال أبي عبيدة في المجال الدعوي أولئك الطلاب الذين رباهم وعلمهم ودربهم، ثم أرسلهم رسلاً لتبليغ دعوة أهل الاستقامة إلى المغرب والمشرق على النحو الذي سنفصله إن شاء الله.

1- ينظر تفاصيل ذلك في: الدرجيني: **طبقات**، والشماخي: **سير**، و**سير أبي زكريا** الورجلاني.

الفصل الثالث

الإباضية في الميدان (مرحلة الظهور)

1. الإباضية في حضرموت، واليمن، والحجاز.
2. الإباضية في عمان (الإمامة الأولى) 130-133 هـ.
3. الإباضية في المغرب الإسلامي (140-296 هـ).

مرحلة الظهور

1- أهل الدعوة في حضرموت، واليمن، والحجاز.

من أهم النتائج الدعوية التي حققتها سياسة الإمام أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة وصول الدعوة إلى اليمن وحضرموت وانتشارها فيها، حتى إذا سنحت الفرصة لاقتلاع جذور الحكم الأموي الجائر اهتبلها وأرسل من تلامذته وأتباعه من يقوم بذلك في الميدان.

ويبدو أنَّ مركز الدعوة في البصرة كان يخطط منذ أمد لإقامة إمامة الظهور في اليمن، وحضرموت، بعد توفر الوسائل اللازمة لذلك، ولم تكن الثورة في اليمن نتيجة لقاء مفاجئ تم سنة 128 هـ بين طالب الحق عبد الله بن يحي الكندي، وأبي حمزة المختار، كما تذهب إلى ذلك بعض المصادر السنية.[1]

فإنَّ أبا عبيدة كان قد أوكل إلى أحد تلامذته وهو أبو مودود حاجب الطائي مسؤولية جمع المال والإعداد العسكري، فلقي هذا العمل رغم مرحلة الكتمان إقبالا عظيماً من أهل الدعوة رجالاً ونساء، حتى إنَّ بعض المصادر تذكر بأنَّهم جمعوا في يوم واحد عشرة آلاف درهم خصِّصت لأغراض الحركة في حضرموت[2]. ولذا نستطيع القول إنَّ تسرب الدعوة الإباضية إلى اليمن وحضرموت يعود إلى تاريخ سبق الحركة التي قامت في سنة 129 هـ بسنين طويلة.

1- ينظر، مهدي طالب هاشم: **الحركة الإباضية**، ص99.

2- الطبري: **الرسل والملوك**، 248/7.

وقبل أن نتابع تطورات حركة أهل الدعوة في هذه المناطق، لا بدَّ من ذكر العوامل السياسية والاجتماعية والعسكرية التي أحاطت بها وساعدت على نجاحها:

1- الظروف السياسية المتدهورة التي عاشتها الدولة الأموية في أخريات أيامها، فقد كانت تعاني من الثورات الداخلية والخارجية من كل جانب، وكانت خاتمة هذه الثورات الثورة العباسية التي عاصرت الحركة الإباضية في حضرموت سنة 129هـ.

2- بلغت الأوضاع الاجتماعية في حضرموت واليمن حداً متدنياً من التدهور السياسي، والأخلاقي والاقتصادي، إذ عُرف الحكام والولاة بالجور والعسف، وإثقال الناس بالضرائب. ففي ظل الخضوع للحكام الأمويين كل هذه الحقبة الطويلة عرف أهاليها «الظلم والتعسف وروح الاستعلاء البغيض المبني على التعصُّب القبلي المخالف لروح الشريعة الإسلامية، التي جعلت الإخاء أساساً للروابط الاجتماعية في المجتمع الإسلامي، والتقوى أساس التفاضل فيه، تمكنت الدعوة الإباضية من قيادة الحركة السياسية في اليمن لتصحيح الانحرافات العديدة التي مارسها الخلفاء الأمويون وولاتهم في اليمن.»[1] وهذا ما تتفق عليه المصادر السنية والشيعية والإباضية.[2]

الإمام عبد الله يحيي الكندي (طالب الحق) وثورته:

من هو الإمام طالب الحق؟ وما هي أبعاد ثورته وانتصاراتها؟

1- ينظر مهدي طالب هاشم: **الحركة الإباضية**، ص103.

2- ينظر خليفات، نشأة حركة الإباضية . ص117.

هو أبو يحي عبد الله بن يحي بن عمر بن الأسود بن عبد الله بن الحارث الكندي، أحد أفراد قبيلة كندة الحضرمية ذات النفوذ والجاه العريضين بهذه المنطقة.

وعلى الرغم من أنَّ المصادر التاريخية لا تسعفنا عن شخصيته بمعلومات وافية، إلاَّ أنَّ ما ذكر عنه يشير إلى أنَّه كان ذا همة عالية، وحزم شديد، وورع وتقوى، ولعل شهرته بـ (طالب الحق) تدلُّ على مجمل صفاته تلك، حيث كان قاضياً على حضرموت من قبل إبراهيم بن جبلة الوالي على حضرموت من قبل القاسم بن عمر الثقفي في عصر مروان بن محمد.

ونستدلُّ على صحَّة هذا اللقب وجدارته به من خلال مواقفه أثناء انتصاره على أعدائه وما جاء في رسائله وخطبه من الدعوة إلى الحسنى، ومعاملة المنهزمين في الحرب معاملة إنسانية إسلامية. على الرغم من مكانة طالب الحق فإنَّنا لا نجد في المصادر التاريخية إباضية أو غيرها ذكراً يفيدنا عن أخبار هذا الداعية قبل سنة 124 هـ، ولعل هذا يعود أساساً إلى السرية المطلقة التي عرفت بها تلك المرحلة، وإذا كان أهل الدعوة يعيشون مرحلة الكتمان، ولكن المصادر تورد أن منطلق الحركة ميدانياً بدأ باتصال بين الإمام أبي عبيدة وبين اثنين من تلامذته وهما: طالب الحق، ووائل بن أيوب الحضرمي، وهما من حملة العلم الخمسة إلى اليمن[1].

وتزعم أنَّ الصلات بين طالب الحق وأبي عبيدة كانت قوية، وإلا لما وثق أحدهما بالآخر في ظل الحكم الأموي، لاسيما أنَّ طالب الحق كان قاضياً في ظل الحكم الأموي، وأبو عبيدة كان مراقباً مطارداً من الأمويين في البصرة.

ونتيجة للأوضاع السيئة وجد طالب الحق الفرصة سانحة للقيام بالثورة، فكتب إلى أبي عبيدة مسلم يستشيره ويستأذنه في الخروج، مما

1- الشمَّاخي: سير، ص91.

يؤكد مرة أخرى أنَّ الدافع إلى الثورة هو تغيير المنكر، وإزالة الحكم الأموي الجائر[1]، وقد رأى طالب الحق، بحكم منصبه ما يرتكب من مناكر ومظالم، مما دفعه إلى تغيير المنكر بيده بعد أن لم يستطع تغييره بأحكامه القضائية، وسرعان ما جاء ردُّ الإمام برسالة تحبِّذ الإسراع والمبادرة حسبما جاء فيها: «إن استطعت ألاَّ تقيم يوماً واحداً فافعل، فإنَّ المبادرة بالعمل أفضل، ولا تدري متى يبلغ أجلك، و لله خيرة من عباده يبعثهم إذا شاء لنصرة دينه، ويخصُّهم بالشهادة إكراماً لهم بها.» و لم يكتف أهل الدعوة بهذه الرسالة التحريضية وحسب، وإنما أرسلوا إليه النجدة المالية والعسكرية، فقد أوفدوا القائد الشهير أبا حمزة المختار بن عوف الأزدي، وبلج بن عقبة الأزدي مع مجموعة من الجند، وحملوا معهم توصيات مشددة من أبي عبيدة يوصيهم فيها بالسيرة الحسنة، والسلوك الطيب مع أعدائهم، حتى وإن انتصروا عليهم. وهكذا غدا تركيب الجيش الذي قاده طالب الحق مؤلفاً من إباضية حضرموت واليمن والبصرة، وكان عددهم معتبراً، ولو أن المصادر لا تحدد هذا العدد بالضبط.

جيش طالب الحق في حضرموت:

ما إن وصل إذن أبي عبيدة من البصرة ومدده المعنوي والمادي والعسكري حتى اجتمع طالب الحق بأصحابه وأهل الرأي من الإباضية فأطلعهم على الأمر، وبعد التشاور بايعوه إماماً لهم، وبذلك يكون طالب الحق أول إمام ظهور لجماعة من الإباضية.

من المرجَّح أنَّ ذلك تم سنة 129هـ، حيث استطاع أن يدخل

1- البلاذري: **أنساب** ج2 ص273. **الأغاني**، ج3، ص111.

حضرموت ويفتحها دون قتال يذكر، وقبض على واليها إبراهيم بن جبلة، وسجنه، ثم ما لبث أن أطلق سراحه وتركه يلحق بسيده القاسم بن عمر الثقفي بصنعاء، وهو بذلك قد عمل بوصايا الإمام أبي عبيدة وبسيرة السلف الصالح من الإباضية الذين ما فتئوا يعاملون مخالفيهم بالتسامح ولو انتصروا عليهم.

وقد استطاع طالب الحق بسيرته الحسنة التي أعجب بها الأهالي أن يجمع الأنصار والأتباع حوله، وبخاصة أنَّ هذا النوع من الحكم لم يشاهدوه، و لم يتمتعوا به في ظل ولاة الجور من الأمويين[1].

الانتصار في صنعاء:

بعد أن وطد الحكم في حضرموت بسيرته الحسنة، سبقته سُمعته الطيبة إلى صنعاء التي ما فتئت تشكو من ظلم الولاة الأمويين واضطهادهم، وكان طالب الحق على صلة بأنصار أهل الدعوة في صنعاء، فلما أحس أن الوقت قد حان لدخولها استخلف عبد الله بن سعيد الحضرمي بحضرموت، وسار طالب الحق على رأس ألفين من جنده إلى صنعاء.

وقد خرج إليه الوالي الثقفي ليلقاه خارج صنعاء، وأعد للقاء طالب الحق وأهل الدعوة جيشاً ضخماً يصفه البلاذري بأنه : «كان ذا عدد كبير وعدة ظاهرة»، وتقول بعض المصادر إنَّه بلغ ثلاثين ألفاً[2]، ومهما يكن من أمر فإن ذلك يدل على أن الثقفي استعد الاستعداد كله للقضاء على جيش طالب الحق، وهذا بأمر من السلطة المركزية ولا شك.

1- يراجع البلاذري، **أنساب** ج2 ص272. أيضًا الأصفهاني: **الأغاني**، ج23، ص111.

2- المرجع السابق، والشماخي، **سير** ص66.

ولكن بإيمان أهل الدعوة وشدة شكيمتهم في الحرب، وثباتهم في الميدان هزم الثقفي وجنده شر هزيمة، وفر إلى صنعاء واحتمى بها، وكانت له بها هزيمة أشد، وما برح أن فر إلى الشام مع ما بقي له من جنده، وهكذا استولى الإباضية على المدينة. والجدير بالذكر أن المصادر سنية وإباضية وشيعية[1] متفقة كلها على أن طالب الحق وأعوانه وجيشه كانوا مثالاً للمعاملة الحسنة، فلم يتعرضوا لأحد بأذى، وذلك إيماناً منهم بالأخوة الإسلامية، وعملاً بوصايا إمامهم أبي عبيدة، وتورد بعض المصادر خطبة طالب الحق التي ألقاها غداة دخوله إلى صنعاء، وهي تعد دليلاً قوياً للمنهج الدعوي المثالي الذي سار عليه الأيمة الإباضيون حرباً وسلماً.

وظل على سيرته الحسنة تلك فجمع قلوب الناس من حوله بما رأوه منه من عدالة اجتماعية إسلامية افتقدوها وحنوا إليها في ظل الحكم الأموي، ومن ذلك أن طالب الحق بعد أن استولى على ما في الخزائن من أموال، وزعها بين الناس في صنعاء، وبخاصة الفقراء منهم، وبقي في صنعاء عدة أشهر يسوس الناس بالعدل، ويدعو إلى آرائه ومبادئه بالمعروف والموعظة الحسنة حتى كثر جمعه، وأتاه الناس من كل وجه.[2]

... وأقام حكمه هناك مبقياً على العمال في وظائفهم، مظهرا لين الجانب، فاستطاع أن يمتلك قلوب أهل اليمن مؤكدا ألاّ خلاف جوهرياً هناك بين مذهبه ومذهب أهل السنة والجماعة، ولكنّه اشتدَّ على أهل الكبائر التي نص القرآن عليها، إذ اتخذ القرآن إماماً، ودعا إليه وإلى سنَّة

1- يراجع خليفات: **نشأة الحركة الإباضية**، ص121، ففيه تفاصيل هذه المصادر.

2- يراجع الشماخي: **سير** ص99. والبلاذري: **أنساب** ج2 ص375. خليفات: **نشأة الحركة** ص121.

النبي ﷺ فمن زنى فهو كافر، ومن شرب الخمر فهو كافر، ومن شك في أنه كافر فهو كافر.[1]

أهل الدعوة في الحجاز

لم يكن هدف أهل الدعوة من الوصول إلى اليمن وحضرموت أن تبقى دعوتهم إقليمية، وإنما كانت حركة إسلامية شاملة تهدف إلى إقامة الإمامة الكبرى، والإطاحة بالفساد الذي استشرى في ظل الحكم الأموي المتسلط.

وهكذا ما إن استتب الأمر لطالب الحق في اليمن وحضرموت حتى وجه قائده العظيم أبا حمزة المختار الشاري الأزدي يرافقه بلج بن عقبة الأزدي وأبرهة بن الصباح الحميري على رأس قوة عسكرية إلى مكة، وكانت أوامر طالب الحق أن يستولي أبو حمزة المختار على الحجاز، ويقيم بها ثم يوجه بلج بن عقبة إلى الشام لمحاربة مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية.

كيف دخل الشراة مكة؟

وصل الشراة الإباضية مكة المكرمة في الثامن من ذي الحجة سنة 129 في جيش يقوده أبو حمزة قوامه ما بين سبعمائة إلى ألف ومائة،[2] وقد دخلها في موسم الحج. وانضم إليه إباضية الحجاز بزعامة الفقيه والداعية الإباضي أبي الحر علي بن الحصين الذي كان يدعو للإباضية سراً، وكانت له صلات بالإمام أبي عبيدة مسلم، ويقدر أتباعه بأربعمائة رجل، فقد كان

1- د/ نعمان القاضي: مرجع سابق ص201. وعن خطبة طالب الحق ينظر الأغاني ط القاهرة، تحقيق الساسي ج20 ص 99.

2- الأغاني ج23، ص115.

لهذا الداعية المجاهد أثر كبير في دخول الحركة الإباضية وانتشارها في الحجاز، وكان أبو الحر مثالاً للداعية المؤمن الذي سخر أمواله في خدمة الدعوة، وكانت هذه الأموال تأتيه من أملاكه في البصرة، واتخذ بيته مركزاً تجتمع فيه الإباضية في موسم الحج، وما يدرينا فلعله كان حلقة الوصل التي تربط بين مركز الدعوة في البصرة والأقاليم الأخرى في الجزيرة العربية، وبسبب نشاطه المتزايد في الحجاز أثار غضب السلطة الأموية، وقد حمله مروان بن محمد مسؤولية هذا النشاط فاعتقل وقيّد بجامعة من حديد، وقصدوا به الشام، وقد تبعثهم مجموعة من الفدائيين الإباضيين عددهم في نحو الأربعة عشر رجلا، فاستطاعوا انقاذه من الجند الأموي ورجعوا به إلى مكة في شهر ذي الحجة سنة 129 هـ.

وكان أبو الحر على اتصال وثيق مع الإباضية في اليمن، كما كان على علم بقدوم أبي حمزة المختار للإستيلاء على الحجاز، وهذا إن دلَّ على شيء فإنَّما يدل على التنسيق المنظم بين الخلايا السرية في الحركة الإباضية.[1]

فوجئ والي الحجاز عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك بظهور الإباضية على جبل عرفات، ولم يجد بداً من التفاوض معهم، خاصةً وأنَّه لم يكن مستعداً من الناحية العسكرية، وتدخل بعض تابعي التابعين من كبار القوم تجنباً للصدام على أساس أن يتخلى الوالي الأموي عن مكة بعد الحج مباشرة، وفعلاً غادرها في ذي الحجة من سنة129هـ، ودخل الإباضية مكة دون قتال. وكان تقدير القائد أبي حمزة الدخول في هذا الموسم عن تخطيط ودهاء سياسي بعيد، فهي فرصة للدعاية السياسية لأهل الدعوة، بقدرما هي ورطة للوالي الأموي الذي لا يستطيع استجارة بمدد يأتيه من الشام وهي بعيدة.

1- يراجع، المهدي طالب هاشم: **الحركة الإباضية** ص121-122.

ولا يخفى الطابع السلمي للدعوة أينما حلت، وقد سبق لها مثل هذه المواقف في دخولها إلى حضرموت واليمن، ولا أدل على ذلك من خطبة القائد أبي حمزة في هذه المناسبة التي بيّن فيها خطة أهل الدعوة ومنهجهم، وما تزال هذه الخطبة تستوقف النقاد والمؤرخين والدارسين على أنها من عيون الأدب الإسلامي الرفيع.

وعلى الرغم من الموقف العدائي لأهل مكة لاعتبارات قبلية إذ أنَّ أغلبهم قرشيون، فإن السياسة الإباضية اتخذت موقفاً وديّاً من أجل التقرب إليهم، فقد نادى مناد لأبي حمزة لمدة أربعة أيام معلناً الأمان لكل الناس باستثناء المحاربين، وهو موقف يذكرنا بموقف طالب الحق من أهل صنعاء، وتسامحه معهم.[1]

الاستلاء على الطائف.

بعد أن استقر أبو حمزة في مكة، وجه مجموعة من جيشه للاستيلاء على الطائف، ولـمَّا علم أهل الطائف بقدومه تركوها وأخرجوا النساء لاستقبال الشراة الإباضية، وبعد أن أعطى القائد الأمان لأهلها رجعوا إليها، ولم يغفر القرشيون الذين تجمعوا في المدينة لمقاومة أبي حمزة موقف أهل الطائف، واعتبروا هذا الموقف خيانة منهم، وهددوهم إن هم ظفروا بهم ليسبيّن نساءهم. ومن هنا يتضح لنا موقف آخر يتجلى فيه تسامح أهل الدعوة، وموقفهم من إخوانهم المسلمين، وموقف القرشيين الذين يهددون بسبي نساء إخوانهم، وبني قومهم وهم لما يحرروا أنفسهم.

1- ينظر، مهدي طالب هاشم: الحركة الإباضية، ص132.

معركة قُدَيْد والاستيلاء على المدينة.

استعد الوالي الأموي الهارب متحصناً بالمدينة بعد أن حرَّض أهاليها على مواجهة الإباضية، وجهَّز لهذا حملة عسكرية عدد أفرادها حوالي ثمانية آلاف مقاتل وأعطى قيادتها لعبد العزيز بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان، وهو اختيار له دلالته وأبعاده التاريخية كما لا يخفى. وحالما علم أبو حمزة المختار بمسيرهم إلى مكة فضّل أن يلاقيهم خارج مكة لكي لا يعطي أهلها مجالاً للتحرك والوقوف إلى جانب القوات القادمة من المدينة.

وكان جيش أهل الدعوة يتألف من طوائف متعددة: إباضية من اليمن والحجاز من قبيلة خزاعة، ومجموعة من إباضية الموصل، ومجموعة من القرشيين المتحمسين للمذهب الإباضي بقيادة أبي بكر محمد بن عبد الله بن عمر القرشي، وهكذا أضفت وحدة العقيدة الإباضية وحدة من الترابط والانسجام على الجيش الإباضي الذي اجتمع من عدة قبائل، في حين كان جيش المدينة يتألف من عناصر متنافرة من القرشيين والأنصار ومجموعات أخرى من عدة قبائل.[1]

التقى الجيشان في قرية (قُدَيْد) بين المدينة ومكة، وكعادة الإباضية كانوا لايبدأون عدوهم بالقتال إلا بعد أن يوضحوا رأيهم، ويدعوا إلى السلم وترك الحرب، وقد أوضح بلج بن عقبة لجيش المدينة الغاية من حملتهم العسكرية بأنَّها «لا تستهدف الحرب معهم بقدر ما تؤكد على إزالة السلطة الأموية في الشام»[2].

1- مهدي طالب هاشم: **مرجع سابق**، ص 135.

2- **المصدر السابق** ص136 نقلاً عن البلاذري **أنساب**، والطبري **الرسل والملوك**، **والأغاني** للأصفهاني، والدرجيني، طبقات.

ويبدو أنَّ المفاوضات السلمية لم تفلح أمام تعنت القائد الأموي الجديد عبد العزيز بن عبد الله، الذي يعرف جيداً موقف أهل الدعوة من الخليفة عثمان في السنوات الأخيرة من حكمه.

توجه القائد أبو حمزة المختار إلى المدينة في سبعمائة مقاتل، فواجهته الجموع الموالية لبني أمية في حنين، ونشبت بينهم معركة حامية، بعد أن أقام الحجة عليهم مبيناً لهم بأنَّ الهدف من مجيئهم إلى الحجاز هو القضاء على ظلم الأمويين، وأنَّ هدفهم الحقيقي هو التوجه إلى الشام حيث سدَّة الحكم الأموي، وأن لارغبة لهم في مقاتلة أهل المدينة إن هم تركوهم يتجهون إلى الشام، ولكن أهل المدينة أبوا إلا الحرب، وأعلنوا الوقوف مع الأمويين ضد الإباضية. فكان لابد إذاً من المعركة التي انتصر فيها جيش أبي حمزة انتصاراً ساحقاً.

وعندما دخل المدينة المنورة كان أهلها يتهكمون به وبأصحابه، ويقولون : «هؤلاء شباب غمر سفيهة أحلامهم».

جاء أبو حمزة إلى منبر النبي ﷺ فوضع وجهه حيث ما كان النبي ﷺ يضع قدميه،وبكى طويلاً حتى خضب لحيته بالدموع قائلاً: «آه كم من قدم عاصية لله، منتهكة لحرماته، واطئة على أحكامه وطئت موضع قدم النبي ﷺ، بأبي هو وأمي»، ثم ارتقى درجة واحدة في المنبر تواضعاً لمقام النبوة، ومقام الخلافة الرشيدة، وألقى خطبته التاريخية المعروفة.[1]

... وعلى الرغم من إحساس أهل المدينة بعدالة حكم المختار وطالب

1- ملخّص بتصرف من محاضرة للشيخ أحمد بن حمد الخليلي ألقيت بسلطنة عمان في سنة 1991، وألقيت أيضاً بمدينة القرارة جنوب الجزائر في أوت من سنة 1990

الحق، فإنهم لم يتجاوبوا معه، وبخاصة في مجتمع المدينة اللاهي المتحضر المترف، فقد رأوا في موقف أبي حمزة وطالب الحق في رعاية القيم الأخلاقية والدينية تشدداً لم يألفوه، إضافة إلى العصبية القبلية التي سكنت نفوسهم منذ البداية.

واستطاع الإباضية مع ذلك أن يكسبوا بعض الأنصار المؤمنين من أمثال عبد العزيز بن بشكست القارئ المعروف، وابن بكر بن محمد بن عبد الله بن عمر بن الخطاب.

وفي مستهل جمادى الأولى من سنة 130 هـ زحف جيش شامي مكوَّن من أربعة آلاف مقاتل من القيسيين بقيادة عبد الملك بن محمد بن عطية بن سعد هوازن بأمر من مروان بن محمد الحاكم الأموي متوجهاً إلى المدينة «...وكما حدث في عهد يزيد الأوَّل دفع لهم أجر مناسب بمثابة كفارة عما ينتظرهم من انتهاك الحرمات المقدسة إذ أعطى كل واحد منهم إضافة إلى مرتباتهم مائة دينار ذهبي، وفرساً، وبغلاً.»[1] وكان معظم الجيش من القبائل القيسية وبذلك أراد مروان أن يضرب الإباضية ـ ومعظمهم من القبائل اليمنية ـ برجال من القبائل القيسية بدافع العصبية، والحمية الجاهلية.

وهكذا التقى الجيشان في قديد في صفر سنة 130هـ . وانتهت المعركة بهزيمة الجيش الأموي وأهل المدينة بعد أن فقدوا العديد من رجالهم، وعلى الرغم من تسامح أبي حمزة مع أهل المدينة، إلا أنَّ هذا التسامح شَجعهم على الرجوع لمقاتلة الإباضية، فأوقع بهم أبو حمزة هزيمة منكرة قتلاً وأسراً، وتركوا قائدهم صريعاً في الميدان، وفي رواية الطبري أن عدد القتلى في هذه

1- د/نعمان القاضي: مرجع سابق، ص203.

المعركة سبعمائة قتيل.[1]

«ونستطيع القول إنَّ طبيعة الصراع في هذه المعركة كان بالدرجة الأولى بين السلطة الأموية في الحجاز ومن يواليها من القرشيين والرافضين لسيطرة الإباضية على الحجاز، جمعتهم المصلحة السياسية والخوف من انتشار تعاليم ومبادئ الخوارج التي تهدد نفوذهم بصورة عامة.»[2]

دخول الإباضية إلى المدينة.

تحطَّمت قوى الأمويين ومن شايعهم من أهل المدينة في قديد على النحو الذي ذكرناه، فتقدمت قوى أبي حمزة ودخلت المدينة في 12 صفر سنة 130هـ، وفر القائد عبد الواحد بن سليمان إلى الشام، كما فر من قبل من مكة قبل وصول أبي حمزة إليها. وبايع أهل المدينة عبد الله بن يحي، وأظهروا الطاعة كرهاً، فظل أبو حمزة بالمدينة ثلاثة أشهر؛ أحسن السيرة خلالها في أهلها وألقى خطبته المشهورة من فوق منبر الرسول ﷺ بيَّن فيها سياسته وأنَّ هدفه هو الوصول إلى الشام، وليس احتلال الحجاز.

عندما علم أبو حمزة بمسيرة هذا الجيش الشامي أرسل قائده بلج بن عقبة الأزدي لملاقاته، وتقاتل الجيشان في وادي القرى وهزم جيش أبي حمزة هذه المرة نظراً لعدم توازن القوى، فقد كان جيش بلج لا يتجاوز ستمائة مقاتل. على أن الإباضية لم يبدأوا بالقتال، ودعا بلج الشاميين إلى العمل بكتاب الله وسنة رسوله، ورد عليهم أهل الشام بالشتائم، فما كان من القائد إلا أن أمر جنوده بالهجوم، وانهزم الشاميون أول الأمر، ثم ما

1- الطبري: **الرسل والملوك**، 7/394، أيضاً **الأغاني**، ج2 ص109-112.

2- مهدي طالب هاشم: **مرجع سابق**، ص 139.

لبثوا أن أعادوا الكرة وهزموا جيش بلج الذي قتل في المعركة. واعتصم عبد الله بن الصباح الحميري بأحد جبال المدينة، ومعه نصف جيشه، فحاصرهم عبد الملك بن عطية وقاتلهم ثلاثة أيام متوالية.

وقد أثرت المعارك السابقة (قديد) و (وادي القرى) في جيش أبي حمزة الذي لم يستطع مواجهة هذا الجيش الكبير الذي حشده الأمويون لقتالهم. إضافة إلى أن أهل المدينة انتقموا لقتلاهم بإضعاف قوة أهل الدعوة المتبقية في المدينة، مما جعل القائد الأموي يتوجه لملاقاة أبي حمزة في مكة، بعد أن اضطر إلى الخروج من المدينة.

ولم تكن الجبهة الداخلية في مكة في صالح الإباضية، مما جعل موقف أبي حمزة في وضع سيء بعد وصول عبد الملك بن عطية إليها.

وفي سنة 130 هـ جرت معركة ضارية لم تكن فيها القوتان متكافئتين، فالجيش الشامي كان أكثر عدداً وأحسن عدة، وانتهت المعركة باستشهاد القائد العظيم أبي حمزة المختار الذي فوجئ بالسلاح الجديد الذي استخدمه عبد الملك بن عطية في المبارزة، فقد أودى سيف عبد الملك بحياة أبي حمزة، في الحين الذي لم يؤثر فيه سيف أبي حمزة في جسم عبد الملك بن عطية، ويبدو أن توالي المعارك وتألب الجيش الشامي، وتشتت القوى الإباضية بين اليمن والحجاز كل هذه كانت عوامل في هزيمة جيش أبي حمزة، الذي استبسل في المعركة إلى حين استشهاد كل قواده وعلى رأسهم الفقيه علي بن الحصين، وأبرهة بن الصباح الحميري، وأصيبت الحركة الإباضية بضعف شديد بعد فشلها في الحجاز في سلسلة الهزائم المتلاحقة التي ابتدأت بمعركة وادي القرى ثم معركة مكة حيث فقدت الحركة أغلب أبطالها وقادتها..

إنَّ استشهاد أبي حمزة واندحار جيشه في الحجاز، كان عاملاً أساسياً في تشجيع عبد الملك بن عطية للتفرغ لعبد الله بن يحي الكندي طالب الحق بأمر من مروان بن محمد، وقد التقى الطرفان إلى الشمال من صنعاء في منطقة (صعدة) وجرت معارك عنيفة أظهر فيها الإباضية بسالة نادرة انتهت باستشهاد البطل الإمام طالب الحق، وبمقتله اتسمت الحركة الإباضية بالانحسار داخل جنوب الجزيرة العربية مكتفية بالدفاع عن مراكز وجودها في اليمن.

كيف انتهت الحركة الإباضية في اليمن وحضرموت؟

من المعروف أن حضرموت تعتبر حصناً منيعاً للحركة، فكما كانت المنطلق لإمامة الظهور كذلك ظلت السند والقلعة التي آوى إليها الإباضية بعد اندحارهم في اليمن، وتحت راية عبد الله بن سعيد الحضرمي إمام الدفاع تكتل الإباضية للدفاع عن آخر حصونهم، فكان على القوات الأموية أن تقضي على هذا الحصن المنيع الذي أذهل الأمويين بسالة وصموداً.

وقد سارع عبد الملك بن عطية إلى حضرموت للقضاء على الحركة قبل أن تعود إلى قوتها من جديد، ودارت معارك حامية استمرت أياماً وليالي، استبسل فيها الإباضية، وهزم فيها الجيش الأموي عدة مرات بين كرٍّ وفرٍّ، ولعل أعنف المعارك هي التي دارت حول حصن شبام[1]

«وبعد أن سيطر عبد الملك على مدينة شبام مارس عمليات السلب والنهب والسبي، وقطع المياه والمؤونة، ووضع الحراسات على الطرق ليمنع

1- شبام حصن حضرموت، وأبرز مدينة فيها، تقع قرب البحر إلى الشرق من عدن.

الإباضية من التزود بالمؤونة بعد أن سيطر على أهم مراكزهم المهمة»[1]

وعلى الرغم من أنَّ الحركة استطاعت أن تقتل القائد الأموي عبد الملك إلا أنَّ قائداً جديداً هو الوليد بن عروة استطاع أن يقود حملات إبادة مروعة، انتقاماً لمقتل عمه.

ويرجح أن القضاء على آخر كيان سياسي للحركة في حضرموت تم في مطلع عام 132هـ .

ولعل من الأسباب الرئيسية التي أدت إلى انحسار الحركة الإباضية بعد انتصاراتها الواسعة ما يلي:

1- ضعف الطاقات البشرية والاقتصادية، فلم تكن الجيوش المرسلة إلى الحجاز تتجاوز الألفين.

2- تفوق القوة الأموية في العدة والعدد، إذ يقول عنها الطبري إنها بلغت الأربعة آلاف فارساً .

3- عدم تجاوب أهل الحجاز مع الحركة بحكم الصراعات القبلية، والتناقض الواسع بين جيش ملتزم بتعاليم الدين، والمجتمع القرشي اللاهي المنغمس في الملذات والترف، وبعبارة أدق بين مجتمع حضري مترف، وجيش مقبل على الآخرة ذي طابع بدوي.

وقد يتساءل الدارس آخر الأمر عن العوامل والأسباب التي ساعدت الإباضية على هذا الانتشار السريع، والانتصار الواسع، فاستطاعوا أن يفتحوا في هذا الظرف الوجيز هذه الرقعة الكبيرة الممتدة ما بين عمان وحضرموت وصنعاء والحجاز، على ضعف الوسائل وقلة الإمكانات عدة وعتاداً؟

1- مهدي طالب هاشم: **مرجع سابق**، ص159 نقلاً عن **الشماخي**، سير ص105.

أهم العوامل هي:

1 ـ فساد السياسة الأموية، وجور حكامها مما جعل الناس يكرهون هذا الحكم ويتمنون زواله.

2 ـ قوة عقيدة الجيش الإباضي وقادته، واستماتتهم في القتال، وإيمانهم الثابت بالمبدأ الذي يقاتلون من أجله وهو إقامة حكم إلاهي يستمد شريعته من القرآن الكريم وسنة النبي ﷺ. وما تسمية أنفسهم بالشراة إلا دليل واضح عن هذا المعتقد الذي خرجوا من أجله، وقد شهد لهم بهذه الخصيصة الإيمانية كل من الإمام علي كرم الله وجهه، والثقة العادل عمر بن عبد العزيز.

فقوة العقيدة أضفت طابع الوحدة والانسجام لدى الشراة، في حين كان الجيش الأموي مؤلفاً من أهل الشام وبعض أهل اليمن، يقاتلون من أجل القوت والمطالب الدنيوية، ولذلك كان الشراة يعيرونهم بأنَّهم (جعائل) أي مرتزقة، ومن تم فإن روح التضامن في هذا الجيش كانت منعدمة. فشتان بين مقاتل تدفعه عقيدته، فهو يرجو الآخرة، ومقاتل تدفعه دنياه، فهو يخاف الموت ويفر منها كلما سنحت له الفرصة، وذلك ماصدقته الوقائع الحربية بين جيش الشراة وجيش الأمويين في أكثر من واقعة.

ولكن رغم هذا الانتصار السريع فإنَّ القادة الإباضيين ارتكبوا أخطاء تكتيكية، وأخرى حربية كانت السبب أن ينتصر عليهم الأمويون، ويهزموهم، ويفتكوا منهم ثمرة الانتصار قبل أن يستفيدوا منها.

ومن أبرز هذه الأخطاء – والله أعلم – توسعهم في رقعة الحرب مع قلة إمكاناتهم، فقد صرَّح زعماؤهم أنفسهم بأنَّهم فقراء لا يملكون الوسائل الحربية التي يملكها عدوهم، فكانوا كما يقول أبو حمزة في خطبته

عندما فتح المدينة يعتورون راحلة واحدة، ولحافاً واحداً، إضافة إلى عدد جنودهم الذين كانوا قليلين جداً بالقياس إلى جنود الأمويين الذين بلغوا الآلاف في بعض المعارك، ولاسيما في المعارك التي استردوا فيها الحجاز وحضرموت واليمن.

ولا نشكُّ في أن الأجواء السياسية في الحجاز لم تكن لصالحهم لا شعبياً ولا رسمياً، فقد عرف القرشيون بعدائهم للشراة، معتبرين أيّاً منهم منافسين لهم في الحكم، علماً أن أغلب الشراة كانوا يمنيين من الأزد، أو من بني تميم، وكانت العصبية القبلية على أشدها في هذه المرحلة التاريخية، والصراع من أجل الحكم كثيراً ما وقفت وراءه نوازع قبلية وعصبيات عشائرية كما تتفق على ذلك أغلب المصادر.

2 - حركة أهل الدعوة في عمان:

تعاطف أهل عمان مع حركة أهل الدعوة منذ فجرها.

على الرغم مما تتفق عليه المصادر الحديثة من عدم توفر المعلومات الموثوقة عن تاريخ تسرب أفكار أهل الدعوة إلى عمان، فإنَّه مما لا شكَّ فيه أنَّ صلة أهل عمان بهذه الحركة كانت منذ نشأتها، والدلائل التاريخية كلُّها تؤيد هذا الزعم وتقويه.

أولاً: تشير المعلومات التاريخية إلى أنَّ أهل عمان رفضوا الأفكار الخارجية المتطرفة التي دعا إليها نجدة بن عامر النجفي عام 67هـ، بواسطة قائده عطية بن الأسود النجفي، فقد استطاع هذا القائد أن يحتل عمان، ويضطر حكامها - عباد بن عبد الله بن الجلندى وولديه سعيد وسليمان -

إلى الانسحاب إلى المناطق الداخلية، ولكن العمانيين استطاعوا أن يدحروا قوات النجدات المتوالية. «وتشير هذه المعلومات بوضوح كما قلنا إلى عدم تقبل العمانيين لأفكار الخوارج المتطرفين.»[1]

ثانياً: عندما أطلق الحجاج الثقفي سراح البطل عمران بن حطان عام 75هـ انتهى به المطاف في عمان حيث نزل في قبائل الأزد، ووجدهم يعظمون أبا بلال مرداس بن حدير، ويعتنقون أفكاره التي نادى بها، ومن المعلوم أنَّ أبا بلال مرداس يعد من أوائل أئمة الإباضية منهجاً وسلوكاً، واعتزالاً للتطرف والخروج.

ثالثا: كل المصادر القديمة تشير إلى العلاقات الحميمة التي كانت بين أزد البصرة وأزد عمان فهما من أصل واحد، مما وطد الصلات بينهم، وساعد على اعتناق مذهب واحد، والتجمع حول إمام واحد، وليس أدل على ذلك من أنَّ القادة الذين اعتمدت عليهم الحركة في نشر دعوتها في اليمن وحضرموت والحجاز كلهم أو جلهم من أزد عمان، نذكر منهم على سبيل المثال: المختار بن عوف الشاري، وبلج بن عقبة الأزدي، وصحار العبدي، وهلال بن عطية العماني، والربيع بن حبيب، وغيرهم كثير.

رابعاً: إن إمام الحركة هو جابر بن زيد دون منازع كان يعتمد في نشر دعوته السرية على الأزد أكثر من اعتماده على غيرهم ثقة وولاء، على الرغم من أنَّ الحركة اعتنقها الموالي إلى جانب العرب الأقحاح. ومن أجل ذلك وجه طلابه وتلامذته وكوّنهم سواء في فترة العمل السري في البصرة أم في مرحلة النفي إلى عمان، حتى قيل: «إنَّ القضية

1- **خليفات نشأة الحركة.** ص127.

الإباضية هي قضية الأزد»[1].

كلُّ هذه العوامل تجعلنا على يقين بأن الحركة سبقت نشأة إمامة الجلندى التي قامت سنة 132هـ.

قيام الإمامة الإباضية الأولى بعمان.

لا نكاد نصل سنة 132 هـ حتى تكون الظروف السياسية والاجتماعية قد ساعدت على قيام أوَّل إمامة إباضية بعمان، وثاني إمامة ظهور في العالم الإسلامي.

ويبدو أنَّ الأزد - الذين شاركوا مشاركة فعالة في ظهور الإمامة الأولى في اليمن وحضرموت - قد التحقوا بعمان موطن قبيلتهم حيث تجمعوا، وكانت الظروف التي تتمتع بها عمان سياسياً واقتصادياً واستراتيجياً كلها تؤهلها لهذا الدور العظيم بعد فشل تجربة اليمن وحضرموت والحجاز.

وقد أوعز مشايخ الحركة في البصرة إلى أتباعهم في عمان للقيام بإعلان الإمامة مستغلين الظروف التي سادت بلاد الخلافة الإسلامية إثر سقوط الدولة الأموية، وقيام الخلافة العباسية سنة 132. فبين شيخوخة الأولى وطفولة الثانية كانت الفرصة مواتية لإعلان هذه الإمامة الفتية.

وقد اختير لها الإمام الجلندى بن مسعود الذي يقال إنَّه كان من ضمن من بايع الإمام طالب الحق، «معتبرين هذا العمل الخطوة الشرعية الإسلامية الصحيحة للخروج من متاهات الصراعات القبلية والأسرية على الحكم، ووجهوا النداء لبقية المسلمين لمبايعة الإمام الجلندى بن مسعود

1- المصدر السابق، ص128.

خليفة للمسلمين.» [1]

ردُّ فعل السلطة العباسيَّة.

إن قيام مثل هذه الإمامة الشرعية ذات الطابع الإسلامي القائم على الشورى والانتخاب كان لابد أن يزعج السلطات العباسية في العراق، فقد رأتها منافساً خطيراً قد يستقطب المضطهدين المتعطشين إلى حكم قائم على العدالة والتشريع الإسلامي، مما جعل السلطات العباسية تسارع إلى القيام برد فعل قوي سنة 134هـ. فعاملت الإمامة الإباضية كما عاملتها السلطات الأموية قبلها، ولذلك جندت حملة عسكرية بقيادة خازم بن خزيمة التميمي الذي كلفوه بالقضاء على الصفرية المتجمعين في جزيرة ابن كاوان ثم السير إلى عمان للقضاء على الإمامة الفتية قبل استفحال أمرها وثباتها.

استطاع خازم أن يهزم الصفرية ويدحرهم من الجزيرة، فهربوا إلى منطقة جلفار في الشمال الشرقي من عمان، ولكن الجلندى بنزعته الوطنية، وكرهه لمبادئ الخوارج أرسل إليهم قوة عسكرية لطردهم من البلاد ما لم يقبلوا الانضواء تحت حركة أهل الدعوة، ولما رفض الصفرية هذا الشرط قاتلهم، وقضى على قائدهم، وبذلك استفاد القائد العباسي بهذه العملية من جهتين القضاء على الصفرية قضاء تاماً، وإضعاف الإباضية.

سار القائد العباسي لمحاربة الإباضية وعرض عليهم الدخول تحت الحكم العباسي فرفضوا، ودارت بين الجيشين معارك قاسية عنيفة، رجحت فيها كفة العمانيين في البداية، ولكن خازماً اتبع طريقة جديدة فأحرق بيوت الإباضية وشغل أذهانهم بأولادهم وأهلهم وممتلكاتهم، مما ساعد

1- خليفات : نشأة الحركة الإباضية ص 131.

على الانتصار عليهم، وقد هيأ لذلك نفسياً وعسكرياً. وبعد سبعة أيام من القتال الشديد استطاع خازم أن يهزم جيش الجلندى، وتعتبر عمان داخلة تحت الحكم العباسي[1].

وهكذا تمكن العباسيون من الانتصار عليهم، فقتل الجلندى بن مسعود، وهلال بن عطية الخراساني الذي أرسله أبو عبيدة مسلم لمعاونة الإباضية في عمان، وقد قتل من الإباضية في هذه المعارك زهاء العشرة آلاف إباضي كما ورد في رواية الطبري، إلاّ أن هذه الرواية فيها الشيء الكثير من المبالغة، إذ لو اجتمع هذا العدد للحركة الإباضية لما استطاعت الحملة العباسية المحمولة بالبحر من القضاء عليهم، وقد تصدق هذه الرواية إذا أضفنا إليها عدد القتلى الذين أحرقت عليهم بيوتهم بطريقة وحشية بما في ذلك الأطفال والنساء.[2]

على الرغم من هذه النهاية المؤسفة لأوّل إمام وإمامة إباضية في عمان، إلاّ أن العمانيين لم يستكينوا للدولة العباسية التي كانوا يعتبرونها حكومة ظالمة لا ينبغي الركون لها، والخضوع لسلطانها، فاتخذ الإباضية من معركة جلفار الأولى والثانية، دافعاً لهم للثأر لإخوانهم وباتت ذكرى تحفزهم للتجمع من جديد وطرد السلطات العباسية من وطنهم.

وهكذا استطاع الإباضية أن يعلنوا الثورة من جديد ويعيدوا تأسيس الإمامة الثانية عام 177هـ.

«ومنذ ذلك التاريخ استمرت الإمامة في عمان أو في مناطقها بدون انقطاع قروناً عديدة، وأصبح المذهب الإباضي هو المذهب السائد في

1- ينظر الرقيشي: **مصباح الظلام**، والأزكوي: **كشف الغمة**، كذا خليفات: **نشأة الحركة** ص132.

2- ينظر، مهدي طالب هاشم: **مرجع سابق**، ص188.

عمان، واعتنقه معظم سكانه.»[1]

د - انتشار مذهب أهل الدعوة في المغرب:

لم تستطع السلطات الأموية أن تقضي على مذهب أهل الدعوة في المشرق قضاء كلياً مع أنها استخدمت كل وسائل التقتيل والإبادة الجماعية ضدهم، مما دفع أهل الدعوة إلى التفكير في مصير حركتهم وإيجاد طرق بديلة تضمن لهم الاستمرارية، وهكذا فكروا أن يتجهوا إلى أماكن بعيدة عن المراكز الأموية في المشرق، فاتجهوا صوب مصر والمغرب.

وكانت السياسة المتعسفة الجائرة التي يطبقها الأمويون ضد سكان المغرب عاملاً قوياً لتقبل أفكار أهل الدعوة ومبادئهم الداعية إلى المساواة والعدالة وتطبيق مبادئ الإسلام السمحة، وما زال البربر سكان هذه البلاد صابرين على ذلك حتى جاءتهم الوفود الأولى من المضطهدين الهاربين من العراق حيث الجور والتنكيل فاعتنقوا مبادئ أهل الدعوة، وهي مبادئ تتفق مع صفات المغاربة وطباعهم وعقليتهم الرافضة للجور والظلم دوماً، المستعدة لإعلان الثورة والتمرد كلما وجدت إلى ذلك سبيلاً.

ومن بين الفرق الثائرة على السلطات الأموية الظالمة فرقتان اتجهتا إلى المغرب وهما الصفرية والإباضية، وكان ذلك في السنوات الأخيرة من القرن الأول الهجري، وبداية القرن الثاني.

وتروي المصادر الإباضية أن أول داع لمذهبها ببلاد المغرب هو سلمة بن سعد - أو سعيد - الحضرمي، جاء من البصرة مع عكرمة مولى عبد

1- خليفات: نشأة الحركة الإباضية .ص 132.

ا لله بن عباس الداعية إلى مذهب الصفرية، ويبدو أنَّ سلمة كان يتحرق شوقاً ويتطلع إلى اليوم الذي يرى فيه حركة أهل الدعوة، وقد امتدت على كل أجزاء المغرب. فكان يقول: «وددت أن يظهر هذا المذهب بأرض المغرب يوماً واحداً من غدوة إلى الزوال فما أبالي إن ضربت عنقي.»[1]

أما عكرمة فقد توجه إلى المغرب الأقصى، ويبدو أنَّ مذهبه انتشر بين قبائل بربر بني يفرن، وتحمسوا له وقاتلوا من أجله، وأدى هذا فيما بعد إلى ظهور دولة سجلماسة التي جاورت الدولة الرستمية الإباضية وتعاونت معها.

ولعلَّ بقاء سلمة الحضرمي داعية في ناحية طرابلس، وتوجه عكرمة إلى المغرب الأقصى كان عن تخطيط وتعمد لإرباك قوى السلطات الأموية وتشتيت صفوفها، وإضعاف قوتها. ونتيجة لجهود سلمة فقد ارتحل بعض من اعتنق المذهب من أهل جبل نفوسة إلى البصرة ليأخذوا أصول الدعوة وتعاليمها عن إمامها الأكبر أبي عبيدة. وتذكر المصادر الإباضية من مشاهير هؤلاء: أبو عبد ا لله محمد بن عبد الحميد بن مغطير الجنّاوني الذي كانت له جهود كبيرة في إقناع كثير من بني قومه من نفوسة لاعتناق مذهب أهل الدعوة، مما جعل جبل نفوسة معقلاً رئيساً وسنداً حقيقياً لإباضية المغرب خلال الثلث الأول من القرن الثاني الهجري. وقد انتشر المذهب بين القبائل البربرية القاطنة في تلك البقعة.

«ورأت هذه الجماعات ـ نتيجة لجهود الدعاة الإباضية ـ في المذهب الإباضي المثل الصحيح للإسلام الحق، واتخذت من شعار المساواة الذي

1- الدرجيني: طبقات ص 10 . والشماخي: سير ص 98.

نادى به الإباضية مبرراً دينياً وشرعياً للثورة ضد الولاة.»[1] ويكفي دليلاً على ذلك أن زعيم الحركة من الموالي، وكذا حامل الدعوة وناشرها في المغرب أيضاً.

حملة العلم الخمسة:

ولكي تستند الدعوة إلى أسس صحيحة كان لابد أن يقوم بها أبناء المنطقة نفسها، ولا يستطيع ذلك إلا علماء مبرزون يتعمقون في الأصول الإسلامية ومبادئ أهل الدعوة، ينهلون من منابعها الأساسية، ومن أجل هذا الغرض توجهت أول بعثة علمية إلى البصرة متألفة من أربعة أشخاص اختيروا من مناطق مختلفة من المغرب وهم : أبو درار إسماعيل بن درار الغدامسي من غدامس جنوب طرابلس، وعبد الرحمن بن رستم (فارسي الأصل) عربي المولد والنشأة والمربى من القيروان، وعاصم السدراتي من سدراتة غربي أوراس، وأبو داود القبلي النفزاوي من نفزاوة جنوبي تونس، وانضم إليهم في البصرة أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري اليمني الأصل.

ولا نعرف تاريخ توجههم بالتحديد إلا أنَّ المصادر تذكر تاريخ رجوعهم وهو عام 140هـ، وتذكر أيضاً أنهم قضوا في البصرة خمس سنوات مما يجعلنا نرجح سنة 135هـ سنة توجههم إلى المشرق.

قضى حملة العلم خمس سنوات بين يدي أبي عبيدة مسلم في سرداب سري بالبصرة يتعلمون مبادئ الدعوة وأصولها حتى إذا عادوا إلى قبائلهم عادوا بزادٍ وفير، وعلم غزير، يبثونه بين أهلهم وذويهم، وكان أوَّل ماقاموا

1- خليفات: **نشأة الحركة الإباضية**، ص136.

به إنشاء مجالس سرية للدعوة على غرار مدرسة البصرة، ولم يمض وقت طويل حتى ظهرت آثارهم في مناطق المغرب، فكونوا تلامذة نجباء اشتهروا بعلمهم وتقواهم وورعهم وإخلاصهم للدعوة الإسلامية ومن أشهر هؤلاء: أبو خليل الدركلي، وعبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم، ومحمد بن يانس، وعمر بن يمكتن وغيرهم كثيرون.

الثورات ضدّ السلطة الأموية.

لا نكاد نصل إلى سنة 122هـ حتى تقوم ثورة بربرية صفرية يقودها ميسرة المطغري في المغرب الأقصى، وقد استفحل أمرها حتى كادت تعم كل ربوع المغرب، فسميت لذلك بثورة البربر، وقد شهدت السنوات المتوالية 122-160 عدة ثورات أخرى كانت تهدف جميعها إلى إقامة نظام منفصل عن الدولة الأموية، ثم العباسية، وبما أن المجال هنا لا يسمح لنا بذكر تفاصيل هذه المراحل فإننا سنكتفي بالثورات المهمة.

ثورة أبي الخطاب عبد الأعلى بن السمح:

في عام 140هـ وهو العام الذي رجع فيه حملة العلم من المشرق بادر أهل الدعوة إلى مبايعة أبي الخطاب إماماً عليهم طبقاً لأوامر إمام المذهب أبي عبيدة، وكانوا قد وضعوا الخطط السياسية المحكمة، وأعدوا القبائل البربرية مثل نفوسة وهوّارة لتستعد للثورة وتعلن الإمامة، وهيأوا العدة العسكرية والبشرية لإنجاح هذه الثورة.

وتمت البيعة لأبي الخطاب، وبعد أن تمت مراسيم البيعة توجهوا إلى مدينة طرابلس للاستيلاء عليها طبقاً لخطة كانوا قد وضعوها من قبل، وقد استطاعوا بفضل السرية التامة والتخطيط المحكم أن يدخلوا طرابلس

ويفتحوها دون قطرة دم واحدة، ولم يتمكن الوالي العباسي من الاستعداد للدفاع عن المدينة، فاضطر إلى الاستسلام. وهكذا استولى أبو الخطاب على طرابلس فأحسن السيرة بها وأظهر العدل والمساواة اللذين طالما تشوق أهالي المنطقة لهما.

وبعد هذا الإنجاز العظيم جاءت رسالة أبي عبيدة رداً على رسالة كانوا توجهوا بها إليه يهنيهم، ويعظهم، ويوجههم. مما يدل على العناية الفائقة التي يوليها الإمام أبو عبيدة لأهل الدعوة، وعلى مدى الاتصال الحميم الذي كان بين المشارقة والمغاربة الذين كانوا حريصين على استشارة إمامهم والسير على نهج دعوته ولو كان عنهم بعيداً، ضماناً للتواصل والتضامن ووحدة الصف.

وعندما قامت قبيلة (ورفجومة) الصفرية بأعمالها الشنيعة تقتيلاً وإبادة في القيروان رأى أهل الدعوة ضرورة الوقوف أمام المعتدي على حرمات الله، فتوجهوا بقيادة أبي الخطاب نحو القيروان واستطاعوا أن يستولوا على (قابس) في طريقهم، واستطاع أن يدخل القيروان بعد حصار لها سنة 141هـ ويستخلصها من مناكر ورفجومة.

ولكن ما لبثت جيوش أبي جعفر المنصور أن وصلت إلى إفريقية بقيادة محمد بن الأشعث الخزاعي، وهو ما اضطر معه أبو الخطاب إلى التوجه إلى طرابلس للدفاع عنها، وترك عبد الرحمن بن رستم والياً على القيروان. ولم يجد أبو الخطاب عناء في صد هذا الجيش العباسي ورده مهزوماً. ولكن مالبث أن أعاد الكرة بجيش قوامه أربعون ألفاً، واستطاع أبو الخطاب التغلب عليه مرة ثانية، وهنا لجأ ابن الأشعث إلى الحيلة فتظاهر بالانسحاب إلى المشرق، وتغرق جيش أبي الخطاب الذي كان من الأهالي والفلاحين

الذين عادوا إلى مزارعهم في موسم الحصاد، مما سهل على ابن الأشعث القضاء على من بقي مع أبي الخطاب فقتلهم جميعاً، وكان ذلك سنة 144هـ. وتذكر بعض المصادر أنَّ الانهزام يعود إلى تصدع قبلي أصاب جيش أبي الخطاب استغله ابن الأشعث أحسن استغلال، وعاد بالوبال على أهل الدعوة.

ولـمَّا وقعت هذه الهزيمة بالإباضية تشتتوا في البلاد والتجأوا إلى الجبال يتحصنون بها، لأنَّ ابن الأشعث لم يكتف بمعركة (تاورغا) التي انتصر فيها، وإنَّما تمادى في ملاحقة من بقي منهم تقتيلاً وإبادة حتى أفنى منهم خلقاً كثيراً.

بعد هزيمة أبي الخطاب اضطر عبد الرحمن بن رستم إلى الهروب والتخفي، ورأى أهل الدعوة أن يلجأوا إلى الكتمان إلى حين اشتداد ساعدهم واجتماع كلمتهم. وقد استطاعوا ذلك سنة 145هـ حيث اجتمعت القبائل على مبايعة إمام للدفاع وقع عليه اختيارهم وهو أبو حاتم يعقوب بن حبيب الملزوزي، وقد استطاع بمساعدة نفوسة أن ينتصر على جيوش العباسيين ويدخل طرابلس، ويحاصر القيروان ويحقق انتصارات باهرة، ولكن نجدات أخرى جاءت من المشرق بقيادة يزيد بن حاتم، وقد استطاعت في الأخير أن تقتل أبا حاتم الملزوزي وتهزم جيشه، وكان ذلك سنة 155هـ.

و لم يكتف القائد العباسي بذلك بل راح يلاحق أهل الدعوة في كل سهل وجبل مما اضطرهم إلى الدخول في مرحلة الكتمان مرة أخرى إلى أن يأذن ا لله بإمامة الظهور على يد قائد شجاع محنك، ودولة ثابتة قوية هي الدولة الرستمية بقيادة الإمام عبد الرحمن بن رستم، كما سنرى في العنوان اللاحق بحول ا لله.

الدولة الرستمية:

علم عبد الرحمن بن رستم باستشهاد الإمام أبي الخطاب عبد الأعلى بن السمح وهو في طريقه إليه من القيروان إلى طرابلس، وكما وجد (قابس) قد قامت على عامل أبي الخطاب وثارت عليه، فأسرع الخطى عائداً إلى القيروان التي تنكرت هي أيضاً للإباضية، فلم يجد بُداً من التوجه فراراً إلى المغرب الأوسط بصحبة خادمه وابنه عبد الوهاب. وظل سائراً بين القبائل الإباضية متخفياً سالكاً طريقاً وعرة من جنوب الجزائر، وقطعها من شرقها إلى غربها في مغامرة إلى حين وصوله إلى جبل يدعى (سُوفَجَّجْ). وقد وجد عبد الرحمن أنصاراً له في الطريق ساروا معه إلى الموقع المذكور، ولحق به ابن الأشعث وظل يحاصر هذا الجبل المنيع حتى أيس ورجع إلى القيروان، ويبدو أنَّ عبد الرحمن بعد أن خرج من الحصار منتصراً بقي هنالك بين أنصاره من القبائل البربرية حتى إذا اجتمع حوله من أهل العلم والصلاح من يثق فيهم، ووجد نفسه قادراً على الشروع في بناء دولته اتجه نحو موقع (تاهرت)، ولا تسعفنا الأخبار بالتفصيل عن عبد الرحمن سوى ما تذكر بعض المصادر عن مشاركته في حصار مدينة طبنة سنة 152هـ. ولا نعرف بالضبط متى انتقل إلى موضع تاهرت، ولكن بعض المصادر ترجح أن ذلك وقع ما بين 155–160هـ) ففي هذه الفترة بالذات كثر الإباضية من المغربين الأدنى والأوسط، وتمركزوا في نقطة واحدة، والتفوا حول شخصية عبد الرحمن بن رستم الذي تؤهله شخصيته العلمية والدعوية لذلك، ورأوا ضرورة بناء مدينة يأوون إليها ويتحصنون بها، ويبدو أن الانطلاقة الفعلية لبناء هذه المدينة كانت في نهاية 155هـ وبداية 156هـ[1].

1– ينظر: إبراهيم بحاز: **الدولة الرستمية** ط الجزائر 1985 ص 85.

بناء العاصمة تاهرت.

اجتهد الإمام عبد الرحمن ومن معه من أهل الدعوة على إيجاد مكان مناسب لبناء مدينة مثالية تحصيناً ومنعة، وهواء وجمالاً، وكان الموقع المختار أشجاراً وأحراشاً ومرتعاً لأنواع السباع، وتفصل بعض المصادر[1] العملية في بناء المدينة بداية من المسجد الجامع ونهاية بالدور والقصور، والبيوت والأسوار الحصينة. وقد ازدهرت المدينة واشتهرت بحسن جمالها وامتياز موقعها، مما جعل الكتاب والرحالة يشيدون بوصفها، من ذلك وصف المقدسي حيث يقول: «...هي بلخ المغرب، قد أحدقت بها الأنهار والتفت بها الأشجار، وغابت في البساتين، ونبعت حولها الأعين وجل بها الأقليم، وانتعش فيها الغريب، واستطابها اللبيب، يفضلونها على دمشق، وأخطأوا، وعلى قرطبة وما أظنهم أصابوا، هو بلد كبير، كثير الخير رحب، رقيق طيب، رشيق الأسواق، غزير الماء، جيد الأهل، قديم الوضع، محكم الرصف، عجيب الوصف...»[2]

وقد دلت بعد ذلك الأيام على حسن اختيار عبد الرحمن وشيعته على هذا المكان المناسب، فازدهر اقتصادياً، وارتقى اجتماعياً، واشتهر ثقافياً، فسارت بذكر مناقب تاهرت الركبان، وأصبح اسمها على كل لسان[3].

وقد استمرت في التطور والعمران، وقصدها الإباضية من المغرب كله حتى كان عان 160هـ، وقد استأنس الإباضية من أنفسهم قوة، ووجدوا

1- ينظر الباروني: **الأزهار الرياضية**، ج2، والشماخي: **سير**، وإبراهيم بحاز: **الدولة الرستمية**، ص86-89

2- المقدسي: **أحسن التقاسيم**، ص228.

3- ينظر ابن الصغير: **أخبار الأئمة الرستميين**، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1986م، ص36 وما بعدها.

أنَّهم يملكون كل المقومات المادية والأدبية لإعلان إمامة الظهور، فنظروا لمن يتولى الأمر، فلم يجدوا أبرز ولا أليق من عبد الرحمن بن رستم لسابقته ودينه وعلمه، إضافة إلى أن عبد الرحمن بن رستم لا ينتمي إلى قبيلة من قبائل المنطقة فيؤدي ذلك إلى الشقاق والافتراق، إذ قد ينحاز الإمام إلى قبيلته، وقد يتصرف وفق نفوذها وجاهها. ومن هنا كانت المبايعة للإمام عبد الرحمن إجماعاً متوقعاً.

وهكذا يكون الإمام عبد الرحمن بن رستم بعد هذه المبايعة أوَّل إمام لأوَّل دولة إسلامية في المغرب الأوسط (الجزائر) عرفت في التاريخ بالدولة الرستمية، وكانت دولة إباضية تستظل بها جميع القبائل المعتنقة لهذا المذهب من المغربين الأوسط والأدنى، إضافة إلى غيرها من المذاهب الداخلة ضمن حدودها.

وقد اشتهرت هذه الدولة بنظامها الشوري، وعدالتها، وأمنها، وازدهارها، إذ كانت رغم مذهبها الإباضي الرسمي الغالب، يعيش تحت سلطانها كل المذاهب الأخرى، وعرفت مساجدها وأسواقها مناظرات مفتوحة بين العلماء وأهل الكلام، وازدهر فيها الشعر والأدب، واستمرت على هذا النحو من التطور والعمران انطلاقاً من عاصمتها تاهرت التي كانت في مركز اقتصاديٍّ ممتاز سهّل لها الاتصال بالدول شرقاً وغرباً شمالاً وجنوباً، فكانت تمر بها القوافل التجارية متجهة إلى الصحراء حتى وصلت علاقتها بإفريقية السوداء، واتجهت شمالاً لتمتين الروابط مع الأندلس.

واشتهرت بالرخاء والأمن فقصدها الوافدون من كل الأقطار والأمصار، وظلت مرتبطة بعلاقات وثيقة بإباضية المشرق، الذين كانوا يرون فيها دولتهم، وقوتها من قوتهم، لأنَّها ثمرة جهود علماء المذهب الإباضي في المشرق والمغرب، وتتويج لثورات الإباضية ضدَّ الولاة الأمويين

والعباسيين في المغرب العربي ومشرقه[1].

وهكذا راحت تشق الدولة الرستمية طريقها الحضاري، فكانت لها المهابة داخلاً وخارجاً، وشهدت أزهى عهودها تحت تحكم الأئمة العدول الأقوياء، أمثال : عبد الرحمن بن رستم، وابنه عبد الوهاب، ثم حفيده أفلح.

إنَّ الرستميين استطاعوا أن ينهضوا بهذه الدولة التي بلغت أوجاً من الرقي والحضارة، رغم ما كان تحت حكمها من مختلف الأجناس والقبائل والأديان والمذاهب والطبقات، ورغم ما كانت تقاومه من حين إلى آخر من فتن داخلية لا يخلو منها أي زمان أو مكان، واستطاعت أن تعيش ـ رغم تنافس دولتين جارتين قويتين لها، هما: دولة الأدارسة بالمغرب الأقصى والأغالبة من الشرق ـ قرناً وأكثر من ثلث قرن.

وثمة عوامل مختلفة تذكرها المصادر[2]، وتفيض فيها القول عن أسباب سقوط الدولة الرستمية على يد أبي عبد الله الشيعي داعية الفاطميين، لا مجال لذكرها هنا، وأغلبها يعود إلى الشيخوخة والوهن الذي أصاب الحكم والحكام من الداخل مما جعل الدولة الرستمية تسقط بكل سهولة في يد هذا الغازي الذي أتلف حضارة، وأحرق تراثاً ضخماً، ساهمت في بناء الحضارة الإسلامية مائة وستة وثلاثين سنة (160–296) و لله الأمر من قبل ومن بعد.

وتشتت أهل الدعوة في البلاد ملاحقين مضطهدين، وعادوا إلى مرحلة الكتمان مرة أخرى مما سيفتح صفحة جديدة ناصعة أخرى من صحف التاريخ الإسلامي في منطقة المغرب، ما لبثت أن ازدهرت في واحات ورجلان ووادي مزاب وجربة، ونفوسة.

1– يراجع ابن الصغير: مرجع سابق، ص36، 37.

2– يراجع محمَّد علي دبوز: تاريخ المغرب الكبير، ج3، دمشق 1965م.

الباب الثاني

السمات والخصائص الحضارية

الفصل الأول

من الأصول العقدية

1. الايمان عقيدة، وقول، وعمل.
2. معنى «الحاكمية لله» .
3. مجتمع الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر.
4. نظرية الحكم.

الفصل الأول

من الأصول العقدية والمبادئ العامَّة

من أهم أسباب نجاح منهج الدعوة عند الإباضية أنَّه منهج مبني على أصول ثابتة، أصول عقدية مستمدة من القرآن الكريم، وسنة الرسول ﷺ، بحيث غدت هذه الأصول عبر تاريخ الشراة المورد والمصدر، المنطلق والهدف، لا تقبل المساومة أو الركون إلى الزخارف الدنيوية، فالشراة في صراعهم الطويل ضدَّ الباطل أصحاب منهج واضح وضوح الشريعة الإسلامية، بسيط لبساطة السلوك الإسلامي، ثابت كثبات الوحي المنزل على ﷺ، الذي لا يأتيه الباطل من بين يده ولا من خلفه.

ولعلَّ هذه الرؤية المتَّسمة بهذه الصفات: الوضوح، والبساطة، والثبات، هي التي دفعت الكثير من الأقلام المناوئة للشراة قديماً، إلى نعت منهجهم بالتشدُّد والتطرف، والخروج، دون العناية منهم في محاولة دراسة هذه المواقف والأفكار، بغية معرفة ما فيها من صواب أو خطأ. بل لم يكلفوا أنفسهم عناء الرجوع إلى مصادرهم، للاحتكام إليها، حتى تتبين صحة ما ينسب إليهم من أقوال، وجاء الكتاب المحدثون فأخذوا تلك الأحكام المجحفة من بعض المصادر المناوئة للشراة منذ القدم، على أنها مصادر موثوق بعلمها، وأحكامها، وأخبارها.

ومن هنا كان لزاماً ـ إن أردنا الإنصاف ـ أن نعود إلى الأصول

العقدية، نمحصها ونستنطقها، ونعرضها على كتاب الله، فإن وافقت ما فيه أخذنا بها، وإن عارضته ضربنا بها عرض الحائط. دون أن نعلق الصواب أو الخطأ بالكثرة الكاثرة، أو بالتسميات المشتهرة التي أطلقت عبر التاريخ فأصبحت مسلّمات لا تقبل النقاش، فإنَّ الأولى أن نعرف الرجال بالحق لا الحق بالرجال كما يقال.

وبما أنَّ هذه الدراسة ليست خاصة بهذا الجانب وحده، أي الجانب العقدي، فإننا سنقتصر على الأصول التي لها علاقة بمنهج الدعوة الإباضية، محاولين تحليل ما في هذه الأصول من انعكاس على سيرة الإباضية عبر تاريخهم الطويل، وصراعهم المرير من أجل البقاء.

١- الإيمان عقيدة، وقول، وعمل.

تعد هذه المسألة العقدية مسألة خلافية بين الفرق الإسلامية، دار حولها جدل كبير منذ ظهور الجدل الكلامي إلى يوم الناس هذا، ولعل حرص المسلمين على مناقشتها واحتدام جدالهم حولها راجع لكونها تتعلق بقضية الإيمان في الإسلام أهو عقيدة في الجنان وقول باللسان وعمل بالأركان كما تذهب إلى ذلك بعض الفرق؟ أم هو عقيدة بالجنان وإقرار باللسان وكفى؟ ولا علاقة للعمل بعد ذلك بالعقيدة، اعتقاداً منهم بأنَّ الإيمان يزيد وينقص، فمن قال: لا إله إلا الله، دخل الجنة، وإن زنى وإن سرق، كما يفهمون.

والإباضية يولون هذه المسألة اهتماماً عظيماً. ولا نعد مبالغين إن قلنا: إن مدار مسائل العقيدة عندهم تدور في الأغلب الأعم حول هذه المسألة لسبب بسيط، وهو أنَّها تتعلق بماهية المسلم وأحقيته في هذه التسمية أو

عدمها، وتتعلق بالجزاء الأخروي، فمرتكب الكبيرة الميت من غير توبة مخلّدٌ في النار أم لا؟ وتتعلق بصفات الله سبحانه وتعالى هل يُنجز وعيده كما يُنجز وعده؟ وتتعلق بالولاية والبراءة والوقوف اعتباراً بأن الحكم على المسلم ووضعه في إحدى هذه الخانات يتبع تطبيقه للشريعة الإسلامية، ويتعلق بها أيضاً تعريف الكبيرة والصغيرة، ويتعلق بها الأسماء والأحكام التي تطلق على المؤمن والكافر من جهة، والمؤمن والمنافق والمشرك من جهة ثانية. .

كل هذه المسائل كما لا يخفى تعود إلى محور واحد هو العقيدة: أهي إيمان في القلب ونطق باللسان وكفى، أم هو اعتقاد وإقرار وعمل؟

وموقف الإباضية واضح وصريح بأنَّ الإسلام لايتم إلا بالاعتقاد والإقرار والعمل، أي أنَّ الإيمان لا تكفي فيه النية ما لم يصدقه العمل، ولعلَّ الإباضية من أشدِّ الفرق الإسلامية تشدداً في تطبيق هذا المبدأ في علاقاتهم مع ربهم، وفي علاقاتهم مع الناس. والدليل الذي يستندون إليه لا يمكن أن يخطأه نظر المسلم البسيط الناظر في كتاب الله، حيث نجد صفة الإيمان ترتبط دوماً بالعمل الصالح: ﴿**الذين آمنوا وعملوا الصالحات**﴾، ﴿**إنَّ الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا**﴾ (سورة فصلت: 30)، (سورة الأحقاف: 13).

﴿**وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون**﴾(سورة التوبة: 105). إلى غيرها من الآيات الكريمة التي يكتظ بها كتاب الله، إلى جانب أحاديث الرسول ﷺ التي طالما صرح فيها بأن الإيمان بالقلب وحده لا يكفي ما لم يصدقه العمل والسلوك والأخلاق. كما جاء ذلك في الحديث الذي خاطب فيه أقرباءه ومنهم ابنته فاطمة.

وقد جاء في عقيدة التوحيد عند الإباضية :

«إن سأل سائل فقال: ماأصل الدين؟ فقل: الدين هو التوحيد، لقوله تعالى: ﴿**إنَّ الدين عند الله الإسلام**﴾ (سورة آل عمران: 19) والإسلام لا يتم إلا بقول وعمل، أما القول فشهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ولا ند، ولاضد، ولاقرين، ولا شبيه، ولا مثيل، وأنّ محمداً عبده وسوله، وأنّ ماجاء به حق من عند ربه. وأما العمل فالإتيان بجميع الفرائض.» [1]

جاء في متن الديانات للشيخ عامر بن علي الشماخي موضحاً هذه المسألة باعتبارها جزءاً من عقيدة المسلم: «المنزلة بين المنزلتين، ندين بأنَّ منزلة النفاق بين منزلة الإيمان ومنزلة الشرك، وندين أنَّ المنافقين ليسوا بمؤمنين ولا بمشركين، وندين بأنَّ المشركين ليسوا بمؤمنين ولا منافقين، وندين بأنَّ المؤمنين ليسوا بمنافقين ولا بمشركين، ومن سمى كلَّ واحد منهم باسم صاحبه فقد كفر. وأن لا منزلة بين المنزلتين، ندين بأن لا منزلة بين منزلة الإيمان ومنزلة الكفر، وندين بتكفير من زعم أن طاعة الله كلها توحيد ومعصيته كلها شرك، وندين بتكفير من زعم أنَّ الإيمان كله توحيد والكفر كله شرك». [2]

والإباضية حين يفسرون الجملة ـ أي الشهادة ـ يفسرونها تفسيراً عقدياً وتفسيراً عملياً، وهم يركّزون على الجانب العملي، الذي هو الواجبات الدينية، لأنَّ هذه العقيدة هي القاعدة للحياة الإسلامية العملية، وجميع الواجبات العملية هي تفسير لهذه العقيدة. لأنَّ الله سبحانه وتعالى وحده هو الذي تحق له الألوهية، أي تحق له العبادة.

والعبادة هي مطلق الخضوع والانقياد، بحيث يشعر الإنسان من أعماق نفسه بهيبة المعبود وعظمته وجلاله. ﴿**وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين**

1- **المجموعة القيمة**، تقديم الشيخ إبراهيم اطفيش ص9.

2- **كتب مختارة**. المطبعة العربية غرداية دت ص49.

له الدين ﴾ (سورة البيِّنة: 5). والله سبحانه وتعالى يقول: **﴿فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً ﴾** (سورة الكهف: 110).

«...فالزنا ينافي شهادة أن لا إله إلا الله، رغم أنَّه لا يخرج مرتكبه من الملَّة - إذا لم يكن مستحلاً له - ولكن مع ذلك فهو نكث لهذه الشهادة، نكث لهذا العهد الذي بين الرب والعبد، وكذلك قتل النفس التي حرم الله... وجميع الكبائر الأخرى إنَّمَا هي نكث للعهد، العهد الذي بين العبد والرب، فالوقوف عند حدود الله تعالى، وامتثال أوامر الله، والازدجار عن نواهي الله تفسير عملي لهذه الجملة التي طولبنا بها.»[1]

هكذا يعتقد الإباضية أنَّ العبادة لن تكتمل إلا بأعمال تؤكدها أو تنفيها، إذ لو كانت النية القلبية كافية لما كان هناك معنى لثواب أو عقاب، فالتلفظ بالشهادة شطر الإيمان، لا شرط في كماله.

والله سبحانه وتعالى فرق بين الإنسان الخاسر، والإنسان الرابح من هذا المنظور، منظور الإيمان والعمل الصالح، ولا منظور غير هذا كما تدلُّ على ذلك الآية الكريمة بوضوح يؤكده القَسم الإلهي العظيم: **﴿والعصر إنَّ الانسان لفي خسر، إلاَّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر﴾**(سورة العصر).

والإباضية بنوا دعوتهم إلى دين الله على هذا الأساس المتين الذي لا يفرِّق بين قول وعمل، وصنَّفوا فهمهم للشريعة على ضوء هذا الاعتقاد، فالنطق بالشهادة وحدها يدخل المسلم في الإطار الجغرافي للمسلمين فيحرم دمه وماله وعرضه، وتحفظ كرامته، وكرامة أهله، بناء على قول الرسول

1- الشيخ أحمد بن حمد الخليلي: **الجملة وتفسيراتها**، الاستقامة، سلطنة عمان 1414هـ ص14-15 (بتصرف).

الكريم: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فإذا قالوها فقد حقنوا عني دماءهم وأموالهم إلا بحقها.**»، قيل وماحقها يارسول الله؟ قال: «**كفر بعد إيمان، وزنى بعد إحصان، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق.**» [1]

وهم حين طبّقوا هذا المفهوم اختلفوا مع الخوارج الأزارقة الذين استعرضوا الناس بالسيف، واعتبروا المذنب مشركاً لا كافرا كفر نعمة، ولذلك أحلوا دماءهم وأموالهم. وهي نقطة خلاف جوهرية افترق الإباضية بها عن الفرق الأخرى في جدال معروف بين عبد الله بن إباض وبين نافع بن الأزرق، وفي فتاوى معروفة عن جابر بن زيد وأبي عبيدة والربيع بن حبيب.

وهم عندما رفعوا السيف في وجه الجبابرة من الحكام الأمويين والعباسيين إنما بنوا هذا الخروج على الظلمة، بناء على هذه العقيدة حين رأوهم يعيثون في الأرض فساداً، ويقيمون أحكامهم على الجور والظلم، كما جاء ذلك في خطبة أبي حمزة الشاري الشهيرة حين دخل المدينة، وفي خطبة الإمام طالب الحق حين دخل صنعاء.[2]

فقد رأوا ضرورة الوقوف أمامهم لأنّهم فرقوا بين شهادة أن لا إله إلا الله، والعمل الصالح. فإنَّ الله حين أرسل محمداً ﷺ بشريعة الإسلام أراد أن يكون المسلم كله لله، وأن لا يكون لله في المؤمن شريك مادي أو معنوي، لا جاه، ولا سلطان، ولا نفوذ، فإن الله أغنى الشركاء، فإن لم

1- الحديث رواه **الربيع بن حبيب في الجامع الصحيح** عن ابن عبّاس، ح464، باب 17 جامع الغزو في سبيل الله، بدون الشطر الثاني. وانظر في أحاديث كثيرة في الكتب التسعة قريبة منه لفظا ومعنى منها حديث رواه **الدارمي** في كتاب الحدود 2195.

2- يراجع قسم النصوص (ملحق).

يتوجه إلى الله بقلبه، ولسانه، وجوارحه، فإنَّ الله غني عنه.

وإنَّ موقف الإباضية الحازم في هذه القضية العقدية انبثق عنه تصنيف العباد إلى مؤمن موفٍ لدين الله، أو مؤمن موحِّد غير موفٍ لدين الله، مصر على الذنب، فهو كافر (كفر نعمة)، ولا منزلة بين المنزلتين. مؤمن موفٍ يقابله كافر (كفر نعمة).

والكفر قسمان: كفر نعمة، وكفر شرك. مما يستلزم معه انقسام عباد الله إلى ثلاثة أقسام: مؤمن موفٍ لدين الله، وكافر مشرك اتخذ لله شريكاً فهو مارق من الدين كلية، ومنافق بين المنزلتين يظهر الإيمان ويبطن الكفر، وهو يصرح بكلمة التوحيد ولكنه يعمل أعمال الكافرين فنفاقه عمليٌّ، ونفاق الأوَّل عقديٌّ، وفي هذه القضية توجد منزلة بين المنزلتين. وهذا بناء على ما استخدمه القرآن من أسماء لهذه الفئات الثلاث حيث يقول: ﴿**ليعذب الله المنافقين والمنافقات، والمشركين والمشركات، ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات، وكان الله غفوراً رحيماً**﴾ (سورة الأحزاب: 73).

فهم فئات ثلاث: منافق، ومشرك، ومؤمن. ولكل طائفة حكمها الذي يترتب على مستوى إيمانها. لذا فإنَّ الإباضية عندما يستخدمون مصطلح الكفر بالنسبة للموحد العاصي فإنَّهم يقصدون (كفر النعمة) لا كفر الشرك. وهو تفريق دقيق لم يتفطن إليه كثير من الكتاب قديماً وحديثاً، فظلموا الإباضية بأن وضعوهم في خانة واحدة مع الخوارج الذين يحكمون على مرتكب الذنب بالشرك كالأزارقة، مثلاً.

وهم حين يصرون على تسمية العاصي الموحد بالكفر فإنَّهم يأتسون في ذلك بالقرآن الكريم، كما بيَّنا.

إن الإيمان والكفر ضدان لا يجتمعان كالحركة والسكون، والحياة

والموت، فلا يعقل أن يكون العبد مؤمناً وكافراً في الوقت نفسه.

هذا ما أجمع عليه الإباضية على غير المعتزلة الذين يجعلون الفسق منزلة بين الكفر والإيمان، فقالوا: إنه (كالأبلق) لا يسمى أبيض لما به من سواد، ولا يسمى أسود لما به من بياض، والأشاعرة الذين يعتبرون العاصي في منزلة بين الكفر والإيمان باعتباره موحداً عاصياً.

وبهذا تنفرد الإباضية بالقول: بأن لا منزلة بين الكفر والإيمان خلافاً للمعتزلة والأشاعرة التي تفرق في الإيمان بين العقيدة والعمل، فالمسلم مرتكب الكبيرة مؤمن بتوحيده، فاسق بكبيرته، وبما أنَّه مؤمن فثوابه الجنة ولو عصى.

والإباضية حريصون على إطلاق الأسماء والأحكام التي جاءت في القرآن الكريم. لأنَّ المعنيَّ بها هو المسلم قبل كلِّ أحد.

فقد استخدم القرآن الكريم لفظة الكفر وهويعني المؤمن العاصي، حيث يقول: ﴿**و لله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ومن كفر فإن ا لله غني عن العالمين**﴾ (سورة آل عمران: 97). كما استخدمها في المسلم الذي لا يطبق أحكام ا لله في حياته، حيث يقول: ﴿**ومن لم يحكم بما أنزل ا لله فأولئك هم الكافرون**﴾ (سورة المائدة: 44)، واستخدم الحكم نفسه على الظالم فقال في آية أخرى: ﴿**فأولئك هم الظالمون** ﴾ (سورة المائدة: 45)، واستخدم الحكم نفسه على الفاسق، فقال في آية أخرى: ﴿**فأولئك هم الفاسقون**﴾ (سورة المائدة: 47). فالكافر، والفاسق، والظالم إذاً في منزلة واحدة عند ا لله ما داموا جميعاً لا يطبِّقون أحكام ا لله. فلا عبرة بالأسماء مادام المسمى واحداً.

فإن يقل المعتزلة إنَّه فاسق، أو يقول الأشاعرة إنَّه موحِّد عاص، أويقول الإباضية: إنه كافر كفر نعمة. هو في الحقيقة أمر واحد من هذا

الجانب، ولكن عندما يتعلق هذا بالأحكام المترتبة عليها، نجد البون شاسعاً. لأنَّ الإباضية يعتبرون المسلم العاصي الميت بغير توبة خالدا مخلداً في النار، على خلاف الأشاعرة الذين يذهبون إلى أنَّه سيعاقب في النار بقدر ذنوبه ثم ينتقل بعدها إلى الجنة، وهنا مكمن الخطورة إذ أن الاعتقاد بأن المسلم آيل - لا محالة - إلى الجنَّة مهما يعص، قد يدفع الكثير من المسلمين إلى الجرأة على ا لله، وارتكاب المعصية ما داموا يعتقدون بأنَّ النهاية هي الجنة، والاعتقاد بأن المسلم العاصي لا يشفع فيه كونه موحداً بأن يسلم من حر جهنم الأبدي جعل الإباضية يأخذون بمبدأ الحيطة والحذر والوقوف عند حدود ا لله أمراً ونهياً. وقد كان لهذا المعتقد أثر على منهجهم الدعوي سواء في علاقة الفرد منهم بربه، أو علاقة الفرد منهم بالمجموع.

ولعلَّ الواقع المتردي الذي يعيش فيه المسلمون اليوم مردّه إلى هذه العقيدة الزائغة التي تفرق بين القول والعمل، إذ لا تعطي للعمل المنزلة العظيمة التي اعطاها ا لله له، فالعالم الإسلامي اليوم يموج بملايين البشر الذين يشهدون «أن لا إله إلا ا لله، وأنَّ محمدا رسول ا لله» ويفخرون لذلك بأنهم مسلمون، اختارهم ا لله لهذه الأمة الوسط التي تكون شاهدة على الناس، ولكننا حين النظر إلى أعمالهم نجد هذه الأعمال تكذّب ما شرفهم ا لله به، فهم قد خانوا الأمانة التي حمّلهم ا لله إياها، وانتدبهم من أجلها، وما يصدق على الأفراد يصدق على الجماعات، ويصدق أيضاً على الدول.

إنَّ الإباضية حين شددوا في بناء دينهم على هذه العقيدة الثابتة، وضعوا خطوة ثابتة في المنهج الدعوي الرباني الذي يدعو لأن يكون المسلم رقيباً على نفسه في كل أعماله سراً وجهراً، أخذاً وتركاً.

وإنَّ المسلمين حينما يستجيبون لهذا النداء الرباني، سيكَوِّنُون من

مجموعهم الدول الإسلامية العظيمة، التي وعدها الله بالتمكين في الأرض، كما جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿**وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصٰلحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكّننَّ لهم دينهم الذي ارتضى لهم، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون**﴾ (سورة النور: 55).

إنَّ الله سبحانه وتعالى وعد بالتمكين في الأرض لمن ينسجم قوله مع فعله، وهذا مبدأ حضاري هام، طالما ظهر عند الشراة الإباضية الذين أسسوا دولاً ضربت المثال في تطبيق شرع الله، «وفي سيرتهم وتاريخهم أمثلة وشواهد كثيرة على ربط القول بالعمل، والشعار بالتطبيق، وقد سمعنا أعداءهم قبل أصدقائهم يجمعون على أنَّهم يحاولون تقويم المنكر بأيديهم، لا بألسنتهم وقلوبهم»[1].

هذا الانبعاث الذاتي لو كان حياً في ضمير كل مسلم لكانت المجتمعات الإسلامية كلها مجتمعات خيِّرة، ولحققوا المدينة الفاضلة التي تتطلّع إليها الإنسانية.

«لأنَّ هذا الشعور يدفع النفس الإنسانية إلى أن تحاسب نفسها قبل أن يحاسبها غيرها، وهذا من شأنه أن يقوي الإرادة الذاتية لدى الفرد المؤمن، فلا يكون أسيراً لشهواته، ولا عبداً لأطماعه، وأهوائه، بل ينضبط بحساسية التقوى، ووازع الإيمان، ويندفع إلى إتقان العمل وتحسينه، محتسباً الأجر والثواب عند الله وحده.»[2]

1- أحمد سليمان معروف: **قراءة جديدة...** ص105.

2- عبد الله ناصح علوان: **تكوين الشخصية الإنسانية في نظر الإسلام.** ص14.

وبما أنَّنا سنحاول في هذا البحث إبراز هذه الجوانب العملية في الميدان عند الإباضية، من خلال الأساليب والوسائل الدعوية عندهم، ومن خلال المواقف والرؤى، كما تجلت عند أئمتهم، وقادتهم، وزعمائهم، فلا حاجة إلى ذكرها هنا، تاركين ذلك للقارئ الكريم، الذي سيقف على آثار هذه العقيدة بنفسه من خلال فصول هذا البحث.

2- معنى مبدأ «لا حكم إلا لله» :

هذا الشعار هو الذي رفعه أنصار الإمام علي حين اختلفوا معه في قضية تحكيم الحكمين، أبي موسى الأشعري، وعمرو بن العاص، بعد أن دفعه إلى قبول هذه المكيدة دهاء معاوية بن أبي سفيان، ومن دُسَّ من طابور خامس في صفوف علي، من أمثال: الأشعث بن قيس الكندي.

وكان رفع هذا الشعار بمثابة الإعلان الصارخ لرفض كلِّ منهج دنيوي يحتكم إلى الرجال ويترك كتاب الله، هكذا فهمه أولئك المعارضون للإمام علي، أكانوا على حق أم كانوا على باطل في موقفهم السياسي، فذلك أمرٌ لا يعنينا، ولكن الذي يعنينا هنا هو أنَّ هذا الشعار لم يرفعوه نفاقاً أو خذلاناً، وإنما رفعوه تعبيراً عن معتقدهم الديني الثابت الذي رسموه من أول خطوة، وساروا على هداه في تعاملهم مع كل الدول المتعاقبة حيثما وجدوا، فقد قال إمام المحكّمة وشهيد النهروان عبد الله بن وهب الراسبي «لا حكم إلا لله، ولو حكم الحاكمون بغير ما أنزل الله، والله يقضي بالحق وهو خير الفاصلين»

يقول منير بن النير الجعلاني أحد حملة العلم إلى عمان تعليقاً على هذا الموقف: «وفيما كانت لهم الحجة على من حكم في دين الله بغير ما أنزل

فأوضح الله عذرهم، وأفلج حجتهم، وأعلى كلمتهم، وجعلها كلمة باقية في أعقابهم، موروثة عنهم، يتبع فيها من أبصر الحق سبيلهم».[1]

والعجيب في الأمر أنَّ أغلب الذين حللوا موقف (الخوارج) كما يسمونهم، لا ينظرون إلى هذا الشعار إلا من جانبه السياسي، وهو جانب دنيوي محض، أما جانبه الأخروي باعتباره منهجاً نابعاً عن عقيدتهم الإسلامية فإنهم تجاوزوه.

إنَّ الشراة حينما خرجوا مع الإمام علي كانوا مؤمنين أشدَّ الإيمان على أنَّ الإمام على حقٍ، وأنَّ معاوية على باطل، ومن أجل هذه القناعة المتجذّرة في أعماقهم قاتلوا، وقدموا أنفسهم لأتون الحرب، ولم يبالوا بالموت قط، وتلك إحدى ميزاتهم.

ولا أدل على هذه العقيدة من تاريخهم الطويل، ومواقفهم الثابتة تجاه الخصوم في كل المعارك التي خاضوها من بعد، ولاسيما حينما كانوا يصارعون دول الباطل، وحكومات الجور قديما وحديثا، وقد أشار أحد الكتّاب المحدثين المنصفين إلى هذه المواقف حيث يقول:

«واللافت للنظر في دين الخوارج وتدينهم هو ذلك الإخلاص للدين والتفاني في سبيله، وغني عن البيان أن الفرق بين معتنقي المذاهب يتجلى في مواقفهم منها، فمهما كان التمسك بالعقيدة، والإيمان بها، والتعصب لها، والتعمق في فهمها، والدفاع عنها باللسان وبالقلب، مهما كانت هذه الأمور قوية، فإنها لا تساوي ركوب المخاطر والتعرض للموت، والاستهانة بكل شيء في سبيلها...إن كان المطلوب لصحة العقيدة الدينية ممارسة الشعائر، وإقامة الواجبات، وتنفيذ التعاليم السماوية، فالخوارج عباد

1- السير والجوابات، ت: الكاشف ج1 ص239.

زهاد، أنضاء عبادة، أكلت الأرض جباههم، وأفنوا أعمارهم ورعاً وتقوى وزهداً، وإن كان المطلوب الدفاع عن العقيدة، فهم الذين أفنوا رجالهم على تتابع أجيالهم دفاعاً عن الدين وانتصاراً للحق. ولا مجال لمقارنتهم بأشد الفرق الإسلامية تطرفاً، فليس في هذه الفرق من شهر سيفه في وجه حاكم ظالم انتصاراً لرأيه، ودفاعاً عن دينه، وفرق كبير بين من يقوِّم المنكر بسيفه ويده، وبين من يقوِّمه بقلبه، وهو أضعف الإيمان»[1]

ونحن حين نتعمق موقف الإمام علي نفسه من الخوارج نجده موقف إعجاب ورضى فيما يتعلق بجانبه الديني، فقد أثنى على حسن نيتهم في كل ما يفعلون، وإن كان من خطأ في سلوكهم فإنَّهم يريدون غير ذلك، وقد اتفقت المصادر على أنَّه قال عنهم: «لا تقاتلوا الخوارج من بعدي، فليس من طلب الحق فأخطأه، كمن طلب الباطل فأدركه»[2]. ومادام الحق الذي يشير إليه الإمام علي هنا أمراً يتعلق بالسياسة والحكم والصراع من أجل السلطة فإنَّ الحقَّ عندئذ يعرفه الله وحده، وقد علّق الإمام أبو عبيدة على قولة الإمام علي المشهورة: «كلمة حق أريد بها باطل». الإرادة هنا تتعلق بالنية فما يدري الإمام بنوايا الناس. ومن الثابت أنَّ الإمام قد امتدح سيرتهم، ووصفهم بالتقوى والورع، والفقه في الدين، فقد قال للذين كانوا مندسين في صفوفه[3]، وهم يوجهونه نحو الخوارج لمحاربتهم، ويصرفونه عن حرب معاوية ومن معه: «اتقوا الله وقاتلوا من حادَّ الله ورسوله، وحاول أن يطفئ نور الله، قاتلوا الخاطئين الضالين القاسطين الذين ليسوا بقراء

1- أحمد سليمان معروف: **مرجع سابق**، ص132-134.

2- ابن أبي الحديد: **شرح نهج البلاغة**، ج1، ص593.

3- مثل الأشعث بن قيس الذي يتفق المؤرخون على أنَّه كان مدسوساً على الإمام علي من معاوية.

القرآن، ولا فقهاء في الدين، ولا علماء في التأويل، وا لله لو ولوا عليكم لعملوا فيكم بأعمال كسرى وهرقل...»[1]

والسؤال الذي يطرح نفسه: هل مَن هذه صفاته بإجماع المسلمين يكَفَّر، ويعتبر مارقاً من الدين؟ وإذا كان منطلق الخلاف أو مرتكز التكفير هو الخروج عن الإمام علي، فلماذا لا نحتكم إلى شهادة الإمام نفسه، وهو أدرى الناس بأمر هؤلاء الشراة الذين كانوا جنده وحماته، الذين شهد لهم بحر الأمَّة ابن عبَّاس بالتقوى والورع[2].

وواضح من شهادات الإمام علي في هؤلاء القوم الذين ـ فيهم صحابة رسول ا لله ﷺ، والقراء، والعبّاد، والزهّاد ـ إعجابه الكامل بتدينهم وتقواهم، وحرصهم على أن تكون أعمالهم خالصة لله وحده. وكفاهم ذلك تزكية وتعديلاً.

إنَّ الإباضية عندما اعتنقوا مبدأ الحاكمية لله، واتخذوه أساساً لِكُلِّ مناحي حياتهم سياسة، واجتماعاً، وحكماً، ونظاماً. فإنما فعلوا ذلك إدراكاً منهم لسر كلمة التوحيد «لا إله إلا الله...محمد رسول الله». والتوحيد هو جماع العقيدة، ولب جوهرها، ومحور الدين الإسلامي، بل هو محور الأديان السماوية كلها، ومن أجل ذلك كانت كلمة التوحيد مفتتح رسالات الأنبياء والرسل جميعاً. جاهدوا من أجل إعلائها في قومهم، وتوثيقها في ضمائرهم، وجعلها مناط حياتهم، وقد قال الرسول الكريم ﷺ: «**الإيمان بضع وستون شعبة، أعلاها لا إله إلا**

1- ابن الأثير. **الكامل**، ج3، ص339.

2- تراجع رسالة ابن عبَّاس إلى الإمام علي في ملحق النصوص.

ا لله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان»[1].

وقال تعالى: ﴿**وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها**﴾(سورة الفتح: 26).

ومعنى ألزمهم أي اختار لهم وهو إلزام تكريم وتشريف، وكلمة التقوى كما أجمع المفسرون هي قول لا إله إلا ا لله، وهذا قول الجمهور[2]. فإن عقيدة الإنسان هي تدينه، بدونها تكون أعماله كلها هباءً منثوراً، ومن أجل ذلك بدأ بها ا لله تعالى وهو يخاطب رسوله الكريم: ﴿**فاعلم أنَّه لا إله إلا ا لله واستغفر لذنبك**﴾ (سورة محمَّد: 19) ، فقد بدأ بالتوحيد ثم بالاستغفار، ويقول الإمام الرازي، معللاً ذلك: «إنَّ معرفة التوحيد إشارة إلى علم الأصول، والاشتغال بالاستغفار إشارة إلى علم الفروع. والأصل يجب تقديمه على الفرع، فإنَّه ما لم يُعلم وجود الصَانع امتنع القيام بطاعته وخدمته، وهذه الدقيقة معتبرة في آيات كثيرة»[3]. ولا يكفي النطق بالشهادة دون أن تظهر آثارها في سلوك المؤمن، دقيقها وجليلها، عسيرها ويسيرها، لأنَّ إدراك ذلك معناه تفويض الأمر كلّه لله سراً وعلناً دنيا وأخرى، لا فرق في ذلك بين شؤون العباد، ونظام الحكم.

والواقع أنَّ المسلمين لم ينحرفوا عن جادة الإسلام إلا عندما أساؤوا فهم سرِّ كلمة التوحيد، فظنوا أن مجرد النطق بها يدخلهم الجنة[4]. و لم يضعفوا أمام أعدائهم إلا بعد أن فصلوا بين مدلول هذه الكلمة العظيمة

1- الحديث رواه بهذا اللفظ مسلم في كتاب الإيمان، رقم 51، عن أبي هريرة. وروي «الإيمان مائة جزء...» في **الجامع الصحيح**، باب 2 الحجَّة على من قال الإيمان قول وعمل، رقم 773. وروي كذلك: «بضع وسبعون...» في كتب الحديث.

2- السيد الجميلي: **عجائب القرآن** ـ دار ومكتبة الهلال، بيروت 1990 ص11.

3- **المرجع السابق** ، ص23.

4- يردد بعض الكتاب الظاهريين هذه المقولة ويسندونها بأحاديث ا لله أعلم بصحتها وهي تصادم النص القرآني القطعي.

باعتبارها فيصلاً بين الكفر والإيمان، وليس باعتبارها منهج حياة، ومقوم سلوك وتعامل.

لقد فصلوا بين الكلمة وأبعادها حين فصلوا بين الدين والدنيا، بتأثير ما داخلهم من فلسفات أجنبية، ونظريات مادية. فرددوا ما قال لهم الغرب: الدين لله والوطن للجميع. ونشروا مبدأ لا علاقة بين الدين والسياسة، الدين عبادة، والحكم سياسة، وتحمسوا لمبدأ العلمانيين بفصل الدين عن الدولة، في حين نجد القرآن الكريم صريحاً في ربط العقيدة بالحياة اليومية. والاستقامة الدائمة وسر الإسلام هو أنَّه منهج حياة لا يؤخذ بعضه ويترك بعضه.

والإباضية حين يربطون بين أمورهم كلها بإرجاعها إلى حكم الله وشريعته إنَّمَا هم ينطلقون من هذا المنطلق الإيماني الثابت، الذي يفوض الأمر كله لله فلا سلطان، ولا حكم، ولا جاه، ولا قوة إلا لله وحده لا شريك له.

وفي الفكر الإباضي نلحظ كيف يدور هذا الفكر حول أصول الإسلام الرئيسة وهي: التوحيد، والنبوة، والمعاد.

فمرد الأمر إلى الله كله هو قمة التوحيد إيماناً وقولاً وعملاً.

واتخاذ الرسول العظيم قدوة لا يدانيه في ذلك أيُّ شخص مهما يعلُ ويسمُ، والحنين الدائم عندهم للرجوع إلى زمن النبوة الأوَّل في أمورهم الدنيوية والأخروية هو تقديس للرسول العظيم ﷺ، وتطلع إلى الاقتداء به لأنَّه يمثل الجانب العملي في الإسلام ويجسد بسلوكه ما جاء به القرآن.

والمعاد تحل من فكرهم وعقيدتهم المحل الأوَّل، فإليها الزوال والمآل، وللدارس أن يلحظ ذلك في كل أعمالهم وأقوالهم خلال مسيرتهم التاريخية،

وما اختلافهم مع من اختلفوا معهم من الصحابة من أجل السلطة الدنيوية، وإنما كان من أجل الجزاء الأخروي وهو ما ميز أدبياتهم بالصدق والصراحة والقوة، باتفاق كل الدارسين.

وما يلحظ في فقههم من الأخذ بالأحوط، وسدٌّ الذرائع إلا ترجمة عملية لهذا المنحى الغالب في فكرهم وهو الخوف من العقاب، والرجاء في الجزاء. وقد يفسر بعض المتعجلين ذلك بأنَّه تشدّد، وتعصب، وضيق أفق، والواقع أن المجتمعات الإباضية ما بقيت متمسكة بالدين على تفاوت بين مجتمع وآخر بطبيعة الحال، إلا لتشددهم في اعتبار المصير والجزاء الأخرويين، واعتقادهم الراسخ أن مرتكب الكبيرة إن مات بغير توبة مخلد في النار.

وقد لاحظنا ذلك في مواقفهم التاريخية من الظلم والظالمين، وفي اختلافهم مع حكام بني أمية وبني العباس، وكدليل على ذلك نعود إلى رسالة عبد الله بن إباض إلى عبد الملك، حيث نلحظ التركيز على التذكير بالآخرة في كل جملة من جملها، وخطبة الإمام أبي حمزة الشاري حين دخوله المدينة، وخطبة الإمام طالب الحق حين دخوله صنعاء. وكل أدبيات أهل الدعوة تتجه إلى هذا الاتجاه وتصب في هذا المنحى[1]

إنَّ هذا التمثل العميق لروح الإسلام لا يمكن أن يتصف به إلا من شرح الله صدره للإسلام، وكلمة الشرح التي اختارها القرآن الكريم تجمع كل الصفات الإيمانية التي تتجلّى بعد ذلك في السلوك ثمرة لهذا التصوُّر الرائع لمفهوم (الحاكمية لله)، وليس هناك ما يوازي نعمة شرح الصدر، أو لم يسأل الرسول ﷺ: ماشرح الصدر؟ فقال : «**نور يقذف في**

1- يراجع قسم النصوص (ملحق).

القلب»، ثم سألوه عن أمارة ذلك. فقال : «**التجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، والاستعداد للموت قبل نزوله...**»[1] وهذه الصفات الثلاث التي ذكرها رسول الله ﷺ من عزوف عن زخارف الدنيا وملذاتها، والشوق إلى جنة الله ورضوانه، والاستعداد للموت بإخلاص العبادة لله وحده، هي صفات طالما حرص الشراة على التحلي بها، وهم بذلك يقتدون برسول الله ﷺ وصحابته الكرام.

والعجيب في الأمر أنَّنا نرى كثيراً من المؤرخين المعاصرين يفسِّرون هذا الموقف تفسيراً سياسيًّا محضاً، فهم يذهبون إلى أنَّ معارضي الإمام علي حين رفعوا هذا الشعار إنَّمَا رفعوه لغرض سياسي لا ديني، وهو التخلُّص من زعامة قريش حين أعلنوا أنَّ الخلافة يجب ألاَّ تكون وقفاً على جماعة معينة، وهم يعلمون جيداً أن هذا هو المبدأ الذي جاء به القرآن دستور المسلمين حيث يعترفون بهذا، ولكن ...يقول عوض خليفات: «لا شكَّ أن مبدأ الشورى قد أكده الإسلام، وحض على اتباعه في القرآن الكريم، ورغم ذلك فمن المعتقد أن مناداة الخوارج بهذا المبدأ في تلك المرحلة لم يكن إلا مبرراً دينياً تبنوه للثورة على الخليفة الشرعي، وبالتالي كان مبرراً للثورة على سلطة قريش وزعامة المسلمين الأوائل المتمثلة بالمهاجرين و الأنصار، والدليل على ذلك أنهم لم يتقيدوا بهذا المبدأ عندما نجحوا في تأسيس دول خاصة بهم (دولة الرستميين الإباضية، ودولة بني مدرار الصفرية مثلاً)، ولعل المناداة بهذا المبدأ كان سبباً رئيسياً في انضمام عدد من الموالي إلى الحركة الخارجية منذ بدايتها، وقد قاموا بدور بارز في بعض ثورات الخوارج الأولى...»[2].

1- لم نقف على تخريجه في الجامع الصحيح ولا في الكتب التسعة.

2- عوض خليفات: **نشأة الحركة الإباضية**، ص55.

إنَّ التناقض والمغالطة في هذا التأويل واضحة، إذ كيف نستصوب موقف من لا يتوافق موقفه مع القرآن، مع الاعتراف بأنَّه الحق، ونؤول موقف من اعتنق مبدأ القرآن ونقلل من أهميته بتفسيرات خاطئة؟

على أنَّ الدليل الذي ساقه خليفات في استشهاده بالدولة الرستمية لا يتماشى مع الواقع التاريخي، لأنَّ الأئمَّة الرستميين كانوا يطبقون مبدأ الشورى تطبيقاً دقيقاً، وإذا توفرت شروط الحكم والصلاح في عائلة الحكم وخضعْ تولي الحكم للديمقراطية طريقة، فإنَّه لا يقدح فيها كونها ظلت منحصرة في عائلة واحدة، إذ المهم أن ننظر في الطريقة التي وصل بها هذا الحاكم أو ذاك إلى الحكم، ثم النظر في سيرته وعدله، واستقامة أمره، وعدالة الأئمَّة الرستميين في القرن الأوَّل من حكمهم - على الأقل - يشهد به كل الذين كتبوا عن الدولة الرستمية حتى من اعدائهم وخصومهم ولاسيما في فترة حكم عبد الرحمن وعبد الوهاب وأفلح. أي: الجد والأب والحفيد.

على أن خليفات يُقرُّ أنَّ الموالي التحقوا بالحركة الخارجية لأنَّها رفعت هذا الشعار.

أو ليس في التحاق الموالي والبربر وكل من أحس بالاضطهاد وعدم تطبيق شريعة الله دليل قاطع على صواب المنهج الإباضي في الحكم الذي هو المنهج الرباني، والنظام الذي حرص على تطبيقه الرسول ﷺ والخلفاء الراشدون من بعده، ولاسيما في عهدي أبي بكر وعمر رضي الله عنهما.

أيكون التعصب لسلطة قريش أهم من شريعة المساواة والاحتكام إلى كتاب الله؟

وهو نفسه يعترف بأنَّ موقف المحكّمة إنَّمَا صدر عن حكم الله الواضح الصريح حيث يقول : «وقد فسر مخالفوهم هذه العبارة (أي لا

حكم إلا لله) على أنَّها دعوة لعدم تنصيب إمام أو رئيس للدولة، ووافق الكتّاب المحدثون أسلافهم القدامى في هذا التفسير، ولكنهم جميعاً جانبوا الصواب، فالمحكّمة الذين رفعوا هذا الشعار لم يجعلوه شعاراً مطلقاً في كل الأحوال، بل قصدوا منه تبيان رأيهم في حدث معين في زمن معين، وهو إنكار التحكيم بين علي ومعاوية مادام حكم الله فيه واضحاً صريحاً طبقاً للآية التي تقول: ﴿**وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا... فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله**﴾ (سورة الحجرات: 9)»[1]

ونجد كاتباً معاصراً آخر يقدح في هذا الشعار الذي رفعه المنشقون عن الإمام علي، يقول علي الزاوي في كتابه «تاريخ الفتح العربي في ليبيا» (ص120): [2] «وهذه الكلمة ـ أي لاحكم إلا لله ـ التي اتخذها الخوارج ذريعة للخروج على سيدنا علي، وأصبحت شعاراً لهم، ولا ندري كيف يقولها الإباضية وهم ينكرون أنهم من الخوارج.»

الواقع لقد كفاني الشيخ علي معمر مؤونة الرد على ماذهب إليه الزاوي، وإنَّما أكتفي بالرد على مغالطة واحدة، وردت هنا: وهي ربطه بين الخوارج والإباضية، وإنكاره كيف يعتقد الإباضية هذا المبدأ ـ أي الحاكمية لله ـ وهم ينكرون انتسابهم إلى الخوارج؟

أولاً: لا يخفى أنَّ السؤال المطروح هنا فيه مكر وخديعة، وكأنه يريد أن يقول: مادمتم تقولون بهذا المبدأ الخارجي، فأنتم مع الخوارج ولو أنكرتم.

1- د/عوض خليفات: **التنظيمات السياسية والإدارية عند الإباضية**، نشر وزارة العدل والأوقاف، سلطنة عمان (د.ت) ص2.

2- ينظر: معمر: **الإباضيّة بين الفرق الإسلامية**، ج1، وج2 ص. 281 ومابعدها.

ثانياً: يبدو أنَّ الكاتب لم ينظر إلى المبدأ كمبدأ إسلامي، بقدر ما نظر إليه من كونه موقفاً خرج فيه من خرج عن علي، وكأنَّه يعيد إلى أذهاننا قول القائلين: يعرف الحق بالرجال لا الرجال بالحق.

على أنَّ الإمام علياً كرم الله وجهه اعترف مقتنعاً بأنها كلمة حق وإن أريد بها باطل. فليس العيب إذاً في مبدأ الحاكمية لله، وإنَّما العيب في الهدف الذي يستخدم من أجله، علماً بأن الهدف نية حكم الإمام ببطلانها قبل ظهورها.

قال الإمام علي يرد على أولئك الذين رفعوا كلمة لا حكم إلا لله شعاراً : «كلمة حق يراد بها باطل. نعم لا حكم إلا لله، ولكن هؤلاء يقولون لا إمرة إلا لله، وإنه لا بد للناس من أمير بر أو فاجر يعمل في إمرته المؤمن، ويستمتع فيها الكافر.»[1]

الواقع أنَّ تأويل الإمام وتفسيره يحتاج إلى نقاش على ضوء الواقع التاريخي، لأنَّ الخوارج ماطبقوا مفهوم (لا إمرة إلا لله) فهم في كل تاريخهم ساروا تحت حكم أمير يسيرهم. وأكبر دليل تشبثهم بالإمام علي نفسه إماماً، ثم نصبهم عبد الله بن وهب الراسبي بعد خروجهم عن علي أميراً للمؤمنين، ولا نجد في تاريخهم كله ما يعني المفهوم الذي ذهب إليه الإمام علي من عدم الانقياد للرجال، بل إنَّ موقفهم دينيٌّ واضح، وهو عدم تحكيم الرجال فيما حكم الله فيه، وفيه قضى.

فهم عندما قارنوا بين أحقية الإمام علي للحكم وبين أحقية معاوية له وعرضوا ذلك على القرآن والسنة، لم يخالجهم الشك قط في أحقية الإمام علي بها. فتحكيم الحكمين وهما من البشر أمر مرفوض بعد أن حددت

1- المصدر السابق. ص285.

الآيات الكريمة والسنة النبوية وسيرة الخليفتين مقاييس الإمام الذي ينبغي أن يحكم المسلمين.

فهل يظنُّ الأستاذ الزاوي أنَّ أمير المؤمنين كان من الخوارج لأنَّه ينطق بكلمة لا حكم إلا لله، ويعترف بأنَّها حق، ويتخذها شعاراً وهو يحارب خدع المحتالين؟.

إنَّ الدارس عندما يتعمق أصل التوحيد عند الإباضية يتبين له بوضوح ـ إن كانَ منصفاً ـ حرصهم على التنزيه المطلق للذات الإلهيَّة، وفهمهم العميق لدلالات التوحيد على الحياة العملية، فليست كلمة لا إله إلا الله كلمة تسبيح، وذكر ودعاء كما يظن البعض، وإنما هي كلمة ذات مدلولات عميقة أساسية لها ارتباط بالحياة اليومية.

ولعل ما يؤيد هذا الزعم أن الإباضية مشرقاً ومغرباً لم تسمح بظهور الفرق الصوفية[1] وطرقها في أوطانها، بل إنها حاربت كلَّ العقائد التي تشتم فيها رائحة التجسيد أو التقديس أو الخضوع لغير خالق السماوات والأرض، وحرصهم هذا هو الذي دفعهم إلى تأويل الآيات القرآنية المتشابهة بما يتماشى مع جلال الله ووحدانيته وتنزيهه عن الشبيه والمثيل، لأنهم كانوا بسطاء فطريين في فهمهم ذاك، كما يقول عنهم أحد الدارسين المنصفين حيث يقول: «إنهم لم يخرجوا مطلقاً في أمر توحيدهم لله وتنزيهه عن مذهب السلف الصالح، إذ هم يمثلون الإسلام الأوَّل على فطرته قبل أن تدخل فيه ثقافات الأمم الأخرى، ونزعات أهل الملل التي دخلت الإسلام،

1- من أشهر من حارب هذه النزعة في عصرنا الحاضر الإمام الشيخ القطب محمد بن يوسف اطفيش (ت: 1914) في كل مؤلفاته، وكذا الشيخ ابراهيم بيوض (ت:1981) في دروسه ولاسيما الاجتماعية.

و لم تتخلَّ تماماً عن بعض نزاعاتها الدينية القديمة، فكان إيمان (الخوارج) إيمان قلب وفطرة، لا إيمان علم وجدل كما كانت حياتهم الاجتماعية...

...وما هذا المنهج إلا نهج السلف الصالح في أوج محافظته، وارتباطه بظاهر الكتاب والسنة.»[1]

والجدير بالذكر أنَّنا عندما نراجع اليوم فكر الحركات الإسلامية ومنهجها ولاسيما المتنورة منها نجدها تضع من أهم أسسها هذا المبدأ: الحاكميّة لله. وإلى هذا يشير أحد المفكرين المعاصرين (جارودي) حيث يقول: إنَّ المسلمين لن تعود لهم عزتهم القديمة لتصدر بناء الحضارة الإنسانية الرئيسة إلا إذا أعادوا أمجاد الإسلام، مبنية على المنهج الذي سلكه رسول الله وصحابته في مجتمع المدينة وهي:

1- الله وحده الحاكم

2- الله وحده المالك

3- الله وحده العالم[2].

3- الولاية والبراءة والوقوف أو مجتمع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

إذا كان الأصل السابق: الإيمان عقيدة وقول وعمل، يحدِّد علاقة الإنسان مع الله وعلاقة الإنسان في التعامل مع عباد الله، فإن هذا الأصل: الولاية والبراءة والوقوف يحدِد العلاقة بين أفراد المجتمع الواحد كيف

1- عبد الله علي علام: **الدعوة الموحدية بالمغرب**، دار المعرفة ط1 القاهرة بمصر سنة1964، ص150-151.

2- يراجع د/روجيه جارودي: **مجلة جمعية آل البيت**، الأردن (آب) ع، ص287.

يتعاملون، وعلى أي أساس.

وقد اعتبره الإباضية أصلاً من أصولهم العقدية. وقاعدة من قواعد الإسلام، فوضعوا له شروطاً وحدوداً، ومواصفات، وشددوا في تطبيقه في مجتمعاتهم، حتى قيل: إن من لم يدن بها لا دين له.[1]

ولن ندخل هنا في تعريفات الولاية والبراءة والوقوف، إلاّ بالقدر الذي نفهم به المعنى الاصطلاحي لهذه الكلمات ومستنداتها من الكتاب والسنة والإجماع.

فالولاية في اللغة: « القرب، وهو مأخوذ من ولاية أمر اليتيم وهو القيام بأمره، والاهتمام بمصالحه، وهو معنى ولاية الله لأوليائه، وذلك معنى قوله تعالى: ﴿**الله ولي الذين آمنوا**﴾ (سورة البقرة: 257) أي: ناصرهم ومتولي أمورهم وحافظهم. والولاية في الشريعة إيجاب الترحم والاستغفار للمسلمين.» [2]

ويقول القطب : «ولاية الجملة (أي جملة المسلمين) وبراءتها فريضتان بالكتاب والسنة والإجماع، على كل مكلف عند بلوغه إن قامت عليه الحجة.» ويقول عن ولاية الأشخاص: «وأما ولاية الأشخاص وبراءتها فواجبتان قياساً عليهما لورود أحاديث في حب الإخوان في الله ومدح حبهم في القرآن...» وبعد مناقشة لهذه المسألة يقول: «وقال غيرنا: لا تجبان.» ودليل مشروعية هذا الأصل من القرآن قوله تعالى: ﴿**واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات**﴾ (سورة محمد : 22). وأما السنة: فقول النبي ﷺ لابن مسعود: «**يا ابن مسعود، أي عرى الإيمان أوثق؟ قال: الله ورسوله أعلم. قال:**

1- الجيطالي: **قواعد الإسلام**، ج1 ص45.

2- المصدر السابق.

الولاية في الله والبغض في الله.»

وكما أن الولاية واجبة بالنسبة للفرد والمجموع كذلك فإن البراءة ممن يستحق البراءة واجبة أيضاً.

فالبراءة لغة: هي البعد عن الشخص والتخلص منه، وهي واجبة على المؤمنين شرعاً، فعليهم أن يظهروا البغض وعدم الرضى من الكفار، بل يجب عليهم شتمهم ولعنهم.

أما براءة الأشخاص فتشمل كل شخص مصر على الكبيرة بأي معصية كانت، ولو كان موحداً اعتماداً على قوله تعالى: ﴿**لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله، ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم، أو إخوانهم أو عشيرتهم**﴾ (سورة المجادلة: 22).

ومن امتثل بهذا الموقف فقد استكمل الإيمان وأصبح من حزب الله بشهادة القرآن، مصداقاً لهذه الآية نفسها: ﴿**أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه، ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها، رضي الله عنهم ورضوا عنه، أولئك حزب الله ألا إنّ حزب الله هم المفلحون**﴾ (سورة المجادلة: 22).

أليس في هذه الآية بشارة واضحة إلى أن الأفراد حين يرتفعون إلى هذا السمو الإيماني، فيضعون حب الله فوق حب الآباء، والأبناء، والإخوان، والعشيرة يكوّنون المجتمع الصالح الذي عبر عنه بحزب الله، وحزب الله عاقبته الفلاح دنيا وأخرى؟.

ووجوب ولاية الجملة وبراءة الجملة لا يعني ولاية كل الناس أو البراءة منهم جميعاً، لأن أصل الولاية الموافقة في الحق، فالمتوافقان فيه متواليان، ولو

على ظهر الغيب، دون أن يعلم أحدهما بالآخر.

على أنَّ هناك الموقف الثالث الذي يكون بين الولاية والبراءة فيمن نجهل حاله، وهو الوقوف، وهي حالة واجب على المسلم أن يكون عليها فيمن لا يعلم عن حاله شيئاً، ولم يظهر له منه موجب للولاية أو البراءة، لقوله تعالى: ﴿**ولا تقف ماليس لك به علم**﴾ (سورة الإسراء: 36). وقد اجتهد علماء الإباضية فخصصوا فصولاً كاملة في كتب الفقه والعقيدة عندهم؛ لشرح هذا الأصل العقدي الهام.

- فحددوا الجهات التي تتم بها الولاية والبراءة.
- ووضعوا شروط وجوب الولاية.
- ومن تجب فيه الولاية، ومن تجب فيه البراءة.
- وغير ذلك مما هو مبسوط مفصل في كتبهم[1]

وهذا الأصل له تأثير مباشر في منهج الدعوة عند الإباضية، لأنَّه وسيلة عملية ناجعة لبناء مجتمع فاضل تسوده المحبة في الله، ويربطه التعاون في سبيل المصلحة العامَّة ابتغاء ما عند الله.

مجتمع لا تربط بينه المصالح المادية الدنيوية، والمنافع المتبادلة، فتركن به إلى أن يرى الشر فيصمت... أو الانحراف فيشيح بوجهه... أو الرذيلة فيتجاهل، لأنَّ الراضي بالشيء كفاعله، ولأنَّ الشرَّ إذا بدأ بفرد واحد استشرى منه إلى المجتمع كله، والرذيلة جرثومة إذا أصابت بتعفنها الثمرة الواحدة تسلل منها الداء إلى كل الثمرات الأخرى.

وهم في منهجهم الدعوي هذا يضعون نصب أعينهم المجتمع الفاضل

1- ينظر: **قواعد الإسلام** للجيطالي ج1، ص45-100.

الإسلامي الطاهر زمن النبوة والخلفاء الراشدين، حين كان المجتمع يستمد نظمه وعلاقاته وتعاليمه من القرآن الكريم، وسيرة المصطفى عليه السلام، وكان كل فرد فيه قرآناً في حد ذاته. هذا المجتمع الذي عبَّر عنه الفاروق بقوله: «من رأينا منه خيراً، وظننا فيه خيراً، قلنا فيه خيراً وتولیناه، ومن رأينا منه شراً، وظننا فيه شراً، قلنا فيه شراً، وتبرأنا منه»[1]

وقد بدأ تطبيق حكم الولاية والبراءة عند الإباضية منذ تأسيس وتبلور الجماعة، باعتبار هذا الأصل مبدأ يحفظ كيانهم، ويوحد صفوفهم، ولا يسمح لأعدائهم بالاختراق والدسّ، وكان الإمام جابر بن زيد يطبّق هذا المبدأ بصرامة على أفراد المجتمع الإباضي، فكان التبري سلاحاً مشهوراً في وجه من يحاول خيانة الجماعة، بنقل أخبارها أو الكشف عن أسرارها لدى السلطات الحاكمة الأموية، ومن ذلك قصة خردلة[2] الذي تبرأ منه، ورأى قتله من أفضل الجهاد، لأنَّه أضر بالمسلمين، وأصبح خطراً على جماعتهم.

وتبلور تطبيق هذا المبدأ في عهد الإمام أبي عبيدة، لأنَّ الحاجة إلى تطبيقه كانت أشدَّ باعتبار ما كانت الحركة تتعرض له من متابعة السلطة الأموية، وأخذها الناس بالظنة، وذلك ما تقتضيه مرحلة الكتمان التي كان عليها أهل الدعوة آنئذ، فكانت الولاية والبراءة سلاحاً يحميهم من الداخل والخارج معاً.

وعن أبي عبيدة نقل حملة العلم الخمسة هذا المبدأ فطبقوه في مجتمعاتهم في المغرب، وطبق في زمن الإمامة الأولى في ليبيا، أيام حكم أبي الخطاب عبد الأعلى بن السمح.

1- **مقدمة التوحيد**، ص48 ومعمر: **الإباضية** ، ج1، ص96.

2- يراجع المبحث الخاص عن **الإمام جابر بن زيد** من هذا الكتاب

إن أبا الخطاب بعد أن انتصر على ورفجومة في القيروان، واستسلمت له المدينة تفقد القتلى فوجد واحداً منهم مسلوباً، وسأل عن السالب فلم يعرف، فأصدر أمره إلى الجيش أن يرد السلب الذي أخذ من القتيل، ولكن أحداً لم يبادر إلى ردّ السلب، وفي الطريق جرى سباق بين الفرسان واشترك فيه جميل السدراتي، فشاء له سوء حظه أن يسقط عن فرسه وينكشف سرجه عن المتاع المسلوب، فأخذه الإمام وأجرى عليه الأدب، وغضب جميل وفرَّ إلى العراق، وبقي سنة كاملة في بغداد يحرض الخليفة أبا جعفر المنصور على أبي الخطاب لينتقم لنفسه[1].

وطبق هذا المبدأ كأدق ما يكون التطبيق إبان حكم الدولة الرستمية، وكان رجال الحسبة أو الشرطة قائمين بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومن خالف رُفع أمره إلى الحاكم فأعلن منه البراءة.

وقد اعتمد الإمام أبو عبد الله محمد بن بكر النفوسي، واضع نظام حلقة العزابة، هذا الأصل مرتكزاً هامّاً في نظام الحلقة.

وهكذا نرى أن تطبيق هذا المبدأ ليس خاصاً بالجماعة في حال الظهور أو الكتمان، وإنما هو أصل عقدي، ومبدأ أساسي تعتمده الجماعة في كل حالاتها، باعتباره مقوماً من مقومات المجتمع الفاضل.

وقد بدأ هذا النظام الديني الهام يختفي من المجتمعات الإباضية للأسف الشديد، بعد أن دخلت المدنية والنظم الدخيلة مجتمعاتهم، إذ لم يبق له تطبيق إلا في وادي ميزاب، على تفاوت بين قراه[2].

1- معمر: الإباضية ج2 ، ص286.

2- سنفصل الحديث عن الجانب التطبيقي في فصل خاص عن حلقة العزابة ودورها في بناء المجتمع المسجدي.

ذلك لأن السلطة الفعلية لهذه الهيئات الدينية ضعفت، فضعف معها التوجيه الديني والروحي، أو بعبارة أدق فقدت الوازع الرادع الذي لابد منه للسلطة الروحية.

وأحسب أنَّ المجتمعات الإباضية في العالم الإسلامي اليوم عندما أجبرت على التخلي عن هذا المبدأ لعامل أو لآخر، وزهدت في تطبيق هذا الأصل العقدي الهام لضعف الأخذ بمبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي لم يتهاون في الأخذ به أجدادهم، فقدت أهم مقوم من مقوماتها، وهذه خسارة عظيمة للمجتمع الإسلاميِّ ككل، لأن هذا نذير الذوبان والانحلال، وتخل عن أصل من أصول القرآن.

ولا تخفى عن اللبيب الصلة الوثيقة التي تربط بين تطبيق هذا المبدأ عمليّاً وبين مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لأنَّ الولاية والبراءة والوقوف هي الجانب العملي في هذا المبدأ الاجتماعي الهام.

ومهما يكن من أمر، فإن هذا المبدأ كان أصلاً ثابتاً في منهج الدعوة عند الإباضية القائم على روح الشريعة الإسلامية في كل العلاقات الاجتماعية، سواء منها ما كان متعلقاً بالأفراد فيما بينهم، أم متعلقاً بالأفراد مع الجماعة، أم بالحاكم مع المحكوم.

والواقع لو أنَّ المسلمين بملايينهم التي لا تخيف أحداً طبقوا هذا الأصل القرآني تطبيقاً عمليّاً في تعاملهم مع أعداء الإسلام: صليبيين، وعلمانيين، وصهاينة، لأعادوا إلى المجتمع الإسلامي عزته وسطوته وتضامنه، ولاحترمهم أعداؤهم أنفسهم، لأنَّ تطبيق هذا الأصل يعبر عن الاعتزاز بالنفس، والثقة بها، هذا الاعتزاز وهذه الثقة التي ينبغي أن تبنى على شريعة الله وحدها ﴿**ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين**﴾ (سورة المنافقون: 8).

ولكن (المسلمين) اليوم عكسوا الآية فاعتزوا بأعدائهم، ووالوا من أمر الله أن يعادوه، حين اتخذوا اليهود والنصارى أولياء. والله سبحانه وتعالى يخاطبهم قائلاً : ﴿**يأيها الذين أمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض. ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين**﴾ (سورة المائدة: 51).

ولا حاجة لنا إلى التدليل بمآسي المسلمين في كل أنحاء العالم حتى أصبحوا ـ وقد علم الغرب الصليبي نقطة الضعف فيهم ـ يُداسون بالأقدام، ويذبحون ذبح النعاج، وتهتك حرمهم ومقدساتهم جهاراً نهاراً، بمباركة الأمم المتحدة.

وأنّى للمجتمعات الإسلامية أن تنظر إلى أعداء الإسلام بعين الحقيقة والواقع وهم في حد ذاتهم لا يطبقون تعاليم دينهم في علاقاتهم بعضهم ببعض أفراداً وجماعات وحكومات... وغدا المسلم مسلماً بقوله لا بفعله، وبلسانه لا بإحساسه، فأي صلاح في مسلم يشهد أن لا إله إلا الله، ويدعي الانتماء إلى الإسلام وكل أعماله تكذبه؟

كيف يساوى بين هذا المسلم الذي لا يجاوز إسلامه قلبه، وبين مسلم كل جوارحه تنطق بمدلول كلمة الشهادة؟

يقول الشيخ علي يحي معمر، محللاً موقف الإباضية من هذا المسلم: «يرى الإباضية أن هذا المسلم الذي وصفناه بالإسلام، وأدخلناه بين أهل التوحيد، لا يحق أن يكرم بالتساوي مع الصادقين، ولا يمكن أن تشمله المحبة في الدين، بل يجب أن يجد الغلظة من المؤمنين، وأن يسمع التقريع والتوبيخ، وأن يطلب الابتعاد عنه، وأن تعلن البراءة منه، ويقلل التعامل معه، حتى تضيق عليه الأرض بما رحبت، ولا يجد ملجأ من الله إلا إليه، فإمَّا أن

يشرح الله صدره للإسلام، وأن يفتح قلبه للإيمان، وأن يسخر للعبادة، وأن يباعد بينه وبين المعصية، فيتوب مما ارتكب، ويعود إلى حظيرة الإسلام، بالعمل الصالح، والجهاد المتواصل جهاد النفس والهوى، فترتبط أواصره حينئذ بأواصر الناس، ويصبح بعد الهداية والتوفيق أخاً في الله. وإمَّا أن يرتكس إلى الشيطان، ويصر على العصيان، ويستكبر عن التوبة ويبتعد عن محاسبة النفس، ويستمر في الغواية والضلال، وحينئذ لا يمكن لأولياء الله أن يحبوا عدو الله، ولا أن يرضوا عمن جاهره بالمعصية، وإن القلوب المؤمنة لتستحيي أن تتجه إلى المليك الديان لتطلب منه الرحمة والغفران.»[1]

مجتمع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

والواقع إنَّ تطبيق الولاية والبراءة في المجتمعات الإباضية هو نتيجة طبيعية لرؤيتهم الحضارية في أنَّ الأصل في قيام المجتمع الفاضل هو تأسيسه على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، هاتان الصفتان المتلازمتان في مجتمع النبوَّة الكريمة، والخلافة الراشدة، باعتبارهما على حدٍّ تعبير الرسول ﷺ: **«جندان من جند الله من نصرهما نصره الله ومن خذلهما خذله الله»**.

ومن ثمَّ كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أهمِّ الدعائم التي أقام عليها أهل الدعوة دعوتهم في جميع الحالات التي مروا بها، لأنَّهم كانوا يرون ذلك واجباً عليهم من الدين للنصوص القطعية الكثيرة في ذلك، ثم لأنَّ التماسك الاجتماعي بينهم لا يبقى على قوته، ما لم يعتمد على تطبيق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بين جميع الطبقات والفئات، بين الحاكم والمحكوم.

1- علي يحي معمر: **الإباضية**، ج1، ص85.

والناظر في السير الإباضية عند المشارقة والمغاربة يلحظ بجلاء كيف تأتي الوصية بإقامة هذه الشعيرة في مقدِّمة ما يتواصون به، لارتباطها المتلازم بأصل الولاية والبراءة، إذ لا يمكن تطبيق الولاية والبراءة في مجتمع ما إلا إذا نهض بين أفراده وجماعاته مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فقد سئل الشيخ أبي الحسن البسيوي: أيكون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، من أمر الولاية والبراءة؟ فأجاب: نعم. ألا ترى أنَّ الولاية لأهل الطاعة العاملين بالمعروف، والبراءة على أهل المنكر العاملين بالمعصية، ألا ترى أنَّه أوجب العذاب على من يتولى الكافرين وقال: ﴿**ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين**﴾ (سورة المائدة: 51). [1]

ويغدو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من وسائل الدعوة عند الإباضية داخلاً في إطار التكوين الروحي الذي يعتمد على التربية العملية الاجتماعية بقراءة القرآن والحرص على تلاوته، وكثرة الصلاة والمداومة على إقامتها. وهذه في حد ذاتها كلها وسائل هامة لتزكية النفس والسمو بها إلى أن تصبح ربانية لا هدف لها سوى تبليغ دعوة الله ونشر رسالة الإسلام، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أحرى بهما أن يدخلا في وسائل تزكية نفوس أفراد المجتمع، لأنَّ الشخص المؤهل لتولي مسؤولية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ينبغي له أن يتصف بصفات خاصَّة تؤهله ليكون جديراً بهذه المسؤولية الخطيرة، ومعنى ذلك أن يكون كل فرد من أفراد المجتمع في حدِّ ذاته مؤتمراً بأمر الله، منتهياً عن نواهيه ليصلح للقيادة، والاقتداء، فإذا وضع كل مسلم في المجتمع الواحد هذا المقياس أساساً لصلاح نفسه أصبح المجتمع كله مصلحاً صالحاً تقل فيه الفاحشة،

1- **السير والجوابات**، ت السيد الكاشف، ج2 ص147.

ويذل فيه المنكر، ويغدو كل فرد غير محتاج إلى رقيب أوحسيب لأنَّ له رقيباً وحسيباً من نفسه، ومراقبة النفس معناها أخذها لتسير على الطريق السوي، وإذا سار كل فرد على الصراط المستقيم استقام المجتمع كله.

والدارس عندما يعود إلى الحكايات التي ترويها كتب التاريخ والسيرة والتراجم عن الشراة، يقرأ عجباً، مما جعل المؤرخين متفقين على وصف الشراة بأنهم: «رهبان الليل وأسود النهار»، وذلك الوصف البليغ الذي وصفهم به أحد قادتهم المشاهير أبو حمزة الشاري حيث يقول عنهم: «شباب والله مكتهلون في شبابهم، غضيضة عن الشرِّ أعينهم، ثقيلة عن الباطل أرجلهم، أنضاء عبادة، قد نظر الله إليهم في جوف الليل منحية أصلابهم على أجزاء القرآن، كلّما مر أحدهم على آية من ذكرالجنةبكى شوقاً، وكلّما مر بآية من ذكرالنار شهق خوفاً كأن زفير جهنّم بين أذنيه، قد أكلت الأرض جباههم ورُكبهم، وصلوا كلال الليل بكلال النهار، مصفرة ألوانهم ناحلة أجسامهم من طول القيام، وكثرة الصيام أنضاء عبادة.» [1].

من هذا المنطلق الإيماني العميق كانت التعبئة الروحية ضرورة لازمة قبل التعبئة العسكرية، وكأنَّهم واثقون أنَّهم الفئة القليلة التي تواجه الفئة الكثيرة، فليس ثمة قوة توازن القوة العددية إلا القوة النوعية، ولن يواجه سلاح العدد والعدة الكثيرة إلاّ بالتعبئة الإيمانية الروحية التي لا تنفد.

من هنا كان لا بدَّ من إعداد الأفراد والجماعات إعداداً روحياً أولاً وقبل كل شيء، بحيث تغدو تصرفاتهم وأخلاقهم ومعاملاتهم وفقاً وانعكاساً لعقيدتهم الإسلامية الثابتة، وأصولهم العقدية الراسخة.

1- سالم بن حمد الحارثي: **العقود الفضية**، ص215.

والشراة عندما اختاروا هذا المنهج الرباني في مجتمع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر اعتمدوا الطريقة العملية، والمجاهدة الميدانية، فوضعوا لحياتهم اليومية حيثما كانوا وأينما وجدوا برنامجاً صارماً يقوم على العبادة المستمرة ومراقبة الله في كل صغيرة وكبيرة.

ومن أبرز هذه النظم، المحافظة على الصلاة محافظة دقيقة، ولا أعني هنا الصلوات المفروضة فذلك أمر مفروغ منه، إنَّمَا أعني بها ما عُرف عنهم من اجتهاد بقيام الليل وصيام النهار، والمداومة على تلاوة القرآن وحفظه، حتى كثر في جماعتهم القراء والعباد والزهاد.

وما حرص الشراة على هذه السيرة، والالتزام بهذا المنهج إلاّ لمقصد أسمى وهو أن تصبح العبادات وسائل تربوية هامَّة لتزكية النفس، والسموِّ بها إلى أن تصبح ربانية لا هدف لها سوى تبليغ دعوة الله، ونشر رسالة الإسلام، وامتثال قوله تعالى: ﴿**وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون**﴾(سورة الذاريات: 56).

إنَّ من أهم الصفات التي تميز بها الشراة التزامهم الشديد بتطبيق شريعة الله، وتمسكهم القوي بسيرة الخلفاء الراشدين والسلف الصالح، حتى رموا بالتشدد والتزمت والتعصب، وغير ذلك، ولم يكن يعنيهم ما يقال عنهم بقدر ما يعنيهم أن يكون ذلك إرضاء لله ولرسوله في كل ما يأتون وما يذرون، وهذه العقيدة الراسخة أضفت عليهم ميزات تميزوا بها، انتزعت الإعجاب من العدو والصديق معاً[1].

وكل الدراسات القديمة والحديثة متفقة على أنَّهم ذووا إيمان ثابت، وعقيدة راسخة، وأنّهم أصحاب مبادئ وأخلاق عالية، ولكن قلة قليلة

1- أحمد سليمان معروف: مصدر سابق، ص103..

عنتها الأسباب والعوامل التي جعلت الشراة يكونون كذلك، إذ كان الأولى أن نرجع هذه المميزات إلى عقيدة الشراة الثابتة التي ترى أن الإيمان عقيدة وقول وعمل، وهذا ما ينفي عن الشراة ما يذهب إليه بعض الدارسين من أن غرضهم من التمرد على الحكام والسلطات هو الوصول إلى السلطة منافسة وتمرداً.

على أن كل الوقائع الحربية التي خاضوها تدل دلالة قاطعة على أنَّهم لم يخرجوا طلباً لدنيا كما كان ذلك هدف خصومهم الذين حولوا الحكم الإسلامي ملكاً عضوداً وزينة ولهواً، وهذا ما يفسر خروجهم في الأغلب الأعم بالفئة القليلة المواجهة للفئة الكثيرة، كانوا كذلك وهم يدركون أنَّ أغلبية الناس مع الحاكمين رغم كرههم لهم، ولكن حبَّ الدنيا وايثار السلامة جعلت الناس إما حياديين لا يهمهم من أمر الخروج شيئاً، وإما دنيويين حريصين على المرتَّب والجاه والنفوذ، ولم يتورط في هذا الاتجاه العامَّة من الناس وحدهم، فلعلهم معذورون في ذلك ـ وإنما الذين تورطوا علماء وفقهاء وقفوا إلى جانب الجورة والظلمة من الحكام فزينوا لهم ظلمهم، وحللوا لهم جورهم وفسقهم.

وبناء على هذا التصور للواقع الإسلامي المؤسف سموا أنفسهم شراة، وخططوا في مراحل الحفاظ على مجتمعاتهم مرحلة الشراء تعبيراً عن تصورهم هذا المستمد من قوله تعالى: ﴿**ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله**﴾ (سورة البقرة: 208). ومن يخرج ابتغاء رضوان الله تجلى ذلك في سلوكه العملي مع إخوانه المسلمين، وكذلك كان الشراة يأخذون أنفسهم بتربية إسلامية صارمة في مجتمع غالبيته مع الهوى والجري وراء الشهوات الدنيوية.

وقد ظهر حرص الشراة على الالتزام بالتربية الإسلامية حتى في التنظيمات العسكرية، فإن الجيش الإسلامي ينبغي له أن يكون مبنياً على التقوى والصلاح، وانتظار جزاء الجهاد من عند الله.

وقد تجلى هذا الحرص في جيوش الشراة تحت قيادة طالب الحق، وأبي حمزة الشاري، في اليمن والحجاز، والجلندى بن مسعود في عمان، وأبي الخطاب عبد الأعلى بن السمح في المغرب الإسلامي، والصلت بن مالك في فتوحات شرق إفريقية.

كان جيش الجلندى مثلاً يقسم إلى مجموعات كل مجموعة تتكون من مائتين إلى أربعمائة جندي على رأسهم قائد، يشترط أن يكون من أهل العلم والمعرفة والفقه والحزم، كما يعين على رأس كل عشرة جنود مؤدِّب يعلمهم أمر دينهم، ويقيم فيهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكان يمنح لهم عطاء شهرياً[1]

إنَّ السمة التي يتميز بها الشراة هي إخلاصهم لله ربِّ العالمين سلماً وحرباً، فهم لا يقاتلون من أجل دنيا وإنَّما من أجل إحقاق الحق، والثورة على الظلم والطغيان.

وقد اعترف بذلك خصومهم، فالشهرستاني المعروف بنزعته العدائية (للخوارج) يقول عنهم: «إنهم أهل صلاة وصوم»، وإن سلوكهم الإسلامي يتجلى في صراحتهم وصدقهم، والتزامهم الشديد بطاعة الله واستحضار الجزاء الأخروي في كل حالاتهم.[2]

وكيف لا يكونون كذلك وأغلب أئمَّتهم من أفاضل الصحابة وقرائهم

1- ينظر، الشيخ السالمي: **تحفة الأعيان**، ج1، ص910. ومهدي طالب هاشم: **مرجع سابق**، ص181.

2- يراجع، الشهرستاني: **الفصل بين الملل والنحل**، الفصل المتعلق بالخوارج.

1- الاعتدال والتسامح:

دأب المؤرخون القدامى والمحدثون على النظر إلى (الخوارج) من زاوية أحادية تفترض الحق في جانب دون آخر، وتفترض الباطل في جانب دون أخر، ومن هنا كان الحيف وكان الإجحاف، وقد بلغ هذا التحيز أحياناً حد التزوير والتشهير، ولنأخذ كمثال على ذلك ما تصوره بهم المصادر القديمة على أنهم معتدون، متطرفون، يحملون السيف لسفك الدماء، أجلاف بداة، لا يرضخون لحاكم، ولا ينقادون لقائد، مع أن هذه المصادر نفسها تعترف بجبروت الأمويين وطغيانهم، فلم لا تكون هذه الشهادة كافية ـ كما هو المفروض ـ للبحث في الموضوع من الزاوية المقابلة.

حقًا كان في الخوارج بعض الفرق التي تطرفت في استعراض الناس نظراً لأسباب تاريخية ليس هنا محل ذكرها، ولكن لا يعني ذلك إطلاقاً أن (الخوارج) كانوا كلهم كذلك، بل إنَّ افتراقهم إلى طوائف كان سببه في غالب الأحيان اختلاف أساسي في منهج الدعوة إلى الله، كما حدث ذلك حين دعاهم الأزارقة إلى الخروج سنة 64 هـ.

وقد تبين للدارسين المنصفين[1] أن من أسباب بقاء الإباضية إلى يوم الناس هذا ـ فيم انقرضت الفرق الأخرى ـ اعتدالهم، وتسامحهم، ومرونتهم الفكرية والدعوية مع الخصم والمخالف. وكل مواقفهم التاريخية ورؤاهم الفكرية، وأصولهم العقدية تشهد لهم بذلك. وقد جاء هذا الاتجاه مؤكداً في سيرة أحد أئمتهم الأوائل.

1- يراجع، د/عبد الحليم رجب: **الإباضية** ، ص8. أيضاً د/فاروق عمر: **التاريخ الإسلامي**، ص، 64.

يقول الإمام سالم بن ذكوان وهو معاصر للإمام جابر: «...ثم تتابعت على ذلك خوارج المسلمين يحكّمون الله وحده، ويرضون سبيل من مضى قبلهم من المسلمين، لا يقتلون ذرية قومهم، ولا يستحلون فروج نسائهم، ولا يتعرضونهم، ولا يخمسون أموالهم، ولا يقطعون الميرات منهم، ويؤدون الأمانة إليهم وإلى غيرهم، ويوفون بعهودهم ومن غيرهم، ويأمن عندهم الكاف والمعتزل من قومهم، من غير أن يكونوا يشكون في ضلالتهم، ولا اتخاذهم بين الحق والباطل منزلة، وليس بعد الحق إلا الضلال، ويصلون الرحم، ويعرفون حق الجار والصاحب واليتيم وابن السبيل وما ملكت أيمانهم...»[1]

وقد أثر عن أحد أبطالهم المشهورين وهو أبو حمزة المختار بن عوف السالمي، قولته المشهورة: « الناس منا ونحن منهم إلا مشركاً عابد وثن، أو كافراً من أهل الكتاب، أو إماماً فاجراً.»[2]

انطلاقا من هذا المبدأ الإسلامي العظيم مبدإ التسامح، وعدم التعصب، ومحبة المسلمين باعتبارهم إخواناً في الدين، كان للإباضية سياسة حربية واضحة، لا تزال صفحات ناصحة تبهر العدو والصديق، لما تحمله من قيم إسلامية عالية، ومثل إنسانية راقية، مستقاة كلها من كتاب الله وسنة رسوله الكريم.

إنَّ الإباضية لم يستخدموا وسائل العنف كما استخدمها خصومهم ضدَّهم، وإنما عرف عنهم المسالمة، والمهادنة، والمجادلة بالتي هي أحسن، حتى في أشد المواقع تعرضاً للخطر والموت. وهم من أجل هذه الخصيصة

1- سير الإباضية (مخ) مكتبة السيد محمد بن أحمد، السيب (سلطنة عمان). ورقة 95.

2- الأغاني ج23، ص، 249.

أطلق عليهم الأزارقة (القعدة) تعبيراً لهم لقعودهم عن الخروج.

وما من شك في أن التجربة والاحتكاك بالواقع السياسي علّم الإباضية هذه المنهجية في الدعوة إلى الله، فبرزت سمة واضحة في سلوكهم، ومواقفهم، ورؤاهم طوال تاريخهم، ابتداء من تزعم أبي بلال مرداس لجماعتهم بالبصرة مابين سنتي (55-61هـ).

وقد تجسدت هذه الروح في مشاهد مؤثرة ترويها الكتب التراثية عن معركة (آسك) التي دافع فيها أبو بلال وأصحابه الأربعون جيش ابن زياد العرمرم، وكان النصر إلى جانبهم رغم عدم التكافؤ بين الجيشين عدداً وعدة، وأحسب أن ماتركه أبو بلال من العبر والمواقف ظلت خالدة في أذهان الشراة، حيث يبين لهم بطريقة عملية كيف يكون التعامل الإسلامي مع الأعداء في كل الحالات انتصاراً وانهزاماً.

يقول الإمام أبو قحطان الهجاري في سيرته:

«فلما كثر القتل في المسلمين والأذى خرج المرداس بن حدير وأصحابه (رحمهم الله) بائعين أنفسهم لله، غضباً واحتساباً لرجاء الثواب يوم القيامة، ولم يكن خروجهم لفريضة لزمتهم، لأنَّهم كانوا قليلاً في خلق كثير، وإنَّما فرض الجهاد على المسلمين إذا كانوا نصف عدد عدوهم وحينئذ لا يسعهم المقام ويجب عليهم الخروج في سبيل الله، ولكن المرداس (رحمه الله) طلب الشهادة هو وأصحابه، وإنما كان قتالهم وسيلة توسلوا بها إلى الله...»[1]

1- أبو قحطان من علماء وأيمة عمان في القرن الثاني الهجري وله سيرة معروفة، ينظر السير والجوابات، ج1.

وعندما عزم هو وأصحابه على الخروج من البصرة فراراً من جور ابن زياد وظلمه، تشاوروا في تأمير إمام لهم يسيرون في إمرته فاختاروا أبا بلال، وكان عددهم أربعين رجلاً، ولقد سلك في خروجه هذا مسلكاً واضحاً يتسم بالاعتدال ونبذ العنف، فقد كان لا يدين بالاستعراض قائلاً : «لا نقاتل إلا من يقاتلنا، ولا نجبي إلا ما حمينا».

وللشراء شروط قاسية لا يستطيعها إلا النفوس القوية المؤمنة لأنَّها قائمة على الفدائية المطلقة، وعلى الأبطال الذين خلصوا أنفسهم من حظوظ الدنيا، وتعلقت قلوبهم بالآخرة، ونظروا إلى الجنة من صفحات سيوفهم، ومن تم كان ينتقي أصحابه قائلاً لكل واحد منهم توعية له على خطورة ما هو مقبل عليه: «إنك تخرج جهاداً في سبيل الله، وابتغاء مرضاته، لا تريد شيئاً من أغراض الدنيا، ولا لك في الدنيا حاجة، ولا لك إليها رجعة، أنت الزاهد في الدنيا المبغض لها، الراغب في الآخرة المجاهد في طلبها، الخارج إلى القتل لا غيره، فاعلم أنَّك مقتول، وأنك لا رجعة لك إلى الدنيا، وأنك ماض أمامك لا شيء إلا الحق، حتى تلقى الله، فإن كنت على هذه الحالة، فارجع إلى ماوراءك، فاقض من الدنيا حاجتك ولبناتك، واقض دَينك، واستر نفسك، وجدَّ في أمرك، وودِّع أهلك، وأعلمهم أن لا رجعة لك إليهم، فإذا فرغت بايعتك.»[1]

ويعضد (المبرد) هذه الرواية حيث يؤكد على مسلك الشراء الذي سنه أبو بلال لأصحابه فصار من مسالك الدين عند الإباضية بعده، فإن أبا بلال لقي صديقا له وهو عبد الله بن رباح الأنصاري فقال له : «أين تريد؟»

1- السير والجوابات، ج1، ص236.

فقال أبو بلال : « أريد أن أهرب بديني وأديان أصحابي من أحكام هؤلاء الجورة». فقال له :« أعلِم بكم أحد ؟» قال: «لا». قال: «ارجع». قال: «أوتخاف علي مكروهاً». قال : «نعم، وأن يُؤتى بك». قال: «لا تخف، فإنّي لا أجرِّد سيفاً، ولا أخيف أحداً، ولا أقاتل إلا من قاتلني، ثم مضى».[1]

وعندما وصل (آسك) التقى برجل من أصحاب ابن زياد مع جيش يريد خراسان فصاح بهم أبو بلال: «أقاصدون لقتالنا أنتم؟»، فقالوا: «إنما نريد خراسان» فقال: «أبلِغوا من لقيتم إنا لم نخرج لنفسد في الأرض، ولا لنروّع أحداً، ولكن هرباً من الظلم، ولسنا نقاتل إلاّ من يقاتلنا، ولا نأخذ من الفيء إلاّ أعطياتنا.»[2]

هذا هو المسلك الذي سنّه أبو بلال مقتدياً برسول الله ﷺ مهتديا بكتاب الله، مخالفاً في ذلك سيرة المتطرفين من الخوارج، ليصبح بعده منهجاً مستقيماً، وطريقاً لاحباً لمن اقتنع بسيرته من الإباضية.

وهكذا أصبح الشراة حريصين على عدم استعمال السيف إلا عند الضرورة القصوى وانتهاج سياسة حربية ربطوها بالدين فسموها مسالك الدين، وهي الحالات التي يكونون عليها منتصرين أو منهزمين. ولذا أوجدوا مسالك أربعة وهي الظهور، والدفاع، والشراء، والكتمان. وضعت كتبهم العقدية لها شروطاً ونظماً دقيقة، تدل على نظر بعين ووعي سديد.

وأبرز ما نلحظ في هذه المسالك حرصهم وورعهم في دماء المسلمين

1- المبرد: **الكامل**، ج2، ص183.

2- **المصدر السابق**، ص185.

وأموالهم، فإنَّ الإباضية لا تستحل دماء مخالفيهم من المسلمين إلاّ في حالة حرب، وبعد إلقاء الحجة على المخالف. يقول الشيخ اسماعيل الجيطالي في قواعد الإسلام: «وتحل الدماء بالظلم والابتداء به»[1]. وقد طبق هذا المبدأ عملياً في كل الوقائع الحربية التي خاضوها ضدَّ الأمويين أو غيرهم مشرقاً ومغرباً، فقد تواترت كتب التاريخ عن حرصهم بَدأهم خصومهم بالحوار وإقامة الحجة قبل البدإ بالقتال، بل هم لايبدأون بالقتال إلا دفاعاً عن النفس، فقد كانوا من أحرص الفرق الإسلامية على استخدام الحوار، ومحاولة الوصول إلى التفاهم والصلح بعيداً عن استخدام السيف وإراقة دماء المسلمين.

فلا يجوز عندهم قتال إلا بعد الدعوة، وإقامة الحجة، وإعلان القتال، ولا تحل غنائم المخالفين في الحرب إلا الخيل والسلاح وكل ما فيه قوة في الحروب، ويردون الذهب والفضة إلى أصحابها على الرغم من أن الذهب والفضة قد يكونان مساعدين هامين لمواصلة الحرب، ولكن طابع التعفف الذي جُبلوا عليه يمنعهم من ذلك.

وقد لخص الرقيشي سيرة الإباضية المتسمة بالتسامح والاعتدال في قوله:

«والمسلمون لا يعترضون الناس ولا يقتلونهم بغير حقّ، ولا يلعنونهم، ولا يبرؤون منهم، وهم يقرون بالحكم ويرضون به، ولا يقاتلون قوماً حتى يدعوهم إلى الإسلام، ولايأخذون بشبهة وميلولة في هوى، ولا حد في شبهة، ولا يخيفون آمناً، ولا يقطعون سبيلا، ولا يقاتلون الناس إلا بعد البغي والامتناع... ولا نغنم مال أهل القبلة، ولا نسبي عيالهم، ولا نرد

1- الجيطالي: **قواعد الإسلام**، ج2، ص

التوبة على أهلها، ولا نخيف الناس بعد الأمان، ولا نتبع مدبراً فنقتله إن لم يقتل لنا قتيلاً، ولا ينصب لنا حرباً، فهذه سيرتنا التي مضى عليها العلماء با لله من أمتنا وأسلافنا.»[1]

كان هذا الموقف الإسلامي منهم في الوقت الذي كان فيه خصومهم من الأمويين بخاصة يستخدمون معهم كل طرق الإبادة والخداع، والقتل الجماعي. يقول مهدي طالب هاشم في هذا الصدد: «ولو قارنا بينهم وبين الأمويين لوجدنا بوناً شاسعاً في هذه الناحية، فقد ظهرت في حروب الأمويين الوحشية، والطابع البدوي، والخروج على القيم الإسلامية في حروبهم للإباضية...»[2].

والمتتبع للنصوص التاريخية يلحظ حرص الشراة على اتباع منهج إسلامي معين في الحرب، ولم يكن يفوت زعماءهم أن يرسموا لهم آداب القتال، والحق أننا نجد نصوصا تاريخية كثيرة تدل على أنَّ الخوارج بصفة عامة رغم اتهام الكتاب لهم بالعنف، كانوا دائماً حريصين على انتهاج مسلك الحوار قبل إعلان الحرب، وكانوا كثيراً ما يذكّرون أتباعهم على أنَّهم إنما خرجوا طلباً للآخرة لا طلبا للدنيا، ولا عبرة ببعض الحوادث التي يركز عليها بعض الكتاب مثل مقتل عبد ا لله بن خباب بن الأرت، مع ذلك يقول صالح بن مُشرح لأصحابه ليلة خرج:

«اتقوا ا لله عباد ا لله، ولا تعجلوا إلى قتال أحد من الناس إلاَّ أن يكون قوماً يريدونكم، ويتصبون لكم، فإنَّكم إنَّما خرجتم غضباً لله حيث انتهكت محارمه، وعصي في الأرض، فسفكت الدماء بغير حلها، وأخذت

1- الرقيشي: مصباح الظلام، (مخ) ورقة ظ76.

2- مهدي طالب هاشم: مرجع سابق، ص، 112.

الأموال بغير حقها، فلا تعيبوا على قوم أعمالاً ثم تعملوا بها، فإنَّ كل ما أنتم عاملون أنتم عنه مسؤولون..».

لكن كل ما يقال في حياة الجهاد عند الشراة لن يغني عن الصورة التي رسمها أبو حمزة الشاري ولن يعدل بها شيئاً، صورة تلك الروح الفدائية التي دفعت هؤلاء الشباب يحملون أرواحهم على أيديهم يبذلونها في سبيل الله، لا يعرفون شراً، ولا يتكالبون على باطل، فكيف يكون هذا والقرآن في أيديهم؛ وعبادة الله نصب أعينهم...[1]

والمتبع للنصوص القديمة، والحديثة وهي تعالج جهاد الخوارج للباطل، يلقاها متفقة جميعها على الإعجاب بروح الاستبسال الذي ميزهم عن غيرهم، وإجماعهم على أنَّ الهدف الذي من أجله رفعوا السيف وقاوموا الظلم لم يكن إلا هدفاً أخروياً.

لقد جاء هذا الملحظ عند الإمام علي كرم الله وجهه حين قال: «لا تقاتلوا الخوارج من بعدي، فليس من طلب الحق فأخطأه كمن طلب الباطل فأصابه». وفي قولة عمر بن عبد العزيز حيث قابل وفدهم بعد توليه: «إني قد علمت أنَّكم لم تخرجوا مخرجكم هذا لطلب دنيا ومتاعها، ولكنكم أردتم الآخرة فأخطأتم سبيلها.»[2]

ونحن نقول إنَّ الإجماع واقع على أنَّ نوايا الشراة سليمة، وهدفهم ديني أخروي لا نقاش فيه. يبقى الاختلاف حول الوسيلة المستخدمة والطرق

1- د/ سعيد حسين منصور: **القيم الأخلاقية في الخطابة العربية**، ص210، نقلا عن **الطبري** ج6، ص22.

2- أحمد زكي صفوت: **جمهرة خطب العرب**، ج2 ، ص202.

المنتهجة، وقد حكم خصومهم على ضلالها، وهذا الحكم في حدٍّ ذاته لا يعلم مقدار الصواب والخطأ فيه إلا الله سبحانه وتعالى.

يقول أحد الدارسين المحدثين في هذا الصدد:

«لقد كانوا هم أنفسهم مؤمنون باستقامتهم، وصحة طريقهم الذي يسيرون فيه، ويعتقدون شرعية الجهاد الذي استرخصوا فيه المهج والأرواح، وهم وإن كانوا قد ضلوا الهدف، وانحرفوا عن الغاية، فقد تمسكوا بنصوص القرآن والعبادة، وإقامة شعائر الدين، والعمل بتعاليمه، وتجنب الذنوب الصغيرة، والبراءة من الكذب، اعتقاداً منهم أنَّ الإيمان لا يمكن أن يكون تصديقاً بالقلب أو إقراراً باللسان، دون أن تترجمه الأعمال، ويعبر عنه السلوك...»[1]

ولعل السرَّ الأكبر في الانتصارات التي حققها الشراة وهم فئة قليلة على خصومهم الأمويين وهم فئة كثيرة لها كل الإمكانات المادية والأدبية، هي أنَّهم كانوا مندفعين إلى الجهاد بهذه العقيدة، وهذا السلوك. وذلك هو السر الذي انتصر به المسلمون الأوائل وهم يجاهدون الكفار.

يقول أحد الدارسين المحدثين محلّلاً الأسباب:

«...ولعل أهم ما يميز حروبهم أنهم كانوا يقاتلون بالفئة القليلة، ويستطيعون أن يحرزوا النصر على من هم أكثر عدداً وعدة.

...ولم يكن يدفع الخوارج إلى هذا غير استهانتهم بالموت، وزهدهم في الحياة، وحرصهم على الشهادة، وكثيراً ما كانوا يؤمنون وهم قلة لا تملك ما يملك الخصوم، أنهم لن يسيروا بخروجهم هذا إلا إلى الموت، ولكن روح

1- د/ سعيد حسين منصور: مرجع سابق. ص201.

الجهاد حببت إليهم صرعة الموت، وقدمتها لهم في أعذب صورة...»[1]

ومن هنا غدت الاستهانة بالموت محوراً من المحاور التي دارت عليه قصائد شعرائهم، وخطبائهم، وقد حققوا تحت هذه المشاعر الفياضة، والحماسة الملتهبة انتصارات مذهلة يراها بعض الكتاب نتائج طبيعية لهذه الروح الجهادية المؤمنة، ويراها بعض آخر مبالغات وأساطير لا أساس للصحة فيها. وهي من قبيل الدعاية، رغم تواترها في المصادر القديمة.

والحق إنَّ هذه الروح الاستشهادية إذا لم تعززها القوة المادية قد تكون سبباً أيضاً في الهزيمة الحربية عندما تختل الموازين العسكرية، مثل كثرة عدد العدو، وتفوق عدته العسكرية، واتساع رقعة الحكم، تماماً كما وقع لهم إبان المعارك الواقعة في الحجاز، وصنعاء، وعمان، والمغرب الأدنى في بداية تأسيس دولتهم هناك. إذ لا تكفي الشجاعة وحدها في بداية الحروب، وذلك مصداقاً للآية الكريمة: ﴿**وأعدُّوا لهم ما استطعتم من قوَّة**﴾ (سورة الأنفال: 60)، والقوة هنا تعني ولا شك القوة المادية أيضاً.

وكثيراً ما كانت نقطة الضعف في صفوف الإباضية سذاجتهم العسكرية إن صحَّ التعبير، فهم لا يستخدمون المكر والخديعة، والتحايل، يعصمهم عن ذلك ورعهم الشديد، وتصور الخيرية، والثقة، وعدم المكر في خصومهم.

وفي التاريخ مشاهد كثيرة متنوعة، نكتفي بذكر نموذج لها ما وقع لأبي بلال بن مرداس من جيش عبيد الله بعد أن طلبوا منهم هدنة للصلاة،

1- المصدر السابق، ص207.

فقتلوا بين راكع وساجد، وكانت الغلبة من قبل...إلى صفوفهم.

ولعلَّ من أبرز الوقائع التاريخية التي تجلى فيها هذا السلوك الإسلامي النبيل، سلوك الإمام القائد عبد الله بن يحي الكندي عندما فتح حضرموت واليمن، ودخولها منتصراً، طالب الحق الذي أجمع المؤرخون كافة إباضية وغير إباضية على حسن سيرته وسياسته، ولم نجد فيهم من يطعن في عدالته...[1]

كانت سياسته الالتزام الشديد والحرص الأكيد على تطبيق الشريعة الإسلامية السمحة في معاملته المخالفين له مذهباً من المسلمين، وقد استطاع بورعه وحزمه أن يوفق بين المبدأ والتطبيق، دون أن يسمح للعواطف أن تسيره في اللحظات الحرجة التي تطغى فيها هذه العاطفة مثل لحظات الانتصار، ومواقف الغلبة التي قد تثور فيها العواطف الدافقة إلى الانتقام من الخصم، أو إشفاء غليل الصدر منه. فعندما طلب قائده أبرهة ابن الصباح الحميري الإجهاز على الهاربين وقتلهم، منعه،مع أنَّ طالب الحق كان قد تمكن منهم كما يبدو من رواية البلاذري، ذلك عملاً بمبدأ الإباضية الذين لا يجيزون الإجهاز على المستسلم، ولحوق المدبر في الحرب، كما جاء ذلك في شرح قواعد الإسلام للجيطالي، وقد رأينا الموقف ذاته مع أبي حمزة المختار مع خصومه في قُديد، وهذا يدل على الطابع الإسلامي لسلوك الشراة في كل الحالات منتصرين كانوا أم منهزمين. ونستطيع أن نلمس مثل هذا السلوك الإنساني الإسلامي الرفيع في موقف طالب الحق من العمّال الأمويين الذين استطاع التغلب عليهم، والظفر بهم، فهو عندما دخل صنعاء حبس الضحاك بن زمل الذي تركه العامل الأموي القاسم بن

1- مهدي طالب هاشم: مَرجع سابق، ص118

عمرو والياً على صنعاء، وإحسانه وشهامته من إبراهيم بن جبلة الكندي الذي وقع في الأسر مرة ثانية بعد أن سمح له في المرة الأولى مغادرة حضرموت، لم ينتقم منهما طالب الحق جزاء موقفهما المعادي هذا، بل كل ما فعله معهما أنَّه حبسهما مدة قصيرة ثم أطلق سراحهما، وقال لهما: «إنما حبستكما مخافة العامة عليكما، وليس عليكما مكروه، فأقيما أو اشخصا، فطلبا الخروج من اليمن.»[1]

وشمل طالب الحق بسيرته الإسلامية كل الناس مقاتلين وغير مقاتلين، فقد كانت أولى الإجراءات التي قام بها بعد أن استولى على الخزائن والأموال التي جَباها القاسم بن عمرو الثقفي عامل بني أمية في حضرموت، وممثل الحجاج بن يوسف الثقفي ـ القريب منه نسباً ـ يمثله في جوره وظلمه، لما وجد الإمام طالب الحق تلك الأموال رغم فقره وفقر جيوشه وحاجتهم؛ لم يستحل أن يأخذ من تلك الأموال فلساً واحداً، ولا استحل أن يعطي أصحابه منها قليلاً أو كثيراً، بل إنَّه أمر بتوزيعها بين الناس بالسوية، ليؤكد لأهل اليمن أنَّ حكمه قائم على شريعة الله عدلاً ومساواة، دون مراعاة للاختلافات المذهبية أو القبلية.

يذكر الشماخي أنَّ عبد الله بن مسعود وابن خيران وهما من الإباضية قد أتيا بالأموال التي استولى عليها طالب الحق إلى المسجد، فقسماها على فقراء صنعاء، و لم يسمح للإباضية أن يأخذوا منها شيئاً.[2] لأنَّ الإباضية لا ترى مال المسلم المخالف غنيمة إلا ما كان تجهيزاً أو عتاداً حربياً مثل الخيل والسلاح، ويَرُدُّون الذهب والفضة وغيرهما، بل ويسمحون لبقية المسلمين

1- **الأغاني** 114/23 . وانظر مهدي طالب هاشم، **مرجع سابق** ص114.

2- الشماخي، **السير** ط. الحجرية ص99.

في هذه الحالة بالانتماء إلى حركتهم لمجاهدة السلطة الحاكمة الفاسقة، بغضّ النظر عن اتجاهاتهم المذهبية.[1]

وقد كان البلاذري[2] شاهد عيان لهذا التحول العميق حيث يصف الحالة قبل مجيء طالب الحقّ، فيقول إنّه رأى باليمن جوراً وعسفاً شديدين وسيرة في الناس قبيحة، ولكن مجيء طالب الحقّ إلى الحكم غيَّر الأمور من سيء إلى حسن، ومن ظلم إلى عدل، ومن فتنة إلى استقرار، ويقول إنّه أقام أشهراً وهو يحسن السيرة، لين الجانب، كاف عن الناس، فكثرت جموعه في اليمن وأحبَّ الناس سيرته، فساد الاستقرار والأمن، ولم يحدث ما يعكّر صفو الأمن في كل أنحاء اليمن، «وهذا يظهر مساندة عامة المسلمين في اليمن لهذه الحركة.»[3]

ومن خطبة طالب الحق التي ألقاها على الناس غداة دخوله اليمن[4] يتبين لنا المنهج السياسي المتسامح الذي ارتضاه الإباضية مع خصومهم، وليس أدلَّ على صحة المبادئ وسلامة المنهج من أن يمتحن بلحظة قوة أو ضعف.

لقد كان الإباضية منتصرين لا شكَّ في ذلك ولاريب، ولكن طالب الحق لم يجبر الناس على اتخاذ موقف معين إلا أن يكون اختياراً من تلقاء أنفسهم كما قال:

«أيها الناس إنَّا نخيركم من ثلاث خصال أيها شئتم فخذوا لأنفسكم،

1- ينظر مهدي طالب هاشم، **مرجع سابق**، ص116

2- البلاذري: **مرجع سابق**.

3- طالب مهدي: **مرجع سابق**، ص118.

4- ينظر الرقيشي: **مصباح الظلام**، (مخ) ورقة 34ظ

رحم الله أمرؤاً اتخذ الخيار لنفسه».

الاعتبار الأول: أن يوافق في الخط السياسي الذي عليه الإباضية، وفي هذه الحالة يكون واحداً منهم له ما لهم من حقوق وما عليهم من واجبات «على أن يجاهد معنا بنفسه، فيكون له من الأمر ما لأفضلنا، ومن قسم الفيء ما لبعضنا».

الاعتبار الثاني: أن يلزم الحياد ويكف عن الإباضية لسانه، ويلزم منزله.

الأعتبار الثالث: أن يرفض السياسة الإباضية، ويتخذ موقف العداء السافر، فعليه في هذه الحالة أن يخرج إلى أهله وماله بأمان، وليكف يده ولسانه عن الإباضية. «فإن ظفرنا لم يكن عرض نفسه، ولم يُعننا على سفك دمه، وإن قتلنا يكون قد كفي مؤنتنا عسى ألا يعمر بعدنا إلا قليلا».

إن هذا الموقف من طالب الحق يدل على سماحة إسلامية، ومسؤولية إيمانية تقف عند حدود الله لا تتعداها، وتحاسب النفس قبل أن تحاسب، لا تضع للدنيا اعتباراً، ولا تتخذ الانتصار وسيلة للقهر والانتقام.

ونحسب أنَّ طالب الحق في سيرته وعمق نظرته كان يستمد كل ذلك من الكتاب والسنة الشريفة، ومن نصائح شيوخ المذهب مثل أبي بلال، وأبي عبيدة مسلم شيخه وأستاذه وموجهه وقائده الذي كان يبعث التعليمات من البصرة، فقد روي عن أبي عبيدة أنَّه كتب إلى عبد الله بن يحي قائلاً : «إذا خرجتم فلا تغلوا ولا تغدروا، واقتدوا بأسلافكم الصالحين واستنوا بسنتهم، فقد علمتم أنما أخرجهم على السلطان العيب لأعمالهم...»[1]

1- الرقيشي: **مصباح الظلام** (مخ) ورقة (7و)، وينظر المصدر نفسه عن سياسة أبي حمزة في الحرب ورقة 60.

وقد كان طالب الحق شديداً في إقامة الحدود التي كثيراً ما تتجاوز في مثل هذه الحالات، فهدد كلَّ من تُسوله نفسه شرب الخمر، أو الزنى، أو التعدِّي على أموال الناس، وحكم الإباضية في أنَّ مرتكب الكبيرة حال ارتكابه لها كافر كفر نعمة، ومن شكَّ في أنه كافر فهو كافر.

...ونتيجة لهذه السياسة فقد أعطى البديل المناقض للأوضاع السيئة التي كانت عليها اليمن قبل الحركة الإباضية، كما يقول مهدي طالب هاشم[1].

أما الجيش الأمويَّ وهو يواجه الشراة في الحجاز واليمن فقد كان يقاتل مدفوعاً بدافعين، الدافع القبلي المتعصِّب على النحو الذي أوضحناه سابقاً، ودافع الارتزاق حين لا يجد الحكام من يقوم بمهمَّة القتال أو حين تقوى شوكة الشراة في وجوههم فيلجأون إلى دفع الجنود يستأجرونهم بالمال، كما وقع ذلك أيام ملاحقة أبي بلال من طرف ابن زياد، فقد كان جيش ابن زياد يقوم على المرتزقة، ولذلك كان الوهن والخوف والفرار يرافقهم لأنَّ مسعاهم إلى المعارك مسعى دنيوي يقوم على ما يقدِّمه الأمير للجند من مال وأعطيات، وما يمنون به أنفسهم من غنائم. ولذلك كان مما يُعيِّر به الشراة هذا الجيش أنه (ذوو الجعائل) وهي مذمة عظيمة، ومثلبة وعار في تصور العربيِّ الحر الذي يأبى أن يرفع السيف من أجل المال.

ولنتابع أبا الفرج وابن الأثير وهما يصفان هذا الجيش الأموي، حيث راح يقاتل جيش أبي حمزة المختار الشاري، وكان مروان بن محمد قد أرسل جيشاً لمقاتلتهم بقيادة عبد العزيز بن عبد الله بن عمر بن عثمان بن عفان،

1- ينظر مهدي طالب هاشم: مرجع سابق، ص118.

وقد اختاروه قصداً لعلمهم بموقف الشراة من الخليفة عثمان بن عفان في سنوات حكمه الأخيرة.

...وكان هذا الجيش يتألف من ثمانية آلاف رجل، كانوا كالدهماء، وليس عليهم سمة المقاتلين، فقد كان فيهم كثير من القرشيين في ثيابهم الفاخرة، وقد ظنوا أنَّ الأمر لن يعدو أن يكون مجرد نزهة وبخاصة فتيان الأمويين منهم، وكان منهم بالمدينة عدد كبير يُظهرون العجرفة في حديثهم عن الخوارج ويصوِّرونهم خشارة من الرعاع.

ولما بلغ عبد العزيز (العتيق) جاءته رسل أبي حمزة يقولون: «إننا والله مالنا بقتالكم حاجة، دعونا نمضي إلى عدونا.» فأبى ذلك عليهم وأصرَّ على الحرب، وسار حتى نزل قُديد... في التاسع من صفر سنة 130هـ...[1]

وكانت نتيجة المعركة انهزام الجيش الأموي على كثرة عدده انهزاماً فظيعاً، يقول عنه الدكتور النعمان القاضي: «كانت وقعة قُديد بمثابة مذبحة

1- ينظر تفاصيل هذه الموقعة في **الأغاني**، ج20، ص101 . وابن الأثير، ج5، ص141 . كذا د/النعمان القاضي: **مرجع سابق**، ص202. وقد تركت قديد في الشعر آثاراً كثيرة وحزنا شديداً في نفوس أهل المدينة، وكانت النائحات ينحن في المدينة بمثل هذا الشعر.

ما للزمان وماليه أفنت قديد رجالية

فلأبكين سريرة ولأبكين علانية

ولأبكين إذا خا ـوت مع الكلاب العاوية

ولأبكين على قديد بسوء ما أبلانية **الأغاني**، ج20، ص102.

وللشاعر الإباضي عمرو بن الحصين قصيدة رائعة في وصف قديد. **الأغاني** ج20، ص100.

للغطرسة القرشية والأموية بالذات..»[1]

...ولم يرض أبو حمزة عملاً بمبادئ الشراة في الحرب أن يطارد الفارين، ولكنّه لم يرحم القرشيين الذين أصروا على مقاتلته إذ عدهم ممثلي الحكومة الظالمة، حتى امتلأ الميدان بجثتهم.

ودخل المدينة في 13صفر130 هـ، دون قتال بعد أن فرت البقية من المقاتلين إليها، وظل بالمدينة ثلاثة أشهر يحسن السيرة في أهلها خلالها، وفيها ألقى خطبته الشهيرة من فوق منبر الرسول ﷺ.

وكان كلام أبي حمزة يستهوي السامعين إلى حين، لأنَّ مجتمع المدينة كان مجتمعاً لاهياً أفسدته الحضارة وداخله الانحلال، فلم يكن يرى في مبادئ أبي حمزة إلاّ تشدداً في القيم الأخلاقية والدينية، مثل موقفه من الزنى وشرب الخمر، وأظهر الإعجاب بعمر بن الخطاب لإقامته حدَّها دون اعتبار لشخص الشارب، وعلى الرغم من إحساس أهل المدينة بعدالة هذا الحكم وصلاحه فإنَّهم لم يتجاوبوا معه للسبب المذكور.

ولكن أبا حمزة استطاع أن يكسب بعض الأنصار المؤمنين من أمثال عبد العزيز بن بشَكَسْت القارئ، وأبي بكر بن محمد عبد الله بن عمر بن الخطاب.

وفي مستهل جمادى الأول سنة130 هـ. زحف جيش شامي مكون من أربعة آلاف من القيسيين بقيادة عبد الملك بن محمد بن عطية من سعد هوازن في طريقه إلى المدينة، وكما حدث في عهد يزيد الأوَّل دفع لهم أجرٌ مناسب بمثابة كفارة عما ينتظرهم من انتهاك الحرمات المقدسة، إذ أعطى

1- ينظر د/النعمان القاضي: مرجع سابق، ص 202

كل واحد منهم مائة دينار ذهبي وفرساً وبغلاً.

وكان الشراة قد شعروا بهذا الجيش فخرجوا ينتظرونه بوادي القرى، وهناك التقوا في معركة فاصلة قتل فيها كثير من الشراة من أصحاب أبي حمزة، ونجا هو وثلاثة من خاصته،هربوا إلى مكة.

وبلغ ابن عطية المدينة فوجدها خالية من الشراة بعد أن غدر بهم أهل المدينة، وقضوا على البقية الباقية التي قادها المفضل، وقتلوا بشكست، وغيره بعد أن علموا نتيجة المعركة. [1]

وإذا كان موقف أبي حمزة من أهل قديد عدم ملاحقة الفارين منهم، ومعاملة أهل المدينة ومكة بالحسنى، فإنه عندما لجأ إلى مكة لم يحتط من غدر أهلها، فكانت مقاومته عبثاً، فانتصر عليه ابن عطية وقتل الأسرى، وصلب زعماء الإباضية ومنهم أبو حمزة، وأرسل برؤوسهم إلى مروان بن محمد بدمشق.[2].

وتاريخ الإباضية في حروبهم مع المخالفين جرى على نسق واحد يستمد أسسه وقواعده من الشريعة الإسلامية، فلا غلوَّ ولا تطرُّف، ولا استحلال لعرض ولا غنيمة لمال [3]. كان ذلك دأبهم في المشرق في حروبهم الطويلة مع الأمويين على النحو الذي ذكرناه، وكان ذلك دأبهم أيضاً في المغرب الإسلامي حين قادوا الجيوش لمواجهة الجيوش الأموية

1- ينظر، د/النعمان القاضي **مرجع سابق**، ص204، نقلاً عن **الأغاني** ج20، ص109-112.

2- توجد مادة هذه المعارك في **الأغاني** ج20، ص109-112. **تاريخ... الطبري**، ج9، ص115. **الكامل** لابن الأثير ج5، ص158، **البداية والنهاية** لابن الأثير ج10، ص36.

3- معمر: **الإباضية** ج2، ص287..

والعباسية الزاحفة من المشرق للقضاء على حركاتهم.

ولعلَّ أروع الأمثلة عن الشهامة الإسلامية، والرجولة الكاملة تمثل في مواقف القائد أبي الخطاب عبد الأعلى بن السمح، وما عرف به من تطبيق سياسة صارمة مع جنوده، لا يقبل التعدي ولا الظلم ولا التهاون في استحلال أقل قليل مما حرمة الله سبحانه وتعالى.

من ذلك موقفه الصارم من جميل السدراتي الذي سلب أحد الجنود المقتولين فعاقبه القائد أبو الخطاب عقاباً صارماً أدى به إلى الانفصال عن جيش أبي الخطاب والفرار إلى المشرق، وتأليب جعفر المنصور عليه انتقاماً لنفسه.

وبما أننا لسنا هنا بصدد كتابة تاريخية تعتمد الوقائع المفصلة بقدر ما تعتمد على استخلاص النتائج واستلهام العبر من هذه المواقف، فإننا نحيل القارئ الكريم إلى الكتب المتخصصة، ولكن لا بأس أن نشير إلى بعض الأسماء اللامعة التي عرفت بمواقفها الشهمة في الحرب مع الموحدين ومن هؤلاء: الحارث بن تليد، وأبي حاتم الملزوزي، وابن منصور إلياس، وأبي عبيدة عبد الحميد الجناوني، وأبي الحسن أيوب بن العباس، وأبي زكرياء التندميرتي، وأبي زكرياء الباروني، وأبي يحي الأرجاني... وعشرات غيرهم.

فسوف نجد أن هؤلاء جميعاً يحرصون كل الحرص عندما ينتصرون على محاربيهم من الموحدين أن لا يتعدوا فيهم حكم الله، فلا يقطعون رأساً، ولا يمثلون بقتيل، ولا يجهزون على جريح، ولايتبعون مدبراً، ولا يغنمون مالاً، ولا يهتكون ستراً. وقد شهد التاريخ أنَّ أبا الخطاب عاقب الجندي الذي مدَّ يده ليسلب قتيلاً، وأنَّ أبا حاتم هدد بترك القيادة إن لم

يرد ما أخذ من المعركة، وأنَّ أبا منصور ترك أحمال الذهب تتناثر في ميدان المعركة دون أن يلتفت إليها، وأنَّ أبا زكرياء جمع ما تركه العدو الهارب من مال وسلاح فأوقد فيه النار...[1]

وترسم المصادر الإباضية صورة مثالية للمعاملة الحسنة التي لقيها أهل القيروان من أبي الخطاب، الذي أمر أصحابه بأن لا يتبعوا مدبراً، ولا يجهزوا على جريح، وقد قرع أحد أصحابه عندما أشار عليه بأخذ أموال المهزومين جرياً على المعاملة بالمثل، ولكن أبا الخطاب ذكّره أنَّ مبادئهم لا تجيز ذلك وأن دماء مخالفيهم وأموالهم حرام عليهم، وخاطبه قائلاً: «إن فعلنا ما فعلوا حقيق على الله أن يرفضنا، ويدخلنا معهم جهنم، فنكون كما قال الله تعالى: ﴿**كلما دخلت أمة لعنت أختها حتى إذا ادَّارَكُوا فيها جميعاً قالت أخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً ضعفاً من النار قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون**﴾ (سورة الأعراف: 38).»

يقول عوض خليفات تعليقاً على هذا المواقف، بعد أن وصفه بالمثالية:

«والواقع إنَّ الإباضية كانوا يعاملون أعداءهم المهزومين بإحسان وعدل، ولا تذكر المصادر غير الإباضية شيئاً معاكساً لذلك، وإن كانت لا تسرف في المديح، ولا تطنب في الحديث عن مثالية الإمام الإباضي كما تفعل المصادر الإباضية».[2]

وعندما تولى أبو حاتم الملزوزي الخلافة بعد استشهاد أبي الخطاب سنة 144هـ، وكان مما قام به في عهد ولايته وكان إمام دفاع مواجهة جيش أبي

1- المصدر السابق.

2- د/عوض خليفات: نشأة الحركة...ص، 151..

جعفر المنصور، والتغلب عليه، وملاحقته حتى طرابلس، وقد قام بعض العوام من جيشه مِمَّن لم تتمكن العقيدة في قلوبهم ـ مدفوعين فيما يبدو بمعاملة أعدائهم بالمثل ـ بسلب القتلى، فغضب أبو حاتم غضباً شديداً، وهددهم باعتزال الإمامة إن لم يردوا الأسلاب إلى أصحابها.

يقول خليفات تعليقاً على هذا الحدث:

«وأغلب الظن أنَّ ما ذهبت إليه هذه المصادر صحيح لأنَّ ما حدث كان بالفعل مخالفاً لسيرة الأيمة الإباضية في كل معاركهم التي خاضوها سواء في المشرق أو المغرب، والدليل على ذلك أن أبا حاتم نفسه قد استنكر بشدة ما فعله عوام البربر من جيشه»[1].

وقد تجسَّد التسامح الإسلامي في تاهرت عاصمة الدولة الرستمية، حيث غدت بشهادة ابن الصغير مركزاً للتسامح الديني، والازدهار الحضاري، تحوي من كل الأجناس، والمذاهب، والأديان. وهو ما عناه (الفرد بل) بقوله:

«كانت تاهرت مركزاً مهما للدراسات الإسلامية... وبفضل تسامح الأيمة، استطاع علماء السنة القدوم لجدال علماء الإباضية في كل مسائل العقيدة والشريعة.»[2]

وإلى خاصية التسامح والاعتدال يرجع الدكتور فاروق عمر بقاء الإباضية واستمرار حضارتهم وعطائهم المعرفي، حيث يقول عن الإباضية

1- خليفات: **نشأة الحركة**، ص، 159..

2- الفردبل: **الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي**، ص139.

في عمان: «وهنا لا بدَّ من القول بأنَّ المذهب الإباضي أظهر مرونة واعتدالاً، ونظرة توفيقية بحيث يتلاءم مع الظروف السياسية والاجتماعية في عمان، وفي ذلك يكمن سرُّ نجاح الإباضية واستمرارها لأكثر من اثني عشر قرناً من الزمان...»[1]

2- الإباضية العمانيون، ونشر الإسلام.

تمهيد:

إنَّ مساهمة العمانيين في نشر الإسلام يعود إلى ما قبل ظهور المذهب الإباضي، أي قبل أن يفترق المسلمون إلى طوائف بعد الفتنة، وإذا قلنا الإباضية فإنَّنا نعني العمانيين الذين ارتبط انتشار المذهب الإباضي بهم، حتّى قيل إنَّ الإباضية قضية أزدية. وقد عرف الأزد منذ القديم بمقدرتهم الحربية براً وبحراً، وعندما جاء الإسلام كانوا من جند الفتوحات في الصفوف الأولى، إذ تذكر الروايات التاريخية أنَّ الملك عبد بن الجلندى العماني حين كان بالمدينة طلب من أبي بكر الصديق أن يقوم بحرب الغساسنة وآل جغنة على حدود الشام، واستجاب له أبو بكر، وأمَّره على سرية كان فيها حسان بن ثابت الأنصاري، وقد قال عنه حسان «لم أر رجلاً أحزم، ولا أحسن رأياً وتدبيراً من عبد، وهو والله مِمَّن وهب نفسه في يوم غارت صِباحه وأظلم صَباحه...فسر ذلك أبابكر فقال: هو يا أبا الوليد كما ذكرت، والقول يقصر عن وصفه، والوصف يقصر عن فضله.»[2]

1- د/فاروق عمر: **التاريخ الإسلامي**، ص64.

2- الشيخ السالمي: **تحفة الأعيان**، ج1، ص50.

فبلغ ذلك (عبد) فبعث بمال عظيم وأرسل إليه: «إن مالي يعجز عن مكافأتك فاعذر فيما قصر، واقبل ماتيسر» ثم إن أبا بكر كتب كتاباً إلى أهل عمان يشكرهم ويثني عليهم، ومن ثم لم يكن عجباً أن يكون العمانيون الذين دخلوا الإسلام دون حرب، على هذا النحو من الحماسة للإسلام، والتضحية في سبيله بأموالهم وأنفسهم ابتغاء رضوان الله. فكانوا في الصفوف الأولى في الفتوحات الإسلامية، فكان دورهم في فتح العراق وفارس، وخاصة من ناحية البحر عظيماً.

ومن الروايات التاريخية نعرف أنَّ الخليفة عمر بن الخطاب طلب من والي عمان عثمان بن أبي العاص الثقفي بعد وقعة (جلولاء) 16هـ أن يقطع البحر لمحاربة كسرى فارس، فخرج معه ثلاثة آلاف محارب أو ألفان وستمائة من الأزد، وراسب، وناجية، وعبد القيس، وأكثرهم من الأزد، فعبر بهم عثمان بن أبي العاص من جلفار (رأس الخيمة) إلى جزيرة كاون (البحرين) وفيها قائد العجم، فسالم القائد الفارسي عثمان بن أبي العاص ولم يقاتله.

ولكن الدور البارز الذي قام به العمانيون كان في عهد الإمام عمر بن الخطاب، ومن جاء بعده في فتوح الشام وفارس والمغرب، ومصر وغيرها، ومن تم فإننا نجد لهم آثاراً باقية في كل هذه البلاد، وكان منهم قواداً عظاماً وعلماء كبار، رفعوا راية الإسلام خفاقة في كل مصر، وقطر. [1]

وبما أن متابعة هذا الانتشار ليس هو موضوع بحثنا، فإننا سنقتصر على ما كان للعمانيين الإباضية فيه دور خاص أو مباشر، مثل فتوحاتهم في

1- يراجع، السالمي: مرجع سابق، ج1، ص52.

شرق إفريقيا، والصين، والهند، وأندنوسيا، وجزر الملايو، وسيلان، وجزر المالديف والكاديف.

نشر الإسلام بشرق إفريقيا:

لانستطيع أن نحدد تاريخاً معيناً لبداية الاتصالات العمانية الإفريقية، فمنذ أقدم العصور جاء العمانيون إلى الساحل الشرقي لإفريقيا المواجه لشبه الجزيرة العربية، وكان لهم تبادل تجاري مع السكان الأفارقة.[1] ولكن الذي لا شكَّ فيه هو أن هذه العلاقات بدأت قبل ظهور الإسلام، فقد اشتهر العمانيون بركوب البحر، وعرفوا الانتقال من البحر الأحمر الشرقي إلى الساحل الغربي منه، وتسجل كل المصادر التاريخية نبوغهم في هذا المجال، وارتباط حضارتهم الاقتصادية والسياسية والثقافية به.

وقد كان الوجود العماني في شرق إفريقيا بكل المقاييس، أكبر كثافة، وأكثر عمقاً منها في آسيا، أو بالتحديد جنوب شرقي آسيا، ولذلك كان تأثيرهم في هذه المنطقة أشد وأقوى[2]. فقد اعتمد - بجانب الروابط الملاحية والتجارية - على الهجرة العمانية الدائمة فردية وجماعية، حيث تعوَّد الشعب العماني على رحلات منظَّمة إلى شرق إفريقيا.

...ولا شكَّ أن احتكاك الأفارقة بالعرب المسلمين أدَّى إلى نتائج عميقة لم تقتصر على التجارة أو المعاملات المادية، بل لقد كان لأسلوب التعامل، وما حمله العرب المسلمون معهم من مبادئ يدعو إليها الإسلام،

1- يراجع حصاد ندوة العلاقات العمانية المصرية، وزارة التراث القومي والثقافة، ع (2) يناير 1994 .

2- د/نايف السهيل، مرجع سابق، ص185.

أعمق الأثر في الأفارقة.

والحق إنَّ المصادر كلها تشير إلى دور التجار في هذا الصدد، لأنَّ العلاقات الاقتصادية كانت من الدوافع التي ساعدت على أن يتجه العمانيون إلى هذه المناطق النائية، ويستقروا فيها، ويكوِّنوا بها إمارات عربية نمت وازدهرت بالتدريج، وشهد بعظمتها وازدهارها وتحضرها كل من زار المنطقة من العرب والأجانب على السواء، وكانت هذه المهاجر العمانية على الساحل الإفريقي الشرقي مصدر إشعاع حضاري أثر في المناطق الإفريقية المجاورة. (1)

ونستطيع القول بوضوح إنَّ كافة المصادر التاريخية تؤكد على الصلة بين عمان في كل العصور وبين الشرق والجنوب الإفريقي، حتى إنَّهم وصلوا إلى تنزانيا، ومدغشقر، وجنوب الصومال، وجزر القمر، ومنطقة نورديفان، وكلوة، ومِمبا، وزنجبار كما توضِّح ذلك مصادر كثيرة.

أمَّا في شرق إفريقيا نفسها فقد توغلوا في الأحراش والغابات غير هيابين ولا وجلين، وكأنَّ ركوب المخاطر في البحر ساعدهم على ركوبها في البر أيضاً. وهكذا وصل الإباضية العمانيون إلى جنوب وحول البحيرات الاستوائية، وإلى بحيرة نيانسا، ومنابع نهر الزمبيزى، وموزمبيق، وبحيرة تنجينقا، وفيكتوريا، والبرت، وكيوجا المعروفة الآن باسم بورندي، ورواندا، وغربي كينيا، وغربي وجنوب أوغندا، ومملكة كارنجا، (زيمبابوي). وقد استطاعوا بمهارتهم وقوة عزيمتهم أن يصلوا عن طريق ممتد بين الساحل والداخل، وتدفقوا عبر هذا الطريق مستخدمين الإبل في

1- **حصاد ندوة العلاقات**، يناير 1994م.

رحلات تستغرق شهوراً.

وكانت هذه الطرق بالتحديد هي السبيل الوحيد إلى وصول الإسلام إلى هذه المناطق الداخلية النائية في إفريقيا.[1]

ومع مرور الأيام تحولت هذه العلاقات التي بدأت بالتجارة إلى علاقات حضارية عميقة في كل مجالات الحياة، فتزاوج رجال عمان بنساء من إفريقيا، فجاء الجيل الجديد تعبيراً عن هذا المزج الحضاري الذي ترجم نفسه سريعاً في تزاوج آخر بين اللغة العربية التي حملها الإباضية إلى إفريقيا وأخلصوا في نشر تعاليم الإسلام بها، وبين لغة الأفارقة أنفسهم، فنشأت في زنجبار وما حولها اللغة السواحيلية التي جاءت وليدة التزواج العربي الإفريقي، والتي يتكلم بها أهل الشرق والجنوب الإفريقي حتى اليوم.[2]

وقد برزت بعض المدن الساحلية زاهية بحضارتها العربية الإسلامية الجديدة، مثل لامو الواقعة شمال ممباسا، ويرجع تأسيسها إلى مستهل القرن الثامن الهجري، وقامت بها حكومة ديموقراطية معتنقة المذهب الإباضي، كما برزت في هذا المجال شخصيات عمانية اشتهرت بالجرأة في اقتحام المخاطر، ولا يكاد يصل القرن العاشر الهجري حتى استطاع الأيمة الإباضية العمانيون أن يمدوا سلطانهم على الشمال الشرقي من أرض الصومال حتى نهر رفوما، وأن يقيموا فيها إمارات تابعة لهم، وضعوا على رأسها رؤساء من العائلات العربية في ممباسا وزنجبار، وغيرهما من المناطق الهامة.[3]

1- د/السهيل، مرجع سابق ص، 190.

2- المصدر السابق.

3- د/حسني أحمد محمود، **الإسلام والثقافة العربية في إفريقيا**، دار الفكر العربي القاهرة 1987م. ص، 140و141و439

واستمرت قروناً إلى أن جاء السقوط الأخير على يد الأفارقة الشيوعيين في أوائل الستينيات.

ولم يبق من تلك الآثار إلا ما كتبه العلماء الإباضية أو غيرهم عن تلك العهود الزاهرة. وقد يتساءل المرء عن انحسار المذهب الإباضي في هذه المناطق، وأحسب أنَّ هذا يعود أساساً إلى أنَّ الإباضية كانوا متسامحين مع أهالي تلك المناطق، فقد كانوا يهدفون إلى نشر الإسلام متجاوزين العصبيات المذهبية حيث حرصوا أشدَّ الحرص على نشر الإسلام أولاً ولم يفكروا في أي شيء آخر بعد ذلك.

وهكذا نستطيع القول: إنَّ الإباضية في القرنين الثالث والرابع الهجريين قد أثروا في سكان تلك المناطق تأثيراً بعيداً، وهم الذين يرد ذكرهم في المصادر أحياناً: البربر، أو السودان، أو الزنج، أو البانتو، وكان الفضل لأولئك الرواد في تحويل تلك القارة من الوثنية إلى الديانة الإسلاميَّة، كما شهدت له بذلك الوثائق والدراسات.

نشر الإسلام في الهند.

كانت هناك عدة عوامل ساعدت كلها على الاتصال المباشر بين عمان والهند منها:

أولاً: الجوار، فبحكم وجود عمان قبالة الهند بحيث لا يفصل بينهما سوى المحيط الهندي، تعتبر عمان بالنسبة للهند بوابة إلى الخليج، والجزيرة العربية بأجمعها، وقد وطد هذا الجوار العلاقات بين القطرين منذ زمن بعيد.

ثانياً: الحركة التجارية: كانت الحركة التجارية نشيطة دائبة بين عمان والهند، وكانت السفن تمخر عباب المحيط الهندي جيئة وذهاباً ما بين

القطرين، فقد كانت الهند في حاجة ماسة إلى توطيد علاقتها ببلاد العرب عامَّة، وبعمان خاصَّة، إذ أنَّ الهند كانت في حاجة شديدة إلى (اللبان) الذي يستخدم في صناعة البخور، والذي تشتهر به منطقة ظفار عالمياً، كما أن حاجتها إلى العاج الإفريقي ظلت شديدة أيضاً، وكان يصل إليها عن طريق عمان ينقله العمانيون من شرق إفريقيا، وكانت الهند في حاجة أيضاً إلى الخيول العربية التي كانت تأتيها من عمان بعامة، ومن منطقة ظفار بخاصة.

وكانت الهند من جهتها تبيع لعمان الأقمشة، والأقطان، والتوابل، والعطور، وخشب النارجيل اللازم لصناعة الهند، وغير ذلك من المواد الزراعية والصناعية.

ثالثاً: المنافسة البحرية: كان لا بدَّ أن تكون هناك منافسة شديدة في السيطرة على الطريق البحري التجاري بين الهند وعمان، ويبدو أنَّ المراكب العمانية كانت تتعرض من حين إلى آخر لهجمات القراصنة الهنود.[1] مما دفع بالأيمة العمانيين لحماية نشاطهم التجاري بإحداث أسطول حربي قوي يقف في وجه هجمات أولئك القراصنة، وقد أنشأ الإمام غسان بن عبد الله اليحمدي (192هـ) أسطولاً بحرياً مسلحاً لحماية الشواطئ العمانية، ولتأمين الطريق البحري من القراصنة، وقد قوي هذا الأسطول في عهد الإمام مهنا بن جيفر اليحمدي ما بين (226-237) إذ استطاع أن يكون أسطولاً ضخماً على درجة رفيعة من العدة والعتاد، قيل أنه يتكون من ثلاثمائة بارجة حربية مسلحة[2].

1- د/نايف السهيل، **مرجع سابق**، ص169 . نقلاً عن مايلز، س،ب الخليج، مسقط، ص82

2- **المصدر السابق.**

هذه العوامل جميعها عززت العلاقات بين البلدين، ودفعت العمانيين إلى الهجرة والاستقرار بالساحل الغربي لبلاد الهند، فعمروا بعض البلاد وبنوا بها منازل لهم مثل ميناء تامه، وقندرينا، وكبايه، وجرفتن، وكلها موجود بالساحل الغربي المعروف عند القدامى بساحل ملبار[1].

ومن هنا كان استقرار كثير من التجار العمانيين في هذه الأرض مدعاة إلى الدعاية إلى الإسلام بين أهلها، إضافة إلى أولئك الدعاة الذين كانوا يتوافدون من حين إلى آخر لغرض التجارة، أو لغرض الدعوة نفسها، وكان بعضهم يستقر فيها نهائياً حيث يتزوجون من أهالي الهند، ويتخذون لغتهم وكثيراً من عاداتهم وتقاليدهم التي لاتتنافى مع الإسلام، وبذلك كانوا مؤهلين تماماً كدعاة إباضية لنشر الإسلام في هذه البلاد وخصوصاً بين الهنديات اللاتي تزوجن من هؤلاء الوافدين، وأيضاً بين الهنود الذين ارتبطوا معهم بعلاقات تجارية.[2]

ومما لا شكَّ فيه أنَّ الذي ساعد على الحركة الإسلامية الواسعة في هذه البلاد داخلاً وساحلاً هو ما رآه أهل تلك البلاد من أخلاق المسلمين العالية، ومعاملتهم الحسنة عندما بلوهم بالمصاهرة، والمتاجرة والمعاشرة، مقارنين بين حالتهم الاجتماعية السيئة التي كانوا عليها في ظل حكم نظام طبقي يسيطر فيه رجال الدّين على الناس بالاستغلال والاحتقار والقهر...فرحبوا بالدّين الإسلامي الذي لا يعترف بالطبقية في كل شيء. والإباضية هم أصفى المسلمين تمثيلاً لهذا الفكر الذي لا يؤمن إلا بالتقوى ميزاناً، ومقياساً...ومن ثَمَّ انتشر الإسلام في كل مكان وصله تاجر، أو

1- المصدر السابق.

2- المصدر السابق.

داعية، أو فقيه مسلم، وخاصة في سواحل الهند وهضبة الدّكن وغيرهما من أنحاء الهند، وأقاليمها العديدة مثل البنغال، وغيرها... [1]

وقد حظي الذين دخلوا في الإسلام من أهالي هذه البلاد بالاحترام والتقدير اللذين حظي التجار الغرباء بهما أيضاً، الأمر الذي دفع بالحركة الإسلامية دفعات كبيرة بين الهنود ملوكاً ورعية.

ويحرص المسلمون من الهنود على تأكيد الروابط التي تجمعهم بالتجار العمانيين الذين كانوا سبب إسلامهم، فيقولون إنهم ينحدرون من أنجال هؤلاء التجار المسلمين الذين أقاموا في بلادهم منذ أزمنة بعيدة، وهم يمدحون ذلك حتى الوقت الحاضر.

...وهكذا نرى نتجية لجهود إباضية عمان، وغير العمانيين انتشر الإسلام في الهند، والتزام الهنود بتعاليم الإسلام وتقاليده، وحافظوا على دينهم رغم ما يتعرضون له من هجوم شبه مستمر من ملوك الهند ومهراجاتهم. [2]

نشر الإسلام في الصين

عرف إباضية عمان بلاد الصين منذ القرن الثاني الهجري، وذلك عن طريق التجار العمانيين الذين أبحروا في اتجاه الصين، فبلغوا منها أقصاها كما تدل على ذلك الوثائق التاريخية. ويرتبط نشر الإسلام في هذه البلاد بداعية إباضي مشهور هو أبو عبيدة عبد الله بن القاسم العماني الملقب بأبي عبيدة

1- يراجع أرنولد ويلسون: تاريخ الخليج، تر: محمد أمين عبد الله مسقط، ط، 1985، ص: 314-323-403

2- د/نايف السهيل، مرجع سابق، (بتصرف). ص 172

الصغير تشريفاً وتكريماً، وقد وصل إلى ميناء كانتون حوالي 133هـ، وتعتبر رحلته من أقدم رحلات العرب إلى بلاد الصين إن لم تكن أولها.

ورد في كتاب بعنوان «موجز تسجيل الأمور الهامة المختلفة في عهد أسرة سون»[1]. وبصورة صريحة إن المبعوث لدولة ووشيون (صحار) التابعة لتاشي (العرب)، قد جاء لتقديم الهدايا إلى الإمبراطور الصيني، وذلك يدل بصورة قوية على أنَّه عماني بلا شكٍّ.

إنَّ هذا المبعوث الذي يشير إليه الباحث الصيني لم يكن سوى الداعية الإباضي المعروف عبد الله بن القاسم، وقد كان يدعى عندهم الشيخ عبد الله وكان رئيساً لمنطقة سكنى العرب والأجانب الآخرين في مدينة (قوانتشو)، وقد لقبه الإمبراطور الصيني (سون سين زون) بصورة خاصة جنرال الأخلاقية الطيبة.

وهذا اللقب له أكثر من دلالة دعوية فإنَّ الشيخ عبد الله لم يصل إلى هذه المرتبة العالية بحيث تصبح أخلاقه الطيبة دلالة عليه وعلى شيء يمتاز به، إلا لما كان يتحلى به من صفات عالية وسلوك متميز، هي الصفات الإسلامية الرائعة، والسلوك المحمَّدي المتميز، ومن المهم في الأمر أن هذا التلقيب قد تم تدوينه على يد سوشي الأديب الصيني السياسي المشهور ذائع الصيت ولايزال المرسوم الأصلي الذي أصدره الإمبراطور الصيني (سون سين زون) محفوظاً ضمن مجموعة الشؤون الخارجية لدون باي (الاسم الثاني لسوشي)، وقد عرفنا من الكتاب السجل المختصر....الذي كتبه سوزاي (أديب مشهور آخر) من عهد أسرة سون، وهو الأخ الأصغر

1- تشان زون يان (أستاذ التاريخ بجامعة بكين): **الاتصالات الودية بين الصين وعمان عبر التاريخ** (تراثنا) ع، 21، ط، 2(د.ت)، ص8.

للأديب سوشي، بأنَّ الشيخ عبد الله قضى في مدينة (قوانتشو) عشرات السنين كانت له ممتلكات وافرة حتى لقد بلغ قيمتها عدة ملايين (مين)، ومن أجل أن يفهم الناس نقوم بمقارنة في الفترة التي بلغت فيها التجارة الخارجية لحكومة أسرة (سون) قمة إزدهارها، فإنَّ الدخل السنوي للحكومة كان لايتجاوز مليونين (مين)، وهذا يعني أنَّ ممتلكات الشيخ عبد الله الشخصية قد تجاوزت دخل التجارة الخارجية السنوي لحكومة أسرة (سون).

والذي يهمنا هنا هو أنَّ هذا النجاح المادي وراءه نجاح آخر معنوي أخلاقي ديني من علاماته الأمانة والصدق، والسلوك الحسن، وإلاَّ كيف يحصل هذا التاجر العربي على تلك الرتبة العسكرية العظيمة (جنرال) لولا أخلاقه الإسلامية المتميزة تلك، التي جعلت الإمبراطور الصيني يقدم للشيخ عبد الله عند عودته إلى وطنه الهدايا القيمة بصورة خاصة، وهو في الحقيقة اعتبار رفيع خاص للشيخ عبد الله، ومن خلال ذلك بإمكاننا ـ يقول الباحث الصيني ـ أن ندرك بأنَّ الشيخ عبد الله قد ساهم بشكل بيّن وبارز في مجال تطوير الاتصالات الودية المتبادلة بين الصين وعمان.

وهذه شهادة باحث أكاديمي معاصر استند إلى الوثائق التاريخية التي ما تزال موجودة في الصين إلى الآن. وقد أكدت السجلات العمانية هذه الحقائق التاريخية، حيث نقرأ أن رجلاً عمانياً يدعى أبو عبيدة عبد الله بن القاسم قام بأوَّل رحلة بحرية إلى قوانتشو في الصين، وربما كانت هذه الرحلة إلى الصين أقدم وأبكر سجل موجود من جانب العرب[1]

هكذا استطاع الداعية أبو عبيدة من خلال تجاربه وتجارته وأخلاقه

1- المصدر السابق، ص80.

1 - الاعتدال والتسامح:

دأب المؤرخون القدامى والمحدثون على النظر إلى (الخوارج) من زاوية أحادية تفترض الحق في جانب دون آخر، وتفترض الباطل في جانب دون أخر، ومن هنا كان الحيف وكان الإجحاف، وقد بلغ هذا التحيز أحياناً حد التزوير والتشهير، ولنأخذ كمثال على ذلك ما تصوره بهم المصادر القديمة على أنهم معتدون، متطرفون، يحملون السيف لسفك الدماء، أجلاف بداة، لا يرضخون لحاكم، ولا ينقادون لقائد، مع أن هذه المصادر نفسها تعترف بجبروت الأمويين وطغيانهم، فلم لا تكون هذه الشهادة كافية - كما هو المفروض - للبحث في الموضوع من الزاوية المقابلة.

حقًا كان في الخوارج بعض الفرق التي تطرفت في استعراض الناس نظراً لأسباب تاريخية ليس هنا محل ذكرها، ولكن لا يعني ذلك إطلاقاً أن (الخوارج) كانوا كلهم كذلك، بل إنَّ افتراقهم إلى طوائف كان سببه في غالب الأحيان اختلاف أساسي في منهج الدعوة إلى الله، كما حدث ذلك حين دعاهم الأزارقة إلى الخروج سنة 64 هـ.

وقد تبين للدارسين المنصفين[1] أن من أسباب بقاء الإباضية إلى يوم الناس هذا - فيم انقرضت الفرق الأخرى - اعتدالهم، وتسامحهم، ومرونتهم الفكرية والدعوية مع الخصم والمخالف. وكل مواقفهم التاريخية ورؤاهم الفكرية، وأصولهم العقدية تشهد لهم بذلك. وقد جاء هذا الاتجاه مؤكداً في سيرة أحد أيمتهم الأوائل.

1- يراجع، د/عبد الحليم رجب: **الإباضية** ، ص8. أيضاً د/فاروق عمر: **التاريخ الإسلامي**، ص، 64.

يقول الإمام سالم بن ذكوان وهو معاصر للإمام جابر: «...ثم تتابعت على ذلك خوارج المسلمين يحكّمون الله وحده، ويرضون سبيل من مضى قبلهم من المسلمين، لا يقتلون ذرية قومهم، ولا يستحلون فروج نسائهم، ولا يتعرضونهم، ولا يخمسون أموالهم، ولا يقطعون الميرات منهم، ويؤدون الأمانة إليهم وإلى غيرهم، ويوفون بعهودهم ومن غيرهم، ويأمن عندهم الكاف والمعتزل من قومهم، من غير أن يكونوا يشكون في ضلالتهم، ولا اتخاذهم بين الحق والباطل منزلة، وليس بعد الحق إلا الضلال، ويصلون الرحم، ويعرفون حق الجار والصاحب واليتيم وابن السبيل وما ملكت أيمانهم...»[1]

وقد أثر عن أحد أبطالهم المشهورين وهو أبو حمزة المختار بن عوف السالمي، قولته المشهورة: « الناس منا ونحن منهم إلا مشركاً عابد وثن، أو كافراً من أهل الكتاب، أو إماماً فاجراً.»[2]

انطلاقا من هذا المبدأ الإسلامي العظيم مبدإ التسامح، وعدم التعصب، ومحبة المسلمين باعتبارهم إخواناً في الدين، كان للإباضية سياسة حربية واضحة، لا تزال صفحات ناصحة تبهر العدو والصديق، لما تحمله من قيم إسلامية عالية، ومثل إنسانية راقية، مستقاة كلها من كتاب الله وسنة رسوله الكريم.

إنَّ الإباضية لم يستخدموا وسائل العنف كما استخدمها خصومهم ضدَّهم، وإنما عرف عنهم المسالمة، والمهادنة، والمجادلة بالتي هي أحسن، حتى في أشد المواقع تعرضاً للخطر والموت. وهم من أجل هذه الخصيصة

1- سير الإباضية (مخ) مكتبة السيد محمد بن أحمد، السيب (سلطنة عمان). ورقة 95.

2- الأغاني ج23، ص، 249.

أطلق عليهم الأزارقة (القعدة) تعبيراً لهم لقعودهم عن الخروج.

وما من شك في أن التجربة والاحتكاك بالواقع السياسي علّم الإباضية هذه المنهجية في الدعوة إلى الله، فبرزت سمة واضحة في سلوكهم، ومواقفهم، ورؤاهم طوال تاريخهم، ابتداء من تزعم أبي بلال مرداس لجماعتهم بالبصرة مابين سنتي (55-61هـ).

وقد تجسدت هذه الروح في مشاهد مؤثرة ترويها الكتب التراثية عن معركة (آسك) التي دافع فيها أبو بلال وأصحابه الأربعون جيش ابن زياد العرمرم، وكان النصر إلى جانبهم رغم عدم التكافؤ بين الجيشين عدداً وعدة، وأحسب أن ماتركه أبو بلال من العبر والمواقف ظلت خالدة في أذهان الشراة، حيث يبين لهم بطريقة عملية كيف يكون التعامل الإسلامي مع الأعداء في كل الحالات انتصاراً وانهزاماً.

يقول الإمام أبو قحطان الهجاري في سيرته:

«فلما كثر القتل في المسلمين والأذى خرج المرداس بن حدير وأصحابه (رحمهم الله) بائعين أنفسهم لله، غضباً واحتساباً لرجاء الثواب يوم القيامة، ولم يكن خروجهم لفريضة لزمتهم، لأنَّهم كانوا قليلاً في خلق كثير، وإنَّما فرض الجهاد على المسلمين إذا كانوا نصف عدد عدوهم وحينئذ لا يسعهم المقام ويجب عليهم الخروج في سبيل الله، ولكن المرداس (رحمه الله) طلب الشهادة هو وأصحابه، وإنما كان قتالهم وسيلة توسلوا بها إلى الله...»[1]

1- أبو قحطان من علماء وأئمة عمان في القرن الثاني الهجري وله سيرة معروفة، ينظر السير والجوابات، ج1.

وعندما عزم هو وأصحابه على الخروج من البصرة فراراً من جور ابن زياد وظلمه، تشاوروا في تأمير إمام لهم يسيرون في إمرته فاختاروا أبا بلال، وكان عددهم أربعين رجلاً، ولقد سلك في خروجه هذا مسلكاً واضحاً يتسم بالاعتدال ونبذ العنف، فقد كان لا يدين بالاستعراض قائلاً : «لا نقاتل إلا من يقاتلنا، ولا نجبي إلا ما حمينا».

وللشراء شروط قاسية لا يستطيعها إلا النفوس القوية المؤمنة لأنَّها قائمة على الفدائية المطلقة، وعلى الأبطال الذين خلصوا أنفسهم من حظوظ الدنيا، وتعلقت قلوبهم بالآخرة، ونظروا إلى الجنة من صفحات سيوفهم، ومن ثم كان ينتقي أصحابه قائلاً لكل واحد منهم توعية له على خطورة ما هو مقبل عليه: «إنك تخرج جهاداً في سبيل الله، وابتغاء مرضاته، لا تريد شيئاً من أغراض الدنيا، ولا لك في الدنيا حاجة، ولا لك إليها رجعة، أنت الزاهد في الدنيا المبغض لها، الراغب في الآخرة المجاهد في طلبها، الخارج إلى القتل لا غيره، فاعلم أنَّك مقتول، وأنك لا رجعة لك إلى الدنيا، وأنك ماض أمامك لا شيء إلا الحق، حتى تلقى الله، فإن كنت على هذه الحالة، فارجع إلى ماوراءك، فاقض من الدنيا حاجتك ولبناتك، واقض دَينك، واستر نفسك، وجدَّ في أمرك، وودِّع أهلك، وأعلمهم أن لا رجعة لك إليهم، فإذا فرغت بايعتك.»[1]

ويعضد (المبرد) هذه الرواية حيث يؤكد على مسلك الشراء الذي سنه أبو بلال لأصحابه فصار من مسالك الدين عند الإباضية بعده، فإن أبا بلال لقي صديقا له وهو عبد الله بن رباح الأنصاري فقال له : «أين تريد؟»

1- السير والجوابات، ج1، ص236.

فقال أبو بلال : « أريد أن أهرب بديني وأديان أصحابي من أحكام هؤلاء الجورة». فقال له :« أعلِم بكم أحد ؟» قال: «لا». قال: «ارجع». قال: «أوتخاف علي مكروهاً». قال : «نعم، وأن يُؤتى بك». قال: «لا تخف، فإنّي لا أجرِّد سيفاً، ولا أخيف أحداً، ولا أقاتل إلا من قاتلني، ثم مضى».[1]

وعندما وصل (آسك) التقى برجل من أصحاب ابن زياد مع جيش يريد خراسان فصاح بهم أبو بلال: «أقاصدون لقتالنا أنتم؟»، فقالوا: «إنما نريد خراسان» فقال: «أبلِغوا من لقيتم إنا لم نخرج لنفسد في الأرض، ولا لنروّع أحداً، ولكن هرباً من الظلم، ولسنا نقاتل إلاّ من يقاتلنا، ولا نأخذ من الفيء إلاّ أعطياتنا.»[2]

هذا هو المسلك الذي سنّه أبو بلال مقتدياً برسول الله ﷺ مهتديا بكتاب الله، مخالفاً في ذلك سيرة المتطرفين من الخوارج، ليصبح بعده منهجاً مستقيماً، وطريقاً لاحباً لمن اقتنع بسيرته من الإباضية.

وهكذا أصبح الشراة حريصين على عدم استعمال السيف إلا عند الضرورة القصوى وانتهاج سياسة حربية ربطوها بالدين فسموها مسالك الدين، وهي الحالات التي يكونون عليها منتصرين أو منهزمين. ولذا أوجدوا مسالك أربعة وهي الظهور، والدفاع، والشراء، والكتمان. وضعت كتبهم العقدية لها شروطاً ونظماً دقيقة، تدل على نظر بعين ووعي سديد.

وأبرز ما نلحظ في هذه المسالك حرصهم وورعهم في دماء المسلمين

1- المبرد: **الكامل**، ج2، ص183.

2- **المصدر السابق**، ص185.

وأموالهم، فإنَّ الإباضية لا تستحل دماء مخالفيهم من المسلمين إلاّ في حالة حرب، وبعد إلقاء الحجة على المخالف. يقول الشيخ اسماعيل الجيطالي في قواعد الإسلام: «وتحل الدماء بالظلم والابتداء به»[1]. وقد طبق هذا المبدأ عملياً في كل الوقائع الحربية التي خاضوها ضدَّ الأمويين أو غيرهم مشرقاً ومغرباً، فقد تواترت كتب التاريخ عن حرصهم بَدأَهم خصومهم بالحوار وإقامة الحجة قبل البدإ بالقتال، بل هم لايبدأون بالقتال إلا دفاعاً عن النفس، فقد كانوا من أحرص الفرق الإسلامية على استخدام الحوار، ومحاولة الوصول إلى التفاهم والصلح بعيداً عن استخدام السيف وإراقة دماء المسلمين.

فلا يجوز عندهم قتال إلا بعد الدعوة، وإقامة الحجة، وإعلان القتال، ولا تحل غنائم المخالفين في الحرب إلا الخيل والسلاح وكل ما فيه قوة في الحروب، ويردون الذهب والفضة إلى أصحابها على الرغم من أن الذهب والفضة قد يكونان مساعدين هامين لمواصلة الحرب، ولكن طابع التعفف الذي جُبلوا عليه يمنعهم من ذلك.

وقد لخص الرقيشي سيرة الإباضية المتسمة بالتسامح والاعتدال في قوله:

«والمسلمون لا يعترضون الناس ولا يقتلونهم بغير حقّ، ولا يلعنونهم، ولا يبرؤون منهم، وهم يقرون بالحكم ويرضون به، ولا يقاتلون قوماً حتى يدعوهم إلى الإسلام، ولايأخذون بشبهة وميلولة في هوى، ولا حد في شبهة، ولا يخيفون آمناً، ولا يقطعون سبيلا، ولا يقاتلون الناس إلا بعد البغي والامتناع... ولا نغنم مال أهل القبلة، ولا نسبي عيالهم، ولا نرد

1- الجيطالي: **قواعد الإسلام**، ج2، ص

التوبة على أهلها، ولا نخيف الناس بعد الأمان، ولا نتبع مدبراً فنقتله إن لم يقتل لنا قتيلاً، ولا ينصب لنا حرباً، فهذه سيرتنا التي مضى عليها العلماء با لله من أمتنا وأسلافنا.»[1]

كان هذا الموقف الإسلامي منهم في الوقت الذي كان فيه خصومهم من الأمويين بخاصة يستخدمون معهم كل طرق الإبادة والخداع، والقتل الجماعي. يقول مهدي طالب هاشم في هذا الصدد: «ولو قارنا بينهم وبين الأمويين لوجدنا بوناً شاسعاً في هذه الناحية، فقد ظهرت في حروب الأمويين الوحشية، والطابع البدوي، والخروج على القيم الإسلامية في حروبهم للإباضية...»[2].

والمتتبع للنصوص التاريخية يلحظ حرص الشراة على اتباع منهج إسلامي معين في الحرب، ولم يكن يفوت زعماءهم أن يرسموا لهم آداب القتال، والحق أننا نجد نصوصا تاريخية كثيرة تدل على أنَّ الخوارج بصفة عامة رغم اتهام الكتاب لهم بالعنف، كانوا دائماً حريصين على انتهاج مسلك الحوار قبل إعلان الحرب، وكانوا كثيراً ما يذكّرون أتباعهم على أنَّهم إنما خرجوا طلباً للآخرة لا طلبا للدنيا، ولا عبرة ببعض الحوادث التي يركز عليها بعض الكتاب مثل مقتل عبد الله بن خباب بن الأرت، مع ذلك يقول صالح بن مُشرح لأصحابه ليلة خرج:

«اتقوا الله عباد الله، ولا تعجلوا إلى قتال أحد من الناس إلاَّ أن يكون قوماً يريدونكم، ويتصبون لكم، فإنَّكم إنَّما خرجتم غضباً لله حيث انتهكت محارمه، وعصي في الأرض، فسفكت الدماء بغير حلها، وأخذت

1- الرقيشي: مصباح الظلام، (مخ) ورقة ظ76.

2- مهدي طالب هاشم: مرجع سابق، ص، 112.

الأموال بغير حقها، فلا تعيبوا على قوم أعمالاً ثم تعملوا بها، فإنَّ كل ما أنتم عاملون أنتم عنه مسؤولون..».

لكن كل ما يقال في حياة الجهاد عند الشراة لن يغني عن الصورة التي رسمها أبو حمزة الشاري ولن يعدل بها شيئاً، صورة تلك الروح الفدائية التي دفعت هؤلاء الشباب يحملون أرواحهم على أيديهم يبذلونها في سبيل الله، لا يعرفون شراً، ولا يتكالبون على باطل، فكيف يكون هذا والقرآن في أيديهم؛ وعبادة الله نصب أعينهم...[1]

والمتتبع للنصوص القديمة، والحديثة وهي تعالج جهاد الخوارج للباطل، يلقاها متفقة جميعها على الإعجاب بروح الاستبسال الذي ميزهم عن غيرهم، وإجماعهم على أنَّ الهدف الذي من أجله رفعوا السيف وقاوموا الظلم لم يكن إلا هدفاً أخروياً.

لقد جاء هذا الملحظ عند الإمام علي كرم الله وجهه حين قال: «لا تقاتلوا الخوارج من بعدي، فليس من طلب الحق فأخطأه كمن طلب الباطل فأصابه». وفي قولة عمر بن عبد العزيز حيث قابل وفدهم بعد توليه: «إني قد علمت أنَّكم لم تخرجوا مخرجكم هذا لطلب دنيا ومتاعها، ولكنكم أردتم الآخرة فأخطأتم سبيلها.»[2]

ونحن نقول إنَّ الإجماع واقع على أنَّ نوايا الشراة سليمة، وهدفهم ديني أخروي لا نقاش فيه. يبقى الاختلاف حول الوسيلة المستخدمة والطرق

1- د/ سعيد حسين منصور: **القيم الأخلاقية في الخطابة العربية**، ص210، نقلا عن **الطبري** ج6، ص22.

2- أحمد زكي صفوت: **جمهرة خطب العرب**، ج2 ، ص202.

المنتهجة، وقد حكم خصومهم على ضلالها، وهذا الحكم في حدِّ ذاته لا يعلم مقدار الصواب والخطأ فيه إلا الله سبحانه وتعالى.

يقول أحد الدارسين المحدثين في هذا الصدد:

«لقد كانوا هم أنفسهم مؤمنون باستقامتهم، وصحة طريقهم الذي يسيرون فيه، ويعتقدون شرعية الجهاد الذي استرخصوا فيه المهج والأرواح، وهم وإن كانوا قد ضلوا الهدف، وانحرفوا عن الغاية، فقد تمسكوا بنصوص القرآن والعبادة، وإقامة شعائر الدين، والعمل بتعاليمه، وتجنب الذنوب الصغيرة، والبراءة من الكذب، اعتقاداً منهم أنَّ الإيمان لا يمكن أن يكون تصديقاً بالقلب أو إقراراً باللسان، دون أن تترجمه الأعمال، ويعبر عنه السلوك...»[1]

ولعل السرَّ الأكبر في الانتصارات التي حققها الشراة وهم فئة قليلة على خصومهم الأمويين وهم فئة كثيرة لها كل الإمكانات المادية والأدبية، هي أنَّهم كانوا مندفعين إلى الجهاد بهذه العقيدة، وهذا السلوك. وذلك هو السر الذي انتصر به المسلمون الأوائل وهم يجاهدون الكفار.

يقول أحد الدارسين المحدثين محلِّلاً الأسباب:

«...ولعل أهم ما يميز حروبهم أنهم كانوا يقاتلون بالفئة القليلة، ويستطيعون أن يحرزوا النصر على من هم أكثر عدداً وعدة.

...ولم يكن يدفع الخوارج إلى هذا غير استهانتهم بالموت، وزهدهم في الحياة، وحرصهم على الشهادة، وكثيراً ما كانوا يؤمنون وهم قلة لا تملك ما يملك الخصوم، أنهم لن يسيروا بخروجهم هذا إلا إلى الموت، ولكن روح

1- د/ سعيد حسين منصور: مرجع سابق. ص201.

الجهاد حببت إليهم صرعة الموت، وقدمتها لهم في أعذب صورة...» [1]

ومن هنا غدت الاستهانة بالموت محوراً من المحاور التي دارت عليه قصائد شعرائهم، وخطبائهم، وقد حققوا تحت هذه المشاعر الفياضة، والحماسة الملتهبة انتصارات مذهلة يراها بعض الكتاب نتائج طبيعية لهذه الروح الجهادية المؤمنة، ويراها بعض آخر مبالغات وأساطير لا أساس للصحة فيها. وهي من قبيل الدعاية، رغم تواترها في المصادر القديمة.

والحق إنَّ هذه الروح الاستشهادية إذا لم تعززها القوة المادية قد تكون سبباً أيضاً في الهزيمة الحربية عندما تختل الموازين العسكرية، مثل كثرة عدد العدو، وتفوق عدته العسكرية، واتساع رقعة الحكم، تماماً كما وقع لهم إبان المعارك الواقعة في الحجاز، وصنعاء، وعمان، والمغرب الأدنى في بداية تأسيس دولتهم هناك. إذ لا تكفي الشجاعة وحدها في بداية الحروب، وذلك مصداقاً للآية الكريمة: ﴿**وأعدُّوا لهم ما استطعتم من قوَّة**﴾ (سورة الأنفال: 60)، والقوة هنا تعني ولا شك القوة المادية أيضاً.

وكثيراً ما كانت نقطة الضعف في صفوف الإباضية سذاجتهم العسكرية إن صحَّ التعبير، فهم لا يستخدمون المكر والخديعة، والتحايل، يعصمهم عن ذلك ورعهم الشديد، وتصور الخيرية، والثقة، وعدم المكر في خصومهم.

وفي التاريخ مشاهد كثيرة متنوعة، نكتفي بذكر نموذج لها ما وقع لأبي بلال بن مرداس من جيش عبيد الله بعد أن طلبوا منهم هدنة للصلاة،

1- المصدر السابق، ص207.

فقُتلوا بين راكع وساجد، وكانت الغلبة من قبل...إلى صفوفهم.

ولعلَّ من أبرز الوقائع التاريخية التي تجلى فيها هذا السلوك الإسلامي النبيل، سلوك الإمام القائد عبد الله بن يحي الكندي عندما فتح حضرموت واليمن، ودخولها منتصراً، طالب الحق الذي أجمع المؤرخون كافة إباضية وغير إباضية على حسن سيرته وسياسته، ولم نجد فيهم من يطعن في عدالته...[1]

كانت سياسته الالتزام الشديد والحرص الأكيد على تطبيق الشريعة الإسلامية السمحة في معاملته المخالفين له مذهباً من المسلمين، وقد استطاع بورعه وحزمه أن يوفق بين المبدأ والتطبيق، دون أن يسمح للعواطف أن تسيره في اللحظات الحرجة التي تطغى فيها هذه العاطفة مثل لحظات الانتصار، ومواقف الغلبة التي قد تثور فيها العواطف الدافقة إلى الانتقام من الخصم، أو إشفاء غليل الصدر منه. فعندما طلب قائده أبرهة ابن الصباح الحميري الإجهاز على الهاربين وقتلهم، منعه،مع أنَّ طالب الحق كان قد تمكن منهم كما يبدو من رواية البلاذري، ذلك عملاً بمبدأ الإباضية الذين لا يجيزون الإجهاز على المستسلم، ولحوق المدبر في الحرب، كما جاء ذلك في شرح قواعد الإسلام للجيطالي، وقد رأينا الموقف ذاته مع أبي حمزة المختار مع خصومه في قُديد، وهذا يدل على الطابع الإسلامي لسلوك الشراة في كل الحالات منتصرين كانوا أم منهزمين. ونستطيع أن نلمس مثل هذا السلوك الإنساني الإسلامي الرفيع في موقف طالب الحق من العمّال الأمويين الذين استطاع التغلب عليهم، والظفر بهم، فهو عندما دخل صنعاء حبس الضحاك بن زمل الذي تركه العامل الأموي القاسم بن

1- مهدي طالب هاشم: مَرجع سابق، ص118

عمرو والياً على صنعاء، وإحسانه وشهامته من إبراهيم بن جبلة الكندي الذي وقع في الأسر مرة ثانية بعد أن سمح له في المرة الأولى مغادرة حضرموت، لم ينتقم منهما طالب الحق جزاء موقفهما المعادي هذا، بل كل ما فعله معهما أنَّه حبسهما مدة قصيرة ثم أطلق سراحهما، وقال لهما: «إنما حبستكما مخافة العامة عليكما، وليس عليكما مكروه، فأقيما أو اشخصا، فطلبا الخروج من اليمن.»[1]

وشمل طالب الحق بسيرته الإسلامية كل الناس مقاتلين وغير مقاتلين، فقد كانت أولى الإجراءات التي قام بها بعد أن استولى على الخزائن والأموال التي جَباها القاسم بن عمرو الثقفي عامل بني أمية في حضرموت، وممثل الحجاج بن يوسف الثقفي ـ القريب منه نسباً ـ يمثله في جوره وظلمه، لما وجد الإمام طالب الحق تلك الأموال رغم فقره وفقر جيوشه وحاجتهم؛ لم يستحل أن يأخذ من تلك الأموال فلساً واحداً، ولا استحل أن يعطي أصحابه منها قليلاً أو كثيراً، بل إنَّه أمر بتوزيعها بين الناس بالسوية، ليؤكد لأهل اليمن أنَّ حكمه قائم على شريعة الله عدلاً ومساواة، دون مراعاة للاختلافات المذهبية أو القبلية.

يذكر الشماخي أنَّ عبد الله بن مسعود وابن خيران وهما من الإباضية قد أتيا بالأموال التي استولى عليها طالب الحق إلى المسجد، فقسماها على فقراء صنعاء، ولم يسمح للإباضية أن يأخذوا منها شيئاً.[2] لأنَّ الإباضية لا ترى مال المسلم المخالف غنيمة إلا ما كان تجهيزاً أو عتاداً حربياً مثل الخيل والسلاح، ويَرُدُّون الذهب والفضة وغيرهما، بل ويسمحون لبقية المسلمين

1- **الأغاني** 114/23 . وانظر مهدي طالب هاشم، **مرجع سابق** ص114.

2- الشماخي، **السير** ط. الحجرية ص99.

في هذه الحالة بالانتماء إلى حركتهم لمجاهدة السلطة الحاكمة الفاسقة، بغضّ النظر عن اتجاهاتهم المذهبية. [1]

وقد كان البلاذري [2] شاهد عيان لهذا التحول العميق حيث يصف الحالة قبل مجيء طالب الحقّ، فيقول إنَّه رأى باليمن جوراً وعسفاً شديدين وسيرة في الناس قبيحة، ولكن مجيء طالب الحقّ إلى الحكم غيَّر الأمور من سيء إلى حسن، ومن ظلم إلى عدل، ومن فتنة إلى استقرار، ويقول إنَّه أقام أشهراً وهو يحسن السيرة، لين الجانب، كاف عن الناس، فكثرت جموعه في اليمن وأحبَّ الناس سيرته، فساد الاستقرار والأمن، ولم يحدث ما يعكّر صفو الأمن في كل أنحاء اليمن، «وهذا يظهر مساندة عامة المسلمين في اليمن لهذه الحركة.»[3]

ومن خطبة طالب الحق التي ألقاها على الناس غداة دخوله اليمن[4] يتبين لنا المنهج السياسي المتسامح الذي ارتضاه الإباضية مع خصومهم، وليس أدلَّ على صحة المبادئ وسلامة المنهج من أن يمتحن بلحظة قوة أو ضعف.

لقد كان الإباضية منتصرين لا شكَّ في ذلك ولاريب، ولكن طالب الحق لم يجبر الناس على اتخاذ موقف معين إلا أن يكون اختياراً من تلقاء أنفسهم كما قال:

«أيها الناس إنَّا نخيركم من ثلاث خصال أيها شئتم فخذوا لأنفسكم،

1- ينظر مهدي طالب هاشم، **مرجع سابق**، ص116

2- البلاذري: **مرجع سابق**.

3- طالب مهدي: **مرجع سابق**، ص118.

4- ينظر الرقيشي: **مصباح الظلام**، (مخ) ورقة 34ظ

رحم الله أمرؤاً اتخذ الخيار لنفسه».

الاعتبار الأول: أن يوافق في الخط السياسي الذي عليه الإباضية، وفي هذه الحالة يكون واحداً منهم له ما لهم من حقوق وما عليهم من واجبات «على أن يجاهد معنا بنفسه، فيكون له من الأمر ما لأفضلنا، ومن قسم الفيء ما لبعضنا».

الاعتبار الثاني: أن يلزم الحياد ويكف عن الإباضية لسانه، ويلزم منزله.

الأعتبار الثالث: أن يرفض السياسة الإباضية، ويتخذ موقف العداء السافر، فعليه في هذه الحالة أن يخرج إلى أهله وماله بأمان، وليكف يده ولسانه عن الإباضية. «فإن ظفرنا لم يكن عرض نفسه، ولم يُعننا على سفك دمه، وإن قتلنا يكون قد كفي مؤنتنا عسى ألا يعمر بعدنا إلا قليلا».

إن هذا الموقف من طالب الحق يدل على سماحة إسلامية، ومسؤولية إيمانية تقف عند حدود الله لا تتعداها، وتحاسب النفس قبل أن تحاسب، لا تضع للدنيا اعتباراً، ولا تتخذ الانتصار وسيلة للقهر والانتقام.

ونحسب أنَّ طالب الحق في سيرته وعمق نظرته كان يستمد كل ذلك من الكتاب والسنة الشريفة، ومن نصائح شيوخ المذهب مثل أبي بلال، وأبي عبيدة مسلم شيخه وأستاذه وموجهه وقائده الذي كان يبعث التعليمات من البصرة، فقد روي عن أبي عبيدة أنَّه كتب إلى عبد الله بن يحي قائلاً: «إذا خرجتم فلا تغلوا ولا تغدروا، واقتدوا بأسلافكم الصالحين واستنوا بسنتهم، فقد علمتم أنما أخرجهم على السلطان العيب لأعمالهم...»[1]

1- الرقيشي: **مصباح الظلام** (مخ) ورقة (7و)، وينظر المصدر نفسه عن سياسة أبي حمزة في الحرب ورقة 60.

وقد كان طالب الحق شديداً في إقامة الحدود التي كثيراً ما تتجاوز في مثل هذه الحالات، فهدد كلَّ من تُسوله نفسه شرب الخمر، أو الزنى، أو التعدِّي على أموال الناس، وحكم الإباضية في أنَّ مرتكب الكبيرة حال ارتكابه لها كافر كفر نعمة، ومن شكَّ في أنه كافر فهو كافر.

...ونتيجة لهذه السياسة فقد أعطى البديل المناقض للأوضاع السيئة التي كانت عليها اليمن قبل الحركة الإباضية، كما يقول مهدي طالب هاشم[1].

أما الجيش الأمويَّ وهو يواجه الشراة في الحجاز واليمن فقد كان يقاتل مدفوعاً بدافعين، الدافع القبلي المتعصِّب على النحو الذي أوضحناه سابقاً، ودافع الارتزاق حين لا يجد الحكام من يقوم بمهمَّة القتال أو حين تقوى شوكة الشراة في وجوههم فيلجأون إلى دفع الجنود يستأجرونهم بالمال، كما وقع ذلك أيام ملاحقة أبي بلال من طرف ابن زياد، فقد كان جيش ابن زياد يقوم على المرتزقة، ولذلك كان الوهن والخوف والفرار يرافقهم لأنَّ مسعاهم إلى المعارك مسعى دنيوي يقوم على ما يقدِّمه الأمير للجند من مال وأعطيات، وما يمنون به أنفسهم من غنائم. ولذلك كان مما يُعيِّر به الشراة هذا الجيش أنه (ذوو الجعائل) وهي مذمة عظيمة، ومثلبة وعار في تصور العربيِّ الحر الذي يأبى أن يرفع السيف من أجل المال.

ولنتابع أبا الفرج وابن الأثير وهما يصفان هذا الجيش الأموي، حيث راح يقاتل جيش أبي حمزة المختار الشاري، وكان مروان بن محمد قد أرسل جيشاً لمقاتلتهم بقيادة عبد العزيز بن عبد الله بن عمر بن عثمان بن عفان،

1- ينظر مهدي طالب هاشم: مرجع سابق، ص118.

وقد اختاروه قصداً لعلمهم بموقف الشراة من الخليفة عثمان بن عفان في سنوات حكمه الأخيرة.

...وكان هذا الجيش يتألف من ثمانية آلاف رجل، كانوا كالدهماء، وليس عليهم سمة المقاتلين، فقد كان فيهم كثير من القرشيين في ثيابهم الفاخرة، وقد ظنوا أنَّ الأمر لن يعدو أن يكون مجرد نزهة وبخاصة فتيان الأمويين منهم، وكان منهم بالمدينة عدد كبير يُظهرون العجرفة في حديثهم عن الخوارج ويصوِّرونهم خشارة من الرعاع.

ولما بلغ عبد العزيز (العتيق) جاءته رسل أبي حمزة يقولون: «إننا والله مالنا بقتالكم حاجة، دعونا نمضي إلى عدونا.» فأبى ذلك عليهم وأصرَّ على الحرب، وسار حتى نزل قُديد... في التاسع من صفر سنة 130هـ...[1]

وكانت نتيجة المعركة انهزام الجيش الأموي على كثرة عدده انهزاماً فظيعاً، يقول عنه الدكتور النعمان القاضي: «كانت وقعة قُديد بمثابة مذبحة

1- ينظر تفاصيل هذه الموقعة في **الأغاني**، ج20، ص101 . وابن الأثير، ج5، ص141 . كذا د/النعمان القاضي: **مرجع سابق**، ص202. وقد تركت قديد في الشعر آثاراً كثيرة وحزنا شديداً في نفوس أهل المدينة، وكانت النائحات ينحن في المدينة بمثل هذا الشعر.

ما للزمان وماليه أفنت قديد رجالية

فلأبكين سريرة ولأبكين علانية

ولأبكين إذا خا ـوت مع الكلاب العاوية

ولأبكين على قديد بسوء ما أبلانية **الأغاني**، ج20، ص102.

وللشاعر الإباضي عمرو بن الحصين قصيدة رائعة في وصف قديد. **الأغاني** ج20، ص100.

للغطرسة القرشية والأموية بالذات..»[1]

...ولم يرض أبو حمزة عملاً بمبادئ الشراة في الحرب أن يطارد الفارين، ولكنّه لم يرحم القرشيين الذين أصروا على مقاتلته إذ عدهم ممثلي الحكومة الظالمة، حتى امتلأ الميدان بجثتهم.

ودخل المدينة في 13صفر130 هـ، دون قتال بعد أن فرت البقية من المقاتلين إليها، وظل بالمدينة ثلاثة أشهر يحسن السيرة في أهلها خلالها، وفيها ألقى خطبته الشهيرة من فوق منبر الرسول ﷺ.

وكان كلام أبي حمزة يستهوي السامعين إلى حين، لأنَّ مجتمع المدينة كان مجتمعاً لاهياً أفسدته الحضارة وداخله الانحلال، فلم يكن يرى في مبادئ أبي حمزة إلاّ تشدداً في القيم الأخلاقية والدينية، مثل موقفه من الزنى وشرب الخمر، وأظهر الإعجاب بعمر بن الخطاب لإقامته حدَّها دون اعتبار لشخص الشارب، وعلى الرغم من إحساس أهل المدينة بعدالة هذا الحكم وصلاحه فإنَّهم لم يتجاوبوا معه للسبب المذكور.

ولكن أبا حمزة استطاع أن يكسب بعض الأنصار المؤمنين من أمثال عبد العزيز بن بشَكَسْت القارئ، وأبي بكر بن محمد عبد الله بن عمر بن الخطاب.

وفي مستهل جمادى الأول سنة130 هـ. زحف جيش شامي مكون من أربعة آلاف من القيسيين بقيادة عبد الملك بن محمد بن عطية من سعد هوازن في طريقه إلى المدينة، وكما حدث في عهد يزيد الأوَّل دفع لهم أجرٌ مناسب بمثابة كفارة عما ينتظرهم من انتهاك الحرمات المقدسة، إذ أعطى

1- ينظر د/النعمان القاضي: مرجع سابق، ص 202

كل واحد منهم مائة دينار ذهبي وفرساً وبغلاً.

وكان الشراة قد شعروا بهذا الجيش فخرجوا ينتظرونه بوادي القرى، وهناك التقوا في معركة فاصلة قتل فيها كثير من الشراة من أصحاب أبي حمزة، ونجا هو وثلاثة من خاصته،هربوا إلى مكة.

وبلغ ابن عطية المدينة فوجدها خالية من الشراة بعد أن غدر بهم أهل المدينة، وقضوا على البقية الباقية التي قادها المفضل، وقتلوا بشكست، وغيره بعد أن علموا نتيجة المعركة. [1]

وإذا كان موقف أبي حمزة من أهل قديد عدم ملاحقة الفارين منهم، ومعاملة أهل المدينة ومكة بالحسنى، فإنه عندما لجأ إلى مكة لم يحتط من غدر أهلها، فكانت مقاومته عبثاً، فانتصر عليه ابن عطية وقتل الأسرى، وصلب زعماء الإباضية ومنهم أبو حمزة، وأرسل برؤوسهم إلى مروان بن محمد بدمشق.[2].

وتاريخ الإباضية في حروبهم مع المخالفين جرى على نسق واحد يستمد أسسه وقواعده من الشريعة الإسلامية، فلا غلوَّ ولا تطرُّف، ولا استحلال لعرض ولا غنيمة لمال[3]. كان ذلك دأبهم في المشرق في حروبهم الطويلة مع الأمويين على النحو الذي ذكرناه، وكان ذلك دأبهم أيضاً في المغرب الإسلامي حين قادوا الجيوش لمواجهة الجيوش الأموية

1- ينظر، د/النعمان القاضي **مرجع سابق**، ص204، نقلاً عن **الأغاني** ج20، ص109-112.

2- توجد مادة هذه المعارك في **الأغاني** ج20، ص109-112. **تاريخ... الطبري**، ج9، ص115. **الكامل** لابن الأثير ج5، ص158، **البداية والنهاية** لابن الأثير ج10، ص36.

3- معمر: **الإباضية** ج2، ص287..

والعباسية الزاحفة من المشرق للقضاء على حركاتهم.

ولعلَّ أروع الأمثلة عن الشهامة الإسلامية، والرجولة الكاملة تمثل في مواقف القائد أبي الخطاب عبد الأعلى بن السمح، وما عرف به من تطبيق سياسة صارمة مع جنوده، لا يقبل التعدي ولا الظلم ولا التهاون في استحلال أقل قليل مما حرمة الله سبحانه وتعالى.

من ذلك موقفه الصارم من جميل السدراتي الذي سلب أحد الجنود المقتولين فعاقبه القائد أبو الخطاب عقاباً صارماً أدى به إلى الانفصال عن جيش أبي الخطاب والفرار إلى المشرق، وتأليب جعفر المنصور عليه انتقاماً لنفسه.

وبما أننا لسنا هنا بصدد كتابة تاريخية تعتمد الوقائع المفصلة بقدر ما تعتمد على استخلاص النتائج واستلهام العبر من هذه المواقف، فإننا نحيل القارئ الكريم إلى الكتب المتخصصة، ولكن لا بأس أن نشير إلى بعض الأسماء اللامعة التي عرفت بمواقفها الشهمة في الحرب مع الموحدين ومن هؤلاء: الحارث بن تليد، وأبي حاتم الملزوزي، وابن منصور إلياس، وأبي عبيدة عبد الحميد الجناوني، وأبي الحسن أيوب بن العباس، وأبي زكرياء التندميرتي، وأبي زكرياء الباروني، وأبي يحي الأرجاني... وعشرات غيرهم.

فسوف نجد أن هؤلاء جميعاً يحرصون كل الحرص عندما ينتصرون على محاربيهم من الموحدين أن لا يتعدوا فيهم حكم الله، فلا يقطعون رأساً، ولا يمثلون بقتيل، ولا يجهزون على جريح، ولايتبعون مدبراً، ولا يغنمون مالاً، ولا يهتكون ستراً. وقد شهد التاريخ أنَّ أبا الخطاب عاقب الجندي الذي مدَّ يده ليسلب قتيلاً، وأنَّ أبا حاتم هدد بترك القيادة إن لم

يرد ما أخذ من المعركة، وأنَّ أبا منصور ترك أحمال الذهب تتناثر في ميدان المعركة دون أن يلتفت إليها، وأنَّ أبا زكرياء جمع ما تركه العدو الهارب من مال وسلاح فأوقد فيه النار...[1]

وترسم المصادر الإباضية صورة مثالية للمعاملة الحسنة التي لقيها أهل القيروان من أبي الخطاب، الذي أمر أصحابه بأن لا يتبعوا مدبراً، ولا يجهزوا على جريح، وقد قرع أحد أصحابه عندما أشار عليه بأخذ أموال المهزومين جرياً على المعاملة بالمثل، ولكن أبا الخطاب ذكّره أنَّ مبادئهم لا تجيز ذلك وأن دماء مخالفيهم وأموالهم حرام عليهم، وخاطبه قائلاً: «إن فعلنا ما فعلوا حقيق على الله أن يرفضنا، ويدخلنا معهم جهنم، فنكون كما قال الله تعالى: ﴿**كلما دخلت أمة لعنت أختها حتى إذا ادَّارَكُوا فيها جميعاً قالت أخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً ضعفاً من النار قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون**﴾ (سورة الأعراف: 38).»

يقول عوض خليفات تعليقاً على هذا المواقف، بعد أن وصفه بالمثالية:

«والواقع إنَّ الإباضية كانوا يعاملون أعداءهم المهزومين بإحسان وعدل، ولا تذكر المصادر غير الإباضية شيئاً معاكساً لذلك، وإن كانت لا تسرف في المديح، ولا تطنب في الحديث عن مثالية الإمام الإباضي كما تفعل المصادر الإباضية».[2]

وعندما تولى أبو حاتم الملزوزي الخلافة بعد استشهاد أبي الخطاب سنة 144هـ، وكان مما قام به في عهد ولايته وكان إمام دفاع مواجهة جيش أبي

1- المصدر السابق.

2- د/عوض خليفات: نشأة الحركة...ص، 151..

جعفر المنصور، والتغلب عليه، وملاحقته حتى طرابلس، وقد قام بعض العوام من جيشه مِمَّن لم تتمكن العقيدة في قلوبهم ــ مدفوعين فيما يبدو بمعاملة أعدائهم بالمثل ــ بسلب القتلى، فغضب أبو حاتم غضباً شديداً، وهددهم باعتزال الإمامة إن لم يردوا الأسلاب إلى أصحابها.

يقول خليفات تعليقاً على هذا الحدث:

«وأغلب الظن أنَّ ما ذهبت إليه هذه المصادر صحيح لأنَّ ما حدث كان بالفعل مخالفاً لسيرة الأيمة الإباضية في كل معاركهم التي خاضوها سواء في المشرق أو المغرب، والدليل على ذلك أن أبا حاتم نفسه قد استنكر بشدة ما فعله عوام البربر من جيشه»[1].

وقد تجسَّد التسامح الإسلامي في تاهرت عاصمة الدولة الرستمية، حيث غدت بشهادة ابن الصغير مركزاً للتسامح الديني، والازدهار الحضاري، تحوي من كل الأجناس، والمذاهب، والأديان. وهو ما عناه (الفرد بل) بقوله:

«كانت تاهرت مركزاً مهما للدراسات الإسلامية... وبفضل تسامح الأيمة، استطاع علماء السنة القدوم لجدال علماء الإباضية في كل مسائل العقيدة والشريعة.»[2]

وإلى خاصية التسامح والاعتدال يرجع الدكتور فاروق عمر بقاء الإباضية واستمرار حضارتهم وعطائهم المعرفي، حيث يقول عن الإباضية

1- خليفات: **نشأة الحركة**، ص، 159..

2- الفردبل: **الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي**، ص139.

في عمان: «وهنا لا بدَّ من القول بأنَّ المذهب الإباضي أظهر مرونة واعتدالاً، ونظرة توفيقية بحيث يتلاءم مع الظروف السياسية والاجتماعية في عمان، وفي ذلك يكمن سرُّ نجاح الإباضية واستمرارها لأكثر من اثني عشر قرناً من الزمان...»[1]

2- الإباضية العمانيون، ونشر الإسلام.

تمهيد:

إنَّ مساهمة العمانيين في نشر الإسلام يعود إلى ما قبل ظهور المذهب الإباضي، أي قبل أن يفترق المسلمون إلى طوائف بعد الفتنة، وإذا قلنا الإباضية فإنَّنا نعني العمانيين الذين ارتبط انتشار المذهب الإباضي بهم، حتّى قيل إنَّ الإباضية قضية أزدية. وقد عرف الأزد منذ القديم بمقدرتهم الحربية براً وبحراً، وعندما جاء الإسلام كانوا من جند الفتوحات في الصفوف الأولى، إذ تذكر الروايات التاريخية أنَّ الملك عبد بن الجلندى العماني حين كان بالمدينة طلب من أبي بكر الصديق أن يقوم بحرب الغساسنة وآل جفنة على حدود الشام، واستجاب له أبو بكر، وأمَّره على سرية كان فيها حسان بن ثابت الأنصاري، وقد قال عنه حسان «لم أر رجلاً أحزم، ولا أحسن رأياً وتدبيراً من عبد، وهو وا لله مِمَّن وهب نفسه في يوم غارت صِباحه وأظلم صَباحه...فسر ذلك أبابكر فقال: هو يا أبا الوليد كما ذكرت، والقول يقصر عن وصفه، والوصف يقصر عن فضله.»[2]

1- د/فاروق عمر: **التاريخ الإسلامي**، ص64.

2- الشيخ السالمي: **تحفة الأعيان**، ج1، ص50.

فبلغ ذلك (عبد) فبعث بمال عظيم وأرسل إليه: «إن مالي يعجز عن مكافأتك فاعذر فيما قصر، واقبل ماتيسر» ثم إن أبا بكر كتب كتاباً إلى أهل عمان يشكرهم ويثني عليهم، ومن ثم لم يكن عجباً أن يكون العمانيون الذين دخلوا الإسلام دون حرب، على هذا النحو من الحماسة للإسلام، والتضحية في سبيله بأموالهم وأنفسهم ابتغاء رضوان الله. فكانوا في الصفوف الأولى في الفتوحات الإسلامية، فكان دورهم في فتح العراق وفارس، وخاصة من ناحية البحر عظيماً.

ومن الروايات التاريخية نعرف أنَّ الخليفة عمر بن الخطاب طلب من والي عمان عثمان بن أبي العاص الثقفي بعد وقعة (جلولاء) 16هـ أن يقطع البحر لمحاربة كسرى فارس، فخرج معه ثلاثة آلاف محارب أو ألفان وستمائة من الأزد، وراسب، وناجية، وعبد القيس، وأكثرهم من الأزد، فعبر بهم عثمان بن أبي العاص من جلفار (رأس الخيمة) إلى جزيرة كاون (البحرين) وفيها قائد العجم، فسالم القائد الفارسي عثمان بن أبي العاص ولم يقاتله.

ولكن الدور البارز الذي قام به العمانيون كان في عهد الإمام عمر بن الخطاب، ومن جاء بعده في فتوح الشام وفارس والمغرب، ومصر وغيرها، ومن تم فإننا نجد لهم آثاراً باقية في كل هذه البلاد، وكان منهم قواداً عظاماً وعلماء كبار، رفعوا راية الإسلام خفاقة في كل مصر، وقطر. [1]

وبما أن متابعة هذا الانتشار ليس هو موضوع بحثنا، فإننا سنقتصر على ما كان للعمانيين الإباضية فيه دور خاص أو مباشر، مثل فتوحاتهم في

1- يراجع، السالمي: مرجع سابق، ج1، ص52.

شرق إفريقيا، والصين، والهند، وأندنوسيا، وجزر الملايو، وسيلان، وجزر المالديف والكاديف.

نشر الإسلام بشرق إفريقيا:

لانستطيع أن نحدد تاريخاً معيناً لبداية الاتصالات العمانية الإفريقية، فمنذ أقدم العصور جاء العمانيون إلى الساحل الشرقي لإفريقيا المواجه لشبه الجزيرة العربية، وكان لهم تبادل تجاري مع السكان الأفارقة.[1] ولكن الذي لا شكَّ فيه هو أن هذه العلاقات بدأت قبل ظهور الإسلام، فقد اشتهر العمانيون بركوب البحر، وعرفوا الانتقال من البحر الأحمر الشرقي إلى الساحل الغربي منه، وتسجل كل المصادر التاريخية نبوغهم في هذا المجال، وارتباط حضارتهم الاقتصادية والسياسية والثقافية به.

وقد كان الوجود العماني في شرق إفريقيا بكل المقاييس، أكبر كثافة، وأكثر عمقاً منها في آسيا، أو بالتحديد جنوب شرقي آسيا، ولذلك كان تأثيرهم في هذه المنطقة أشد وأقوى[2]. فقد اعتمد - بجانب الروابط الملاحية والتجارية - على الهجرة العمانية الدائمة فردية وجماعية، حيث تعوَّد الشعب العماني على رحلات منظَّمة إلى شرق إفريقيا.

...ولا شكَّ أن احتكاك الأفارقة بالعرب المسلمين أدَّى إلى نتائج عميقة لم تقتصر على التجارة أو المعاملات المادية، بل لقد كان لأسلوب التعامل، وما حمله العرب المسلمون معهم من مبادئ يدعو إليها الإسلام،

1- يراجع حصاد ندوة العلاقات العمانية المصرية، وزارة التراث القومي والثقافة، ع (2) يناير 1994 .

2- د/نايف السهيل، مرجع سابق، ص185.

أعمق الأثر في الأفارقة.

والحق إنَّ المصادر كلها تشير إلى دور التجار في هذا الصدد، لأنَّ العلاقات الاقتصادية كانت من الدوافع التي ساعدت على أن يتجه العمانيون إلى هذه المناطق النائية، ويستقروا فيها، ويكوِّنوا بها إمارات عربية نمت وازدهرت بالتدريج، وشهد بعظمتها وازدهارها وتحضرها كل من زار المنطقة من العرب والأجانب على السواء، وكانت هذه المهاجر العمانية على الساحل الإفريقي الشرقي مصدر إشعاع حضاري أثر في المناطق الإفريقية المجاورة. (1)

ونستطيع القول بوضوح إنَّ كافة المصادر التاريخية تؤكد على الصلة بين عمان في كل العصور وبين الشرق والجنوب الإفريقي، حتى إنَّهم وصلوا إلى تنزانيا، ومدغشقر، وجنوب الصومال، وجزر القمر، ومنطقة نورديفان، وكلوة، ومِمبا، وزنجبار كما توضِّح ذلك مصادر كثيرة.

أمَّا في شرق إفريقيا نفسها فقد توغلوا في الأحراش والغابات غير هيابين ولا وجلين، وكأنَّ ركوب المخاطر في البحر ساعدهم على ركوبها في البر أيضاً. وهكذا وصل الإباضية العمانيون إلى جنوب وحول البحيرات الاستوائية، وإلى بحيرة نيانسا، ومنابع نهر الزمبيزى، وموزمبيق، وبحيرة تنجينقا، وفيكتوريا، والبرت، وكيوجا المعروفة الآن باسم بورندي، ورواندا، وغربي كينيا، وغربي وجنوب أوغندا، ومملكة كارنجا، (زيمبابوي). وقد استطاعوا بمهارتهم وقوة عزيمتهم أن يصلوا عن طريق ممتد بين الساحل والداخل، وتدفقوا عبر هذا الطريق مستخدمين الإبل في

1- حصاد ندوة العلاقات، يناير 1994م.

رحلات تستغرق شهوراً.

وكانت هذه الطرق بالتحديد هي السبيل الوحيد إلى وصول الإسلام إلى هذه المناطق الداخلية النائية في إفريقيا.[1]

ومع مرور الأيام تحولت هذه العلاقات التي بدأت بالتجارة إلى علاقات حضارية عميقة في كل مجالات الحياة، فتزاوج رجال عمان بنساء من إفريقيا، فجاء الجيل الجديد تعبيراً عن هذا المزج الحضاري الذي ترجم نفسه سريعاً في تزاوج آخر بين اللغة العربية التي حملها الإباضية إلى إفريقيا وأخلصوا في نشر تعاليم الإسلام بها، وبين لغة الأفارقة أنفسهم، فنشأت في زنجبار وما حولها اللغة السواحيلية التي جاءت وليدة التزواج العربي الإفريقي، والتي يتكلم بها أهل الشرق والجنوب الإفريقي حتى اليوم.[2]

وقد برزت بعض المدن الساحلية زاهية بحضارتها العربية الإسلامية الجديدة، مثل لامو الواقعة شمال ممباسا، ويرجع تأسيسها إلى مستهل القرن الثامن الهجري، وقامت بها حكومة ديموقراطية معتنقة المذهب الإباضي، كما برزت في هذا المجال شخصيات عمانية اشتهرت بالجرأة في اقتحام المخاطر، ولا يكاد يصل القرن العاشر الهجري حتى استطاع الأيمة الإباضية العمانيون أن يمدوا سلطانهم على الشمال الشرقي من أرض الصومال حتى نهر رفوما، وأن يقيموا فيها إمارات تابعة لهم، وضعوا على رأسها رؤساء من العائلات العربية في ممباسا وزنجبار، وغيرهما من المناطق الهامة.[3]

1- د/السهيل، مرجع سابق ص، 190.

2- المصدر السابق.

3- د/حسني أحمد محمود، **الإسلام والثقافة العربية في إفريقيا**، دار الفكر العربي القاهرة 1987م. ص، 140و141و439

واستمرت قروناً إلى أن جاء السقوط الأخير على يد الأفارقة الشيوعيين في أوائل الستينيات.

ولم يبق من تلك الآثار إلا ما كتبه العلماء الإباضية أو غيرهم عن تلك العهود الزاهرة. وقد يتساءل المرء عن انحسار المذهب الإباضي في هذه المناطق، وأحسب أنَّ هذا يعود أساساً إلى أنَّ الإباضية كانوا متسامحين مع أهالي تلك المناطق، فقد كانوا يهدفون إلى نشر الإسلام متجاوزين العصبيات المذهبية حيث حرصوا أشدَّ الحرص على نشر الإسلام أولاً ولم يفكروا في أي شيء آخر بعد ذلك.

وهكذا نستطيع القول: إنَّ الإباضية في القرنين الثالث والرابع الهجريين قد أثروا في سكان تلك المناطق تأثيراً بعيداً، وهم الذين يرد ذكرهم في المصادر أحياناً: البربر، أو السودان، أو الزنج، أو البانتو، وكان الفضل لأولئك الرواد في تحويل تلك القارة من الوثنية إلى الديانة الإسلاميَّة، كما شهدت له بذلك الوثائق والدراسات.

نشر الإسلام في الهند.

كانت هناك عدة عوامل ساعدت كلها على الاتصال المباشر بين عمان والهند منها:

أولاً: الجوار، فبحكم وجود عمان قبالة الهند بحيث لا يفصل بينهما سوى المحيط الهندي، تعتبر عمان بالنسبة للهند بوابة إلى الخليج، والجزيرة العربية بأجمعها، وقد وطد هذا الجوار العلاقات بين القطرين منذ زمن بعيد.

ثانياً: الحركة التجارية: كانت الحركة التجارية نشيطة دائبة بين عمان والهند، وكانت السفن تمخر عباب المحيط الهندي جيئة وذهاباً ما بين

القطرين، فقد كانت الهند في حاجة ماسة إلى توطيد علاقتها ببلاد العرب عامَّة، وبعمان خاصَّة، إذ أنَّ الهند كانت في حاجة شديدة إلى (اللبان) الذي يستخدم في صناعة البخور، والذي تشتهر به منطقة ظفار عالمياً، كما أن حاجتها إلى العاج الإفريقي ظلت شديدة أيضاً، وكان يصل إليها عن طريق عمان ينقله العمانيون من شرق إفريقيا، وكانت الهند في حاجة أيضاً إلى الخيول العربية التي كانت تأتيها من عمان بعامة، ومن منطقة ظفار بخاصة.

وكانت الهند من جهتها تبيع لعمان الأقمشة، والأقطان، والتوابل، والعطور، وخشب النارجيل اللازم لصناعة الهند، وغير ذلك من المواد الزراعية والصناعية.

ثالثاً: المنافسة البحرية: كان لا بدَّ أن تكون هناك منافسة شديدة في السيطرة على الطريق البحري التجاري بين الهند وعمان، ويبدو أنَّ المراكب العمانية كانت تتعرض من حين إلى آخر لهجمات القراصنة الهنود.[1] مما دفع بالأيمة العمانيين لحماية نشاطهم التجاري بإحداث أسطول حربي قوي يقف في وجه هجمات أولئك القراصنة، وقد أنشأ الإمام غسان بن عبد الله اليحمدي (192هـ) أسطولاً بحرياً مسلحاً لحماية الشواطئ العمانية، ولتأمين الطريق البحري من القراصنة، وقد قوي هذا الأسطول في عهد الإمام مهنا بن جيفر اليحمدي ما بين (226-237) إذ استطاع أن يكون أسطولاً ضخماً على درجة رفيعة من العدة والعتاد، قيل أنه يتكون من ثلاثمائة بارجة حربية مسلحة[2].

1- د/نايف السهيل، **مرجع سابق**، ص169 . نقلاً عن مايلز، س،ب الخليج، مسقط، ص82

2- **المصدر السابق.**

هذه العوامل جميعها عززت العلاقات بين البلدين، ودفعت العمانيين إلى الهجرة والاستقرار بالساحل الغربي لبلاد الهند، فعمروا بعض البلاد وبنوا بها منازل لهم مثل ميناء تامه، وقندرينا، وكبايه، وجرفتن، وكلها موجود بالساحل الغربي المعروف عند القدامى بساحل ملبار[1].

ومن هنا كان استقرار كثير من التجار العمانيين في هذه الأرض مدعاة إلى الدعاية إلى الإسلام بين أهلها، إضافة إلى أولئك الدعاة الذين كانوا يتوافدون من حين إلى آخر لغرض التجارة، أو لغرض الدعوة نفسها، وكان بعضهم يستقر فيها نهائياً حيث يتزوجون من أهالي الهند، ويتخذون لغتهم وكثيراً من عاداتهم وتقاليدهم التي لاتتنافى مع الإسلام، وبذلك كانوا مؤهلين تماماً كدعاة إباضية لنشر الإسلام في هذه البلاد وخصوصاً بين الهنديات اللاتي تزوجن من هؤلاء الوافدين، وأيضاً بين الهنود الذين ارتبطوا معهم بعلاقات تجارية.[2]

ومما لا شكَّ فيه أنَّ الذي ساعد على الحركة الإسلامية الواسعة في هذه البلاد داخلاً وساحلاً هو ما رآه أهل تلك البلاد من أخلاق المسلمين العالية، ومعاملتهم الحسنة عندما بلوهم بالمصاهرة، والمتاجرة والمعاشرة، مقارنين بين حالتهم الاجتماعية السيئة التي كانوا عليها في ظل حكم نظام طبقي يسيطر فيه رجال الدّين على الناس بالاستغلال والاحتقار والقهر...فرحبوا بالدّين الإسلامي الذي لا يعترف بالطبقية في كل شيء. والإباضية هم أصفى المسلمين تمثيلاً لهذا الفكر الذي لا يؤمن إلا بالتقوى ميزاناً، ومقياساً...ومن تَمَّ انتشر الإسلام في كل مكان وصله تاجر، أو

1- المصدر السابق.

2- المصدر السابق.

داعية، أو فقيه مسلم، وخاصة في سواحل الهند وهضبة الدّكن وغيرهما من أنحاء الهند، وأقاليمها العديدة مثل البنغال، وغيرها... [1]

وقد حظي الذين دخلوا في الإسلام من أهالي هذه البلاد بالاحترام والتقدير اللذين حظي التجار الغرباء بهما أيضاً، الأمر الذي دفع بالحركة الإسلامية دفعات كبيرة بين الهنود ملوكاً ورعية.

ويحرص المسلمون من الهنود على تأكيد الروابط التي تجمعهم بالتجار العمانيين الذين كانوا سبب إسلامهم، فيقولون إنهم ينحدرون من أنجال هؤلاء التجار المسلمين الذين أقاموا في بلادهم منذ أزمنة بعيدة، وهم يمدحون ذلك حتى الوقت الحاضر.

...وهكذا نرى نتجية لجهود إباضية عمان، وغير العمانيين انتشر الإسلام في الهند، والتزام الهنود بتعاليم الإسلام وتقاليده، وحافظوا على دينهم رغم ما يتعرضون له من هجوم شبه مستمر من ملوك الهند ومهراجاتهم. [2]

نشر الإسلام في الصين

عرف إباضية عمان بلاد الصين منذ القرن الثاني الهجري، وذلك عن طريق التجار العمانيين الذين أبحروا في اتجاه الصين، فبلغوا منها أقصاها كما تدل على ذلك الوثائق التاريخية. ويرتبط نشر الإسلام في هذه البلاد بداعية إباضي مشهور هو أبو عبيدة عبد الله بن القاسم العماني الملقب بأبي عبيدة

1- يراجع أرنولد ويلسون: تاريخ الخليج، تر: محمد أمين عبد الله مسقط، ط، 1985، ص: 314-323-403

2- د/نايف السهيل، مرجع سابق، (بتصرف). ص 172

الصغير تشريفاً وتكريماً، وقد وصل إلى ميناء كانتون حوالي 133هـ، وتعتبر رحلته من أقدم رحلات العرب إلى بلاد الصين إن لم تكن أولها.

ورد في كتاب بعنوان «موجز تسجيل الأمور الهامة المختلفة في عهد أسرة سون»[1]. وبصورة صريحة إن المبعوث لدولة ووشيون (صحار) التابعة لتاشي (العرب)، قد جاء لتقديم الهدايا إلى الإمبراطور الصيني، وذلك يدل بصورة قوية على أنَّه عماني بلا شكٍّ.

إنَّ هذا المبعوث الذي يشير إليه الباحث الصيني لم يكن سوى الداعية الإباضي المعروف عبد الله بن القاسم، وقد كان يدعى عندهم الشيخ عبد الله وكان رئيساً لمنطقة سكنى العرب والأجانب الآخرين في مدينة (قوانتشو)، وقد لقبه الإمبراطور الصيني (سون سين زون) بصورة خاصة جنرال الأخلاقية الطيبة.

وهذا اللقب له أكثر من دلالة دعوية فإنَّ الشيخ عبد الله لم يصل إلى هذه المرتبة العالية بحيث تصبح أخلاقه الطيبة دلالة عليه وعلى شيء يمتاز به، إلا لما كان يتحلى به من صفات عالية وسلوك متميز، هي الصفات الإسلامية الرائعة، والسلوك المحمَّدي المتميز، ومن المهم في الأمر أن هذا التلقيب قد تم تدوينه على يد سوشي الأديب الصيني السياسي المشهور ذائع الصيت ولايزال المرسوم الأصلي الذي أصدره الإمبراطور الصيني (سون سين زون) محفوظاً ضمن مجموعة الشؤون الخارجية لدون باي (الاسم الثاني لسوشي)، وقد عرفنا من الكتاب السجل المختصر....الذي كتبه سوزاي (أديب مشهور آخر) من عهد أسرة سون، وهو الأخ الأصغر

1- تشان زون يان (أستاذ التاريخ بجامعة بكين): **الاتصالات الودية بين الصين وعمان عبر التاريخ** (تراثنا) ع، 21، ط، 2(د.ت)، ص8.

للأديب سوشي، بأنَّ الشيخ عبد الله قضى في مدينة (قوانتشو) عشرات السنين كانت له ممتلكات وافرة حتى لقد بلغ قيمتها عدة ملايين (مين)، ومن أجل أن يفهم الناس نقوم بمقارنة في الفترة التي بلغت فيها التجارة الخارجية لحكومة أسرة (سون) قمة إزدهارها، فإنَّ الدخل السنوي للحكومة كان لايتجاوز مليونين (مين)، وهذا يعني أنَّ ممتلكات الشيخ عبد الله الشخصية قد تجاوزت دخل التجارة الخارجية السنوي لحكومة أسرة (سون).

والذي يهمنا هنا هو أنَّ هذا النجاح المادي وراءه نجاح آخر معنوي أخلاقي ديني من علاماته الأمانة والصدق، والسلوك الحسن، وإلاَّ كيف يحصل هذا التاجر العربي على تلك الرتبة العسكرية العظيمة (جنرال) لولا أخلاقه الإسلامية المتميزة تلك، التي جعلت الإمبراطور الصيني يقدم للشيخ عبد الله عند عودته إلى وطنه الهدايا القيمة بصورة خاصة، وهو في الحقيقة اعتبار رفيع خاص للشيخ عبد الله، ومن خلال ذلك بإمكاننا ـ يقول الباحث الصيني ـ أن ندرك بأنَّ الشيخ عبد الله قد ساهم بشكل بيّن وبارز في مجال تطوير الاتصالات الودية المتبادلة بين الصين وعمان.

وهذه شهادة باحث أكاديمي معاصر استند إلى الوثائق التاريخية التي ما تزال موجودة في الصين إلى الآن. وقد أكدت السجلات العمانية هذه الحقائق التاريخية، حيث نقرأ أن رجلاً عمانياً يدعى أبو عبيدة عبد الله بن القاسم قام بأوَّل رحلة بحرية إلى قوانتشو في الصين، وربما كانت هذه الرحلة إلى الصين أقدم وأبكر سجل موجود من جانب العرب[1]

هكذا استطاع الداعية أبو عبيدة من خلال تجاربه وتجارته وأخلاقه

1- المصدر السابق، ص80.

الإسلامية العالية أن ينشر الإسلام سواء على يديه أو على يدي زملائه من التجار العمانيين الآخرين الذين قصدوا الصين، إذ نجد الشماخي يذكر في (سيره) عالماً إباضياً آخر وصل هذه الديار وهو النظر بن ميمون، ويقول عنه إنَّه كان من خيار التجار المسلمين[1]. وقد وصل العمانيون بمتاجرتهم إلى أقصى شمال الصين، إلى مدينة قانصوا وبلاد الشيلا التي يعتقد أنها بلاد كوريا الآن واليابان. وتوغلوا داخل البلاد حيث كانت بعض الموانئ الصينية لا تقع على الساحل الذي يطل على بحر الصين أو المحيط الهندي مباشرة.[2]

واستمرت رحلات العمانيين إلى ميناء كانتون الصيني، حيث كان لهم وكلاء عديدون في هذه المدينة وغيرها من مدن الصين التي فتحت أبوابها لتجارتهم، فكانوا هم الذين قاموا بمعظم النشاط التجاري مع بلاد الصين في القرن الثالث الهجري بصفة خاصة.[3]

وبما أن التجارة هي المحك الدقيق لواقعية الإسلام، وبروزه اليوم من خلال التعامل المالي والتجاري، فإن الإباضية العمانيين كانوا يمثلون بأخلاقهم الإسلامية العالية رسالة دعوية عملية إلى جانب دعوتهم إلى الإسلام وتطبيق تعاليمه في تلك البلاد، ومن هنا فقد كان لتجار عمان الرياسة للعرب والمسلمين في (كانتون) على النحو الذي رأيناه مع أبي عبيدة الصغير حتى لقبه الإمبراطور الصيني (جنرال الأخلاقية الطيبة)... وهذا كان نتيجة طبيعية لما اشتهر به هؤلاء التجار بسبب مذهبهم

1- السير ج1، ص90

2- د/ نايف السهيل: مرجع سابق، ص166

3- د/نايف السهيل، مرجع سابق، ص166

الإباضي من حميد الصفات، وجميل السجايا، ولم يكن تجار عمان ممن يتصفون بالأنانية، والجشع أو الحرص أو الشّح، كما أنّهم كانوا يندمجون مع أهالي البلاد التي يتاجرون معها، ويحاولون بشتى الطرق كسب ودهم ومعاملتهم معاملة طيبة، مما كان يؤدي بلا شك إلى إعجاب الصينيين بهم وبأخلاقهم التي كانت تتمثل في الأمانة والصدق بدرجة كبيرة. [1]

أندنوسيا وماجاورها:

سبق أن أشرنا إلى الوجود العماني في الهند والصين، وسبق أيضاً أن أشرنا إلى أنَّ وجود الإباضية العمانيين في الصين كان منذ عهد مبكر، أي منذ رحلة الداعية أبي عبيدة الصغير سنة 133هـ. وهذا يقود حتماً إلى عدم الشك في وجود العمانيين في الجزر والبلاد الواقعة في المسالك البحرية ما بين عمان والصين مثل سيلان (سريلانكا) ومالديف، وجزر الملايو، وأندنوسيا، وغيرها من البلاد الموجودة في هذه الأنحاء. وقد أكدت الوثائق ذلك.

وكان من الطبيعي أن يؤدي هذا الوجود المكثف إلى انتشار الإسلام في هذه البلاد مثل سومطرة وجاوة حتى بورنيو وجزيرة سليبس.

وهناك إشارات تدل على تأثر (جاوه) بالتجار الإباضية العمانيين، حيث عثر على مساجد أثرية قديمة كثيرة العدد بغير زخارف، مما يدلُّ على أنَّها من بناء التجار العمانيين، أو على الأقل متأثرة بالطابع العماني.[2] في بناء المساجد وهو طابع معروف ببساطته.

1- المرجع السابق، ص، 167

2- نايف السهيل، مرجع سابق، ص174.

...وكان العمانيون قد قدموا تجاراً رحالين أو مستقرين إلى سومطرة حيث بنو المستوطنات والمراكز التجارية، وقد يكون التجار المقيمون من قبل في سواحل الهند هم الذين أقبلوا إلى سومطرة.

وقد استجاب أهل أندنوسيا للإسلام وحافظوا على تقاليده، وقد ظهرت هذه الاستجابة في الثقافة العربية التي أصبحت مستخدمة عندهم «فقد انتشرت مفردات وكلمات عربية كثيرة في لغاتهم مثل اللغة الاتشهينيزية، وهي إحدى لغات سومطرة التي استعملت الأبجدية العربية أثناء تحولها من لغة شفوية إلى لغة مكتوبة.»[1] وكان طبيعياً أن تكون هذه المفردات تتعلق بالدين الإسلامي الذي حرص العمانيون على نشره في تلك البقاع.

ويقال إن إسلام مملكة (سوكدنه) كان على أيدي العرب وإنَّ هؤلاء العرب أتوا من سومطرة، ولما كان العمانيون يشكلون أغلبية العرب الذين كانوا يعملون بالملاحة والتجارة في هذه الجهات، فإنَّ المرجح أن التجار العمانيين هم الذين كان لهم فضل تحويل مملكة سوكدنه إلى الإسلام، كما أدخلوه إلى جزيرة ملوكس التي كانوا يجلبون منها الفلفل الذي يوجد في أراضيها، وخصوصاً في جزيرة (ترنات) التي اعتنق أهلها الإسلام، وكان سلطان هذه الجزيرة كما يحكي البرتغاليون أول زعماء ملكوس دخولاً في الإسلام على يد أحد التجار المسلمين.[2]

وقد عمت الدعوة الإسلامية بفضل نشاط العمانيين حتى بلغت جزر الفلبين، وهذا يدل على أنَّ العمانيين لم يكونوا تجاراً وحسب، وإنَّما جاؤوا دعاة للدين الإسلاميِّ قولاً وفعلاً.

1- يراجع أرنولد: **الخليج العربي**، ص426-427.

2- يراجع: **د/نايف السهيل**. مرجع سابق، ص176.

د- دور إباضية المغرب في نشر الإسلام في غرب إفريقيا[1].

ارتبط نشر الإسلام في إفريقيا السوداء بالتجار والتجارة ارتباطاً عضوياً، وكان أكبر الفضل في ذلك يعود إلى الدولة الرستمية التي نشطت هذه التجارة، ويصعب الحديث عن نشر الإسلام دون الحديث عن التجارة بين مراكز الحضارة في المغرب الإسلامي وبلاد السودان، وطرق القوافل ومسالكها عبر الصحراء لمعرفة أهم المراكز التي كانت همزة الوصل بين تاهرت وورجلان وبلاد الجريد وجبل نفوسة من جهة، وبلاد السودان الغربي والأوسط من جهة أخرى . فقد كان التجار يقومون إلى جانب أعمالهم التجارية بالدعوة إلى الإسلام وقد ارتبط انتشار الإسلام في القرن الثاني والثالث والرابع للهجرة في غرب إفريقيا بالتجار إلى الحد الذي أصبح من العسير معه الفصل بين الحركتين مما لا يسمح أبداً بوضع فاصل بين الدور الذي قام به التجار من جهة، وبين العلماء ودعاة الإسلام من جهة أخرى، فإنه غالباً مايجتمع الدوران في الرجل نفسه، ويتضح ذلك كما يقول الباحث أحمد إلياس حسين «من تتبع سير الإباضية الذين كانوا يمارسون التجارة على نطاق واسع في غرب إفريقيا منذ القرن الثامن الميلادي»[2].

وبما أن أغلب المعلومات المتعلقة بهؤلاء الدعاة إنما نجدها في كتب السير عند الإباضية في المقام الأول حين تتعرض لتراجم الرجال وذكر

1- يراجع، د/محمد صالح ناصر: **دور الإباضية في نشر الإسلام بغرب إفريقيا**، نشر معهد القضاء، سلطنة عمان، 1413-1992.

2- أحمد إلياس حسين: **دور فقهاءالإباضية في إسلام مملكة مالي**، ندوة العلماء الأفارقة، ص93.

أخبارهم وهم في الأغلب الأعم رجال اشتهروا بالصلاح والتدين والتقوى إلى جانب اشتهارهم بالحركية والحزم والنشاط، فإن (تادْيـُوش لفيتسكي) يجزم بأن هؤلاء الإباضية الذين كانوا يسافرون إلى بلاد السودان لم يكونوا يتحملون مشقة هذا السفر المضني من أجل الدوافع الاقتصادية وحسب، وإنما كانوا يفعلون ذلك لدوافع دينية تبليغية تتصل بالدعوة إلى الإسلام ونشر رسالته في هذه البلاد النائية، التي لم يصلها الإسلام في هذه العهود المبكرة وهذا ما نستنتجه من مكانتهم المرموقة التي نجدها في هذا المجال على النحو الذي ترويه لنا كتب السير عندهم.

والواقع إن ظاهرة ارتباط نشر الإسلام بالتجارة ليست خاصة بالإباضية أو ببلاد السودان، فإن الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها « لم ينتشر بالفتح وحده بل أدى التجار ومنهم علماء دوراً كبيراً في نشر الإسلام في كثير من أقطار الأرض، وكان العلماء في ذلك الزمان يعملون بالتجارة والصناعة والزراعة وغيرها من الحرف ليكسبوا من كد أيديهم ويؤدوا دورهم في نشر تعاليم دينهم ومبادئه في الوقت نفسه.» [1].

وقد عرف الإباضية منذ القديم بميلهم الشديد إلى الأعمال الحرة التي لا يرتبطون فيها بحاكم أو وال يدفعهم إلى ذلك حرصهم على الكسب الحلال، وتكونهم الأصيل الذي يعتمد على النفس تربية وتكويناً في الأغلب الأعم.

وقد أدى استقرار الإباضية على أطراف الصحراء في واحات فزان وجبل نفوسة وغدامس وواحات الجزائر ووارجلان وسدراته ثم وادي ميزاب منذ القرن الثامن الميلادي إلى ارتباطهم القوي بتجارة الصحراء،

1- عبد الرحمن الشرقاوي: **أئمة الفقه التسعة**، ص10

وعزز ذلك الارتباط اعتناق مجموعات من قبيلتي هوارة وزناته للمذهب الإباضي وتخصص كثير منهم بالتجارة عبر الصحراء.[1]

فسرعان ما انتظمت تجارة الإباضية في زويلة تحت إمارة بني الخطاب منذ تأسيسها عام 762م، وتوسعت تجارة الصحراء بقيام الدولة الرستمية في تاهرت عام 160 هجرية (766م) فقد أشرفت هذه الدولة على المنطقة الصحراوية مابين سجلماسة (جنوب المغرب الأقصى) وزويلة التي دخلت ضمن دائرة نفوذها واهتم الرستميون بالتجارة وطرقها فحفروا الآبار للقوافل في المناطق الداخلية في الصحراء وأرسلوا الجنود بصحبة التجار لتأمينهم من الأماكن التي يخشى فيها من غارات البدو.

وارتباط الدعوة إلى الإسلام بالتجارة على هذا النحو المتداخل المتكامل يعد في حد ذاته من أهم العوامل المساعدة على انتشاره بين الأفارقة في تلك البلاد الواسعة، إذ إن التجارة ميدان عملي تمتحن فيه العقيدة والأخلاق والسلوك اليومي، فإن المرء في صراعه مع الإغراءات المادية لا ينتصر على هوى النفس ونوازعها نحو الربح الوفير السريع من أيسر الطرق وأدناها، إلا إذا كان يملك قوة إيمانية تعصمه من الوقوع في المزالق، والتجارة هي الميدان العملي الذي توضع فيه تلك القيم للامتحان مع الآخرين . وما من شك في أن أهل تلك البلاد عندما كانوا يتعاملون مع التجار المسلمين كانوا يلحظون ما يمتازون أو يتميزون به عن غيرهم مما يجعلهم يتساءلون عن القوى الروحية الخفية التي تقف وراء هذا السلوك وذلك ما يدفعهم إلى التعرف على الدين الإسلامي مقارنين بينه وبين ما هم عليه من بدائية ووثنية.

1- ابن خلدون: **تاريخ**، ج2، ص286، محمد علي دبوز: **المغرب الكبير**، ج3، ص349.

وأقوى دليل على هذا التعليل مانجده في قصة علي بن يخلف وإسلام أحد ملوك مالي على يديه حيث نلحظ أن الشيخ علي بن يخلف لفت نظر الملك باستقامته «فكان الملك قلما جلس مجلساً إلا أجلسه معه إكراماً له، وكان يتعجب من خلقه وخلقه وكثرة عبادته ومحافظته على دينه».[1]

وهذا يجعلنا نبحث عن هذه العلاقات التجارية التي كانت بين الإباضية وبلاد السودان الغربي والأوسط إما إبان الحكم الرستمي في تاهرت أو بعد زوال الحكم في سدراته وورجلان، أو من خلال المواطن التي انتشرت فيها الجماعات الإباضية مثل بلاد الجريد، وأسوف، ووادي أريغ، وغيرها، ونتتبع المراكز التجارية الصحراوية الهامة التي كانوا يمرون بها أو يقيمون مثل أودغست، وتادمكت، وغانة، ومالي، وكوكو، وكانم. محللين الآثار الثقافية والفكرية التي تركتها هذه العلاقات في كل هذه المراكز.

وهكذا استخدم الإباضية التجارة وسيلة دعوية مقصودة عن وعي واقتدار، إيماناً منهم بأنها الوسيلة الأنجع لبث الدعوة إلى الإسلام ولاسيما في المناطق النائية التي لم يصلها الإسلام . ومن تم نلحظ كيف ازدهرت هذه الوسيلة في كل الأماكن التي قصدتها جماعات الإباضية ولعل أبرز مثال على ذلك لمرحلة الظهور فترة حكم الرستميين في المغرب الأوسط الذين استطاعوا بفضل سياستهم الحكيمة الاتصال بغيرهم وبث الدعوة الإسلامية في أوساطهم كما سنوضح ذلك.

و لم يختلف الإباضية العمانيون عبر مراحلهم التاريخية عن إخوانهم المغاربة، بل لعل نشاط العمانيين في هذا الصدد كان أظهر وأقوى بحكم

1- الدرجيني: **طبقات المشائخ بالمغرب**، ج2، ص517

مهارتهم البحرية وامتداد حدود مملكتهم إلى شواطئ شرق إفريقيا والهند والسند. إضافة إلى هذين المثالين تذكر المصادر كيف اعتمد انتشار المذهب الإباضي نفسه على يد التجار الإباضيين القادمين من المشرق والمغرب ولاسيما في مصر والمغرب وقد اعتبر بعض المؤرخين التجارة وسيلة فاقت في ذلك غيرها من الوسائل الأخرى كالحج مثلاً « لأن الحج له مواسمه المحددة بزمن معين أما التجارة فهي عمل لا ينقطع.» [1]

وكان من نتائج هذا الانتشار أن ظهر بمصر إباضيون مشهورون مثل الشيخ الطاهر عيسى بن علقمة المصري، الذي كان من متكلمي الإباضية في مصر ومن حذاق علمائها.

- ابن اليسع وهو عالم إباضي مشهور بسخائه وفضله.

- شعيب بن المعروف المصري الذي وصل إلى درجة الفتيا وله في التاريخ الإباضي دور معروف.

وهكذا بفضل تلك الدعوة النشيطة أصبح للإباضية بمصر جماعة وأتباع كثيرون وقد ظل الوجود الإباضي في مصر حتى بعد انقضاء الخلافة الفاطمية في عام 576هـ ومما يذكر أن صلاح الدين الأيوبي اعتنى بطلبة العلم من الإباضية حتى أنه أسكنهم جامع ابن طولون، وأجرى عليهم الأرزاق كل شهر، وكانت لهم مدرسة يحي بن طولون في القرن الحادي عشر للهجرة.[2] بل ظلت هذه المدرسة إلى عهد قريب جداً وكانت بها مكتبة غنية بالمخطوطات آل معظمها إلى دار الكتب المصرية.

1- د/محمد زينهم محمد عزب: **وأحمد عبد التواب عوض**، دراسة في تاريخ الإباضية، دار الفضيلة، القاهرة 1994، ص26.

2- د/رجب محمد رجب عبد الحليم: **الإباضية في مصر والمغرب**، ص100-105

الأثر الديني والثقافي:

إن التجار الإباضية لم يكونوا يحملون في قوافلهم الطويلة السلع المجتلبة من المشرق أو من المغرب وحسب، بل كانوا يحملون معهم ولا شك أفكارهم، ومبادئهم، ونظرتهم إلى الدين والدنيا معاً، كانوا يحملونها عبر مراكزها المختلفة وحيث ينزلون للراحة والاستجمام وعلف الراحلات لاستئناف المسير، ومن المعروف أن هذا الاستجمام كان يطول بحيث يترك أثراً ولا شك في الأهالي الذين يتصل بهم التجار، ولا يختلف هذا الأثر عن ذاك الذي يتركونه في المحطات الأخيرة على حافة نهر النيجر، وقد تكون الرحلة إلى أبعد من ذلك حتى تصل إلى حدود مايسميه ابن بطوطة في القرن الثامن بلاد الكفار. وأصدق شاهد على تغلغل الفكر الإباضي في هذه المناطق في البلاد والعباد مابقي حتى يومنا هذا قائماً في الفنون المعمارية المتأثرة بفنون العمارة عند الإباضية ولا سيما إباضية وارجلان وسدراته ووادي ميزاب. فقد لاحظ الباحث الألماني (شاخت) ذلك وخصص له دراسة قيمة قائمة على البحث العلمي الميداني[1] مستندة إلى المقارنة والتحليل النظري، قام بها في بعض بلاد السودان الغربي والأوسط، كما قام في قرى وادي ميزاب ووارجلان وجربة. وتوصل من خلال كل ذلك إلى التأكيد من أن الحضارة الإسلامية ذات الطراز الإباضي ولاسيما في بناء المساجد والمصليات في السودان الغربي والأوسط ضاربة بجذورها في تاريخ هذه المنطقة، واستنتج ذلك من التشابه النمطي بين مساجد وادي ميزاب ومساجد شعب peuls أو (الفولبي) الموجود في السودان الغربي والأوسط

1- يراجع: Schacht; J: Sur la diffusion des formes d architecture religieuse musulmane à travers le sahara, in travaux de l institut de recherches sahariennes, Tome XI, 1954.

بصفة خاصة. وأثبت هذا التشابه من خلال دلائل ثلاثة وهي:

أولاً : غياب المنبر في مساجد شعب البال (peuls) هو الأثر الأكثر لفتاً للنظر، فعلى الرغم من أن هذا الشعب أصبح اليوم يعتنق المذهب المالكي في الأغلب الأعم، وهو مذهب يتمسك بوجود المنبر في المساجد، فإن غياب المنبر في مساجد (peuls) لا يفسر إلا بتأثير خارجي عن هذا المذهب، وعندما سأل (شاخت) عن أسباب غياب المنبر أشار إليه أكثر من عالم ديني إلى المحراب وأوضحوا له أن المنبر لا علاقة له بقيام صلاة الجمعة، ولكن شاخت فسر هذا الغياب تفسيراً علمياً مقبولاً، فما دامت هذه الظاهرة تخص شعوب ((peuls دون (الكانوري) أو (الهوسا). فإن شاخت يعلل هذا بتأثر شعب ((peuls بطراز بناء المساجد عند الإباضية الذين كانوا من الرواد في نشر الإسلام في هذه المناطق، فإن ظاهرة غياب المنبر موجودة في مساجد وادي ميزاب ووارجلان وهذا له علاقة أساسية بنظرة المذهب الإباضي لأداء صلاة الجمعة وشروطها، فإن الإباضية بعد سقوط إمامتهم بتاهرت سنة 296هجرية فقدوا أهم شرط من شروط صلاة الجمعة حسب فهمهم وهو الإمام العادل، ففي غياب هذا الإمام الذي يعتبرونه الرئيس الديني والسياسي لجماعتهم فقدت صلاة الجمعة أهم شرط من شروطها، والواقع كما يقول شاخت : «إن صلاة الجمعة لم تكن شعيرة دينية وحسب وإنما كانت أيضاً تجمعاً سياسياً ولاسيما في العصور الإسلامية الأولى...

ووجود الإمام العادل قد تختلف النظرة إليه بين المذاهب ولاسيما عند المذهب المالكي والمذاهب السنية الأخرى».

يقول شاخت ، ومن هنا ننتهي إلى القول إلى أن وجود المسجد بدون

منبر عند شعب ((peuls في السودان الغربي إنما جاء إلى هذه المناطق عن طريق الإباضية بعد سقوط الدولة الرستمية والممر الذي انتقلت منه هذه الخصيصة في بناء المساجد طريقان أولهما انطلق من الجنوب التونسي عن طريق سوف والجريد ووارجلان، ثانيهما انطلق من ميزاب إلى وارجلان وواصلت نفس الممر الأول. ويقول (شاخت) بعد ذلك وعلى الرغم من أنني لا أستطيع أو أؤكد أي الطريقين سلكه غياب المنبر ليصل مساجد شعب البال فإني أؤكد بأن هذه الخصائص المذكورة لم تنتشر أبداً عن طريق جنوب المغرب الأقصى، فقد لاحظت وعاينت غياب هذه الخصائص المعمارية غياباً كلياً في تلك المناطق.

ثانياً: الخصيصة الثانية التي لاحظها شاخت هي المحراب ذو الشكل المستطيل، فبعد مقارنات ودراسات دقيقة في العديد من المساجد الإسلامية انتهى إلى مايلي : «إن ميزاب بدون شك هو نقطة الانطلاق لهندسة المحراب المستطيل، فعلى الرغم من أننا قد نلحظ وجود المحراب المستطيل في بقاع أخرى من العالم الإسلامي هنا وهناك، إذ نلحظ هذا في محراب سيدي سفيان في بجاية وفي غيرها من الأماكن التي ذكرها شاخت...ولكن وجوده في بعض مساجد ميزاب وعند مساجد شعب (البال) يصبح من المميزات اللافتة للنظر، وقد لاحظ شاخت وجود هذه الظاهرة في المصليات بوادي ميزاب أكثر من وجودها في القاعات المسقفة أي المساجد، وهو مالاحظه أيضاً (جان لوتيلو) في حفريات سدراته والمسجد القديم بقرية نفوسة الذي هو من أصل إباضي »[1].

ويضيف (شاخت): أن علماء الإباضية بوادي ميزاب أكدوا لي أنه لا

1- ينظر: lethielleux J.Ouargla Cité Saharienne,P68

علاقة للشكل المستطيل أونصف الدائري في المحراب، بالدين أو المذهب وإنما هي قضية تعود إلى ذوق الباني لا أكثر ولا أقل . وهم على حق في ذلك. ومع ذلك فإن هذا يؤكد مرة أخرى تأثر مساجد السودان الغربي بهذا الطراز من البناء وهو خاص بميزاب، وليس خاصاً بالإباضية لأنه شكل لا وجود له في مساجد إباضية جربة مثلاً.

ثالثاً: وأهم خصيصة فيما نرى من بين ملاحظات شاخت هي المئذنة ذات الشكل الهرني التي تعد طابعاً يميز مساجد الإباضية بوادي ميزاب ووارجلان عن غيرها من مساجد العالم الإسلامي بل إن وجودها ما يزال قائماً شامخاً في أحد مساجد واحة سيوه حيث كان الإباضية أيضاً . هذه المئذنة التي تلفت النظر بهندستها الجميلة المتميزة هي موجودة بكثرة في مساجد السودان الغربي وليست خصيصة خاصة بمساجد شعب البال هذه المرة، فقد لاحظ باحث آخر وجودها في مساجد شعوب إفريقية أخرى مثل الهوسا والكانوري إلى جانب شعب البال، كما يؤكد ذلك مارسيل مارسية وهو يرى رأي شاخت نفسه بأنه طراز معماري انتقل إلى هذه الشعوب مع الحضارة الإسلامية التي نقلها الإباضية إلى هذه المناطق.

ويقول دولافوس معلقاً على هذا التأثر الواضح الذي ما يزال باقياً في كثير من نواحي الصحراء حتى اليوم مثل جانت وايزلواز، وأغاديس أنه لا يعقل أن نقول إن الميزابيين بنوا هذا الشكل أخذاً عن السودان ولكن نقول إن السودانيين بنوا هذا الشكل تأثراً بالميزابيين. [1]

وبعد:

1- ينظر: Schacht, sur la diffusion des Formes

فإنَّ هذه الآثار الملموسة الباقية شامخة حتى اليوم تشهد بما لا يقبل الشك أبداً على أن الإباضية لم ينقلوا هذا الفن المعماري المتميز الأصيل إلى غرب إفريقيا وحسب، بل إنهم نقلوا إلى جانبه حضارتهم وثقافتهم وفكرهم وكل مميزاتهم العقدية والأخلاقية، وكانوا الرواد الذين نشروا الإسلام في صورته النقية الصافية بين الشعوب الإفريقية التي اختلطوا بها فأحيوها اقتصادياً ودينياً ووصلوها روحياً ومادياً، وعلى الرغم من الصراع المذهبي الذي كان وليد العصر الوسيط وعلى الرغم من حملات التشكيك والاستنقاص من قيمة المذهب الإباضي التي تطالعنا به بعض الأقلام المتخلفة من حين إلى آخر فإن حقيقة إنسانية خالدة لن يستطيع الزمن تغييرها وهي الحقائق التاريخية الباقية في البلاد والعباد[1]. إن هذه الحقيقة الباقية تدعونا مرة أخرى إلى التأمل في المفارقة المؤسفة التي يحياها العالم الإسلامي اليوم. وهي كيف دخل الإسلام وانتشر مع التجار الإباضية وعلمائهم فكان الإحياء المادي والروحي، وكيف يخرج الإسلام اليوم من تلك المناطق على يد المبشرين المسيحيين مستخدمين سلاح الاقتصاد فصار الإماتة المادية والروحية معاً.

1- لا بدَّ من الإشارة عنَّا بأنَّه يوجد في (غانا) اليوم من سكانها من يعتنق المذهب الإباضيَّ، ومنهم طلاَّب كانوا يدرسون بالأردن وعمان، تعرفنا عليهم. (م.ن)

4- حلقة العزابة ودورها في بناء المجتمع المسجدي:

نشأة الحلقة.

إنَّ الدارس عندما يعود إلى كتب الإباضية التي تحدثت عن نشأة الحلقة قبل انتقالها إلى وادي ميزاب يلحظ مدى التطور الكبير الذي أصابه هذا النظام بدءاً من مؤسسيه الأوائل مثل أبي عبد الله محمد بن بكر الذي يعتبر النظام الذي وضعه هو الآخر تطويراً لما وجده عند سابقيه أبي القاسم يزيد بن مخلد وأبي خزر يغلى بن زلتاف اللذين عاشا مابين (300-350) [1]، ويلحظ الدارس من جهة أخرى أن النظام كان علمياً ودينياً بحتاً ثم تطور ولاسيما في المجتمع الميزابي ليصبح نظاماً متكاملاً يهتم بكل نواحي الحياة الفردية والجماعية . ديناً واجتماعاً واقتصاداً وسياسة.

يقول البرادي في الجواهر المنتقاة وهو من مؤرخي القرن التاسع الهجري حيث يصف الشروط التي ينبغي أن تتوفر في العزابي الذي يلتحق بالحلقة .

«أول ذلك من سيماء من أراد الدخول في طريق المبتدئين العزابى، وذلك إذا اعتزل العوائق الدنيوية وأول ما يتخلى عنه حلق الشعر ولا يتركه يطول، والعزابة من شعارهم عدم الشعور، ومنها ألا يلبس ثوباً مصبوغاً إلا البياض ولا بأس بعلم الطرفين والطراز ما لم يتفاحشا.» [2]

ثم يستطرد في وصف دقيق لما يجب أن يكون عليه لباسه الذي ينبغي أن يختلف عن لباس العامة من حب الفخفخة وتزويق المظهر، والتعبير عن

1- عن نظام هذين الرائدين ينظر، عبد الرحمن أيوب: **سير أبي زكريا**، ص195.

2- البرادي: **الجواهر**، ص207.

الزهد في الحياة الدنيا والانصراف عن زخارفها . ثم يحدد الفئات التي تكون الحلقة حيث يقول: «وأهل الحلقة صنفان آمر ومأمور، فالآمر اثنان شيخ الحلقة والعريف، والعريف صنفان منفرد وغير منفرد، فالمنفرد اثنان عريف أوقات الختمات والنوم، وعريف الطعام وغير. المنفرد العرفاء من حملة القرآن منهم من يكتب عليه طلبة القرآن ألواحهم، ويصححونها عليه، ويحفظونها، وعريف على أوقات الدراسة يكون واحداً ويكون أكثر إنما هو على قدر الاحتياج إليه . والمأمور ثلاثة : طلبة القرآن، وطلبة فنون العلم والأدب، والعاجزون ولجميعهم أوقات يختص بها.» [1]

ويستطرد البرادي في ذكر التفاصيل المتعلقة بنظام التعليم، والأكل، والعبادة، وما يتطلب في طالب الحلقة من آداب، وأخلاق، وصفات، ويصف طرق التأديب والإجازة، ويتتبع نظام الحلقة في أدق الجزئيات وكأنه يضع، بين أيدينا لائحة داخلية مفصلة لداخلية من الداخليات، والذي يستطيع المرء استنتاجه من هذا النظام هو أنه الجذور الأولى لما أصبح عليه نظام العزابة المتطور بوادي ميزاب، فاشتراط الأخلاق الكريمة، والصفات العالية، والالتزام الدقيق بمبادئ الشريعة الإسلامية، والعناية بحفظ القرآن ومذاكرته، والانقطاع إلى العبادة واستحضار محاسبة الله في كل أمر. وحلق شعر الرأس، ولباس الثياب البيضاء وغيرها كل هذه الشروط التي كان أبو عبد الله يشترطها في تلاميذ الحلقة هي نفسها التي تلقى على مسامع العزابي الجديد الذي يلتحق بالحلقة حتى يومنا هذا، مع اختلاف بسيط في بعض الشكليات.

وهكذا نلحظ أن نظام العزابة بدأ لغايات تعليمية توجيهية، الهدف منه

1- المصدر السابق، ص208

تكوين التلاميذ الذين كانوا يجلسون إلى شيوخهم في شكل حلقة دائرية ومنها أخذ اسم الحلقة، ولكن هذه الحلقة تطورت مع تطور الظروف الزمانية والمكانية، والعوامل الداخلية والخارجية تطوراً كبيراً فتوسعت رعاية الفرد في المجتمع الإباضي في جميع مناحي حياته الدينية، والاجتماعية، والثقافية، والسياسية، والاقتصادية، وقد تجلى هذا التطور على أتم صورة وأكملها بعد نشأة وادي ميزاب وتبلور بصفة أخص بعد بداية الحركة الإصلاحية في العصر الحديث كما سنوضحه بحول ا لله.

بعد تكون مدن ميزاب السبع: العطف، بنورة، بني يسجن، غرداية، مليكة، ثم بريان والقرارة. اقتضى التنظيم الاجتماعي لهذه القرى التي تكوِّن مجتمعاً واحداً أن تكون هناك هيأة تشرف على تسيير هذا المجتمع بطريقة تكفل له الاستمرارية في ظل دينه الإسلامي وعوائده وأخلاقه ونظمه؛ وبما أنَّ كلَّ قرية من هذه القرى تتكوَّن من عشائر فإنَّ العشائر كانت تختار الهيئات ذات النفوذ لتسهر على سير المجتمع الإباضي في كلِّ قرية وبالتالي في قرى الوادي كلّه.

وترجع هذه الهيئات من حيث الأمور الدينية والدنيوية إلى قسمين أصليين، قسم الطلبة، وقسم العوام.

أما قسم الطلبة فيتكون من :

1ـ هيأة العزابة.

2ـ هيأة التلاميذ من غير حفظة القرآن (إِمَصُّوردان) . والذي يعنينا بالدراسة هنا هم هيأة العزابة.

والعزابة جمع (عزاب) بفتح العين مأخوذ من عزب عن أهله انفرد عنهم، سموا بذلك لانقطاعهم إلى ا لله بالاشتغال بأمر دينه، ويذهب

روبانيكسي وهو أب مسيحي إيطالي إلى أن الكلمة جاءت من كلمة العزوبة أي ترك الزواج وحاول أن ينبش في سير الإباضية ليستخرج مايؤيد مذهبه مستدلاً بأخبار أبي القاسم مخلد أحد أئمة الإباضية في النصف الأول من القرن الرابع حين سأل عن رجل من التلاميذ فقيل له «تزوج» فقال لأن يلغني موت واحد من التلاميذ أحب إليَّ من أن يلغني تزويجه. فقالت له زوجته فلم تزوجت أنت إذاً ؟ .

فقال لها لو علمت مكان مسألة ليست عندي لما ردني باب النوى إلى «سجلماسة» لشددت إليها رحلي، ولا أخاف أن يعذبني الله إلا على الجهل. [1]

فاستدلال «روبانيكسي» بهذا الخبر ليؤيد به تفسيره للكلمة ليس في محله، ومحاولته الربط بين نظام الحلقة وبين الرهبانية المسيحية أمر مفضوح، لأن الرواية تدل دلالة قاطعة على أن أبا قاسم إنما كان يقصد إلى توجيه تلامذته للاشتغال بالعلم وهم في مرحلة الطلب ولو كانت نيته عدم التزوج لبدأ بنفسه. [2]

وهيأة العزابة هي الهيأة العليا في البلد على الإطلاق، لها النفوذ الروحي على المجتمع الإباضي والسلطة المطلقة في كل ماله علاقة بالدين . أو هي في عبارة موجزة : الهيأة الشرعية الحاكمة القائمة مقام الإمامة العظمى في مرحلة الكتمان.

وهي تتركب من اثني عشر عضواً، يكونون المجلس الديني غالباً ولا

1– عبد الرحمن أيوب: **سير أبي زكرياء**، ص195

2– نجد التفسير نفسه عند البولوني ليفتسكي، ينظر **دائرة المعارف**، مادة لحلقة.

يتجاوزونه إلا إذا اقتضت الضرورة العملية ذلك، مثل التوسع الديمغرافي وتنوع مصالح الناس مما يتطلب التفرغ لكل هذه المهام، ففي مدينة القرارة مثلاً تضاعف عدد أعضاء المجلس نظراً لما ذكرناه، ولإحداث مساجد عديدة بنواحي البلدة يتوزع العزابة الإشراف عليها، وتسييرها، ولكنهم يتصرفون جميعهم وفق مجلس واحد يضمهم جميعاً، ولهم جلسة أسبوعية معينة يلتقون فيها للتدارس والتشاور واتخاذ القرارات والتوصيات.

والواقع أن سلطات الاستعمار الفرنسي قد قلصت من نفوذ العزابة بعد احتلالها لميزاب سنة1882م، والكتابات المتحدِّثة عن تاريخ ميزاب إبَّان الاحتلال تشهد كلُّها على النفوذ الواسع الذي كان بيد العزابة[1]، وطبقاً لها فإنَّ الإدارة في القرارة - مثلا - كانت بيد ثلاث سلطات: العزابة، والجماعة، والمكاريس . فالأولى هي السلطة العليا وهم رجال الدين، والثانية هم مجلس يتكون من العوام غير الطلبة من أعيان البلد يساعدون العزابة على السلطات التنفيذية، والثالثة هم المكاريس أو الحراس الذين يوكل إليهم حفظ الأمن والنظام.

أما العزابة الذين يتكون مجلسهم من اثني عشر عضواً منهم رجال يحفظون القرآن ويتولون إدارة المسجد والسهر على المحافظة عليه نظافة وأوقافاً وتسييراً، يعلمون الأطفال (بالمحاضر)[2] التابعة للمسجد ويدرسون العلوم للكبار، ويعاقبون المنحرفين ويحمون الضعفاء والأرامل والأيتام، يسطرون الأعمال ويصدرونها حسب الشريعة الإسلامية، ويضعون حدود المنازل والبساتين والطرق، وتتطوَّر أعمالهم ومهامهم حسب تطور الحياة في جميع مناحيها.

1- يراجع الشيخ أبو اليقظان: **الحضارة في تاريخ القرارة**، (مخطوط).

2- المحاضر : جمع محضرة : كتّاب القرآن

وبناء على تلك النصوص نخلص إلى أن نظام الحلقة نظام شامل لجميع مناحي الحياة ينتظم ويتناسق بين الجماعات التي يشرف عليها العزابة.

فالجماعة المكونة من اثني عشر عضواً مكلفة بتسيير شؤون البلدة في الداخل والخارج أي تمثل السلطة التنفيذية، كما أن المكاريس يمثلون السلطة الدفاعية أو الأمنية إذ يكلفون بالأمن العام والمحافظة على النظام والقبض على المنحرفين والمشوشين . وليس لهاتين الجماعتين من الصلاحيات إلا تلك التي تكلفهم بها سلطة العزابة [1]

...وعلى رأس العزابة أو الطلبة يوجد شيخ بمثابة الرئيس الفعلي للمجلس يمثل السلطة العليا لكل مدينة من مدن ميزاب، وهكذا تكونت نتيجة لما قلناه سابقاً جمهورية فعلية من رجال الدين هؤلاء الشيوخ رؤساء الحكومة توقف نفوذهم بهذه الصفة بعد دخول الفرنسيين. [2]

وللمجلس الديني حق اختيار أعضائه بدون أدنى مداخلة في ذلك لمن عداه، فيختار من كل عشيرة من ينوبها من الرجال الأكفاء الصالحين، ويتحرى في اختيارهم أعلم وأصلح وأورع من في العشيرة بشرط أن يكون متخرجاً في دار التلاميذ حافظاً لكتاب الله أي من هيأة (إيروان) إلا إذا لم يوجد مثله في العشيرة فإنه يختار من هيأة التلاميذ غير المستظهرين للقرآن الهيأة الثانية (امصوردان) وهذا نادر. [3]

ومن شروط العضوية أن يكون عمل العزابي لله وحده ولا يجوز له أن

1- Motylinsky: Guerrara depuis sa fondation, Alger, 1908, p20.

2- ليفتسكي: **دائرة المعارف الإسلامية** .

3- ينظر أحمد توفيق المدني: **كتاب الجزائر**، ص105.

يأخذ أية أجرة على وظيفته أو مهمته بالمجلس، والمجتمع الإباضي في كل قرى الوادي يتمسك بهذا الشرط أيما تمسك حتى لا يتقدم إلى وظائف المسجد إلا كل نزيه ورع كفء لا يرغب في هذه الوظائف السامية لأمر دنيوي أو كسب مادي أو سمعة أو جاه أو نفوذ.[1]

ودفعاً للحاجة المادية فإن الذي ينضم إلى المجلس الديني يتطلب فيه أن يكون صاحب عمل أو حرفة حرة، فأعضاء العزابة كلهم يكسبون قوتهم من كد يمينهم فترى فيهم الفلاح، والتاجر، والعامل، والمعلم . واعتمادهم على أنفسهم في كسب القوت يضفي على مهمتهم الدينية صفة النزاهة والقناعة والتعفف وإخلاص العمل لله وحده، كما أن اشتغالهم بهذه الأعمال يجعلهم أدخل في الحياة الاجتماعية، وأكثر احتكاكاً بفئات الشعب في حياته اليومية، وهذا ما يساعدهم على معايشة واقع الناس وإدراك مشاكلهم، وتحليل قضاياهم، والحكم على آرائهم ومواقفهم، ثم إن هذا الشرط يقدم من العزابي الدليل العملي الواضح لنزاهة المقصد وقدسية الرسالة، ويضع أمام الناس المثال الحي لما يجب أن يكون عليه المرء من الاعتماد على النفس، وأخذ الحياة من جانبها العملي وفهم الإسلام من رؤية حركية ديناميكية كما تأمر بذلك الشريعة السمحاء، وقد وقف المفكر الإسلامي مالك بن نبئ حين زار وادي ميزاب سنة1968 أمام هذه الظاهرة وقفة المتأمل الذي يتعمق الأشياء ويرجع بها إلى أصولها الإسلامية وأرضيتها الأصيلة الصلبة، فربط بين التكافل الاجتماعي الذي يسود المجتمع الميزابي وبين ظاهرة العمل التي يقول عنها أنها القاعدة الأساسية التي تحكم هذا المجتمع الإسلامي، وذلك حيث يقول: « في هذا المجتمع كل فرد يعمل

1- ينظر للتوسع: محمد علي دبوز: **نهضة الجزائر الحديثة**، ج1، ص195.

من أجل المجموع، وكل المجموع يعمل من أجل الفرد، إنها القاعدة السحرية التي تحكم هذا المجتمع وتسموبه.

إن العمل هو القاعدة التي تحكم الجميع، فالخدمات التطوعية تكاد تكون حياة يومية، فما أن ينادى في المسجد إلى عمل تطوعي حتى يتسارع الناس ملبين بطواعية وعفوية، كل الفئات تحكمها هذه القاعدة.

عندما زرت مسجد العطف استقبلني إمام المسجد بلباسه الديني كما كنت أتوقع، وبعد غد صادفته في إحدى طرق البلدة وهو بلباس الفلاح عائداً من حقله...وتحت نخيل واحة القرارة قدم إلي شخص قوي البنية وصافحني بيد شثنة خددها العمل اليومي المتواصل، وقد تمنطق بحزام عريض فوق لباس العمل البسيط، فقيل لي إنه إمام المسجد.[1]»

مهام العزابة.

1 ـ المهام الدينية :

يصعب على المرء في الواقع عندما يتحدث عن مهام العزابة أن يفصل بين ماهو مهام دينية، وبين ماهو مهام اقتصادية مثلاً لأن الدين الإسلامي دين يتغلغل كل مناحي الحياة في المجتمع الإسلامي الحق، وبما أن الحلقة إنما أنشئت لتكون الإمامة الصغرى التي تنظم حياة المجتمع الإباضي فإنه بات طبيعياً أن يكون من مهامها وصلاحياتها التشريع والتنفيذ والحكم.

فمجلس العزابة من هذا المنظور هو أعلى سلطة في المكان الذي يوجد

1– ترجمة بتصرف عن الفرنسية ينظر، **الثورة الإفريقية** عدد 274، ص20،26 مايو 1968.
ويراجع د/ محمّد ناصر: **مكانة الإباضيّة في الحضارة الإسلاميّة**، نشر مكتبة الاستقامة، سلطنة عمان، 1992م.

فيه، وهو يمثل سلطة الإمام ويقوم مقامه في جميع مهامه وواجباته باستثناء إقامة الحدود التي يعطلها الإباضية في طور الكتمان حتى لا يستعدوا السلطات الحاكمة أو مخالفيهم ضدهم، ويقتفي مجلس العزابة في هذا الصدد بالسنن الذي سار فيه رواد الحركة الإباضية الأوائل في البصرة إبان المرحلة السرية خلال القرنين الول والثاني الهجريين. [1]

ويقتسم أعضاء المجلس المهام التي تتطلبها الحياة في المجتمع الإسلامي ديناً وثقافة واجتماعاً وسياسة واقتصاداً وغيرها فيتكفل كل عضو بما يليق له كل حسب موهبته واستعداده العقلي والجسدي والنفسي، يترأس مجلسهم غالباً أقدمهم في الحلقة وأكبرهم سناً، وقد تسند الرئاسة في بعض الأحيان للأعلم والأفقه في الحلقة. فقد حدث أن ترأس الشيخ بيوض حلقة العزابة في العشرينيات، وهو أصغر عضو في الحلقة، نظرا لعلمه وكفاءته.

وأول هذه المهام، الوظائف الدينية للمسجد، مثل المفتي، والإمام، والمؤذن، وناظر الأوقاف، ومؤدب الصبيان، وغسلة الأموات.

أما الإمام فيراعى فيه التقوى والصلاح، والحزم والتفقه في الدين، والصوت الجوهري الحسن، والسلامة من العيوب الخلقية كفقدان البصر وغيرها مما يعوقه عن أداء عمله بالكيفية المطلوبة، ويعين المجلس له خليفة يخلفه حين تقتضي الضرورة غيابه. [2]

وتعد وظيفة الآذان من أهم الوظائف لأنها تتطلب من القائم بها دقة وانضباطاً وحضوراً مستمراً، ولا يستطيع الاتصاف بهذه الصفات إلا من

1- د/هوض محمد خليفات، **النظم الإجتماعية والتربوية عند الإباضية في شمال إفريقية**، عمان 1982، ص43.

2- ينظر محمد علي دبوز، **نهضة الجزائر الحديثة**، ج1، ص107

كان أولى صفاته الحزم والنشاط والسلامة الجسدية، وقد كانت مهمة المؤذن قبل الإنارة الكهربائية بمدن ميزاب شاقة وعسيرة، لايستطيعها إلا الصلب القوي لأن المهمة تتطلب منه الصعود إلى أعلى الصومعة خمس مرات في اليوم حتى يسمع صوته من كل مكان.

كما تتطلب منه صبراً واحتمالاً على السير في الشوارع المظلمة في غلس الشتاء، أو وهج الشمس في حر الهاجرة . وليس يسيراً على المرء أن يلتزم التزاماً دائماً بالنهوض قبل الفجر بساعتين لاسيما في ليالي الصيف القصيرة، وعلى المؤذن قبل هذا وذاك أن يكون مثالاً لحسن السلوك لأنه يعتبر أولاً وقبل كل شيء من أعضاء الحلقة البارزين .

ومن أهم مهام الحلقة، مهمة الوعظ والإرشاد التي تناط في الأغلب الأعم برئيس المجلس ويوليها المجلس عنايته ومتابعته وحضوره.

فالمساجد في ميزاب لا ينتهي دورها عند أداء الصلوات المكتوبة، وإنما يتعدى ذلك إلى ماهو أهم من ريادة المجتمع، وقيادة الناس في حياتهم اليومية كلها، وبذلك يكون المسجد في المجتمع هو الموجّه، والمربّي، والواعظ، والمعلّم .

وتجسيداً لهذه الريادة، يحرص المجلس الديني على وظيفة الوعظ والإرشاد بالمواظبة المستمرة في كل وقت وفصل، وينتقى له أكفأ أعضاء الحلقة تجربة، وأقواهم شخصية، وأغزرهم علماً ومعرفة، وأفصحهم لساناً .

وتترك هذه الدروس التي يلقيها المشايخ في المساجد أثراً بعيداً في سلوك الناس، وتعاملهم مع بعضهم بعض، وتوجه دفة حياتهم اليومية للصالح العام، وتعمق نظرتهم إلى الحياة في جميع مناحيها .

وإذا كان هذا التأثير يتفاوت من مدينة إلى أخرى بحسب تأثير الشيخ الذي تناط بعهدته هذه المهمة طبعاً، فإن الاجماع عام على الأثر البليغ الذي استطاع أن يتركه بعضهم في النهضة الإصلاحية من أمثال الشيخ اطفيش[1]، والشيخ بيوض .[2]

فقد ترك هذان الشيخان الفاضلان بصمات واضحة في حياة وادي ميزاب ودفعوا النهضة الإسلامية الحديثة به دفعة قوية إلى الأمام، وكان لهما الفضل الأكبر في تطوير الواقع الإجتماعي في جميع مجالاته، والخروج به من عصور الانحطاط والتخلف.

إن منبر الوعظ والإرشاد الذي هو من أهم مهام المجلس الديني قد أدى دوراً عظيماً في تطويرالمجتمع الميزابي، وإخراجه من الظلمات إلى النور، بدأ ذلك في عهد الشيوخ الذين ظهروا على الساحة الاجتماعية والدينية في أواخر القرن الثالث عشر الهجري، ولكن التطور الحقيقي إنما ظهر على يد الإمام الشيخ بيوض مع بداية النهضة الإصلاحية بعد الحرب العالمية الأولى.

لقد حول الشيخ بيوض بنظره الثاقب ومواهبه الفذة المسجد في القرارة إلى مركز إشعاع علمي بأتم معنى الكلمة وأصبح المسجد في عهده جامعة مفتوحة يؤمها كل الناس .

إن هذا الانقلاب العظيم الذي تزعمه الشيخ بيوض يعود إلى نهجه التربوي الرشيد الذي يتبعه في دروس تفسير القرآن الكريم. فقد كان ينتهج نهج محمَّد عبده في التفسير، ويتبع أسلوب عرض المجتمع على القرآن

1- الشيخ محمد بن يوسف اطفيش مجدد الفكر في ميزاب، ت:1914م

2- الشيخ ابراهيم بن عمر بيوض، رائد الحركة الإصلاحية، ومعلم الأجيال. ت:1981م

الكريم، والسنة النبوية الشريفة، عارضاً مشاكله الاجتماعية اليومية. منطلقاً من واقعه المعيش بحصافة وبعد نظر بعيدين عميقين، وقد انطلق هذا الإشعاع من مسجد القرارة ليعم سائر مدن ميزاب، وهذا يعود أساساً إلى اتخاذه المسجد مدرسة اجتماعية بأتم معنى الكلمة وعيا منه بما للمنبر المسجدي من دور ريادي، فإلى جانب المدارس الحرة النظامية التي أسستها الجمعيات الخيرية تحت رعاية المساجد، والتي كانت لتعليم الناشئة وتربيتها تربية إسلامية، كان هناك المسجد هذه المدرسة الاجتماعية التي ينتسب إليها كل أفراد المجتمع على اختلاف طبقاتهم ومستوياتهم الفكرية ذكراناً وإناثاً، شيباً وشباناً، أساتذة متضلعين وتلامذة مبتدئين، وكل منهم يغرف من دروسه حسب موهبته واستعداده العقلي.

وفي بعض المواسم الدينية مثل شهر رمضان والعيدين تتحول المدينة كلها إلى المسجد، وتعيش جواً مسجدياً رائعاً يكاد يكون اعتكافاً جماعياً إن صح هذا التعبير.

ونترك وصف هذه الظاهرة لقلم الشيخ محمد علي دبوز حيث يقول:

«إن المدينة كلها في رمضان، سيما في القرارة رجالها ونساءها، يسارعون بعد الفطور إلى المسجد ليظفروا بالأماكن قبل اكتظاظه، على سعة المسجد وكبره .

إن رئيس كل أسرة والرئيسة في كل دار حريصون على حضور كل أبنائهم وبناتهم لدروس الشيخ بيوض سيما في المواسم الدينية التي تكون دروسها ممتازة...فالعائلة كلها تسرع إلى المسجد فتمتلئ أركان المسجد كلها بالمدينة.» [1]

1- نهضة الجزائر الحديثة، ج1، ص202

وترى الدرس يستمر في بعض المواسم والأعياد ثلاث ساعات وأكثر، والناس خاشعون أمامه يصغون إلى الدرس بقلوبهم وعقولهم.

وترى آلات التسجيل الكثيرة أمامه بلغت في بعض المناسبات أكثر من عشرين آلة تسجيل يسجل بها الناس دروسه النفيسة لنقلها إلى مقرات عملهم أو يُسمعونها لأصدقائهم وإخوانهم خارج وادي ميزاب ليعم النفع، وتتحد وتتآلف القلوب. [1]

وكان الشباب بصفة خاصة لا يفوتون فرصة العيد في القرارة حرصاً منهم على حضور هذه الدروس التي كان الشيخ يحتفل بها احتفالاً يليق بجلال المناسبة وقدسية الرسالة، وكانت تفعل فيهم فعل السحر فإليها يرجع الفضل في توحيد صفوف الأمة وتحسيسها بقيمة دينها الإسلامي ولغتها العربية لغة القرآن الكريم.

وإليها يرجع الفضل في القضاء على البدع والخرافات التي ترسبت في أذهان الناس من عهود الانحطاط الفكري، والمقاومة لكل مظاهر الانحراف والانحلال الخلقي التي تفشت مع طغيان المدنية الغربية، ومامن شك في أن من اهم عوامل نجاح هذه الخطة المحكمة موهبة الشيخ بيوض التي قل لها نظير في وادي ميزاب، فقد كان الشيخ يتمتع بميزات عديدة قلما تجتمع في شخص واحد، وعلى رأسها الفصاحة والبيان، وحدّة الذكاء، وسعة المعرفة، والمرونة في مسايرة الأحداث، والمواكبة المستمرة للتطورات المحلية والدولية من حوله، والتمسك الأصيل بالمقومات الإسلامية، هذه كلها تتوجها شخصية دينية مهيبة قوية تفعل في الناس فعل السحر، وتتغلغل في

1- المصدر السابق، ص199 بتصرف.

أعماقهم حباً وتقديراً وإعجاباً وولاء.

وإلى الشيخ بيوض يعود الفضل الأكبر في بناء هذا المجتمع المسجدي، لا بدروسه العظيمة القيمة فحسب، بل بنزوله إلى الميدان بخطة عملية متكاملة، فقد استطاع أن يزرع في قلوب الناس ووعيهم هيبة جليلة للمسجد، وحباً وتأييداً لنظمه، واستعداداً قوياً للاستجابة السريعة إلى كل ما يمليه المسجد أو يدعو إليه فعلاً وتركاً، وإيراداً وإصداراً .

وبهذا أعطى لحلقة العزابة، التي كان شيخها ورئيسها مدة نصف قرن تقريباً، هيبتها وجلالها.

ولا تقتصر مهمة الوعظ والإرشاد على مساجد ميزاب فقد يوفد المجلس أعضاء من حلقته يقومون بدورات وعظية في مدن الشمال حيث يوجد أبناء المنطقة تجاراً وموظفين.

ومن هنا يتبين أن «الإمام والمؤذن وشيخ المسجد هم رؤساء العزابة وغمدتهم، يواظبون على أعمالهم ولا يتخلف أحدهم إلا نادراً لعذر قاهر، وإذا تخلف أعلم نائبه ليقوم بعمله.» [1]

2 ـ المهام الاجتماعية:

ولاتقتصر العزابة على المهام الدينية فتحصرهم بين جدران المسجد لا يبرحونه، أو يكتفون بما يعرضه عليهم الناس من مشاكلهم استفتاء وإنابة، بل إن المهام تبدأ من هنا لتذهب إلى أبعد حيث تتغلغل في أعماق المجتمع فتفقده في نواحي حياته كلها في السوق، والمتجر، والحقل، والمصنع، توليه

1– المصدر السابق، ص197 ، وانظر أيضاً : عوض محمد خليفات، النظم الاجتماعية، ص43.

الرعاية والتوجيه المستحقين .

فالعزابة يحرصون كل الحرص على تنظيم العلاقات الاجتماعية التي تربط بين أفراد المجتمع بما يقتضيه كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ولا يتأتى هذا إلا بالتدخل المنظم والمواكبة المستمرة لحركة التطور داخل المجتمع، وهو مايجعل المجلس يتابع عن كثب مايحدث من تغيرات ويرعى خطوات الجماعات والأفراد في الأفراح والأتراح، حتى لا تجرفهم تيارات المدنية الوافدة، وحتى لا ينحرفوا عن أصالتهم، وقيمهم، ونظمهم .

فأعضاء المجلس الديني هم العمود الفقري لكل التظاهرات الاجتماعية يشاركون فيها بحضورهم اليومي ويشرفون عليها، فترى الصدر في الحفلات والمناسبات مخصصاً لأعضاء الحلقة لا يمكن أن يجلس فيه غيرهم مهما كانت منزلته المادية أو الأدبية، تقديراً من المجتمع لهذه السيرة التي توارثها عن أجداده، ومحافظة عليها ليبلغها إلى أحفاده، لأنه مقتنع بأن التماسك والتضامن الاجتماعيين إنما يعودان إلى هذا النظام الذي يوحد الأمة في المشاعر والمآثر.

إن أهل المدينة يطلبون من العزابة أن يرأسوا حفلات أعراسهم، وترى العزابة هم الذين يشيعون الميت، ويحضرون دفنه، فيختلطون بالعامة في أتراحها، فيستغلون تلك الأحوال - التي يكون الوجدان فيها هو أقوى شيء في الإنسان - للتوجيه والإرشاد، والناس مستعدون للتأثر والامتثال، ولا يقتصر دور العزابة على المشاركة المظهرية في هذه المناسبات إشرافاً وتسييراً بل هم يؤدون دوراً اساسياً في وضع نظامها المحكم، ويسطرون لوائحها الداخلية حتى لا ينحرف المجتمع وراء مظاهر الإسراف والانحلال ولا ينساق تحت تأثير عواطف الغلو والجيشان العاطفي، فإن النظم

الاجتماعية إذا تركت للعواطف الشخصية، والتصرفات الفردية طغت عليها الأنانية ففقد المجتمع أهم مقوم له وهو التوازن الاجتماعي بين أفراده، وبالتالي يفقد التماسك والتضامن بين جماعاته وعشائره.

لذا تجد الحلقة حريصة كل الحرص على متابعة ومراقبة مايجري في هذه المناسبات الاجتماعية، فتحدد المهر والصداق بكيفية ترضى الله ورسوله، لأنها إن لم تفعل ذلك طغت النزعات الفردية وظهرت المادية والمنافسات المظهرية بين العائلات بطريقة تؤثر حتماً على المستوى المادي للفقير الذي لا يستطيع مسايرة ركب الأغنياء والأثرياء، ولذا كان الفقير في هذا المجال هو إمام الركب أتعلق الأمر بالمهر والصداق، أم بالحفلات والولائم التي تصحب هذه المناسبات عادة، وتطبيقاً لهذا النظام البديع، نجد جماعة كل مدينة ـ عزابتها ومصلحيها ـ يتفقون على تحديد المهر للبكر والثيب، مهما تكن أسرتها وجمالها أو غنى الزوج أو فقره، فإذا جرت الخطبة، ووقع القبول، لايبقى أمام الأصهار الجدد شيء يتفقون عليه إلا تعيين يوم الزفاف، فكل شيء معين من الحلي الذي يعطى للعروس إلى أقل شيء كجورب تلبسه، أو وشاح تتزين بِهِ، وهكذا لا تترك الأمور لمن لا يحسن التصرف، فيبدد المال في غير محله، ويبقى الفقير أعزب لا يستطيع إحصان نفسه.

ويراعى في تحديد المهر ومايتبعه طاقة غالبية السكان وحالة معاشهم، وإن شاء الغني أن يزيد ويفضل فإلى مابعد الأشهر الأولى من الزفاف، حتى لا يفسد على الناس هناءهم.

إن المسجد ينبغي أن يكون حاضراً في وقائع حفلات الزفاف كلها من ألفها إلى يائها، في مجملها وتفاصيلها، من لحظة إعلان الخطوبة وعقد

الزواج إلى آخر محفل ينفض فيه المحتفلون كل إلى حال سبيله.

وحماية لأخلاق الشباب من التدهور وصوناً للعفاف والشرف وضعت الحلقة بمساعدة جماعة المدينة ورؤساء العشائر لوائح تنظيمية تساعد بها من يرغب في الزواج من الفقراء، فكان الحض على التكافل الاجتماعي الرائع الذي يكون بين الطبقات حتى أصبح الآن من النادر أن تجد عرساً ولا سيما في القرارة وبريان لصاحب العرس وحده، وإنما ينضم إلى الغني القادر كل من يرغب في صيانة وإحصان نفسه إن كان ممن لا يملكون الوسائل المادية الكافية التي تؤهله لذلك .

فأصبحت الأعراس الجماعية ظاهرة اجتماعية عادية فمع كل أسرة غنية خمس أو سبع أسر أخرى تنضوي تحت جناحها، ويقوم صاحب العرس الذي فضل الله عليه بكل المصاريف الضرورية بطريقة طبيعية عفوية لا يشعر فيها الفقير بإحساس اليد الدنيا . لأن المسجد أو العشيرة هي التي تحمي الجميع تحت ظلها الإسلامي الوارف، وقد تطورت هذه الأعراس الجماعية في بعض مدن ميزاب فأصبحت الظاهرة عرساً تشترك فيه المدينة كلها لأن المسجد هو الذي يقوم بتنظيمه ورعايته والإشراف على كل جزئياته، فترى العرس أحياناً يضمُّ قرابة خمسين أسرة متزوجة في انسجام رائع وابتهاج جماعي مؤثر. وبهذه السنة الحميدة استطاع المجتمع أن يتغلب على ظاهرة العزوبة والعنوسة، ويقضي على الأزمات النفسية والانحراف الخلقي أو يخفف منها، فحمى بذلك الأعراس ووفّر الاقتصاد، من هذا المنطلق يحرص المجلس الديني على مراقبة سير الأعراس والأفراح مثل الزواج، والختان، والميلاد، وتدشين الدور الجديدة وغيرها من المناسبات، حماية للفقراء وذوي الدخل المحدود، ومحافظة على التوازن الاجتماعي بين فئات المجتمع وطبقاته .

كما يشرفون على مناسبات الأتراح فيجهزون الأموات غسلاً وصلاة ودفناً ومواساة لذويهم، كما يشرفون على تنفيذ وصاياهم، وتقسيم تركاتهم بين مستحقيها، ويقومون على شؤون الأيتام والأرامل، وضمان كفالتهم وتسهيل سبل الحياة ـ بعد أن يفقدوا عائلهم ـ لهم.

وتكون هذه المناسبات ذات الطابع الاجتماعي فرصة للعزابة للتأكيد على المحافظة على الوحدة والتضامن والتعاون بين أفراد المجتمع، فلا تنقضي هذه المناسبات أكلاً وشرباً أو تجمعاً وانفضاضاً، وإنما تغتنم في الأغلب الأعم للتذكير بالقيم الإسلامية الأصيلة والحث على التشبث بها، ومقاومة كل مظاهر الانحلال والتهتك والانحراف.

كما يقوم أعضاء العزابة مستعينين بمجالس العشائر على جمع الزكاة من الأغنياء، وتوزيعها توزيعاً عادلاً على مستحقيها بطريقة تكفل لهم الحياة الاجتماعية المتوازنة، وقد يتدخل العزابي في البحث عن عمل شريف لمحتاج أو يتيم أوعاطل، كما يسعى لحفظ كرامة ذوي العاهات والأرامل والمرضى والمحتاجين إلى مساعدة إخوانهم الموسرين، دون أن يشعروا بالذلة والهوان.

وأعضاء مجلس العزابة في هذا الشأن يقتفون أثر أسلافهم القدامى في طور الكتمان مثل جابر بن زيد وأبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة التميمي، وحاجب الطائي، وغيرهم من مشايخ الإباضية وزعمائهم في تلك الفترة حيث كانوا يقومون بأنفسهم بجمع الصدقات وتوزيعها على الفقراء من أتباعهم[1].

1- عوض خليفات: **مرجع سابق**، ص45، وانظر للتوسع في هذه المهام محمد علي دبوز، **نهضة الجزائر**، ج1، ص199، ومابعدها . وأحمد توفيق المدني **كتاب الجزائر** ص109. ومابعدها.

ومن أهم النظم الاجتماعية التي ضمنت التماسك والتآزر للمجتمع الإباضي في إطار الشريعة الإسلامية ما يطلق عليه نظام الولاية والبراءة .[1]

من أصول العقيدة عند الإباضية ولاية الأشخاص وبراءة الأشخاص أي الولاية للموفي بدين الله أياً كان، والبراءة من مرتكب الكبيرة أياً كان كذلك، وقد استمدوا هذا النظام من القرآن والسنة الشريفة مثل قوله تعالى: ﴿**والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض**﴾ (سورة التوبة: 71) . ﴿**ياأيها الذين آمنوا لا تتولوا قوماً غضب الله عليهم**﴾ (سورة الممتحنة: 13).

إن العاصي في المجتمع الميزابي عندما يثبت قطعياً بواسطة العدول لدى هيأة العزابة أنه ارتكب كبيرة، كمنع حق أو تمرد على جماعة أو طعن في الدين، أو ارتكاب فاحشة مثل ترك الصلاة، أو شرب الخمر، والقمار والتدخين، والتعدي على حقوق الغير، أو نحو ذلك مما حرمه الله، تناديه عشيرته فتنهاه، فإن تاب فذاك، وإلا رفع أمره إلى العزابة، وبعد الصلاة الجامعة يقف الشيخ ليعلن البراءة من المذنب ويسميه، ويبين جريمته، فتقاطعه المدينة كلها حتى من أقرب الناس إليه.

والمحكوم عليه بهذا يحرم من حقوقه المدنية ما لم يعف عنه...وكل من عامله في شيء وثبت لدى المجلس ذلك بالعدول فإنه يلحق به، وهذا الحكم ينطبق على مرتكب لشيء مما ذكر لا فرق في ذلك بين الفقير والغني، ولا تقبل توبته إلاّ في المسجد، وعند اكتظاظه بأفواج المصلّين[2]، وإذا مات المحكوم عليه قبل التوبة فإن العزابة لا تتولى غسله وتجهيزه وإنما تحيل ذلك إلى العوام.

1- سبق تناول هذا الأصل نظرياً .

2- توفيق المدني، **كتاب الجزائر**، ص106. (بتصرف)

إن هذا العقاب الصارم يجرى على كل الطبقات، وقد تبرأ العزابة من موظفين كبار أقامتهم فرنسا وجرأتهم على المسلمين، كبعض القضاة، وبعض رؤساء البلديات، فلم يسعهم إلا التوبة، ولقد ثبت جدوى هذا الردع النفسي الاجتماعي إلى حد بعيد، وإن بدأ يتقلص تطبيقه بعد تطفل بعض النظم المعاصرة وتدخلها في المجتمع الميزابي . وهو أجدى نفعاً من العقوبات الجسدية الأخرى كالجلد، والسجن، فإن السجن والجلد وكل أنواع العقاب أهون من احتقار المدينة ومقتها، وكذلك غريزة الاجتماع التي تحرم بالبراءة وبالوحدة التي يصير فيها المتبرأ منه، وبذلك يجد المذنب الدوافع الذاتية التي تدفعه إلى التوبة والإنابة والرجوع إلى صفوف الجماعة.[1]

إن هذه القسوة في العقاب والتوبيخ التي استخدمها العزابة، والتطبيق الصارم لمبدأ البراءة من الذنب، هما اللذان حفظا وحدة الإباضية وتماسكهم بل وبقاءهم، كما يشهد بذلك العديد من الدارسين الاجتماعيين عربا وأجانب.

3 ـ المهام التربوية:

كانت المسؤولية التربوية هي أهم ما تقوم به الحلقة في عهود نشأتها الأولى، بل إن تربية النشء والعناية بتحفيظهم القرآن الكريم وتعليمهم اللغة العربية والشريعة الإسلامية كانت المهمة الوحيدة التي كانت الحلقة قد

1– لمزيد من التفاصيل حول هذا النظام الهام ينظر محمد علي دبوز **نهضة الجزائر**، ج1، ص209 ومابعدها . أحمد توفيق المدني **كتاب الجزائر** ص106.

أنشأت من أجلها، وهذا إدراك من علماء المذهب، وشيوخه إن التربية هي أهم الوسائل التي تنشئ الأجيال المسلمة عقيدة وعملاً، وهي من الطرق التبليغية التي تضمن الاستمرارية للمجتمع المحمدي مذهباً وسلوكاً فإن الدارس عندما يعود إلى طبقات الدرجيني (القرن السابع) أو الجواهر المنتقاة للبرادي (القرن التاسع) يعجب حقاً لهذا النظام الدقيق الذي وضعه مؤسس الحلقة أبو عبد الله محمد بن أبي بكر في القرن الخامس الهجري في هذا المجال. وذلك ما حدا ببعض الأساتذة الأكادميين بأن يفرد له فصلاً خاصاً، نوَّه فيه بالتربية الإسلاميَّة عند الإباضيَّة.[1]

غير أن الملاحظ أن هذه النظم التربوية قد تطورت مع تطور العصر ومتطلباته تطوراً كبيراً فلم تعد في عصرنا الحديث بهذا الشكل الذي وضعه المؤسس الأول أو حتى على النحو الذي طوره إليها أبو عمار عبد الكافي في القرن السادس .

فإن النهضة الإصلاحية ولاسيما بعد الحرب العالمية الأولى أبدلت بالكتاتيب العتيقة المدارس الحرة المنظمة تنظيماً عصرياً مبنى، ومعنى، ومناهج .

وأصبحت هذه المارس تابعة للجمعيات الخيرية المنبثة في كل مدن الوادي تحت إشراف العزابة توجيهاً وتسييراً في الأغلب الأعمِّ. بل إن المعاهد الثانوية في وادي ميزاب ترتبط بالمساجد ارتباطاً وثيقاً، لتظل هذه الصلة الروحية والمادية قائمة بين المدرسة والمسجد ولينشأ التلميذ في حضن بيت الله تربية، وتعليماً .

1- يراجع محمود قمبر: **دراسة تراثية في التربية الإسلاميّة**، المجلد الثالث، قطر، 1996م.

وقد أسست هذه الجمعيات الخيرية تحت رعاية المسجد كل مؤسساتها التربوية الأخرى مدارس ابتدائية وثانوية، مكتبات وداخليات وجمعيات ثقافية ونوادي، وضمنت للتلاميذ والطلاب الاستفادة منها مجاناً دون أي مقابل مادي لأن ذلك يتكفل به المتبرعون المحسنون.

وقد أدى اهتمام الحلقة بالنظام التربوي دوراً عظيماً [1]، يقول عنه الباحث الأردني د/عوض خليفات : ساهم نظام التربية، والتعليم الذي ابتدعه للعزابة في فتح فرص التعليم الديني أمام أتباع المذهب الإباضي، وأتاح هذا النظام ـ كما رأينا ـ الفرصة لأبناء الفقراء من أتباع المذهب للالتحاق بمدارس العزابة وتلقي العلم والمأوى والأكل دون أجر وبذلك حققوا مجانية التعليم في مناطقهم منذ أمد يعود إلى القرن الخامس الهجري، وربما قبل ذلك. [2]

4 ـ المهام الاقتصادية:

وتشرف الحلقة على الجانب الاقتصادي من حياة المجتمع الإباضي . ترعاه بالتوجيه والتسيير ليبقى في حدود الشريعة الإسلامية لا يتعداها، فيعتني الوعاظ والمرشدون في دروسهم بهذا الجانب عناية فائقة عملاً بقول الرسول ﷺ الدين المعاملة .

كما تتدخل الحلقة في تنظيم بعض الشؤون ذات الطابع الاقتصادي

1– خصصنا بحثاً مستقلاً بهذا الجانب تحت عنوان «**القيم الإسلامية في النظم التربوية بوادي ميزاب**». وهو معدٌّ للطبع.

2– عوض خليفات، **النظم الاجتماعية**، ص62.

مثل مراقبة البيع والشراء في الأسواق، ومحاربة الانحراف في التعامل التجاري مثل الغش والتطفيف، والاستغلال، والاحتكار، وكل الظواهر التي نهت الشريعة الإسلامية عنها.

وأصبح من ظواهر الحياة اليومية في مدن الوادي أن يجلس أحد أعضاء الحلقة في السوق بين البائعين والمشترين يراقب السير الرشيد للحركة الاقتصادية، وقد يتدخل العضو لفض الخصومات التي قد تطرأ بين المتعاملين والشركاء في الدكان والمصنع، وقد يتوسط به عامل هضم حقه، أو أهينت معاملته.

ومن العزابة من يقوم بمهمة المحاسب والخبير التجاري يلجأ إليه التجار ليقوم بعملية الجرد للتقويم السنوي ثقة منهم في ورعه، وخبرته، ولا تكتفي العزابة بهذه المتابعة في مدن الوادي بل يتجاوزونها إلى كل المواطن التي يوجد بها الإباضية الميزابيون، ومن أهم اعمال العزابة في هذا الصدد إشرافهم الفعلي على تصريف مياه السيول حسب ماتقتضيه مصلحة الواحات بوادي ميزاب، نظراً إلى أن مياه الغدران، والسيول هي عصب الحياة للواحة ولاسيما قبل أن تنفجر بها الآبار الارتوازية في العصر الحديث، فإن العملية تتطلب قراراً جماعياً يصدره المسجد الذي يذعن له الجميع، ولذا يستعين العزابة بأعضاء (العرش) أو (البلدية) لتنظيم هذه العملية تنظيماً حكيماً يرضاه الجميع . وتوجد في كل مدن الوادي عقود واتفاقات يحررها الجماعة والعزابة لضمان التصريف المناسب لمياه السيول.

ويلحظ الدارس اهتماماً خاصاً باقتصاد البساتين وواحة النخيل لدى الإباضية وقد ألفت في هذا المجال كتب فريدة من نوعها تخطط وتنظم

حسب الشريعة الإسلامية ولعل من أبرزها كتاب (أصول الأرضين) [1] الذي ألفه ابن مؤسس حلقة العزابة أبو العباس أحمد ابن محمد بن بكر في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري، وقد اختصره الشيخ اطفيش في كتاب أسماه «مختصر العمارة»[2].

وتقوم هيئة العزابة على مراقبة التخطيط المعماري للمدينة بمراعاة الحقوق الفردية والجماعية، وقد وضعت في هذا الشأن قواعد وقوانين ونظم دقيقة عجيبة هي محل إعجاب الدارسين المتخصصين في الهندسة المعمارية مما جعل من أهم مآثر وادي ميزاب هذه الهندسة المعمارية المحكمة التي تجمع بين المتطلبات المناخية للمنطقة صيفاً وشتاء، سلماً وحرباً، وبين الجمال الهندسي الرائع الذي لا يوجد له مثيل في العالم كله مما حدا بالمهندس العالمي المشهور لوكور بيزيه بنقل تصاميمه إلى بقاع كثيرة في العالم الغربي المتقدم.

وتوكل إلى أعضاء العزابة مهمة الإشراف على المصالح فيعينون من بينهم من يحضر عملية الذبح والسلخ حضوراً يومياً ليضمنوا سلامة الشياه صحياً، وأن الذكاة تمت بطريقة شرعية إسلامية، حفاظاً على اللقمة السائغة الحلال، ويبدو أن هذا النظام لم يعد متبعاً في كل مدن ميزاب إذ ترك الأمر فيه إلى ضمائر الناس أو إلى أعوان الحكومة من شرطة أو غيرها[3].

ولا يخفى مافي هذا النظام من مراعاة جادة حكيمة للحياة الاقتصادية للمجتمع الإسلامي وهو في بعض صوره امتداد للحسبة المعروفة عند الدول

1- **القسمة وأصول الأرضين** ت: د/محمد ناصر والشيخ بلحاج بكير. ط1 1991.

2- طبع طبعة حجرية في أواخر القرن 19م.

3- إبراهيم طلاي، **ميزاب بلد كفاح** ص80.

الإسلامية قديماً، وقد انقرض هذا النظام الإسلامي الهام أمام زحف المدنية الغربية بنظمها اللادينية . ولم تبق آثار نظام الحسبة موجودة إلا في واحة ميزاب بين سكانها الإباضية، وتتمثل فيما يعرف بين أهل المذهب بنظام الطلبة أو (حلقات العزابة) [1].

وليس هذا من قبيل التشدد كما يذهب إلى ذلك موسى لقبال حيث يقول دون تأمل واع فيما ذهب إليه « وكان التشدد والمحافظة طابع الحياة في مدن الإباضية وعلى ذلك لا يجد الإباضية متنفساً وحرية نسبية إلا عندما يهاجرون من بيئتهم الصارمة إلى مناطق التل الأخرى، للتجارة والارتزاق وهنا تكون عين الرقابة كليلة وسلطة العزابة ضعيفة وتبقى ضمائر الإباضية وحدها أهم ما يراقبهم في تصرفاتهم الخاصة وفي معاملاتهم الاقتصادية مع غيرهم».[2]

5 ـ المهام السياسية:

وبما أن العزابة يمثلون نخبة المجتمع الميزابي وقادته فإنهم كانوا بحكم هذه المسؤولية الروحية يتحملون تبعات الدفاع عن المجتمع ضد التدخلات الأجنبية مهما يكن مصدرها أو نوعها، وقد قاموا بهذا الدور الخطير في كل المراحل التاريخية التي مرت بها منطقة وادي ميزاب فكانوا حارس المجتمع في حالات السلم والحرب، والأمن والفتن، والاستقرار والاضطراب، وقد لاحقهم الاستعمار الفرنسي من أجل هذه السلطة

1- ينظر د/موسى لقبال، **الحسبة المذهبية في بلاد المغرب العربي**، ص86.

2- **المصدر السابق**، ص88.

الروحية كما لاحق رجال الدين في كل شبر من القطر الجزائري، ومارس ضدهم كل أنواع العسف والإرهاب، حتى أصبحت كلمة (الطلبة) في تقارير الحكام العسكريين إبان فترة الاحتلال تعني الخارجين عن القانون أو المشاغبين ضد السلطات المحلية الحاكمة التي يمثلها (القياد).

يقول (ليفتسكي) الباحث البولوني المتخصص في المذهب الإباضيّ بدائرة المعارف الإسلامية : «...بعد احتلال الفرنسيين لميزاب سنة 1882م استمر شيوخ العزابة في التمتع الدائم بالسلطة الروحية الكبيرة على المدن الميزابية، ولكن لم تبق لهم أية سلطة سياسية، واقتصرت سلطتهم على السهر لتطبيق تعاليم المذهب الإباضي، باستعمال البراءة في الحالات الخطيرة، وفي هذا المجال فإن سلطة العزابة وشيخ الحلقة لا تزال دائماً جد كبيرة، يملكون الوصاية على كل المواطنين الإباضيين بميزاب، وتبقى الحلقة دائماً هي الهيأة الدينية والروحية العليا للميزابيين...»[1].

والواقع أن العزابة عند الاحتلال قاوموا هذه الوضعية بالتحدي حيناً، وبالدبلوماسية حيناً آخر، وكانوا بدافع من عقيدتهم الإسلامية الثابتة يقفون كل مرة في الصفوف الأولى مما جعل العسكريين يصوبون إليهم بنادقهم، وقد أورد الشيخ علي يحي معمر رسالة بعث بها الجنرال مارغريت إلى القائد الأعلى بالجزائر يذكر فيها الأسباب التي دعته إلى غزو ميزاب في نوفمبر من سنة 1882، يقول فيها: «لقد قررت الزحف على غرداية لأن جميع المقاومة التي تعرضنا لمهاجمتها في الصحراء تستمد سلاحها من ميزاب، ولقد رأيت هؤلاء يمسكوننا باليد اليمنى ويمدون الثوار باليد اليسرى، ولعل الأشد عداء لنا هم الطلبة الذين يسمون العزابة، وقد كان

1- ترجمة بتصرف عن دائرة المعارف الإسلامية مجلد3، ص97-101

أول عمل قمت به هو سجن شيخهم (أطفيش) الذي أعلن الجهاد ضدنا.»[1]

وعلى الرغم من الاحتلال لميزاب فإن المقاومة الرافضة للاحتلال وثقافته ظلت مستمرة طيلة عهد الاحتلال، وقد تمثلت في التشبث بالقيم الأصيلة ديناً ولغة، ولعل دور المساجد في نشر اللغة العربية بالحماسة الشديدة التي عرفت بها لكونها لغة القرآن الكريم، ولكونها أيضاً البديل الطبيعيْ الفطري الذي سيقف في وجه ثقافة المحتل الذي ينظر إليه أولاً وقبل كل شيء كافراً جاء ليحتل أرضاً إسلامية، مما أعطى للصراع بين العزابة والمحتل طبيعة سياسية ولو اتخذت لبوساً دينياً أو ثقافياً، وبالتالي ظلت العلاقة بين الاثنين مشوبة بالحذر والشك حيناً، وبالكراهية والتوتر أحياناً أخرى . ولعل أروع مثال لهذا التحدي الذي قام به العزابة يؤيدهم في ذلك أفراد المجتمع طبعاً ما يعرف في تاريخ المنطقة بالتجنيد العسكري الإجباري، حين عزمت سلطات الاحتلال تطبيقه على سكان وادي ميزاب قسراً، رغم معهادتي 1853 و 1882 اللتين تعتبران ميزاب حماية لا مستعمرة .

وقد دام هذا الصراع مريراً طويلاً دام من سنة 1912 حتى 1943، وفضل الميزابيون أداء الضرائب الباهظة مقابل الحفاظ على دين أبنائهم وأخلاقهم.[2]

ففي تاريخ حلقة عزابة القرارة مثلاً صور بطولية لمقاومتهم الحكام العسكريين الفرنسيين الذين حاولوا تجنيد الشبان إبان الحرب العالمية الأولى

1- علي يحي معمر، **الإباضية في موكب التاريخ** 4، ص596

2- ينظر **مجلة المنهاج للشيخ أطفيش أبي إسحاق** ج7 من 1، ص1344، ص389 وانظر أيضاً د/ محمّد ناصر: **المقالة الصحفية الجزائرية**، ج1، ص329.

بوسائل قمعية وحشية، فما كان من الحلقة إلا أن دعت جميع السكان إلى تحدي هذه الإجراءات ورفضها بقوة، وقد أدى هذا التحدي إلى نفي وسجن بعض أعضاء الحلقة إلى سجن (تعظميت)[1] وهو سجن المجرمين والأوباش حيث يعاملون معاملة القهر والإذلال بحلق لحاهم وتسليط الخدمات الشاقة عليهم في قلب الصحراء في زمهرير الشتاء، وفي قيظ الصيف .

كما عرف تاريخ المنطقة في فترة الاحتلال الفرنسي صراعاً دائماً بين العزابة والسلطات الإدارية المحلية، إذ كانت الصحراء الجزائرية بما فيها وادي ميزاب تخضع لحاكم عسكري جائر يسيطر على المنطقة بأحكام تعسفية وقوانين استثنائية، ويستخدم لقهر الشعب (قياداً) خونة نصبهم على كراسي الحكم ليكونوا عينه، ويده، ولسانه، وكان هؤلاء (القياد) نماذج للفساد والظلم، مما جعل حلقة العزابة تقف في صف المقاومة والصراع ضدهم دوماً .

والمتتبع لتاريخ حلقة القرارة ولاسيما في بداية النهضة الإصلاحية يقرأ فصولاً رائعة رهيبة يحكيها صاحب رسالة «انكشاف الحالة لذوي الألباب والعيون»[2] عن الصراع الذي كان دائراً بين الحلقة والجماعة ممثلة لصوت المسجد والشعب من جهة، والقياد والحكام العسكريين الذين يمثلون الاستعمار الفرنسي من جهة، ولم يقف الصراع بينهما عند دعوة الناس إلى مقاومة الظلم والفساد بالوعظ والإرشاد في المساجد والعشائر بل كثيراً ماتحول الصراع إلى المواجهة الميدانية إن جاز التعبير، ينزل فيها العزابة تحت

1- يقع هذا السجن التاريخي قرياً من مدينة الأغواط جنوب الجزائر.

2- عمر بن الحاج محمد: **انكشاف الحالة لذوي الألباب والعيون**. (1919).

قيادة شيخهم يتقدمون الصفوف لمواجهة (القائد) أو (الباش آغة) فيعلنون البراءة منهم في المسجد أمام الملأ، ويفضحون أعمالهم، ويكشفون ألاعيبهم ودسهم، فإن رجعوا إلى الحق وتابوا فذاك وإلا تحدوهم بالمقاطعة والتمرد وعدم الامتثال لأوامرهم.

ومن تاريخ هذا الصراع نتذكر موقف عزابة القرارة ضد القائد كاسي الذي فتح دوراً للعهر والقمار متحدياً بذلك مشاعر المجتمع المسلم بإغواء الشباب وإفساده وابتزاز ماله، فما كان من جماعة البلد والعزابة ـ أمام جبروت القائد ـ إلا أن اهتدوا إلى حيلة بارعة، فاشتروا من القائد تلك الدور بتبرعات المحسنين بأموال باهظة، ثم أغلقوها وحولوها إلى أهداف اجتماعية نبيلة.[1]

وفي تاريخ الإمام الشيخ بيوض والشيخ أبي اليقظان وهما من العزابة صور رائعة من البطولة، ومواقف مشرفة ضد الظلم والجبروت، كان صوت المسجد يعلو فيها كل مرة، وعلى الرغم مما يربط بين عائلة الحكم والإمام الشيخ بيوض من روابط الخؤولة فإنه كان من مهامه الإصلاحية

1- ومما جاء في كتاب انكشاف الحالة لذوي الألباب والعيون، أنه في سنة 1906 أقام القائد كاسي والناصر وليمة فخمة ضخمة بمناسبة زواج أبنائهم فانتهكوا فيها الحرمات وتجاوزوا حدود الله ولما رأى العزابة ذلك أرشدوا الناس وتبرؤوا ممن اشترك في تلك المنكرات ونددوا بأفعال القائدين في المسجد جهاراً أمام الملأ . فاستشاط القائدان غضباً وامتلأوا حقداً ضد العزابة، فكتبا تقريراً محشواً بالأكاذيب واتهما فيه سبعة من كبار الحلقة، وهم مابين الستين والسبعين فما كان من السلطة العسكرية إلا أن أنزلت عقابها على أولئك بالسجن المحلي، ثم اقتيدوا إلى سجن (تعظميت) مدة ثلاثة أشهر، ولولا قيام القرارة كلها بالاحتجاج والسعي لدى السلطات العليا لما أفرج عن العزابة. انظر المصدر السابق، ص140

التي رفع لواءها إعلان الحرب والمقاومة ضد فساد (القياد) وأتباعهم، وقد بلغ الصراع ذروته في الثلاثينيات، حين دست السلطة من يغتال الشيخ بيوض لتجعل بذلك حداً لنشاطه الإصلاحي الواسع الذي تجاوز حدود القرارة ليشمل ميزاب كله، وذلك ما أدى بالسلطات العسكرية بأن تفرض عليه الإقامة الجبرية بالقرارة إبان الحرب العالمية الثانية (1939-1945) .

ونلمس آثار هذا الصراع واضحاً في أدبيات طلبة معهد الحياة في تلك الفترة وْلاسيما فيما كانوا ينشرونه من مقالات أو قصائد، وماكانوا ينشدونه من اناشيد وطنية حماسية ملتهبة، وماتزال تلك الكتابات شاهدة على ذلك الجهاد الإسلامي الوطني حتى يومنا هذا متميزة بمضامينها السامية، وبأساليبها العربية الراقية.

والحق أن الدارس اليوم عندما يقرأ تلك الصفحات البطولية البيضاء لا يملك إلا أن ينحني أمام جهاد هؤلاء المؤمنين الذين تحدوا بإيمانهم الذي لا يتزعزع، جبروت الحكام، على الرغم من أن الحكام المحليين استخدموا في كثير من الأحيان وسائل قمعية رهيبة مثل الغرائم الباهظة، التي لا تخضع لقانون معين لأنها تدخل جيب القائد أو الحاكم ولا تذهب إلى كيس الدولة، بل إن الإجرام وصل في كثير من الأحيان حدود التصفية الجسدية كما وقع ذلك مع قاضي القرارة الإصلاحي، الذي لم يأتمر بأوامر القائد ورفض أن يسير في خطته الإجرامية، فما كان من القائد إلا أن دس له من اغتاله بدناءة وجبن. [1]

إن هذا التحدي لا يفسره إلا شيء واحد وهو أن الرسالة كانت أسمى

1- هو القاضي الحاج محمد بن الحاج قاسم سنة 1903

من أن تقف عند حدود ماهو دين أو عبادة، وإنما كان فهمهم للرسالة أنها يقظة وريادة ومواكبة للمجتمع في كل مناحي حياته، لا فرق بين الدين والاقتصاد ، ولا بين الاجتماع والثقافة مادام الهدف هو بناء مجتمع مسجدي إسلامي عقيدة وسلوكاً .

ولكي يؤدي المجلس الديني دوره داخل شرائح المجتمع وهيآته كان لابد من إيجاد نظام يساعد عملياً على أداء هذا الدور، وعند التأمل في هذا النظام وشروطه وهيكلته نجده نظاماً محكماً ينزل في شكل هرمي من القمة التي تمثل العزابة والحلقة ثم هيأة حفظة القرآن أو التلاميذ (إيروان) والذين لم يستظهروا القرآن من التلاميذ (امصوردان) هذا داخل المسجد أما خارج المسجد فيوجد مجلس الجماعة الذي يترأسه العزابة وهو يتكون من شيوخ العشائر في البلد، وهم يمثلون الهيأة التنفيذية ويكونون في الأغلب الأعم من أهل الرأي والتدبير والحكمة غير متفرغين لطلب العلم والقيام بشؤون الدين مثل العزابة . كما يساعد الجماعة على أداء مهامها المتعددة في البلد مجلس (المكاريس) الذي يتكون من العوام ممن يتصف بالشجاعة والقوة، واليقظة، وهم رجال الأمن كما نعبر اليوم وتكون مهمتهم الرئيسية المحافظة على أمن البلد والحراسة على ممتلكات الناس وحرمتهم . ولكل هيئة من هذه الهيآت المذكورة شروط معلومة ومواصفات دقيقة، ولوائح داخلية خاصة بها .

ومن أهم المجالس المساعدة مايعرف بمجلس (تِمْسِرِدِين) أو الغاسلات[1]. فكما اقتضى النظام الاجتماعي وضع مجالس خاصة بالرجال، فكذلك يوجد مجلس خاص بالنساء يتولى شؤون المرأة ويرعاها، ويبدو أن تنظيم الأوائل لأوضاع المرأة كان مبلغ اهتمامهم الشديد فكُتب التاريخ

1- أي اللاتي يغسلن الأموات من الإناث.

القديمة والحديثة تشير إلى هذا، كما تشير إلى مستواهن العلمي والثقافي، ومساهمتهن في مجالات الحياة المختلفة.

إن تنظيم مجالس النساء في قرى وادي ميزاب ظهر مع تأسيس نظام حلقات العزابة حسبما يبدو، ولا يعرف تاريخ محدود مضبوط لذلك، ولكن المؤكد أنه كان موجوداً في القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) ويطلق عليه (تمسردين) أي الغاسلات لأنهن يقمن بغسل الأموات من النساء والأطفال فغلبت عليهن هذه الصفة فأطلقت عليهن وعرفن بها . فمنهن يتكون المجلس الديني للنساء ويكون عددهن في الأغلب الأعم اثنتي عشرة امرأة إلا أنه يزيد وينقص حسب المهام المنوطة بهذا المجلس. أما عضواتها فتختارها هيأة العزابة من مختلف عشائر البلدة من صالحات الأسر فيها، بشروط معيّنة، أولاها تقوى الله، والعفة والحياء، وحسن السلوك، والورع، والحنكة في معالجة الشؤون العائلية، وحسن التدبير، والشجاعة الكافية لتطبيق أوامر الحلقة في المجتمع النسوي، دون تحيز أو تردد .

ولا يشترط فيهن حفظ القرآن الكريم بل المهم أن يكن طاهرات عفيفات من عمار المسجد، ويعين على رئاسة هذا المجلس النسوي مسؤولية تسمى في بعض القرى (ماما شيخة)، ومن أشهر شيخات حلقة النساء بمجاهدة مشهورة في ميزاب بمواقفها البطولية إبان الاحتلال الفرنسي (1882) وتدعى ماما بنت سليمان، فقد تزعمت هذه البطلة مؤتمراً نسوياً . فقرر إصدار أمر بمقاطعة كل ما هو فرنسي سواء كان غذاء أو لباساً وقادت مقاومة سلمية ناجعة ضدَّ المحتلِّ الغاصب هي محلُّ إعجاب الكتَّاب والدارسين اليوم. [1]

1- ينظر لزيادة التفاصيل عن هذا الفصل الهام، صالح بن عمر اسماوي، **نظام العزابة** رسالة د.د.م جامعة الجزائر 1406/1986...ص94 وما بعدها.

الخلاصة

وهكذا يمكننا القول إنَّ حلقة العزابة هي الوجه الحضاري الإسلامي الباقي حتّى اليوم بوادي ميزاب، وقد تطوَّرت في عدة مراحل واضحة تستمد كل مرحلة من مراحلها السابقة التجربة والأسس ثم تبني وتطوِّر مع مراعاة وحدة الهدف، ووحدة المنطلق .

المرحلة الأولى:

وهي التي سبقت نظام أبي عبد الله محمد بن أبي بكر أي ماقبل القرن الخامس الهجري حيث كانت الحلقة عبارة عن مجلس علم يجتمع حول عالم فقيه يعلم التلاميذ شؤون دينهم، ويحفظهم القرآن ويمثل هذه المرحلة أبو القاسم يزيد بن مخلد وأبو خزر يغلى بن زلتاف في النصف الأول من القرن الرابع الهجري.

المرحلة الثانية:

وهي التي جاءت بعد النظام المحكم الذي وضعه الشيخ أبو عبد الله محمد بن أبي بكر في بداية القرن الخامس الهجري إذا أصبحت الحلقة ذات نظام علمي وديني محكم له شروط وتقاليد صارمة لا يلتحق بها إلا من عرفت فيه الاستقامة والامتثال لتلك الشروط وأخذت تتوسع لتشمل الحياة الاجتماعية ولا تقتصر على حلقة العلم وحدها وبداية من النصف الأول من القرن السادس الهجري أصبح المسجد مقراً لهذا النظام .

المرحلة الثالثة:

وهي المرحلة التي نشأت فيها قرى وادي ميزاب إذ أصبحت الحلقة أكثر اهتماماً بشؤون البلدة، ونظام الجماعة لا تقتصر على العبادة والفقه

وحدهما وإنما تجاوزتهما إلى مناحي الحياة كلها . وقد تطور نظام الحلقة في ميزاب على يد بعض العلماء الأفذاذ مثل الشيخ عبد الرحمن الكرثي (القرن السادس الهجري) والشيخين أبي مهدي عيسى بن اسماعيل، وأبي القاسم بن يحي الداوي (القرن التاسع) وقد ترك الشيخ أبو القاسم بن يحي وثيقة هامة جدد فيها تنظيم حلقة غرداية، ثم جاء عهد الشيخ عمي سعيد الجربي الذي أمد النظام بنفس جديد وأعطاه بعلمه وتجربته صلاحيات واسعة مما جعل العزابة بوادي ميزاب يسمون مجلسهم الأعلى الذي يجمع مجالس المدن باسمه تشريفاً وتكريماً واعترافاً بفضله وعلمه .[1]

وقد استمرت هذه المرحلة تتسع أو تتقلص حسب الظروف السياسية التي تمر بها قرى الوادي، فوضعية الحلقة قبل الاحتلال الفرنسي كانت أكثر نفوذاً من بعد دخول الفرنسيين ولاسيما في المجال السياسي .

المرحلة الرابعة:

وهي المرحلة التي جاءت بعد الحركة الإصلاحية في بداية العشرينيات من هذا القرن، فقد أثرت حركة النهضة في العالم الإسلامي والجزائر بصفة خاصة على طبع هذا النظام بطابع أكثر تفتحاً على الحياة المعاصرة فلم يعد مقتصراً على القيام بشؤون المسجد أذاناً وإمامة، وأوقافاً، بل أصبح بفضل جهود الزعيم الإمام الشيخ بيوض ـ حامل لواء التطور ـ أكثر وعياً بالحياة الدينية والاجتماعية، والثقافية، والاقتصادية، والسياسية، من منظور إسلامي واع لا يفرق بين مناحي الحياة، ويرى التدخل في كل هذه الشؤون من واجبات المسجد، وبدونها لا تكتمل رسالته الحقيقية التي أناطها به الإسلام.

1– لمزيد من التفاصيل ينظر اسماوي صالح بن عمر، **نظام العزابة** ص170.

فكان من أهم نتائج هذه المرحلة تمسك المجتمع الميزابي بالدين الإسلامي وباللغة العربية لغة القرآن رغم مكائد الاستعمار العسكري الفرنسي الصليبي الذي تسلط عليه، واستخدم كل وسائله الخفية والعلنية ليجرده من هذه القيم، ففشل في مخططاته بفضل هذا النظام الديني المحكم .

وأعتقد أن السر في نجاح هذا النظام الاجتماعي الرائع يعود أساساً إلى ارتباطه بالمسجد قلباً، وقالباً، نظرية وتطبيقاً، إيراداً وإصداراً . فالذين يقومون على هذا النظام هم عباد المسجد وعماره والقائمون عليه فهم يستوحون برامجهم وخططهم وتفكيرهم من أجواء المسجد ونفحاته العطرة . ويزنون أعمالهم ويقيمونها بقدسية المسجد، وما يتطلبه من عمارة من صلاح وتقوى كما تقول الآية:

﴿إنّما يعمر مساجد ا لله من آمن با لله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآت الزكاة ولم يخش إلا ا لله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين﴾(سورة التوبة: 18).

والواقع أن المرء عندما يعود إلى تاريخ الجماعة الإباضية بوادي ميزاب منذ نشأته حتى يومنا هذا يجد أن هذه الجماعة قد تعرضت في تاريخها الطويل إلى ألوان من التدخلات والغزو كما امتحنوا ببلاء التذويب والمسخ فلم يؤثر فيهم لا هذا ولا ذاك إلا بنسبة ضئيلة هي تكيف ومران مع الحياة وتطوراتها، واستيعاب للنظم السياسية وتعامل معها حفاظاً على هذه المقومات الأساسية، وحرصاً على المميزات الشخصية.

لذا نلحظ في تاريخ وادي ميزاب عدم الوقوع في براثن أي حكم دخيل أكام تركيا أم فرنسيا، وحتى المحاولات التي حاولها بعض الديماغوجين المنتسبين إلى السياسة بعد الاستقلال لم تؤثر فيهم، رغم محاولة

بعض المتزعمين القضاء على هذه النظم الاجتماعية لأنهم رأوها ـ حسب نظرهم القصير وانطلاقاً من رغباتهم الأنانية للسيطرة والتسلط ـ منافساً خطيراً لا يترك لهم مجال العمل الفوضوي حراً . ولا ميدان التجربة الارتجالية للأيديولوجيات المستوردة فارغاً، فراحوا يسودون التقارير، ويخيطون الشباك... ولكن باءت كل هذه المحاولات بالفشل الذريع، وبقي هذا النظام الاجتماعي خالداً شامخاً خلودَ بيوت الله وشموخ مآذنها .



ملحق الصور

بسم الله الرحمن الرحيم

رسالة الإمام علي بن أبي طالب إلى عبد الله بن عبّاس

من عبد الله عليٌّ أمير المؤمنين إلى عبد الله بن العباس، أمّا بعد فإنّ الله جعل حجّته على من علّمه فضيّعها وخالف واجب حقٍّ الله عليه مِمّا فيه، وقد بلغني عنك أنّك تقول: «بعثني عليٌّ إلى قوم لأخاصمهم فخصموني بما كنت أخصم به الناس».

فلعمري لئن كنت تعلمُ أنّي قتلت الخوارج ظلماً وما ليتني على قتلهم، ورضيت به، فأنت شريكي في قتلهم، وإن كنت تضمر لي أمراً وتظهر لي خلافه، فلقد شقيتَ في الدنيا والآخرة.

فدعنا من تخليطك أبا سليط، واشرح لنا من دينك الذي أحدثت بعد رسول الله ﷺ، فإنّي أراك مِمّن كتب عليه الشقاء وأظنُّ صحبتك رسول الله ﷺ ستكون من أعظم حجج الله عليك إن كنت لها مضيّعاً، ولحقِّ الله عليك فيها وراء ظهرك نابذاً، و لم أزل أعرف فيك اللجاجة عن بصيرة الحق.

أرسلتك إلى أهل النهروان لتحتجَّ عليهم بكتاب الله وتخصمهم بما فيه، فكلّمت قوماً أو ردُّوا عليك من كتاب الله ، ماثبّتوا به احتجاجهم عليك، فأجنحت عن باطلهم، وضعفت عن تثبيت حجّتك، ثم جئت إليَّ تنقل عنهم الكذب نسخه[1] تفتعل عليهم بذلك، تخدع بذلك نفسك.

1- كذا، والمعنى غير واضح.

فخنتت أمانة ا لله، وضيَّعت الواجب عليك، وأدَّيت إلى إمامك خلاف ماكان منك؛ فبئس الوافد على أهل حربه كنت، وسوء المعين على أهل حربه أنت، وما أصنع بمعاتبتك شيئاً بعد ماكان منك والسلام».

قال عكرمة: «فرأيته[1] يقرأ الكتاب وإنَّه ليرتعد غضباً، وأنا أصبُّ عليه الماء للوضوء، ثم قال يا عكرمة: ادع لي جابر بن عبد ا لله، وكان جابر أنصارياً، وكان من أصحاب رسول ا لله ﷺ وهو الذي قال له رسول ا لله ﷺ: «**أشهد أنَّ لسانك بين فكّي صدوق**».

فأتيته فقلت له: إنّ مولاي يدعوك، قال: وما باله؟ قلت: أتاه كتاب من أمير المؤمنين بلوا إلى سيفه[2]، ولبس نعليه، ثم نهض فدخل إليه فقال له يا جابر: مثلي يُكتب إليه مثل هذا الكتاب؟ فقرأه مسرعاً وهو يتمثّل: يداك أوكتا، وفوك نفخ.

كان رسول ا لله ﷺ يقول لعليٌ كثيراً، ونحن نسمعه: «**يا علي أما إنك ستنفر نفرة لها نيا جليل، أما إنَّك ضمن تسلحه مثلا منه[2]، وأرغم به أنفه**».

رحم ا لله أبا بكر، رحم ا لله عمر، أما إنّي أستغفر ا لله لذنبي لما قلت لي يا جابر، قد عدل هذا عنَّا إلى ما نحن أحقُّ بالأمر منه أيَّام أصفق المهاجرون والأنصار على بيعة ابن أبي قحافة، فقلت لك: لعلَّ في ذلك خيراً. وكان خيراً كما قلت لك، فالحمد لله.

1- أي رأى عبد الله بن عبَّاس، وعكرمة هذا هو مولاه.

2- كذا في الأصل وهو غير مفهوم.

ثم جئت فقلت يا جابر: قد عدل هذا الأمر عن بني هاشم ونحن أحقُّ برسول ا لله ﷺ من غيرنا، وقد أصفق الناس على بيعة عمر بن الخطاب.

فقلت لك: لا تتهم ا لله في قضائه، فإنّما هو دين لست أولى برسول ا لله ﷺ من غيرك، لأنّ الأمر دين، والدين مسؤول، وليس بين ا لله وبين خلقه هوادة، وعسى أن تكون الخيرة في إمارة ابن الخطاب، فكان كذلك. ثم نفحت في الشورى مع أناسيك، ومددت إليه بصرك وعنقك، فلمّا دعيت إلى عثمان نحوت، وكرهت، وجرى القضى[1] بما فيه، فجئت فقلت يا جابر: صارت دولاً في أحياء قريش، يوشك أن يتناولها قريش الظواهر والأحابيش والأحلاف من بني كنانة.

فقلت لك: إنّ الأمر جارٍ على قضاء ا لله، فإن جاءك الأمر. فأجبت: إنّ لصاحبنا لنفرة، طال ما سمعتها من رسول ا لله ﷺ. فما لبثنا إلا قليلاً إذ هجمت الفتن تنساب إلينا انسياب الماء تحت الميسم، فلا كذبنا ولا كذّبنا.

ثمّ صار الأمر إليك فكنت تبرم القتل، وتؤكد العقد، وتعد الوعد، فلم يخف عنك ماكان. وأنا أقول مَلاجم لا بدّ منها مصاديقا قد سمعناها فإن كنت صابراً فلا يرينّ الناس منك هلعاً، وإن كنت جازعاً فلا تظهر للناس طمعاً. ومالك تستعين برأي فيما بينك وبين ابن عمّك، وأنت أعلم بما كان بينك وبينه، وبين القوم الذين خرجوا عليه.

وقام جابر فخرج فقال لي يا عكرمة: هات دواة وقرطاساً. فأتيته بهما. وقال: اقعد فاكتب إليه.

1- كذا في الأصل ولعلّ الصواب: القضاء.

جواب عبد الله بن عبّاس للإمام علي بن أبي طالب

بسم الله الرحمن الرحيم

أمّا بعد فإنّي أبدأ بما بدأ الله به أن أقول: الحمد لله ربّ العالمين على ما أصبحنا عليه، وفيه من الاشتباه واختلاف الأمر، ولاحول ولاقوة إلا با لله العلي العظيم.

أتاني كتابك، تذكر حججا أوحاها إليك سوء الرأي، وأخرجها منك التحامل ما استل من الأشياء، ما استل إلزامك إيّاي ذنباً كنت أنت أولى به مني، و ... (1) عليّ بأمر أنت المعروف به دوني.

كتبت إليّ أنّ العلم حجّة الله على من ضيّع ما يجب عليه من رعيته، وقد صدقت ما أتخوف أن أكون كذبتك في الله حرفاً، ولا أن أكون كذبت أحداً فيك حرفاً، وإنّي لصادعٌ بالحق، ولا أبالي من أرعدته مادسه، وإنّ من حجة الله التي ذكرت أنّها واجبة على العلماء قولك إنّك وجهتني إلى قوم خصموني بما كنت أخصم به الناس، وإن أحببت أن أشرح لك ثانية فعلت، وهان عليّ أن أكرّر عليك ذلك.

أتيت قوماً تركوا زينة الدنيا زهداً فيها، وأدرعوا زينة الآخرة رغبة فيها، لم يتعاطوا باطلاً صار لهم بعد حقٌ ضيّعوه، و لم يخرجوا استداره نسبهم بينهم، ولا احترار الحظ في الدنيا، فقلت لهم: إنّي رسول من خرجتم عليه إليكم ومحتجٌّ بحجته عليكم، وأنا سائلكم وأَوّل مُساءلتي لكم

1- محو في الأصل قدر كلمة.

عن إيضاح الأمر الذي استحق به خروجكم عليه.

فقالوا: إذاً نخبرك بذلك إن شاء الله، وقد علمت من شهد الجمل مع صاحبك لم يكن شاكًّا في فضل صاحبكم، ولم يلزم صاحبكم في تلك الحرب حجة يحتجُّ بها عليه المسلمون، لأنَّه عمل فيها بالواجب، واتبع فيها كتاب الله وأمره في حرب القوم أفتعلم يا ابن عباس أنَّ الخوارج خرجت عليه منقمين في شيء من أمر الجمل؟

قلت: لا أعلم ذلك، فلو قاس الأشياء سلم عليٌّ من المذمَّة مَن في يوم الجمل مِن قبل قول الله تعالى: ﴿**وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين**﴾(1)، فلمّا ظهر بغي طلحة والزبير، وتأليبهما عليه في الأمر الذي هو أولى بالقيام به منهما، وعرض عليهما أن يفيئا إلى أمر الله وأن يرجعا عمَّا هما عليه، أبيا فاستحلَّ قتالهما ببغيهما اتباعاً لما في كتاب الله، ولو أنَّه ترك قتالهما بعد البصيرة منه في بغيهما قبل استكماله ما فرض الله لأهل الحرب كما في الكتاب كان مخالفاً. أفما تعلم يا ابن عباس أنّه كذلك.

قلتُ: بلى.

قالوا: فأخبرنا عن الواجب على صاحبك في حرب صفّين، تعدى أن يكون غير الواجب عليه في يوم الجمل .

قلتُ لهم: ما تعدى ذلك.

قالوا: فهل استكمل الفريضة التي عليه في حرب صفّين كاستكمال

1- سورة الحجرات: 9.

ذلك في يوم الجمل؟ فلجلجتُ ولم تكن لي حجّة.

فقالوا: اتّق الله يا ابن عباس. قل الحق، أما تعلم أنّه نقض حرب صفّين على خلاف ما في كتاب الله، ورفض قتال من قد استبانت له ضلالته، واستحلّ قتاله قبل أن يستكمل فريضة الله عليه في أمره، فلمّا نظرنا في ذلك علمنا أنّه على خطأ. فكلّمه منا أهل البصر والرغبة في الشهادة، وقالوا له: إنّ حرب معاوية عزيمة من عزائم الدين ما يكن لها ناقضاً وإن كنت لما صنع الحكمان كارهاً، فقد قبلنا في ذلك قولك وصدّقناك، فاخرج بنا إلى قتالهم فنستكمل فريضة الله في قتالهم ليعلم أنك على كره ممّا أحدث الحكمان.

فقال لنا: سوف أفعل. فلمّا كرهنا منه في المطل فقال لنا: وأنتم أعلم بالواجب عليّ مني، فقال: من شهد منا فلأيّ وجه أجبت ابن قيس إلى خلع الإمامة. فقال: كرهت الفتنة وأحببت أن أرفع المؤنة وليس بذلك من ضير[1] لأنّ رسول الله قد فعل ذلك.

فقلنا: أفكرهت فتنة الحرب التي قد تركت الواجب عليك منها أبقى من شرٍّ ما زعمت أم فتنة سوء الحرب التي أنت فيها، أم كان الذي دعاك إليه القوم من إعطاء الدنية وإلاّ على النقيصة أوجب عليك ممّا فرضه الله عليك في استكمال حرب القوم؟ فلم تكن له حجة.

فقال: أتيتموني فقلتم حكّم فإنّ القوم قد أكلتهم الحرب وعضهم السلاح. فقلنا: ما أتيناك نسألك تلك المنزلة إلاّ الذي[2] أضعته من خلع الإمامة. فراجع وتب واستغفر الله ثمّ عُد بنا إلى قتال عدوك وعدوّنا.

1- في الهامش بخطٍّ مغاير: «بضائر».

2- في المتن: «التي» وهو خطأ، والصواب ما أثبت أعلاه بقلم مغاير: «الذي».

فقال: إنّما يعاب من كان على خطإ ويراجع من كان على كفر.

فقلنا له: أفعصيت إذ تركت ما اشترط الله في قتال الفئة الباغية أم لم تكن أطعته أم لم تنصفنا في المساءلة؟

فلمّا رأيناه قد نقض حرباً كان منها على بصيرة، وحكّم في دماء المسلمين ضالين مضلين، وخلع سربا لاً سربله الله من كرامته، فقلنا: لاحكم إلا الله. فلمّا سمعتُ قول القائل منهم لاحكم إلا لله، فقلت: أغريتهمْ بك إذ قلت كالمستقل لها إنّ هذه الكلمة،حق يراد بها الباطل. فلما سئلت عن الباطل الذي يراد بها قلت: هو الخلاف للجماعة ونزع يد من طاعة. فامتحنك قائلهم أن قالوا: فأخبرنا إذ اعتصموا بكلمة حقٍ يطلب بها الباطل هل علموا أنّ الحق كان في أيديهم، وأنت لهم موافق وهم عليك مجتمعون؟ فلم تستطع إلاّ أن تقول نعم. فقال: نعم، فقال: فما الذي أخرج جماعتهم على البغي عليك وأنت محسن وهم بك راضون؟

فقلت: أخرجهم إلى ذلك اتباع فتنة الشيطان، فقال لك: فكيف نسيت تراجعهم عليك وهم أكثر من عشرة آلاف محكم، منهم البدريُّ والعقبي وذو البيعتين، وذو الشهادتين، وذو القبلتين، وأكثرهم صحب رسول الله ﷺ، ومن فقه منه إلى فتنة الشيطان، فلا تنسب شيئاً من أفعالك التي عليها الجمهور منهم إلى الباطل ولا إلى الفتنة، فأنت في هذه(1) كله معصوم أحداثك وصاروا مخذولين بسوابقهم، فما منهم رجل واحد ألبسه الله من العصمة مثل ما ألبسك، فلم يكن لك على القوم في هذا حجة، واحتجَّ عليك القوم بمثل ما احتجّوا به عليٍّ من قول الله تبارك

1- كذا ولعلَّ الصواب: «هذا».

وتعالى، فما دريت كيف تقول واتبعت اكتساب الحجة منك بالصيلم، إذ يستغيثونك فلم تغثهم، وإذ استعتبوك فلم تعتبهم إلاّ بالسيف. فقتلت منهم أربعة آلاف أثوابا مستغفرة.

وأمّا قولك: إنّي إن كنت أعلم أنّك قتلت الخوارج ظالما[1]، ثم مالَيتُك على ظلمهم وقتلهم، فأنا إذاً شريكك في قتلك إياهم، فقد صدقت إن كان عليَّ ما ذكرت.

ولكن أقسم با لله قسماً لا يبرُّه إلاّ الصادقون ما ماليتك على قتلهم ولا رضيت ولا أمرت، ولقد قلت لك حين انصرفت من عند القوم إذ بعثتني محتجّاً ومجادلاً: إنَّ القوم قد عرضوا عليَّ خلالاً استعتبوك منها وخلالاً يستتيبوك منها، فثّورتني سيفك وقلت: لا لا ولا خيراً ولا سروراً، تقول: ارجع مسفه خير خطأ أن أقرَّ على نفسي بالصغر في الإسلام، إنّي إذاً من الخاسرين. فانصرفت عنك وما شعرت إلا والناس يقولون: قد وضع صاحبك سيفه في الخوارج، فكان ماكان، وأنا في كلِّ ذلك غير مأمور ولا مستشار، وقلبي له كاره

فأستغفر ا لله من سوء عملي وما يسّرني إن آليت[2] على قتل امرىء واحد من أصحاب البرانيس، وإنَّ لي ما بين تهامة إلى مصر عيراً تحمل الذهب فوا لله ما أقوى على حججهم[3] من لم ينتصفوا منه في الدنيا، فكيف أرجو ثقلهم عند من يقيد الحما من القرنا، إني إذاً من الظالمين.

وأمّا قولك: إنّي كنت أظهر لك أمراً وأسرُّ خلافه، فقد شقيت إذاً

1- في الهامش أعلاه: «نسخة: ظلما»

2- في الهامش أعلاه: «آليت».

3- في الهامش أعلاه: «حجتهم».

في الدنيا والآخرة فقد صدقت إن كان كما وصفت، ولكن أقسم با لله قسماً لا يبرُّه إلا الصادقون ما أظهرت لهم ولا لغيرهم أمراً أضمر خلافه، إنّي إذاً لمن الآثمين، ولا كنت لأنظر لهم ولا لغيرهم أمراً إسراقا(١) لحق في أيديهم، أطلب ما في أيدي الناس بباطل دونه وللآخرة أحبُّ إليّ من الدنيا. أوَما أخبرتك أنّه كان من الخوارج ما كان بأمر يقوى به على حجتك فيما ادعيت؟

وأمّا قولك: دعنا من تخليطك، فليس قولي بأوَّل شأن سمي تخليط[ا]. وأمّا كنيتك إيايَّ أبا سليط، فلعمري ما أرفع شأنه وأنا من قبله كغيري، وما أريد من التصريح غير هذا.

وأمّا قولك: اشرح لنا الدين الذي أحدثت بعد رسول ا لله ﷺ، فإنّي أقول: إنَّ لا يقبل من أحد إلا الدين الذي أتى به نبيّنا نبيّ الرحمة عليه السلام، وإنَّ من دينه ما قد سمعناه، فحذرناه إذ يقول لبعض أصحابه: «**إن لك لنفرة بقوم ليسوا بفاسقين سيماهم في وجوههم وإيمانهم في قلوبهم**». وأنا أشهد أني سمعته من أبي القاسم ﷺ يوم الصفة، ولا خالفت لله ديناً ولا صرت للشيطان قريناً، فإنّي لأرجو بعد دعوة رسول ا لله ﷺ أني لا أضل أبداً.

وأمّا قولك، وظنُّك أنّي مِمَّن كتب عليه الشقاء في الدين والدنيا، فنعوذ با لله من نوازع الفقر وضلالة الشبهات، ظنك في ذلك يخطؤك، كظنك بقوم إذ ظننتني منهم أن يكون ظنك إثماً فإنّ ا لله يقول: ﴿**اجتنبوا كثيراً من الظن إنّ بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضاً أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً**﴾.

١- كذا في الأصل، ولعلَّ الصواب: «إسرافا».

وأمّا ظنك أنّ صحبتي لرسول ا لله ﷺ ستكون من أعظم الحجج عليَّ فتحلل يا أبا الحسن من ظنك هذا الجنة حرم من الغافلين وهذا الأمر كغيره من ظنونك، بل أرجو أن يكون صحبتي من رسول ا لله ﷺ من أفضل مواهب الجبار.

وأمّا استتابتك إن كنت لحق ا لله مضيّعا ولفريضة عليَّ فيها وراء ظهري نابذاً، فقد صدقت إن ضيَّعت حق ا لله فنبذته وراء ظهري، فقد شقيت إذاً وخزيت فاستتبني إن كنت قاطعاً تسلم من ذلك.

وأمّا قولك: إنّك تعرف فيَّ اللّجاجة متى وجَّهتني إلى أصحاب النهروان، فلا أراك إلاّ وقد عرفت كراهيتي لتأليبك عليهم، ورجعتك إليهم، فإن قولك: إني كنت أسرُّ أمراً وأظهر لك خلافه بينهم ما أنقض به من قولك وخالفت بين مذهبك، فأنت يا أبا حسن أولى بالتخليط.

وأمّا قولك: إنَّهم أوردوا عليَّ من كتاب ا لله ما زيّنوا به احتجاجهم وإنّي احتججت[1] بذلك عن باطلهم، فما كان في القوم أعلم بالتنزيل والتأويل منّي، وما أوردوا عليَّ شيئاً يستدرجون به حقّي بأمر باطل إن كانوا عليه لكنهم لمَّا عرفوا أمروني بنكبها، أنكس لهم جدتي وألين لهم جناحي وعرفت مأخذ ما أخذوني به.

وأمّا قولك: إنّي أتيتهم أنقل عنك الكذب. فالحمد لله الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، وهل يخرجني عنك من التهمة أن أغلظ لك القسم، إنّي لم آتك بأقلَّ ما أعطوني كراهة التطويل عليك، ولو أحصيت ذلك كله لثقل علبك، فلعمري لئن كنت رميتني بأن كنت أتيتك

1- في المتن: «احتجت»، وهو خطأ، والصواب من الهامش أعلاه.

عنهم بخلاف ما أعطوني، لقد تعاطيت الكذب وقبلت الرأي في ائتمانك غير أمين، ولست أدري ما ذنبي إليك بأن رميتني أن أكون كذبت من التبرئة في القول ولا أكذب في تأدية الرسالات، وكلُّ كلامك في هذا أعوج والحمد لله.

وأمّا قولك: إني خدعت بذلك نفسي، ألا ما فكرت في جواب هذه حين وصفتها[1]، وكيف أخدع نفسي بزعمك وكذباً أنقله لم يتكلّم به من أرسلتني إليه. أرُشد نفسي أحبُّ إليَّ أم غيُّها؟ فإن قلت: بل رشدها. فكيف يكون من طلبتي في رشدها أن أخدعها عن الحقِّ وأحملها على الباطل، وإن قلت: إنَّ غيَّها أحبُّ إليَّ فقد زعمت أنّي مبغض نفسي وما يعلم في الناس من هو مبغض لنفسه، وهذا لا يمكن فلا تخرجنَّ كلمة من فيك لتقبس بجوابها فإن لِكُلِّ كلمة شكلاً من صدقها، ومن لم ينظر في الجواب ساءه حاضر الجواب.

وأمّا قولك: إنّي خُنت بذلك أمانة الله، فلعمري لئن كنتُ فعلت ما رميتني به واجترأت عليه لقد ضيَّعت واجب حق الله، ولكن أبيتُ أن أصدقك بذلك وأقول كما قلت: إني أدّيت ما كان منّي، فهذه إعادة كلام مغضب قد أمضَّه ما أنا برسوله، وعجز عن ردِّ الجواب على من رماه به بالحرمات، فأقبل على رسوله بأكل لحمه قدداً وبنزعه عنه بدداً، فأيقض لمضض كلامك مع فيمن يجرعك للأمرين، فالتقم لا عن مراد أداء إليك[2].

وأمّا قولك: إنّي بئس الوافد على أهل حربي، فإنَّ الذي احتال بحالي عندك حتّى أخرجت لي ماكان عدوك أولى به، فهو الذي حملك علي

1- في الهامش أعلاه: «وضعتها»

2- كذا الجملة غامضة، وفي الهامش تعليق فيه: «بأنَّ لمضض كلامك يفي بجرعك للأمرَّين».

سبب إيماني أن أكون خُنتك في الأمانة التي أودعتنيها، ومن كانت رويت في خيونة مسميه و لم يقدمه أن يسمع بدعاً وأنا عائذ با لله من خيانة أحد في شيء ممَّا يجب عليّ من الأمانة.

وأمّا قولك: إنّي كنت أشد المعين على أهل حربي كنت، فإنّ أولى[1] بذلك منّي من لم ينتصر بحربه مِمَّن أكفر بكلامه وخالفه في إسلامه لانتظار المترفين، فلا خطأ ولا طائلة أدرك.

وأمّا قولك: إنَّك ما تصنع بمعاتبتي بعد ما كان منّي، فو ا لله ما أتوب إلى ا لله من سقطة أسقطتها ممَّا استودعتني، ولحرمة ا لله كانت أوجب عليَّ رعاية من حرمتك ناقمون، وما أخاف بأن تبلغوا على الحق بأمر أكون فيه من حين إيجابه، وما انتقصت مِمَّن يعطيني الحق من نفسه وما كان منّي إلا أنك أمَّنتني على أمر وجهتني فيه إلى قوم عليك رادون، وعلى ماجاءك في حلو منك ناقمون، أمرتني أن أسمع كلامهم ثم أردَّ عليهم الحجج التي تكسر عليهم ما في أيديهم من كتاب ا لله، فلمَّا أتيتُهم سألتهم عما له بعثتني، فأعطونيه سراعاً، فلمّا نظرت فيما تكلموا به لم أر عليهم عيباً فيه وراعوا إلى ما كنت هيئته من كتاب ا لله أن يكون سلاحي على مناوأتهم فيه فحاجُّوني به، فلمَّا أسبقوني إلى الاحتجاج عليَّ بكتاب ا لله لم يستقم لي أن أطلب الكسر عليهم بغير كتاب ا لله، ولو رمت الاحتجاج عليهم بغير كتاب ا لله عليهم لخالفت أمرك ولكن ما أتوني به من الكتاب أقوى مما أتيتهم به وغيره، فلمَّا نظرت إلى قوة ما راموني به من القرآن التمست غيره من الكتاب ما هو أقوى منه لأكسر به شرة قولهم، فلم أجده. فما ذنبي إن كان القوم نقضوا عليك أمراً هم فيه مجمعون، وادعيت عليهم

1- في الأصل: أوّلاً، ولعلَّ الصواب ما أثبتنا.

بكتاب الله أمراً أنت فيه مبطل، وما سبيلك إلى أمانتي إن كنت أديت عنك الذي حملتنيه لم أعده، وأدّيت ما حملته لم أجرم فيه فتيلاً ولا نقيراً ولا قطميراً أجازوه ولا قمع داره.

وأيم الله، لقد نازعني المتكلمون منهم منازعة لو طلبتها لا نفصحت عنها انفصاح الثمرة الرطبة على استقراب الوقوع السحيق، وها أنت ذا قد أتتك حجتهم التي بها دنوا ومَعاتبهم إلاَّ رداً عليك من كتاب الله، كما أقرأه ولأنت أعلم بنفسك، وإن لم يفِ من الخوارج الحجج التي كنت تحب أن أحتجَّ بها على أهل النهروان، فلم أبلغ ذلك وأحجمت عنه كما ذكرت تنكسر علي فريقي من الخوارج ما في أيديهم، ويعذرك الناس في قتال أصحاب البرانيس حملة الكتاب وأخيار الإسلام ورهبان الليل ليوث النهار، فلعمري لَلباقون منهم أشدُّ فيما عليك احتجاجاً وفي فراقك بصيرة من أولئك، فلم يبق بعدك من يتولاك أحوج إلى ما تصنع من الثور على مخالفتك منهم مِمَّن هو اليوم معك، ولأنت أبلغ في شرح ما نقموا عليك وإيضاح ما احتججت به عليهم ممن يتكلف من أهل ولايتك ووضع ذلك بعدي قولي لك.

وهذه أسباب عذري فيما اتهمتني به، وهذا تكرير أداء الرسالة التي أودعتنيها وجواب ما أودعت منها؛ لم أظلم فيه نفسي ولم أستعن عليه بشيء من تلقاء نفسي، وأنا أقول على أثر ذلك: لاحول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، حسبي الله عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون».

تمت الرسالة والجواب والحمد لله وصلى الله على رسوله محمد وسلم.

كتاب عبد الله بن إباض إلى عبد الملك بن مروان

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، من عبد الله بن إباض إلى عبد الملك بن مروان، أمَّا بعد: سلام عليك، فإنّي أحمد إليك الله الذي لا إله إلاّ هو، وأوصيك بتقوى الله، فإنَّ العاقبة للتقوى وَالمُرَاد إلى الله، واعلم أنَّه إنّما يتقبَّل الله من المتّقين.

وقد جاءني كتابك مع سنان بن عاصم، وإنَّك كتبت إليَّ أن أكتب إليك بكتاب فكتبته إليك، فمنه ما تعرف ومنه ما تنكر، ولكن الذي تنكره ليس عند الله بمنكر.

وأمَّا ما ذكرت من عثمان والذي عرضت بِهِ من شأن الأمَّة فإنَّ الله ليس ينكر عليه أحدٌ شهادته في كتابه الذي أنزل على نبيه ﷺ: ﴿**ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون**﴾[1] ﴿**الفاسقون**﴾[2]، ﴿**والكافرون**﴾[3]. ثمَّ إنّي لم أكن أذكر لك من شأن عثمان شيئاً إلاّ - والله - تعلم أنَّه حقٌّ، وسأنزع لك من ذلك البيِّنة من كتاب الله، وسأخبرك خبر عثمان الذي طعنا عليه فيه، وأبيِّن شأنه وأمره.

لقد كان عثمان كما ذكرت من قدمه في الإسلام، ولكنَّ الله لم يجز العباد من الفتنة، وذلك أنَّ الله بعث محمَّدًا ﷺ، وأنزل عليه الكتاب وبيَّن فيه كلَّ أمر، وفصل فيه كلَّ حكم، ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه،

1- سورة المائدة: 45..

2- نصُّ الآية ﴿**ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون**﴾ سورة المائدة: 47.

3- نصُّ الآية ﴿ **ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون**﴾ سورة المائدة: 44.

وجعله هدى ورحمة لقوم يؤمنون[1] فأحلَّ فيه حلالاً وحرَّم فيه حراماً، وحكم أحكاماً وفرض فرائض وحدوداً. فقال: ﴿**تلك حدود الله فلا تقربوها**﴾[2] وقال: ﴿**تلك حدود الله فلا تعتدوها ومن يتعدَّ حدود الله فأولئك هم الظالمون**﴾[3].

ثمَّ أمر نبيَّه باتباع كتابه وقال: ﴿**واتَّبع مآ أوحي إليك من ربِّك**﴾[4]. وقال: ﴿**فإذا قرأناه فاتبع قرآنه**﴾[5]. فعمل محمَّد ﷺ بأمر ربِّه، ومعه عثمان ومن شاء الله من أصحابه، لا يرونه يتعمَّد أحداً ولا يبدِّل حكماً ولا يستحلُّ حراماً ولا يحرِّم حلالاً ولا يبدِّل فريضة. وكان رسول الله ﷺ يقول: ﴿**إني أخاف إن عصيت ربِّي عذاب يوم عظيم**﴾[6] .

فعمَّر ﷺ ما شاء الله تابعاً لما جاء به من عند الله، مبلِّغاً لما ائتمنه الله عليه، معلِّماً للمؤمنين، مبصِّراً لهم حتَّى توفَّاه الله ﷺ. ثمَّ أورث الله عزَّ وجلَّ المسلمين الذي جاء به ﷺ، وهو كتابه الذي يهتدي من اهتدى باتباعه ولا يضل من ضلَّ إلاَّ بتركه.

ثمَّ قام من بعده أبو بكر على الناس، فأخذ كتاب الله وعمل بسنَّة

1- نصُّ الآية ﴿**ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم هدى ورحمة لقوم يؤمنون**﴾ سورة الأعراف: 52

2- سورة البقرة: 187.

3- سورة البقرة: 229.

4- سورة الأحزاب: 3.

5- سورة القيامة: 18.

6- سورة الأنعام: 15.

نبيه، فلم يفارقه أحد من المسلمين و لم يعيبوا عليه في حكم حَكَمه، ولا قسم قسمه، حتّى فارق الدُّنيا وأهل الإسلام عنه راضون وله مجامعون.

ثمَّ قام من بعده عمر فكان قوياً على الأمر، شديداً على أهل النفاق، يهتدي بمن كان قبله من المؤمنين ويعمل بكتاب الله، وابتلاه الله بفتوح من الدُّنيا بما لم يلِ به صاحبيه، وفارق الدُّنيا والدين ظاهرٌ وكلمة الإسلام جامعةٌ، وشهادة المؤمنين له بالوفاء قائمةٌ، والمؤمنون شهداء الله في الأرض، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿**وكذلك جعلناكم أمَّة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرَّسول عليكم شهيداً**﴾[1].

ثمَّ استشار المؤمنين فتركها فيهم، فولّوا عثمان ففعل ما شاء الله بما يعرف الإسلام، حتّى بسطت له الدنيا وفتح له من خزائن الأرض، وأحدث أموراً لم يعمل بها صاحباه قبله، وعهد الناس يومئذ قريب منهم، فلمَّا رأى ما أحدث أتوه وكلّموه وذكّروه بكتاب الله وسنة من قبله، فشقَّ عليه أن ذكّروه بآيات الله، وأخذ بالجبرية ، وضرب من شاء منهم وسجن، ونفاهم في أطراف الأرض من أجل أن ذكّروه بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ وآثار من كان قبله من المؤمنين، ﴿**ومن أظلم ممَّن ذكّر بآيات ربه فأعرض عنها ونسي ما قدّمت يداه**﴾[2]، ﴿**ومن أظلم ممَّن ذكّر بآيات ربه ثمَّ أعرض عنها إنَّا من المجرمين منتقمون**﴾[3].

وأنا أبين لك يا عبد الملك بن مروان ما أنكر المسلمون على عثمان وفارقوه عليه، عسى أن تكون غافلاً فأذكّرك، أو جاهلاً فأعرّفك، فلا

1- سورة البقرة: 143.

2- سورة الكهف: 57.

3- سورة السجدة: 22

يحملنك هوى عثمان يا عبد الملك أن تكذّب بآيات الله وتعرض عنها، فإنّه لا يُغني عنك من الله شيء.

فالله الله يا عبد الملك قبل التناوش من مكان بعيد، وقبل أن تكون لزاماً، وإنّه كان مِمّا طعن عليه المسلمون وفارقوه وفارقناه عليه، قال الله عزَّ وجلَّ: **﴿ومن أظلم مِمَّن منع مساجد الله أن يُذكر فيها اسمه وسعى في خرابها أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلاّ خائفين لهم في الدُّنيا خزيٌ ولهم في الآخرة عذاب عظيم﴾**[1] وكان عثمان أوَّل من منع مساجد الله أن يقصَّ فيها كتاب الله.

ومِمَّا نقمنا عليه وفارقناه أن الله عزَّ وجلَّ قال: **﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم فتكون من الظالمين﴾**[2] فكان خيار هذه الأمَّة قد طردهم ونفاهم، فكان مَن نفى مِن أهل المدينة أبا ذر الغفاري ومسلم الجهني ونافع بن الحطام، ونفى من أهل الكوفة كعبا وجندب بن زهير قاتل الساحر، ونفى عمر بن زرارة ويزيد بن صحوان وأسود بن دويج ويزيد بن قيس الهمداني وكردوس بن الخضرمي في أناس كثير من أهل الكوفة، ونفى من أهل البصرة عامر بن عبد الله ومدعور العنبري ومن لا يستطاع عددهم من المؤمنين.

ومِمَّا نقمنا عليه أنَّه أمَّر أخاه الوليد بن عقبة على الناس، فكان يلعب بالسِّحر ويصلّي بالناس سكران، فاسق في دين الله، وإنَّما أمَّره من أجل قرابته.

1- سورة البقرة: 114.

2- سورة الحشر: 7.

ومِمَّا نقمنا عليه جعل المال دولة بين الأغنياء، وقد قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿كي لا يكون دولة بين الأغنياء﴾[1] فبدَّل فيه كلام الله واتبع هواه.

ومِمَّا نقمنا عليه أنَّه منع مواضع القطر وحماها لنفسه ولأهله، ومنع الرزق الذي أنزله الله لعباده متاعاً لهم ولأنعامهم، وقد قال الله عزَّ وجلَّ: **﴿قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراماً وحلالاً قل آلله أذن لكم أم على الله تفترون﴾**[2].

ومِمَّا نقمنا عليه أنَّه أوَّل من تعدَّى في الصدقات، وقد قال الله: **﴿إنَّما الصدقات للفقراء والمساكين﴾** إلى قوله: **﴿فريضة من الله والله عليم حكيم﴾**[3]. وقال: **﴿وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن تكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضلَّ ضلالاً مبيناً﴾**[4].

والذي أحدث عثمان منعه فرائض كان فرضها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وأنقص أهل بدر من عطاياهم ألف ألف، وكنز الذهب والفضَّة ولم ينفقها في سبيل الله، وقال الله عزَّ وجلَّ: **﴿والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشِّرهم بعذاب أليم يوم يُحمى عليها في نار جهنَّم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم﴾**[5].

1- سورة النساء: 59.

2- سورة يونس: 59.

3- سورة التوبة: 60.

4- سورة الأحزاب: 36.

5- سورة التوبة: 34.

مِمَّا نقمنا عليه كان يضمُّ كلَّ ضالة إلى إبله ولا يردُّها ولا يعرفها، وكان يأخذها من الإبل والغنم إذا وجدها عند أحد، وإن كانوا قد أسلموا عليها، وكان لهم في حكم الله ما أسلموا عليه، وقد قال عزَّ وجلَّ: ﴿**ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الارض مفسدين**﴾(1) وقال: ﴿**ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلاَّ أن تكون تجارة عن تراض منكم**﴾(2).

ومِمَّا نقمنا عليه أنَّه أخذ خمس الله لنفسه، وأعطى منه أقاربه، وكان ذلك تبديلاً لحكم الله وفرض الله الخمس، ﴿**لله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل**﴾ إلى قوله: ﴿**والله على كلّ شيء قدير**﴾(3) ومِمَّا نقمنا عليه منع أهل البحرين وأهل عمان أن يبيعوا شيئاً من طعامهم حتَّى يباع طعام الإمارة، وذلك تحريم لما أحلَّ الله، ﴿**وأحلَّ الله البيع وحرَّم الربا**﴾(4).

وكان من عمل عثمان أنَّه يحكم بغير ما أنزل الله، وقد خالف سبيل الله وسبيل صاحبيه، وقال الله: ﴿**ومن يشاقق الرَّسول من بعد ما تبين له الهدى ويتَّبع غير سبيل المؤمنين نولّه ما تولَّى ونصله جهنَّم وساءت مصيراً**﴾(5) وقال: ﴿**ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون**﴾ ﴿**والكافرون**﴾ ﴿**والفاسقون**﴾، وقال: ﴿**ألا لعنة الله على الظالمين**﴾(6)

1- سورة الأعراف: 85.

2- سورة النساء: 29.

3- سورة الأنفال: 41.

4- سورة البقرة: 275.

5- سورة النساء: 15.

6- سورة هود: 18.

وقال: ﴿**ومن يلعن ا لله فلن تجد لـه نصيراً**﴾[1] وقـال: ﴿**ولا تركنـوا إلى الذين ظلموا فتمسَّكم النَّـار**﴾[2] وقـال: ﴿**وكذلـك حقَّت كلمـة ربـك على الذين فسقوا أنَّهم لا يؤمنون**﴾[3]، وكـلُّ هـذه الآيـات تشـهد علـى عثمان، وإنَّما شهدنا عليه بما شهدت عليه هذه الآيات، ﴿**لكن ا لله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى با لله شهيداً**﴾[4].

فلمَّا رأى المسلمون الذي أتى بـه عثمـان مـن معصيـة ا لله، والمؤمنـون شـهداءُ ا لله في الأرض، نـاظرون في أعمـال النـاس، وقـال ا لله عـزَّ وجـلَّ: ﴿**وقل اعملوا فسيرى ا لله عملكم ورسوله والمؤمنون**﴾[5] وترك خصومة الخصمين في الحقِّ والباطل، ووقع ما وعد ا لله من الفتن وقد قال عزَّ وجلَّ: ﴿**ألم، أحسب الناس أن يُتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمنَّ ا لله الذين صدَقوا وليعلمنَّ الكاذبين**﴾[6] وعلـم المسلمون أنَّ طاعة عثمان على ذلك طاعة إبليـس، فسـاروا إلى عثمـان مـن أطراف الأرض واجتمعوا إليه مـلأ مـن المهـاجرين والأنصـار وعامـة أزواج النبي ﷺ، فأتوه فذكَّـروه بـا لله وأخبروه بـالذي أتـى مـن معـاصي ا لله، فزعم أنَّه يعرف الذي يقولون وأنَّه يتوب إلى ا لله عـزَّ وجـلَّ منه ويراجـع الحقَّ، فقبلوا الذي أتاهم به من الاعتراف بالذنب والتوبة إلى ا لله عـزَّ وجـلَّ

1- سورة النساء: 52.

2- سورة هود: 113.

3- سورة يونس: 33.

4- سورة النساء: 166.

5- سورة التوبة: 105.

6- سورة العنكبوت: 1-3.

ومراجعة الحقّ، وكان حقًّا على أهل الإسلام إذا التقوا بالحقّ أن يقبلوه ويجامعوه ما استقام على الحقّ، فلمَّا تفرَّقوا عنه نكث الذي عاهدهم عليه وعاد إلى أعظم من الذي تاب منه، فكتب إلى عمَّاله في أدبارهم أن تُقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، فلمَّا ظهر المؤمنون على كتابه ونكثه العهود رجعوا إليه وقتلوه بحكم الله، وقد قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿**وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم فقاتلوا أئمَّة الكفر إنَّهم لا أيْمان لهم لعلهم ينتهون**﴾[1] وقد عمل بكتاب الله وجامع المسلمين زماناً ثُمَّ ارتدَّ على عقبيه، وقد قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿**إنَّ الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى الشيطان سوَّل لهم وأملى لهم**﴾[2] فهذا وأمثاله من خبر عثمان هو الذي فارقه عليه المؤمنون وفارقناه، وطعنوا عليه فيه طعناً نحن اليوم فيه.

وذكرت كونه مع رسول الله ﷺ وخلته معه، فقد كان علي بن أبي طالب أقرب قرابة إلى رسول الله وأعظم خلَّة وأقدم هجرة وأسبق إسلاماً، وأنت تشهد له بذلك وأنا بعد ذلك. فكيف كانت قرابته وخلته، هل كانت نجاة إذا ترك الحقّ أم هلاكاً؟ واعلم أنَّ علامة كفر هذه الأمَّة إذا تركوا الحكم بما أنزل الله وحكموا بغير ما أنزل الله: ﴿**فمن أصدق من الله حكماً لقوم يوقنون**﴾[3] وقال: ﴿**فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون**﴾ [4].

1- سورة التوبة :12.

2- سورة محمد:25.

3- سورة المائدة: 50.

4- سورة الجاثية: 6.

فلا يغرُّنك يا عبد الملك بن مروان عِزُّ نفسك، ولا تسند دينك إلى الرجال فإنَّهم يُستدرجون من حيث لا يعلمون، فإنَّ أملك الأعمال خواتمها، وكتاب الله جديد أبداً لا ينطق إلاّ بالحقِّ، أجارنا الله باتباعه أن نبغي أو نضلَّ، فاعتصم بحبل الله يا عبد الملك واعتصم بالله يهدك إلى صراط مستقيم. قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿**ومن يعتصم بالله فقد هُدي إلى صراط مستقيم**﴾[1]. وكتاب الله هو حبل الله المتين الذي أمر المؤمنين أن يعتصموا به فقال: ﴿**واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرَّقوا**﴾[2] فأنشدك الله أن تدبِّر معاني القرآن وتكون مهتدياً به مخاصماً به، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿**أفلا يتدبَّرون القرآن أم على على قلوب أقفالها**﴾[3] .

وأمَّا قولك في معاوية إنَّ الله قام معه وعجَّل نصره وبلج حجَّته وأظهره على عدوِّه بالطلب لدم عثمان، فإن كنت تعتبر الدِّين من قبل الدولة والغلبة في الدُّنيا فإنَّا لا نعتبره من قبل ذلك، فقد ظهر المسلمون على الكافرين لينظر كيف يعملون، وظهر المشركون على المؤمنين ليبلي المؤمنين ويملي الكافرين وقال: ﴿**وتلك الأيَّام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين ءامنوا ويتَّخذ منكم شهداء والله لا يحِبُّ الظالمين وليمحِّص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين**﴾[4] وانظر ما أصاب المؤمنين من المشركين يوم أحد، وانظر كيف ظهر قتلة ابن عفّان عليه وعلى شيعته يوم الدار، وظهر عليٌّ على أهل البصرة وهم شيعة عثمان، وظهر المختار على زيد وأصحابه

1- سورة آل عمران: 101.

2- سورة آل عمران: 103.

3- سورة محمَّد: 24.

4- سورة آل عمران: 140-141.

وهم شيعتهم، وظهر مصعب على المختار، وظهر أهل الشام على أهل المدينة، وظهر الزبير على أهل الشام بمكة.

فلا تعتبر الدِّين من قبل الدولة، فقد يظهر الناس بعضهم على بعض، فقد أعطى الله فرعون ملكاً وظهر في الأرض، وأعطى الذي حاجَّ إبراهيم في ربِّه ملكاً. ثمَّ إنَّ معاوية إنَّمَا اشترى الإمارة من الحسن بن علي، ولم يف له بما اشترطه عليه، وعاهد الله العظيم ليوفين له. وقد قال الله عزَّ وجلَّ ﴿**ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها**﴾ الآية[1].

ولا تسأل عن معاوية وعن صناعته غيري، لأنِّي قد أدركته ورأيت عمله وسيرته، ولا أعلم من الناس أحداً أترك للقسمة التي قسمها الله ولا لحكم حكمه الله ولا أسفك لدم حرَّمه الله منه، فلو لم يصب من البلاء إلاَّ دم ابن سمية لكان فيه ما يكفِّروه، ثمَّ استخلف ابنه يزيد، فاسقاً لعيناً كافراً شارباً للخمر فيكفيه من الشر، فلا يخفى عمل معاوية ويزيد على كلِّ عاقل.

فاتَّق الله يا عبد الملك ولا تخادع نفسك في معاوية، فقد أدركنا أهل بيتكم يطعنون في معاوية ويزيد ويعيبون عليهما كثيراً فيما يصنعون، فمن يتولَّ عثمان ومن معه فإنِّي أشهد الله وملائكته أنِّي منهم بريء، أعداء لهم بأيدينا وألسنتنا وقلوبنا، نعيش على ذلك ونموت عليه إذا متنا ونبعث عليه إذا بعثنا ونحاسب بذلك عند الله.

وكتب[تَ] إليَّ تحذِّرني الغلوَّ في الدِّين، أعوذ بالله من الغلوِّ، وسأبين لك ما الغلو في الدِّين إذا جهلته، والغلو في الدِّين أن يقال على الله غير الحقِّ ويعمل بغير كتاب الله الذي بيَّن، وسنَّة نبيه التي سنَّ، وقال الله: ﴿يا

1- سورة النحل: 91.

أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلاَّ الحقَّ﴾[1] وقال: **﴿يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير حقّ﴾**[2].

كما على عثمان والأئمة بعده، وأنت بعد على سبيلهم وطاعتهم تجامعهم على معصية الله وتتبعهم، وقد اتبعوا أهواءهم واتبعتهم أنت عليها. وقال الله عزَّ وجلَّ: **﴿ولا تتّبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثير وضلوا عن سواء السبيل﴾**[3] فهؤلاء أهل الغلو في الدّين فليس من غضب لله حين عصي ورضي بحكم الله ودعا إلى كتاب الله وإلى سنة نبيه وسنة المؤمنين بعد بغال في الدِّين.

وكتبت إليَّ تعرِّض بالخوارج وتزعم أنَّهم يغلون في دين الله ويتبعون غير سبيل المؤمنين ويفارقون أهل الإسلام، وأنا أبيِّن لك سبيلهم، هم أصحاب عثمان الذين أنكروا عليه ما أحدث من بدعة وفارقوه حين ترك حكم الله، وهم أصحاب الزبير وطلحة حين نكثا، وأصحاب معاوية حين بغى، وأصحاب علي حين بدَّل كتاب الله، وحكّم عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص فهم فارقوا هؤلاء كلّهم وأبوا أن يفرقوا بحكم البشر دون حكم الله، فهم لمن بعدهم أشدُّ عداوة وأشد مفارقة، كانوا يتولون في دينهم وسنة نبي الله ﷺ وأبي بكر وعمر رضي الله عنهما، ويدعون إلى سبيلهم ويرضون على ذلك، كانوا يخرجون وإليه يدعون وعليه يفارقون. وقد علم من عرفهم وعرف حالهم أنَّهم كانوا أحسن عملاً وأشدَّ قتالاً في سبيل الله. هذا خبر الخوارج، شهد الله والملائكة أنَّا لمن عاداهم أعداؤنا

1- سورة النساء: 171.

2- سورة المائدة: 77.

3- سورة المائدة: 77.

ولمن ولاهم أولياؤنا بألسنتنا وأيدينا وقلوبنا، نعيش على ذلك ما عشنا ونموت عليه إذا متنا ونبعث عليه عند ربنا.

إنّا براء إلى الله من ابن الأزرق وصنيعه وأتباعه، لقد كان حين خرج على الإسلام فيما ظهر لنا، ولكنّه أحدث وارتدّ وكفر بعد إسلامه، فنبرأ إلى الله منهم.

وأنت كتبت إليّ أن أكتب إليك بجواب كتابك وأجتهد لك في النصيحة، وذكّرتني بالله وأفضل ما ذكرتني به أن قلت: ﴿**إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البيّنات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب**﴾ الآية[1] ﴿**وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه**﴾[2]، فقد بينت لك وأخبرتك خبر الأئمة، وكان حقًّا عليّ أن أنصح لك، فإنّ الله لم يتخذني عبداً لأكفر به ولا أخادع الناس بشيء ليس في نفسي وأخالف إلى ما أنهى عنه.

أدعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه ﷺ لتحل الحلال وتحرم الحرام، ولا تظلموا الناس شيئاً، وأن يكون كتاب الله حكماً بيني وبينكم فيما اختلفنا فيه، وأن نتولّى من تولّى الله، وأن نبرأ ممّن تبرّأ الله منه، وأن نطيع من أمر الله بطاعته، ونعصي من أمر الله بمعصيته في كتابه. فهذا الذي أدركنا عليه نبينا ﷺ، وإنّ هذه الأمّة لم تسفك دماً إلاّ حين ترك كتاب الله وسنة نبيه، وقد قال الله عزّ وجلّ: ﴿**وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله ذلكم الله ربّي عليه توكّلت وإليه أنيب**﴾[3] والقرآن

1- سورة البقرة: 159.

2- سورة آل عمران: 187.

3- سورة الشورى: 10.

هو السبيل الواضح الذي هدى الله به من كان قبلنا محمَّد وأصحابه الخليفتين الصَّالحين، ولا يضلُّ من اتبعه ولا يهتدي من تركه وقال: ﴿**وأنَّ هذا صراطي مستقيماً فاتَّبعوه ولا تتَّبعوا السبل فتفرَّق بكم عن سبيله**﴾[1]. فاحذر أن تتفرق بك السبل وتتبع هواك، فإنَّ الناس إنَّما يتبعون في الدُّنيا والآخرة إمامين: إمام هدى وإمام ضلالة، فإمام الهدى الذي يتبع كلام الله ويقسم بقسمة الله ويحكم بحكم الله وهو الذي قال فيه عزَّ وجلَّ: ﴿**وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا**﴾[2] وهؤلاء هم الأئمة الذين أمر الله بطاعتهم ونهى عن معصيتهم.

وأمَّا أئمة الضلالة فهم يحكمون بغير ما أنزل الله، ويقسمون بغير قسمة الله، ويتَّبعون أهواءهم بغير سنَّة من الله، فهؤلاء الذين قال الله عزَّ وجلَّ فيهم: ﴿**وجعلناهم أئمة يدعون إلى النَّار ويوم القيامة لا ينصرون**﴾[3] وفيهم قال: ﴿**ولا تطع الكافرين وجاهدهم به جهاداً كبيراً**﴾[4] وقال: ﴿**ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه**﴾[5] ﴿**هذا كتابنا ينطق عليكم بالحقّ**﴾[6] ، ﴿**فماذا بعد الحقّ إلاَّ الضلال**﴾[7]. فلا تضربن عنك الذكر صفحاً، ولا تشكَّن في كتاب الله.

1- سورة الأنعام: 153.

2- سورة الأنبياء: 73.

3- سورة القصص: 41

4- سورة الفرقان: 52.

5- سورة الكهف: 28.

6- سورة الجاثية: 29.

7- سورة يونس: 32.

وقد كتبت إليَّ بمرجوع كتابك فأنشدك الله لمّا قرأته وأنت مشغول حتّى تتفرّغ له وتدبّر معانيه وتنظر فيه بعين البصيرة، واكتب إليّ جواب كتابي إن استطعت، وانزع إليّ الشواهد من كتاب الله والبينة منه، فأصدّق بذلك قولك، ولا تتعرّض لي بالدنيا فإنّه لا رغبة لي في الدُّنيا، وليست من حاجتي، ولكن لتكن نصيحتك لي في الدِّين ولِما بعد الموت، فإنّ ذلك أفضل النصيحة.

والله قدير أن يجمع بيننا وبينك على الطّاعة، فإنّه لا خير فيمن لم يكن على طاعة الله. وبالله التوفيق وفيه الرضا، والسلام عليك.

الرسالة التي بعث بها أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة، إلى الدعاة الإباضيَّة في المغرب

وهي تقيم الدليل على الصلة الوثيقة بين إباضيَّة المغرب وارتباطهم بمركز الدعوة الأمِّ في مدينة البصرة، وتظهر هذه الرسالة الدقَّة في التنظيم الإباضي، ومراقبة أبو عبيدة لدعاته دون أن يفطنوا لذلك[1] وفيما يلي نصوص من هذه الرسالة التي بدأت:

«بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ: صلَّى الله على سيِّدنا محمَّد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم تسليما.

أتانا كتابكم تذكرون فيه ما منَّ الله به عليكم، من جمع كلمتكم وائتلاف أمركم في كثرة من بحضرتكم من أهل الخلاف لكم، ولعمري ما أكثرتهم وإن كثروا بأكثر مِمَّا كان قبلهم على من كان قبلكم من سلفكم، فاقتدوا بهم يهن عليكم كثرتهم على أخلافهم، نسأل الله العون والتوفيق في جميع أموركم، وأن يكفَّنا وإياكم بأسهم، وأن يجعل لنا ولكم ولجميع المسلمين عليهم الدائرة، ويشفي صدور قوم مؤمنين، ويذهب غيض قلوبهم.

فلعمري لقد سرني ما انتهيتم إليه من أمركم وإن كان ذلك لم يخف عنَّا، غير أنَّا لم نكتف [بـ]الذي كتبتم به إليَّ، والله يستتم لكم الخير كله بعونه وتوفيقه.

1- وردت هذه الرسالة بمدونة أبي غانم الخرساني ، تحت عنوان «**رسالة في أحكام الزكاة لأبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة**» مخطوطة بدار الكتب المصرية برقم 21582ب.

أتانا كتابكم بمسائل، فمنها ما رأيت أن أجيبكم فيها، ومنها ما رأيت ألاّ نجيبكم فيها من غير هوان ولا تقصير، إلاّ الذي رأيته أصلح لجماعتكم، وأقوم لشأنكم، وأرفق لضعيفكم، وأعطف لقويكم، وأجمع لأموركم، وما توفيقي إلاّ با لله وفقنا ا لله وإيّاكم لـمّا يحبه ويرضاه[1] ...».

أمّا تاريخ هذه الرسالة فظهر من محتوياتها أنّها كتبت بعد سنة 132هـ للهجرة، وفيها إشارة إلى رفض أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة والردّ على بعض أسئلة الدعاة المغاربة، ويحتمل أنّه رفض الإجابة على مسألة البراءة والولاية من الحارث بن تليد الحضرمي وعبد الجبار بن قيس المرادي التي اختلف فيها الدعاة الإباضيّة بشكل كاد يؤدّي إلى انقسامهم[2]، «فبلغت مسألتهما أهل المشرق فاختلفوا كما اختلف أهل المغرب، فكتب أبو عبيدة وحاجب بالكفّ عن ذكرهما...»[3]

1- **مدونة أبي غانم الخرساني ورقة 113-114.**

2- أبو زكرياء: **السيرة وأخبار الأيمة**، ورقة: 7أ،7ب.

3- الشمّاخي: **السير**، ص125. وكان الحارث بن تليد وعبد الجبار بن قيس المرادي قد ثارا على السلطة الأموية بناحية طرابلس في المغرب عام 131هـ. أو في 132هـ على رواية الشماخي، ص25. ينظر:

المجلس الأعلى للشؤون الإسلاميَّة: **موسوعة جمال عبد الناصر في الفقه الإسلامي**، (القاهرة، 1388)3/250.

سيرة سالم بن ذكوان[1]

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي لا ربَّ غيره، ولا شيء كمثله، إنَّما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون. ونوصيكم بتقوى الله العظيم فإنَّها وصيَّة الله في الأولين والآخرين، حيث يقول: ﴿**ولقد وصَّينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله وإن تكفروا فإنَّ لله ما في السموات وما في الأرض وكان الله غنيّاً حميدا**﴾[2]، ونحضُّكم على شكر نعمه، والصبر له بحقّه فإنَّ الله زائد من شكره، ويوفي الصابرين أجرهم بغير حساب.

ونرضى لكم طاعة الله، ونسخط لكم معصيته؛ فإنَّه من يطع الله

1- سالم بن ذكوان الهلالي (حي بين 99هـ/717م-101هـ/719م): من مواليد توام بعمان، أحد التابعين، وهو من أركان الحركة الإباضيَّة في عهد نشأتها؛ فقد كاتف الإمام جابر بن زيد، وخليفته أبا عبيدة مسلم. ولكفاءته العلميَّة والسياسية اختاره أبو عبيدة ليكون ضمن الوفد الذي يتفاوض مع الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه. وهو أحد القرَّاء المشهود لهم بالعلم حيث روى عن عبد الله بن عامر الشامي. وانظر جمعية التراث: **معجم أعلام الإباضيَّة**، جزء المغرب، ج2/ترجمة 419. نقلا عن: *ابن الجزري: **طبقات القرَّاء** *أبو عمَّار عبد الكافي: **السير** (مخ) 1ظ *الشمَّاخي: **سير**، ج1، ص109 *اطفيش أبو إسحاق: **نبذة من تاريخ الخوارج** (مخ)، أحال إليه الشيخ دبوز *دبوز محمَّد علي: **تاريخ المغرب الكبير**، ج2/ص175، 382.

2- سورة النساء: 131.

ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار وذلك الفوز العظيم، ومن يعص الله ورسوله، ويتعدَّ حدوده يدخله ناراً خالداً فيها، وله عذاب مهين.

ونحثُّكم على ذكر الله والأخذ بأمره، فإنَّ الذاكرين الله كثيراً والذاكرات أعدَّ لهم مغفرةً وأجراً عظيماً. ونرغّبكم فيما عند الله فإنّما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكّلون. ونحذّركم عقوبة الله وأمنه ومكره، فإنّه لا يعذّب عذابه أحد، ولا يأمن مكره إلا القوم الخاسرون.

فعليكم عباد الله بتقوى الله والذلّ بحكمه، والمسارعة في رضوانه، والرغبة فيما رغّبكم الله فيه، والرهبة على ما حذّركم من عقوبته، والمجاهدة على ما استحفظكم الله عليه من كتابه، فإنّه ليس يضرُّكم تضييع شيء من أمر دنياكم بعد حفظكم وصية الله في التقوى، وليس ينفعكم شيء حافظتم عليه من أمر دنياكم، بعد تضييعكم وصية الله في التقوى؛ فاتقوا الله في سرّكم وعلانيتكم، فإنّكم موشكون أن ينقطع مددكم، وتنفد أيامكم، ثم تفضُوا إلى ربّكم فيحاسبكم ببغيكم، ويجزيكم بأعمالكم في الدنيا، إنّما خلقها ليبلو فيها العباد أيُّهم أحسن عملاً. فجعل العمل في الدنيا والجزاية في الآخرة، قال: ﴿**هل تجزون إلا ماكنتم تعملون**﴾[1]، وقال ﴿**وأن ليس للإنسان إلا ماسعى وأنَّ سعيه سوف يُرى ثم يُجزاه الجزاء الأوفى**﴾[2]، وقال: ﴿**من يعمل سوءًا يُجزَ به ولا يجد له من دون الله وليّاً ولا نصيراً**﴾[3]. فتعاهدوا حقَّ ربكم، وتقدَّموا في حظّ أنفسكم، وفيما أنتم مسؤولون عنه يوم القيامة، فإنَّ الله قال

1- سورة النمل: 90.

2- سورة النجم: 39.

3- سورة النساء: 123

وقوله الحق: ﴿**لنسألنّهم أجمعين عما كانوا يعملون**﴾[1]، وقال: ﴿**ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين فلنقصنّ عليهم بعلم وما كنا غائبين**﴾[2].

فإن استطعتم ولا قوّة إلا با لله أن تقصّ عليكم أعمالكم حين يقص عليكم وأنتم على طريقة حسنة في الذي وكّلكم ا لله به من عبادته، فقد أخذتم بحظّكم من طاعة ربكم، وازدجرتم عما نهاكم عنه، ولزمتم الأمر الذي أخبركم أنّه مكرم من تمسك به، ولزمه من عباده فإن ا لله يقول: ﴿**الذين يمسّكون بالكتاب، وأقاموا الصلاة إنا لا نضيع أجر المصلحين**﴾[3]، فأتمّوا بكتاب ا لله وحافظوا على ما استحفظكم ا لله عليه، فإنّ ا لله إنّما أرسل رسوله ليطاع وأنزل كتابه ليُتبع، وليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه فقال ا لله: ﴿**وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن ا لله ولقد أرسلنا رسلنا بالبيّنات، وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط**﴾[4]، وقال: ﴿**كان الناس أمّة واحدةً فبعث ا لله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحقّ ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلاّ الذين أوتوه من بعدما جاءتهم البيّنات بغياً بينهم**﴾[5].

فمن تبع هدى القرآن كفاه ا لله ما سواه، ومن ضيّعه لم يقبل منه غيره، فليس خير يبتغى إلاّ في هدى القرآن زاجر عنه، إنّ ا لله قد أظهر فيه عذره وأمهد فيه بحجّته، وتقدّم فيه بوعيده وأنزله كتاباً فصلاً، وحكماً عدلاً، وحديثاً

1- سورة الحجر: 92. فَوَرَبِّكَ ... الآية.

2- سورة الأعراف: 7.

3- سورة الأعراف: 170

4- سورة الحديد: 25.

5- سورة البقرة: 213.

صدقاً، وقصصاً حقاً، ونوراً بيّناً، وشفاءً نافعاً؛ وجعله عصمة لمن تمسك بهِ، وعلما لمن تدبَّره، ونجاة لمن تبعه، وميثاقاً لا اختلاف فيه. قال ا لله : ﴿**ولو كان من عند غير ا لله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً**﴾[1]؛ فهو قيّم لا عوج فيه، بيّن لا لبس فيه، فانتصحوا كتاب ا للهِ واهتدوا به، فإنَّ من لم يهتد به،لم يهتد بغيره؛ فإنَّكم لم تؤمروا إلا بهدي القرآن، ولم يهد نبيُّكم إلا به، ولن تُسألوا إلاّ عنه، ولن توعظوا إلاّ به، فإنَّه من حكّم ا لله - كتاب ا لله - وجعله إماماً وأخذ فيه بالحجَّة الثابتة والأمر البيّن، ثبّته ا لله بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، ولقّاه حجته يوم القيامة، وأفلحه يوم تقوم الخصوم.

ومن حكّم اليوم هواه وجعله إماماً، وترك أمر ا لله وضيّع وصيّته لم يضرَّ إلا نفسه، ولم ينتقص إلاحظّه، ولم يخسر إلا سهمه، ووجد ا لله غنيّاً حميداً.

فجلّوا عباد ا لله في أمركم كله بالنيّات، وأخّروا صالح الحجج عند ا لله ليوم تأتي فيه كل نفس تجادل عن نفسها، وتوفّى كل نفس ما عملت وهم لا يظلمون.

وعليكم بالسمت الحسن والسيرة المعروفة في الإسلام التي سار بها نبيُّ ا لله وأولياء ا لله، واعلموا أنَّه لا يهتدي أحد بخلافهم قال ا لله: ﴿**ومن يشاقق الرسول من بعدما تبيّن له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نولّه ماتولّى ونصله جهنّم وساءت مصيراً**﴾[2]، فليس منكم أيُّها الناس أحد يكدح في سبيل صواب ولا خطأ إلاّ بعد المعذرة الصادقة والحجج البالغة، وإلاّ وهو مسبوق بذلك كله؛ إنما يسيرون في آثار أسلاف، فقد مضوا بين راشد وغاوٍ، وإنَّما الجنة إنَّما تؤتى من سبيل واحد فهو يجمع فرائض الإيمان كلها، وتؤتى النار من

1- سورة النساء: 82.

2- سورة النساء: 115.

سبل شتّى وذلك قول الله في حكمته: ﴿وأنَّ هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتّبعوا السبل فتفرَّق بكم عن سبيله ذلكم وصَّاكم به لعلَّكم تتَّقون﴾(1)، وإنّما يدعو العباد يوم القيامة بإمامهم قال: ﴿يوم ندعوا كلَّ أناس بإمامهم فمن أوتي كتابه بيمينه فأولئك يقرأون كتابهم ولايُظلمون فتيلاً ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا﴾(2)؛ فاعملوا بالتقوى وتقرَّبوا إلى الله بولاية أهلها، وانظروا فيمن تجعلوا ولايتكم، فإنَّكم أولياء من تولّيتم، فإياكم وأولياء الشيطان، لا تولوهم ولا توادّوهم، ولا تتبعوا أهواءهم. فإنَّ الله لم يرض ذلك لوليٍّ له، وقد حذَّركم الظلمة وأخبركم أنَّه يبرأ مِمَّن تولاهم فلا تغترّوا بالله، ولا يغرَّنكم كثرة الناس من أنفسكم، فإنَّ الناس قد تفرَّقت بهم الأهواء، وتقطَّعت بهم السبل، واشترع كثير منهم ما لم يأذن به الله. قال لمحمد ﷺ: ﴿ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتّبع أهواء الذين لا يعلمون، إنَّهم لن يُغنوا عنك من الله شيئاً، وإنَّ الظالمين بعضهم أولياء بعض والله ولي المتقين﴾(3)، وقال: ﴿ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن بل أتيناهم بذكرهم فهم عن ذكرهم معرضون﴾(4).

فعليكم عباد الله في الجدِّ في أداء حقِّ الله عليكم، وراقبوه في أموركم كلّها سرِّها وعلانيتها، واعلموا أنَّه بالمرصاد لمن عصاه، وأنَّه لا يخفى عليه مِن أعمالكم شيء؛ فأمهدوا لأنفسكم من كلِّ خير تجدوه عند الله يوم تجد كلُّ

1- سورة الأنعام: 153.

2- سورة الإسراء: 72.

3- سورة الجاثية: 19.

4- سورة المؤمنون: 71.

نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تودُّ لو أنَّ بينه وبينها أمداً بعيداً، ويُحذِّركم الله نفسه والله رؤوف بالعباد.

فاحذروا من الله ما حذَّركم من نفسه، وتنحوا لما ترون أنَّ الله راضي[1] به عنكم، ولا تشغلنَّكم عن ذلك دنياً منقطعة كثيرها قليل، وما فيها بائد لا يبقى لمن طلبها ولا يبقي عليها طالبها، هي كما قال الله: ﴿**لعبٌ ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفارَ نباته ثم يهيج فتراه مصفرًا ثمَّ يكون حطاماً وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلاَّ متاع الغرور**﴾[2].

وارغبوا فيما رغَّبكم الله فيه من نعيم الآخرة وكرامتها وازهدوا فيما زهَّدكم الله فيه من الدنيا وزينتها، وآثروا تحابَّ الله وطاعته على هوى أنفسكم؛ وليشدَّ يقينكم بما وعد الله من أطاعه من الكرامة والرَّحمة، وبما أوعد من عصاه من العقوبة والعذاب؛ فإنَّه أشدُّ لو عنتكم في العمل الصالح الذي يجزي به من عمل به، ويثيبهم عليه أحسن الثواب؛ فاحذروا العمل الذي أخبركم أنَّه يعذِّب عليه، ومنتقم به منهم، فتيسروا لطاعة الله وتهيئوا لها وهبوا لها أنفسكم، ووطِّنوا أنفسكم على اتباع الحق إن وافق الحقُّ أهواءكم أو خالفها، فإنَّكم لن تدركوا ما تطلبون ولن تنجوا مِمَّا تحذرون إلا بترك ما تشتهون؛ وخذوا نصيبكم من الجهاد في سبيل الله فإنَّه أشرف الأعمال عند الله وأفضلها ثواباً، وهي التجارة التي لا تبور والتي تنجي من عذاب أليم قال الله: ﴿**لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضَّل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على**

1- كذا في الأصل ولعلَّ الصواب: «راضٍ».

2- سورة الحديد: 20.

القاعدين درجة وكلاً وعد ا لله الحسنى وفضّل ا لله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً درجات منه ومغفرة ورحمة وكان ا لله غفوراً رحيماً﴾[1]، وقال: ﴿والذين قتلوا في سبيل ا لله فلن يضل أعمالهم سيهديهم ويصلح بالهم ويدخلهم الجنّة عرّفها لهم﴾[2]، وقال: ﴿إنّ ا لله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأنّ لهم الجنّة يقاتلون في سبيل ا لله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقًّا في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من ا لله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم﴾[3]، وقال: ﴿ولا تحسبنّ الذين قتلوا في سبيل ا لله أمواتاً بل أحياء عند ربّهم يرزقون فرحين بما آتاهم ا لله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم أن لا خوف عليهم ولا هم يحزنون يستبشرون بنعمة من ا لله وفضل وأنّ ا لله لا يضيع أجر المؤمنين﴾[4]، وقال: ﴿ياأيها الذين آمنوا هل أدلُّكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم تؤمنون با لله ورسوله وتجاهدون في سبيل ا لله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون﴾[5]، وقال: ﴿وأخرى تحبونها نصر من ا لله وفتح قريب وبشر المؤمنين﴾[6]، وقال: ﴿ياأيها الذين آمنوا كونوا أنصاراً لله كما قال عيسى ابن مريم للحواريين من أنصاري إلى ا لله قال الحواريون نحن أنصار ا لله فآمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة

1- سورة النساء: 96.

2- سورة محمّد: 6.

3- سورة التوبة: 111.

4- سورة آل عمران: 169.

5- سورة الصف: 10.

6- سورة الصف: 13.

فأيّدنا الذين آمنوا على عدوّهم فأصبحوا ظاهرين﴾[1]، وقال: **﴿ياأيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبّت أقدامكم والذين كفروا فتعساً لهم وأضل أعمالهم ذلك بأنّهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم﴾**[2].

فأوفوا لله - عباد الله - ببيعته، والذي بايعتموه عليه، يوف لكم الشرط الذي شرط لكم على نفسه؛ واعلموا أنّ القعود لا يخلدكم ولا يؤخر آجالكم إذا حضرت قال الله: **﴿أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيّدة﴾**[3]، وقال لنبيّه: **﴿وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفإن متَّ فهم الخالدون كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون﴾**[4]، وقال: **﴿ولن يؤخّر الله نفساً إذا جاء أجلها والله خبير بما تعملون﴾**[5].

فارغبوا فيما رغّبكم الله فيه من فضيلة الجهاد، فإنّه لابدّ لكم من موت أو قتل؛ فإنّ الجهاد في سبيل الله لا ينقص أعماركم ولايعجّل لأحد الموت دون أن تنقضي أيامه التي كتب الله له وقال الله: **﴿وماكان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجلاً ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها وسنجزي الشاكرين﴾**[6].

أما بعد:

1- سورة الصف: 14.

2- سورة محمّد: 9.

3- سورة النساء: 78.

4- سورة الأنبياء: 34.

5- سورة المنافقون: 11.

6- سورة البقرة: 145.

فإنَّ الله اصطفى الإسلام ديناً، رضيه لنفسه فجعله دين ملائكته وأوليائه وأصفيائه من أهل السموات وأهل الأرض، وبعث به رسله كلهم أوّلهم وآخرهم إلى أوّل الأمم والآخرة، ولم يبعث الله نبيًّا بعد نبيٍّ إلا كان عليه حقًّا تصديق الأنبياء الذين كانوا قبله، والاقتداء بهم، وكان ميثاقاً من الله أخذه عليهم حين أنزله إليهم، أن لا يتفرَّقوا فيه ومن آمن به، فقال: ﴿**شرع لكم من الدين ما وصَّى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصّينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم إليه الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب**﴾(1)، وقال: ﴿**وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً ليسأل الصادقين عن صدقهم وأعدَّ للكافرين عذاباً أليماً**﴾(2)، وقال: ﴿**وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيناكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول منكم مصدِّق لما معكم لتؤمننَّ به ولتنصرنه قال ءأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين فمن تولى بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون**﴾(3).

فَرَعوا وصية ربهم وبلَّغوا ما أرسلوا به ونصحوا لمن أرسلوا إليه، وكان حقًّا على من أرسلوا إليه تصديقهم وإجابتهم، فكل رسل الله كلٌّ سهل الدين؛ وكانت شريعتهم واحدة وهي عبادة الله، ولم يكن لهم ولا لمن أرسلوا إليه في شيء من أمر الله الخيرة، فتابعوا بالحقِّ وعليه، وصدَّق بعضهم بعضاً، ثم بعث الله محمدا ﷺ نبيّاً مصدقاً بالأنبياء الذين كانوا قبله، يدعو إلى كلمة

1- سورة الشورى: 13.

2- سورة النساء: 154.

3- سورة آل عمران: 81.

دعا إليها المرسلون قبله قومه، وهي كلمة السواء وعصمة الإسلام، فاقتدى بمن هدى الله قبله قال: ﴿**أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده**﴾[1]، وقال: ﴿**ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك إنّ ربك لذو مغفرة وذو عقاب أليم**﴾[2].

وأرسله الله شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً. فبعثه الله إلى الأبيض والأسود، والعربي والأعجمي، والحرّ والعبد، والذكر والأنثى على فترة من الرسل، وانقطاع من الزمان، وضلالة من العباد، وعمي من الهدى، وظهور من الباطل، وتكبُّر من الجبابرة، يدعو إلى أن يعبد الله وحده وتخلص له الطاعة والعبادة، فأنزل الله عليه الكتاب مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه.

ثم حذّره الظلمة أن يفتنوه عنه فقال: ﴿**واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك**﴾[3]، عذراً ونذراً، ﴿**لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل، وكان الله عزيزاً حكيماً**﴾[4]. ﴿**ليهلك من هلك عن بيّنة ويحي من حي عن بيّنة وإنّ الله لسميع عليم**﴾[5].

ثم فصل فيه الآيات ليستبين سبيل المجرمين، وأنزل فيه ذكرنا وذكر من قبلنا فقال: ﴿**لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم أفلا تعقلون**﴾[6]، وقال:

1- سورة الأنعام: 90.

2- سورة فصلت: 43.

3- سورة المائدة: 49.

4- سورة النساء: 165.

5- سورة الأنفال: 42.

6- سورة الأنبياء: 10.

﴿هذا ذكر من معي وذكر من قبلي بل أكثرهم لايعلمون الحق فهم معرضون﴾(1)، وقال: ﴿فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى ومن أعرض عن ذكري فإنَّ له معيشة ضنكاً﴾(2). أتم فيه نوره، وبيّن فيه شرائعه، وحدَّ فيه فرائضه، وفطر عليه فطرته، وأحسن صنعه، وأحلَّ فيه ما رضي من الأمور، وحرَّم فيه ماسخط، فحلال ا لله حلال أبداً وحرامه حرام أبداً، لا مبدِّل لكلماته وهو السميع العليم. بعثه ا لله بخير ما كان قبله، وبحكمه بين عباده، ويعلم ما هم صائرون إليه بعد الموت، وأمره باتباع القرآن والدعاءإليه فقال: ﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة﴾(3)، وقال: ﴿فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولاتتبع أهواءهم﴾(4)، وقال: ﴿ومن أصدق من ا لله قيلا﴾(5)، وقال: ﴿ومن أحسن قولاً ممن دعى إلى ا لله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين﴾(6)، وقال: ﴿قل هذه سبيلي أدعوا إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين﴾(7).

وأمر الناس بالإجابة فقال: ﴿استجيبوا لربكم من قبل أن يأتي يوم لا مردَّ له من ا لله مالكم من ملجإ يومئذ ومالكم من نكير﴾(8)، وقال:

1- سورة الأنبياء: 24.

2- سورة طه: 124.

3- سورة النحل: 125.

4- سورة الشورى: 15.

5- سورة النساء: 122.

6- سورة فصلت: 33.

7- سورة يوسف: 108.

8- سورة الشورى: 47.

﴿استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم واعلموا أنَّ الله يحول بين المرء وقلبه وأنَّه إليه تحشرون﴾[1].

فأطاع محمد ربَّه فحذَّر الظلمة، واتبع ما أُنزل الله إليه، ودعا إلى الله كما أمره على أذًى شديد يصيبه من قومه، وتكذيب، فاشتدَّ عليه تكذيب قومه إياه، وأحزنه كفرهم وضلالتهم؛ فقال الله له وهو يعزِّيه عنهم، ويصبره على ما أصابه من الأذى والتكذيب: ﴿لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين﴾[2]، ﴿فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً﴾[3] وقال: ﴿قد نعلم أنه ليحزنك الذي يقولون فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون ولقد كُذبت رسل من قبلك فصبروا على ماكذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولامبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبإ المرسلين وإن كان كبر عليك إعراضهم فإن استطعت أن تبتغي نفقاً في الأرض أو سلماً في السماء فتاتيهم بآية ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين إنما يستجيب الذين يسمعون والموتى يبعثهم الله ثم إليه يرجعون﴾[4]، وقال: ﴿فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل﴾[5]، وقال: ﴿استمسك بالذي أوحي إليك إنك على صراط مستقيم﴾[6]، وقال: ﴿وإن كذَّبوك فقل لي عملي ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا

1- سورة الأنفال: 24.

2- سورة الشعراء: 3.

3- سورة الكهف: 6.

4- سورة الأنعام: 33.

5- سورة الأحقاف: 35.

6- سورة الزخرف: 43.

بريء مما تعملون﴾(1)، وقال: **﴿قل إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذي حرّمها وله كل شيء وأمرت أن أكون من المسلمين وأن اتلوا القرآن فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فقل إنما أنا من المنذرين وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها وما ربك بغافل عما تعملون﴾**(2).

فمكث محمد ﷺ ماشاء الله يدعو الناس إلى الإسلام غير مكتوب عليه القتال، يبشر من أطاعه بجنّة عرضها السموات والأرض أعدّت للذين آمنوا بالله ورسله ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم، وينذر من عصاه وكذّبه ناراً وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.

ثم إنّ الله كتب عليه القتال وأمره بمزايلة المشركين ومجاهدتهم، وإنّما محمّد يومئذ ومن معه نفر بعدد فصير لحكم الله واستنقاد لأمره فيما أحبّ وكره، فلم يمنع محمدا يومئذ قلة من معه من المسلمين وكثرة عدوّه أن يطيع ربّه إذ أمره بالقتال في سبيله، ويحفظ وصيته، ويمضي حكمه، فأمر محمد بالهجرة إلى المدينة أصحابه؛ فخرج إليها رسول الله بعد ذلك، فقدم المدينة، فآواه الأنصار من أهلها ونصروه وواسوه بأنفسهم، وآنسوا به ولم يرغبوا بأنفسهم عن نفسه.

فلمّا اجتمع إلى محمد من شاء الله أن يجتمع إليه من المسلمين جعل يقاتل في سبيل الله من قاتله من المشركين، ويؤمّن من اعتزله منهم وكف عنه، ويعاهد من عاهده منهم على أن لايظاهر عليه عدوه، وكان ذلك أمر الله الذي أمره به يومئذ قال: **﴿قاتلوا في سبيل الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن**

1- سورة يونس: 41.

2- سورة النمل: 91.

ا لله لا يحب المعتدين﴾[1]، وقال: **﴿فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل ا لله لكم عليهم سبيلاً﴾**[2] وقال: **﴿لا ينهاكم ا لله عن الذين لم يقاتلوكم في الدّين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن ا لله يحب المقسطين﴾**[3]. فمكث ما شاء ا لله يسير بهذا وأشباهه من القرآن، يقاتل من قاتله من المشركين ويؤمن من اعتزله منهم، فكف عنه يده ولسانه، ويعاهد من عاهده منهم على أن لايظاهروا عليه عدوّاً.

وكان القرآن ينسخ بعضه بعضاً، لم ينزل جملة واحدة فإذا نزلت آية ناسخة للتي قبلها عمل بالتي أنزلت، وبلغت الأولى منقطع أجل العمل بها، وكان ما عمل بها طاعة فلما أنزلت براءة ممن كان بينه وبين نبيّ ا لله عهد، وأمره ا لله بقتال المشركين كافة؛ تنزل من عدوه بمنازل شتى وسار فيهم بسيرة مختلفة، أحل ا لله من بعضهم أشياء حرمها من بعض وجعل ا لله لمن يحرم بشيء من أمره من الحرمة مالم يجعل بتحريم شيء منه، فدعا قومه مشركي العرب إلى الإسلام، وكانوا يومئذ أبعد الناس من الحق. وأخبرهم أنَّ من دخل منهم في الإسلام فإنَّ ا لله لايؤاخذه بشيء كان عليه قبله، وأنه يجب له مثل حق المسلمين، وعليه مثل ما عليهم، ومن تركه منهم قاتله وخمّس ماله، وقطع الميراث منه، وأنه لا يحل للمسلمين مناكحهم ولا مواريثهم ولا أكل ذبائحهم، ولا وفاء بعهودهم أبداً حتى يدخلوا في الإسلام، ويظهروا الرضى بحكم القرآن، وأنه ليس لقتالهم مدّة ولا منتهى دون الدخول في دين ا لله.

وأما المجوس فإنَّهم ادعوا أثارة من علم فكتب رسول ا لله إلى من كان

1- سورة النساء: 90.

2- سورة النساء: 90.

3- سورة الممتحنة: 8.

منهم بهجر بكتاب يدعوهم فيه إلى الإسلام، وأخبرهم في كتابه أنَّه من دخل منهم في الإسلام فإنَّ ا لله لايؤاخذه بشيء كان عليه قبله، وأنه يجب له مثل حق المسلمين وعليه مثل الذي عليهم، وعرض على من ترك الإسلام منهم أن يعطي الجزية فيحرم بها دمه ويأمن بها على أهله وماله، وليس يحل للمسلمين على تحريمهم دماءهم بالجزية مناكحتهم ولاموارثتهم، ولا أكل ذبائحهم حتى يدخلوا في الإسلام ويظهروا الرضى بحكم القرآن؛ وإنما قبل رسول ا لله منهم الجزية وردّها على قومه مشركي العرب، أنَّهم ادعوا أثارة من علم فجعل لهم رسول ا لله الذي يحرمون به من ذلك حرمة ليست لمن لم يدَّع من قومه بمثل ما ادّعى به المجوس (كذا).

وأمَّا أهل الكتاب فكان يدعوهم إلى الإسلام وإلى التصديق بالذي جاء به من ا لله من الحقِّ، فمن عرف ذلك منهم وأقرَّ به كان من المسلمين ووجب له مثل حقهم وعليه مثل الذي عليهم؛ وفرض ا لله على من ترك الإسلام منهم وكذّب محمدا أن يعطي الجزية إن أحبَّ، فيحرم بها دمه ويأمن بها على ماله وأهله، فأحلَّ للمسلمين من أهل الكتاب حين يعطوهم الجزية نكاح نسائهم وأكل ذبائحهم، وحرم نكاح رجالهم وموارثتهم، ووفاية بعهودهم أبداً حتى يدخلوا في الإسلام، ويظهروا الرضى بحكم القرآن، وإنَّما أحل ا لله للمسلمين نساء أهل الكتاب وذبائحهم وقد حرَّم نساء المجوس وعبدة الأوثان وذبائحهم بإقرارهم ببعض ما أنزل ا لله إليهم، فجعل لهم بالذي أقروا به من كتبهم حرمة ليست لمن يدرس كتابنا، و لم يحترم به من المجوس وعبدة الأوثان.

وأمَّا المنافقون فكانوا مرتابين في الإسلام شاكين في البعث يظهرون لأهل الإسلام دينهم ويتحرمون منهم باستقبال قبلتهم، فنفعهم ذلك عند المسلمين فناكحوهم وورثوهم وأكلوا ذبائحهم ووفوا بعهودهم لمناكحتهم إياهم

وموارثتهم، وقد كانوا يبرؤن منهم ويستحلون دماء كثير منهم، وإنما أحـل ا الله مناكحتهم وموارثتهم ووفاء بعهودهم، وقد حرم عليهم مناكحة أهـل الكتـاب وموارثتهم ووفاء بعهودهم بتحريمهم بدين المسلمين واستقبال قبلتهـم، فجعـل ا الله بالذي يحرموا به من ذلك حرمة أحل للمسلمين بها مناكحتهم وموارثتهـم ووفاء بعهودهم، وحرم عليهم بها أخذ الجزية منهم و لم يفعل ذلك يومئذ بأحد من الكفار غيرهم.

وكان رسول ا الله ﷺ يقتل من حلَّ عليه القتل ممن يستقبل قبلته ثـم لا يسبي ذريته ولا يخمّس ماله، ولا يقطـع الميراث فيه، ولا ينكـح مـن المسلمين امرأته حتى تعتدّ وتحـل، فكـانت هـنه سيرة رسـول ا الله في المحدثين من أهـل القبلة، وسننه التي سنَّ فيهم. فمضى رسول ا الله علـى أحسـن مـا مضـت عليـه الأنبياء قبله صلوات ا الله عليـه ورحمتـه، وأورثكـم الكتـاب بـه هـدى المسلمين قبلكم ينطـق بحـلال ا الله وحرامـه، و لم يقبـض ا الله نبيّـه حتـى عـرَّف المسلمين بشرائع الهدى وعمل فيهم نبيُّهم بأمر ا الله حتّى أكمل ا الله لهم دينهم وأتم عليهم نعمته فقال: ﴿**اليوم أكملت لكم دينكـم وأتممـت عليكـم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً**﴾[1].

فسبيل من أخذ به بعده كسبيل من أخذه به على عهده، وسبيل مـن كفـر به بعده كسبيل من صاحب وثن أو أهل كتاب أو منافق أو من حلَّ عليه القتل من أهل قبلته، كسبيل من كفر بـه وأحل عليـه القتـال مـن أهـل قبلتـه بعهـده، وحكم ا الله على من تمسَّك به بعد محمد واتخذه ديناً فمن لم يجب فيه البراءة ممن فعل ذلك حتى يعرفه قال ا الله لمن آمن: ﴿**لقد كان لكم في رسـول ا الله إسوة**

1- سورة المائدة: 3.

حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً﴾[1]، فأمرهم بالاقتداء به وأمره باقتداء مَن هدى الله قبله فقال فيما أنزل عليه آية: ﴿**أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده**﴾[2].

وأنبأ الله محمداً أنَّه لم يكن ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيّب، وأنبأه أنَّه لم يكن ليذرهم حتى تعرض لهم فتنة تبلوا بها أخبارهم فقال: ﴿**ألم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين**﴾، فحذّر محمد[ا] ما أنبأه الله أنَّه مبتل به عبادَه من الفتنة فاعتصم بما أنزل الله إليه من كتابه فنجَّاه من الفتنة، وارتضاه لنفسه حتى مضى خائفاً لما خوَّفه الله، راغباً فيما رغّبه الله فيه من الخير.

فلما توفيّ رسول الله نظر المؤمنون في أمرهم فعلموا أنَّه أتمّ لدينهم وأجمع لكلمتهم وأحفظ لأمر الله أن يستخلفوا عليهم خليفة من أنفسهم، يأخذ بينهم بكتاب الله ويقسم بينهم بأمر الله، فيقيم حدوده، ويقضي بحكمه، ويقسم بقسمه، فاختاروا لدينهم وأنفسهم لا يألون عن أقربهم إلى الله وأهل العدل والأمانة فهداهم الله ووفقهم لأقدمهم في الإيمان عملاً وأحسن في أمر الله بلاءً وأقدمهم لرسول الله صحابة، وصاحبه في الغار إذ خرجا من مكة مهاجرين إلى الله، فاستخلفوا أبا بكر الصديق فاتخذ القرآن إماماً، واقتدى بسنة نبيّ الله وعلم أنَّه لاقيَ ربّه وسائله عمَّا وليه من أمر أمة محمَّد فعمل فيهم بالحق، ولزم فيهم العدل، فلمَّا جاءه أمر الله نظر في رعيّته وأمانته فاجتهد نفسه لله.

فاستخلف عمر بن الخطاب عن مشورة المؤمنين، فعمل بكتاب الله

1- سورة الأحزاب: 21.

2- سورة الأنعام: 90.

واقتدى بسنة رسول الله، وأخذ بسنة أبي بكر، ثم نزلت به أمور أخرى لم تكن في قرآن ناطق ولا سنة من رسول الله ﷺ، ولم يسر فيها أبو بكر؛ فكان أوّل من حكم في أشياء من فرائض الميراث، وكتب إليه عامله بالشام أنّ الخمر قد كادت تغلب على كثير من الناس، وأنهم لم يدعوها إلاّ بنكال شديد، فجلد عليها ثمانين جلدة لينكل عليها مع أمور كثيرة سنّ فيها عمر بن الخطاب سنناً حين نزلت به عن مشورة المسلمين، واجتهاد رأيه حقّاً على كل مسلم أن يرضى بها، وعمل بها لأن الله يقول: ﴿**أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تاويلا**﴾(1)، فكان من ولاة الأمر الذين أمر الله المسلمين بطاعتهم ومعاونتهم على الحق بحفظه أمر الله واتباعه في طاعته ومشاورته المؤمنين فيما نزل به، فعمل بطاعة ربه، وسلك سبيل صاحبيه، وعلم أنّه لن يخلفهما في العمل في الدنيا لا يوافقهما في الميزان يوم القيامة، ولا تغني عنه صحابتهما في الدنيا شيئاً فمسك بصنيعهما واقتدى بهداهما حتى توفاه الله على ذلك من الأمر، والمؤمنون راضون عنه متولّون له.

ثم استعمل عثمان بن عفّان على مشورة المسلمين ورضًى منهم، فمكث ماشاء الله يعمل بكتاب الله وسنة نبيّه، ثم إنّه طال عليه الأمد ومالت به الدنيا، فغيّر السنّة وأحدث البدعة، وجعل المال بين أقاربه دولة، وأعطى مروان خمس إفريقية، وأعطى الحارث بن الحكم صدقة البحرين، وأعطى الوليد بن عقبة صدقة كلب، وكتب للحكم بثلاثمائة ألف درهم إلى الحارث بن نوفل، وكان على مكة وما يليها من القرى. فتعدّى في هذا حكم الله، وحكم فيه بغير ما أنزل الله، وقال الله: ﴿**ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم**

1- سورة النساء: 59.

الكافرون﴾.

واستسلف من الله مالاً عظيماً، فجاءه عبد الله بن الأرقم أمير المسلمين على بيت مالهم يتقاضاه فطفق يماطله، ويعلله، فلما طال على عبد الله بن الأرقم أنشده الله إلاّ ما ودّى ما قبله فإنما هو فيء الله ومال المسلمين، وليس يحل لي أن أحابيك به، فقال عثمان عند ذلك: مالك وهذا المال والله لا أقضي منه شيئاً، فإن شئت أن تمسك لنا المفاتيح وإن كرهت فادفع إلينا مفاتحنا. فدفع إليه عبد الله بن الأرقم المفاتيح وقال: والله لا أعمل لك على شيء ما بقيت.

وقدم إليه أبو موسى الأشعري بمال من العراق فطفق يهديه لبناته وأهله بالصحاف، ففاضت عيْنا أبي موسى دموعاً لما رأى من صنيعه في ذلك المال، وذكر ما كان يفعل عمر بالمال إذا جاءه، فقال عند ذلك: لم تبكي يا أبا موسى فإن عمر رحمه الله كان يمنع أقاربه ابتغاء وجه الله، وأنا أعطي أقاربي ابتغاء وجه الله؛ وبعض هذا مخالف لبعض، وجور من ترك الحق فيه بيّن عند من يعقل أمر الله ويفهمه.

كان عمر رحمه الله يعطي أقاربه سهمانهم، ويمنعهم سهمان المسلمين ابتغاء وجه الله والدار الآخرة، وإنّما أعطى عثمان أقاربه سهمانهم وسهمان المسلمين إرادة الصنيعة للدنيا، واشترى بمال الله الأرضين وابتنا به الرباع، وأفاضه على ولده وأهله وقال الله: **﴿كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم﴾**. وقضى أنّه من لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون.

وقتل الوليد بن عقبة رجلاً من أهل الكوفة من صلحاء المسلمين فأبى أن يقتله، وقد قال الله: **﴿النفس بالنفس﴾**[1]، وقضى أنّه من لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون.

1- سورة المائدة: 45.

وشرب الوليد بن عقبة الخمر فأبى أن يقيم عليه الحدّ لقرابته منه، وقال الله: ﴿يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنيّاً أو فقيراً فالله أولى بهما فلا تتّبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً﴾(1).

وحمى مواضع القطر من أهل البادية، وأرعى فيها حاشيته وأهله، وقال الله: ﴿قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراماً وحلالاً قل آلله أذن لكم أم على الله تفترون وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة إنّ الله لذو فضل على الناس ولكنّ أكثرهم لا يشكرون﴾(2).

ومنع الأعراب الجهاد مخافة شركهم في الأعطية، وقد قال الله: ﴿قل للمخلّفين من الاعراب ستدعون إلى قوم أولي بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون فإن تطيعوا يوتكم الله أجراً حسناً وإن تتولوا كما توليتم من قبل يعذبكم عذاباً أليماً﴾(3).

وقد دعاهم رسول الله ودعاهم أبو بكر وعمر بعده أن يجاهدوا مع المسلمين فيواسوهم في المال، إلاّ أن يفضلوا عبداً بقدر منزلته في الإسلام وقدَمِه، فرغب في ذلك عن سنة رسول الله واتّبع فيه غير سبيل الهدى وقال الله: ﴿ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبيّن له الهدى ويتّبع غير سبيل المؤمنين نولّه ما تولّى ونصله جهنّم وساءت مصيراً﴾(4).

وعزل الفقهاء من أصحاب رسول الله، واستعمل السفهاء من ذوي

1- سورة النساء: 135.

2- سورة يونس: 59.

3- سورة الفتح: 16.

4- سورة النساء: 115.

قرابته. وهم خذنته أشياهم[1]، جفاة عن الحق جهلة بكثير من السنن في أمور كثيرة من المعاصي ليس كلها تحصى، اتبع فيها هواه وحكم فيها بغير الحق وقال الله: ﴿يا داوود إنا جعلناك خليفة في الأرض فا حكم بين الناس بالحق ولاتتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب﴾[2]، وقال: ﴿ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله إن الله لا يهدي القوم الظالمين﴾[3]. فكلّمه المؤمنون فيما ركب من معاصي الله وراجعوه فيها ونصحوا له وأدّوا الذي كان عليهم من الحق. فأتهم نصيحتهم وسفه رأيهم، وشتمهم وأذاهم وأخرج طائفة من ديارهم بغير حق فأخرج أبا ذر وأخرج عامر بن عبد الله، وأخرج عبد الله بن مسعود، وأخرج حذيفة بن اليمان، وأخرج زيد بن صوحان، وضرب عمار بن ياسر حتى فتق بطنه، وقال الله: ﴿وإذا أخذ الله ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم ثم أقررتم وأنتم تشهدون ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم تظّاهرون عليهم بالاثم والعدوان وأن ياتوكم أسارى تفادوهم وهو محرم عليكم إخراجهم أفتومنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردُّون إلى أشدَّ العذاب وما الله بغافل عما تعملون أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فلا يخفف عنهم العذاب ولاهم ينصرون﴾[4]، وبعث جواسيس يستمعون له طعن الناس عليه،

1- كذا في الأصل، غير مفهوم.

2- سورة ص: 26.

- سورة القصص: 50.

فإذا سمعوا الكلمة من الرجل رفعوها إليه فحرمه بها حقه من فيء الله، وعاقب رجالاً في ذلك بانتزاع أموالهم التي في أيديهم، والجلد والتعزير. وقال الله: ﴿**يأيها الذين آمنوا لاتأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيماً ومن يفعل ذلك عدواناً وظلماً فسوف نصليه ناراً وكان ذلك على الله يسيراً**﴾(1).

فلمَّا رأى المؤمنون تركه حكم الله ورغبته عن سبيل الله من هدى قبله في تعطيله الحدود، وإدالته المال، وحرمانه المؤمنين حقَّهم من فيء الله الذي أفاءه عليهم، ووضعه الصدقة في غير موضعها الذي وضعها الله فيه، وإخراجه المؤمنين من ديارهم وبلغهم، ساروا من كل الأرض ليقاتلوه. فلما نزل به أوَّلهم وأيقن أنهم مواقعوه، أرسل إلى المؤمنين من المهاجرين والأنصار: إنِّي أتوب إلى الله، وأردُّ المظالم على أهلها، وأقيم الحدود. وأعطاهم على ذلك عهد الله وميثاقه: لأقومنَّ بما أعطيتكم.

فقبلوا ذلك منه ورجع الجيش عنه، فلم ينزع عن معصية كان يعمل بها، ولم يردُد مظلمة على أهلها، ولم يقم حدًّا، غير أنَّه جلد الوليد بن عقبة في الخمر، وأبى أن يقتله بالرجل الذي قتل، وكتب برؤوس المسلمين حين رجعوا عنه إلى عامل مصر، إذ أنكروا عليه معاصي الله ونهوه عنها، أنهم قد حاربوا الله ورسوله، فمنهم من أمر بقتله، ومنهم من أمر بقطع يده ورجله من خلاف.

وكتب إلى معاوية أن ابعث إليَّ أهل الشام على الصعب والذلول، فإنَّ أهل المدينة قد كفروا وقد خلفوا الطاعة، فظهر المسلمون على كتابه إلى عامل مصر مع بريده عليه برده وتحته جمله وعليه وسمه يزعمون أنَّه أبو الأعور

1- سورة النساء: 30.

السلمي، معه رجل من خولان، فرجعوا إلى عثمان بالكتاب فقالوا: ألم تزعم أنك ستتوب؟ قال: بلى. قالوا: فما لهذا الكتاب؟ قال: لا أدري. قالوا: فإن كنت بريئا فسل كاتبك لم كتب، فقد عرفنا خطه، وانظر من أعطيت خاتمك يختم به على هذا الكتاب، فإن كنت تقول استنقش علي خاتمي، وشبه بكتاب كاتبي، فسل هذا البريد من بعثه، وسل صاحب ظهرك من أمره أن يدفع إلى هذا البريد جملك، وسل البريد من أعطاه بردك، فإن أقررت لنا هذا الأمر، لنا إقراره، فقد صدقت لما أن أخذ. وضاقت عليه المعاذير إلاّ أن سوامه على نفسه. قال: لا علم لي بهذا كلّه، ولو كان من ذلك بريئاً لم يصلح له في دين ا لله أن يدع هذا الأمر أبداً حتّى يعلم صاحبه، فلمّا تبيّن للمؤمنين أنـّه صاحبه، وأبى أن يقرّ به، قالوا: ستعرض عن هذا إن أنت أقمت الحدود ورددت المظالم وأمّرت علينا من لا نتهم ولا نخاف على دمائنا، فأبى عليهم. فقالوا: فاردد علينا أمرنا، فإنّه ليس بميراث ورثته من أحد من أهلك، فلا يحلُّ لنا نزعه منك، فنستعمل علينا من لا نتّهم على ديننا، ونجري عليك سهمك مع المسلمين، فإن تك بريئا ممّا اتهمناك به فسيبرئك ا لله يوم القيامة، ويأجرك بردّك إلينا أمرنا حين اتهمناك، وإن تكن نطقا فا لله حسبك، فإنّه قد يولي الرجل الشيء من أموال اليتامى فإذا هو لم يوفر عليهم أموالهم واتهموه نزعت منه، فوليها غيره، وأنت قد وليت أمر أمّة محمّد فهو أكبر من أموال اليتامى، فلم تعدل فيه، فاردد إليهم أمرهم. فأبى عليهم.

فبينما هم يراجعونه، وتختلف بينهم الرسل، رمى رجل من آل كثير بن الصلت رجلاً من المسلمين من أشيم يقال له دينار بن عياض بسهم فقتله، فأرسلوا إليه أنّ فلاناً رمى ديناراً فقتله، فاقده به. قال: لا علم لي بقاتله. فأرسلوا إليه: نحن نقيم على قاتله البيّنة، فاقرر دفعه. فأبى عليهم ذلك، فلمّا

أعذر المؤمنون في طلبهم الحقَّ قبله فمنعهم إيَّاه وحال دونه قاتلوه، فقتله المسلمون على ضلالته غير تائب منها، وقتلوا معه نفراً من أهل المدينة منهم المغيرة بن الأحنش على مثل الذي هو عليه من الضلالة، فحكموا فيهم بحكم رسول الله فيمن يحلُّ دمه مِمَّن يستقبل قبلته، فلم يسبوا ذراريهم و لم يخمّسوا أموالهم، و لم يقطعوا الميراث منهم، و لم يستنكحوا نساءهم؛ حتى اعتددن وحللن للأزواج.

ثمَّ إنَّ المسلمين بايعوا علياً وأخذوا عليه العمل بكتاب الله والاتباع لما سنَّ نبيُّهم والخليفتان بعده، فلم يستطع أحد يومئذ من الناس أن يقول إنَّه جار في حكم أو أضاع حدّاً أو قسم فلم يعدل؛ ولكنَّ طلحة والزبير وأتباعهم لـمَّا أخطأتهم الإمارة قاموا يتولون عثمان، ويطلبون بدمه، زعموا وقد كانوا من أشدِّ الناس كلهم على عثمان حتَّى قتل، وأشدّه نكرة لما صنع، وأحرصه على هلاكه؛ فكلّمهم المسلمون يوم الجمل، وذكّروهم با لله والإسلام أن يبغوا عليهم وأن يعرضوهم قتلهم، فتعدوا عليهم الحقَّ، وخرقوا إليهم حجاب الإسلام، وبدوهم بالقتال؛ فنصر ا لله المسلمين وأراهم من عدوِّهم الذي يحبون، فهزموهم بإذن ا لله، وقتلوا ساداتهم، ومن لا يحصى عدده منهم، فحكموا فيهم بحكم رسول ا لله في المحدثين من أهل قبلته، ويحكم في عثمان ومن قتلوا معه.

ثم ساروا حتى لقوا أهل الشام معاوية وشيعته، متولّين لعثمان راضين بالأمر الذي كان عليه، فدعاهم المسلمون إلى الحقِّ وذكّروهم با لله والإسلام أن يبغوا عليهم، وأن يعرضوهم قتلهم، فتعدوا عليهم الحق فاقتتلوا بصفين قتالاً شديداً، حتى قرح الناس وكثرت القتلى، ثم إنَّ علياً رغب عن سبيل المسلمين التي مضوا عليها فحكَّم غير ا لله في أمر قد حكم ا لله فيه وقال: ﴿ا لله **يقضي**

باالحقّ والذين تدعون من دونه لا يقضون بشيء إنّ الله هو السميع البصير﴾[1]. وقال: ﴿**أليس الله بأحكم الحاكمين**﴾[2]. وكان حكم الله في عدوِّهم أن يقاتلوهم حتّى يفوا إلى أمر الله، وحتّى لا تكون فتنة ويكون الدّين لله.

فعطلوا حكم الله في ذلك ورغبوا عنه، وحرَّفوا كلام الله عن مواضعه، وتأوَّلوا القرآن على غير ما أنزله الله، وقال الله: ﴿**أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون**﴾[3]، وكان الذي رضوا بحكمه وتحاكموا إليه من عدوِّهم وجعلوا حكم الله تبعاً لحكمه من أشدِّهم له عداوة وأحرصهم على هلكتهم وأخنهم على إطفاء نور الله؛ وقال الله لنبيّه: ﴿**قل أفغير الله أبتغي حكماً وهو الذي أنزل إليكم الكتاب مفصَّلاً**﴾[4].

فابتغى عليٌّ غير الله حكَماً، وحكَّم أهل الجور في دين الله، وزعم أنَّ من لزم طاعة ربِّه فأبى أن يحكِّم غير الله في أمر قد حكم الله فيه كافر، برئت منه الذّمة، وأنَّ اتباع سبيل قتلا[5] المؤمنين وموتاهم قبل تحكيم الحكمين ضلالة، وهو في ذلك يتولاهم ويرجو لهم بالحياة والرزق عند الله.

وزعم من أقام على من كان هو عليه نفسه يوم قتل عثمان ويوم الجمل، ودعا أهل الضلالة إلى مراجعة الحق وإلى ولاية المسلمين والبراءة ممَّن مضى من أئمَّة الظلم، فإن تركوا ذلك وأعرضوا عنه جاهدهم عليه ضلال، حلال له

1- سورة غافر: 20.

2- سورة التين: 8.

3- سورة المائدة: 50.

4- سورة الأنعام: 114.

5- كذا ولعلَّ الصواب: «قتلى».

دمه، وهو يزعم أنَّه قد كان مسلماً حرام الدم.

فلـمَّا رأى المسلمون تسفيهه حكمَ الله ورغبته عن سبيل من مضى من المهتدين، وتركه الأمر الذي جاهدوا عليه الناس عند نزول الفتنة وتحكيمه في دين الله غير الله، ونزوعه عن الأمر الذي بايعوه عليه أو يؤمن من قتاله عدو الله وعدوَّهم، حتَّى تفنى نفسه ويظهر دين الله خلعوه، وخرجوا يحكِّمون القرآن ويرضون بحكم الله وهو خير الحاكمين، مفارقين له في تركه حكم الله، وإقراره بحكم من كان يشهد أنَّه كافر عدوٌّ لله، فتركوا شهوة الدنيا ولذتها وشروا الأنفس ابتغاء مرضاة الله.

ثمَّ تتابعت على ذلك خوارج المسلمين يحكِّمون الله وحده ويرضون سبيل من مضى قبلهم من المسلمين، لا يقتلون ذرية قومهم، ولا يستحلون فروج نسائهم، ولا يستعرضونهم، ولا يخمسون أموالهم، ولا يقطعون الميراث منهم، ويؤدُّون الأمانة إليهم وإلى غيرهم، ويوفون بعهودهم ومن غيرهم؛ ويأمن عندهم الكافُّ والمعتزل من قومهم من غير أن يكونوا يشكون في ضلالتهم، ولا تخاذلهم بين الحق والباطل منزلة، وليس بعد الحق إلا الضلال، ويصلون الرحم، ويعرفون حق الجار والصاحب واليتيم وابن السبيل وما ملكت أيمانهم، ويتولى ماضيهم وقاعدهم لماضيهم الفضيلة التي أعطاه الله، يتحابون بحب الله، ويتولى بعضهم بعضاً ابتغاء مرضاة الله، ويواسي غنيُّهم فقيرهم ابتغاء وجه الله والدار الآخرة.

إذا مضت منهم طائفة، تركوا لمن خلفهم من أوليائهم على عدوّهم الحجة الثابتة عند ذوي العقول والعلم بأمر الله، فمضى على ذلك بشرٌ كثير من المؤمنين.

ثم خرج من بعدهم ابن الأزرق وأصحابه، فمكثوا ما شاء الله يسيرون

بسيرة من كان قبلهم من الخوارج، ثمَّ إنَّهم جرمهم شنئان قوم أن أنزلوهم بمنازل عبدة الأوثان، فقطعوا الميراث منهم، وحرموا مناكحتهم وقد ناكحهم من يتولّون ووارثهم، فإن يكن ذلك هدًى عمل به من يتولون، فقد خالفوهم فيه ودانوا اليوم بالبراءة ممن عمل به، وإن يكن ذلك ضلالة ضلّوا بتوليتهم من عمل به واستحلّوا سبا قومهم واستنكاح نسائهم وخمس أموالهم وقتل ذراريهم واستعراضهم.

و لم يكن من يتولون يستحلون شيئاً من ذلك من قومهم فإن يكن الذي عمل به من يتولّون من قومهم هدى فقد خالفوهم فيه، ودانوا اليوم بالبراءة ممن عمل به، وإن يكن غير هدى فقد تولوهم عليه وأبوا أن يجيروا من استأجرهم من قومهم حتّى يسمع كلام الله، وهم يشهدون أنَّهم بمنازل عبدة الأوثان وقال الله لنبيّه: **﴿وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون﴾**(1).

فقالوا: قد سمع قومنا كلام الله فلا نجيرهم، فقد سمع المشركون الذين أمر الله بجوارهم كلام الله، فقالوا: **﴿قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا﴾**(2). **﴿وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون﴾**(3)، وقالوا **﴿ايت بقرآن غير هذا أو بدّله﴾**(4).

ثم أجارهم نبيّ الله كما أمره وجعلوا للقوم محبّة، وأبوا أن يقبلوا ممن أتاهم إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، وإقرارهم بحكمهم وهم يزعمون أنَّه حكم

1- سورة التوبة: 6.

2- سورة الأنفال: 31.

3- سورة فصلت: 26.

4- سورة يونس: 15.

ا لله. وقال ا لله لنبيّه: ﴿**فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلّوا سبيلهم إن ا لله غفور رحيم**﴾[1] .

وكفروا بالرجم، وقد رجم رسول ا لله رجلاً من أسلم ومضت به السنّة، وبرؤوا من كلِّ أعرابي وإن كان يتولاهم ويشهد لهم بالحياة، ويسأل ا لله أن يرزقه مثل الذي رزقهم من جهاد أعدائه وقد قال ا لله: ﴿**ومن الأعراب من يؤمن با لله واليوم الآخر ويتخذ ما ينفق قربات عند ا لله وصلوات الرسول ألاَ إنها قربة لهم سيدخلهم ا لله في رحمته إن ا لله غفور رحيم**﴾[2]. وكفروا قعدتهم، واستحلوا دماءهم وأموالهم، وحرَّموا ولايتهم والاستغفار لهم، وتولوا قوماً كانوا يتولون قعدتهم ويحرِّمون دماءهم وأموالهم، ويستحلون مواريثهم والاستغفار لهم، وقد علموا ذلك منهم، فإن يكن ذلك هدى عمل به من يتولّون، فقد خالفوهم فيه.

وكفّروا من يتولّى اليوم عليه وإن يكن من يتولون تولّى كافراً فقد كفروا وكفروا هم بولايتهم إياهم على تولّي الكفار، فزعموا أنّما يكفرون فعذبهم بكفرهم إياهم دونهم، وقد أمرهم ا لله أن يتوبوا

فقد مكث مؤمن آل فرعون ماشاء ا لله أن يمكث كاتماً إيمانه، فلم يردّه ا لله عليه بكتمانه إياه، وقد قال ا لله: ﴿**لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من ا لله في شيء إلا أن تتقوا منهم تقاة**﴾[3]. فحرض ا لله المؤمنين في التقية، وكيف يتقي المؤمنون الكفار إلاّ بأن يظهروا لهم ما يحبُّون ويكتموهم دينهم، مع أنّهم إذا خرجوا كانوا أكتم ما

1- سورة التوبة: 5.

2- سورة التوبة: 99.

3- سورة آل عمران: 28.

كانوا قط لدينهم، وذلك الرجل يأتيهم فيقول: أعرضوا عليّ دينكم، فيقولون: لا، إنا إذا نكفر، ولكن أخبرنا أنت به، فإن أخطأ شيئاً مما في أنفسهم قبلوه في شيء أمور من المعاصي ليس كلها تحصى من استحلال أكل الأمانات التي أمر الله بالوفاء بها، وأوفا بها المؤمنون، ويشهدونهم أنَّ النفاق قد رفع، وأنَّ أحداً لا يستطيع أن يكون منافقاً، ويشهدونهم أنَّ الله يغفر للزاني والسارق أن يكون فيهم، ولو كانت صحابة تجير من النفاق أجارت صحابة نبيّ الله إن قبلوا دعاهم إليه من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وهو الإسلام، ﴿**ومن يبتغي غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين**﴾.

ثم كان من بعدهم أهل اليمامة نجدة وأصحابه، فشهدوا على قومهم أنَّهم بمنزلة عبدة الأوثان، ثم استحلوا من نكاح نسائهم وأكل ذبائحهم ما حرم الله من نساء المشركين وذبائحهم، فإن قالوا إنَّا ننزل قومنا بمنازل أهل الكتاب الذين أحلَّ الله لنا طعامهم ونساءهم، فإنهم يحرمون بعدأخذ الجزية منهم بعد قول الله للمؤمنين: ﴿**قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولايدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون**﴾[1]. وأوفوا بعهد قومهم في أهل الذّمة، وهم يشهدون بالشرك عليهم، فإن يكن وفاء بعهودهم حقاً فليس يحل لهم أن ينزلوهم بمنازل عبدة الأوثان، وإن يكونوا بمنازل عبدة الأوثان يضلوا بوفائهم بعهودهم، وذلك أنَّ المسلمين لو وجدوا عبدة الأوثان قد عاهدوا اليهود والنصارى والمجوس لم يوفوا بعهد أحد منهم. وزعموا أن عليهم هجرة من دار قومهم كهجرة النبيّ وأصحابه من مكة، وقد انقطعت الهجرة عام الفتح وصار الأمر إنما هو جهاد .

1- سورة التوبة: 29.

بلغنا أنَّ رسول الله ﷺ قال : «**لا هجرة بعد اليوم ولكن جهاد ونية**»، فزعموا أنَّها حق عليهم هجرة بعد هجرة، وهو على هجرة لا من فتنة يصيبونها تبطل هجرتهم الأولى، فهذا من أمرهم ورأيهم مختلف وقال الله: ﴿**ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً**﴾[1] واستحلوا فعل سَبا قومهم وقتل ذراريهم وخمس أموالهم واستعراضهم وقطع الميراث لهم، ولم يحكم يتولون يوم قتلوا عثمان ويوم الجمل ومن يتولّون من الخوارج الأولى بشيء من هذه الأحكام، فإن يكن الذي عمل به من يتولونهم هدًى فقد خالفوهم فيه ورَغبوا عن سبيلهم وكفروا من اقتدى بهدائهم، وإن يكن غير هدًى فقد تولوهم عليه.

فإن قالوا: إن أولياءنا إنما تركوا سبي قومهم أنهم كانوا أمنوا أحياهم فإنهم لم يسبوا ذريّة من قتلوا منهم، ولم يستنكحوا نساءهم، ولم يخمسوا أموالهم، ولم يحكموا في عثمان ومن قتلوا معه بشيء مما يتولون.

فإن قالوا: إن أولياءنا تنزهوا عن ذلك واستألفوا الناس به. فإنَّ المسلمين لم يكونوا ليتنزّهوا عن أن ينفذوا حكم الله الذي أمرهم به، وقد علموا إنما يقتدي من يقتدي من أوليائهم في ذلك بفعلهم فلم يكونوا ليستألفوا الناس بأحكام هي ضلالة لهم، ولمن اقتدى بهم من بعدهم من أتباعهم، ويعلم بحمد الله أنَّهم لو كانوا يستحلون سبا قومهم وخمس أموالهم ما تركوا سهمان مساكين فقرائهم حاجة وفاقة إلى نصبائهم، ولا سهمان أبناء سبيل بعيدي الشقة لم يمروا عليهم فيحملوهم منها ويأذنوا لهم فيها، ولاسهمان يتامى صغار لم يعقلوا فيأذنوا لهم في سهمانهم. وقد أمرهم الله أن يوفروا على اليتامى أموالهم، وأن يحسنوا ولايتهم، فمن قال منهم: كان ذلك بهم جهالة وقصر بصر لا يصلنا إن

1- سورة النساء: 82.

توليناهم. فكيف يزعمون أنّه لا يصلهم تولّي قوم يبرؤون اليوم من قوم يعملون بمثل عملهم، ويشهدون عليهم بالشرك، وتولوا الزاني والسارق وشارب الخمر وقاذف المحصنة وقاتل النفس التي حرَّم الله بغير الحقِّ. متعمداً وآكل أموال اليتامى والرِّبا على علم وتارك الصلاة، وقد علم حكم الله فيها، والحاكم بغير ما أنزل الله في كتابه، وآكل الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به عن غير ضرورة، وهو يعلم أن الله قد حرّمه، وناكح أمّه وابنته وأخته وعمته وخالته وأمّه التي أرضعته وأخته من الرضاعة وهو يعلم أن الله قد تقدّم في ذلك، وسبقت منه فيه الموعظة في أشياء كثيرة وليس كلها تحصى من إدالة المال واستحلال أكل الأمانة ومحبة الرجال وتحريم ملك الأناثي من نساء قومهم والتقرير بالنفاق ومن ثقل منهم عن القتال، فإن أقرّ به أمن عليه عندهم وحرموا دمه وإن برئ من النفاق وزعم أنّه مسلم استحلوا دمه فأمن عندهم بالذي كان يخاف به عند رسول الله، ويحل به دم من فعله، وخاف عندهم الذي كان يؤمن به عند رسول الله ويحرم به دم من فعله، لقلة علمهم بالله وبجهالتهم بكثير من أمره.

ومنها تكفيرهم الراجع منهم واستحلالهم دمه وماله، وتكفير من تولاه منهم، ثم رجعوا هم بعد ذلك إلى ولايته، فزعموا أنّهم يوم برئوا منه وكفّروا من تولاه منهم واستحلوا دمه وماله، ويوم رجعوا إلى ولايته وبرئوا ممن كفره منهم واستحلوا دمه وماله، مهتدون في المنزلتين كلتيهما، وقد مضى منهم ناس كثير وهم يبرّؤن منه. وفارقوا الدنيا على ذلك وبعلم بحمد الله أنهم لو كانوا مهتدين يوم برئوا واستحلوا دم من تولاه منهم وماله لكانوا اليوم ضلّالاً برجعوهم إلى ولايته، وأنهم لو كانوا اليوم مهتدين برجعونهم إلى ولايته وبتكفيرهم من يتولاه منهم لكانوا ضلالا بتوليهم إياه، وشهادتهم أنهم كانوا

يبرّؤن منه ويستحلون دم من تولاهم منهم مهتدون ولضلَّ من مات وهو يبرء منه يوم فارقه.

ثم فارقه داود وأصحابه، وعطية وأصحابه، وأبو فديك وأصحابه، في أمور نقموها عليه وزعموا أنَّه قد ضلَّ بها، وليس الذي فارقوه فيه بأكثر من الذي جامعوه عليه، من سبي أهل القبلة وقتل ذراريهم واستنكاح نسائهم وخمس أموالهم واستعراضهم وقطع الميراث منهم، فكلهم بحمد الله ضالٌّ تارك للحق تابع لهواه بغير هدى من الله، وهم في ذلك معترفون فيما بينهم.

ويجمع ابن الأزرق وأصحابه، ونجدة وأصحابه، وداود وأصحابه، وعطية وأصحابه، وأبو فديك وأصحابه وما يعرفون من الضلالة مخالفتهم إلى ما ينهون عنه، وعملهم بما يكفرون عليه. ويضلهم مع ذلك تحريفهم في قومهم كلام الله عزّ وجلّ عن مواضعه، وشنأن قومهم، ويضلهم خلاف سنة نبيّهم فيهم تركهم في قومهم سيرة قوم يتولونهم، ويضلهم تفرقهم بينهم، ويضلهم ما أحدثوا من البدع في قومهم بعد أوليائهم.

ومن بدعتهم قطعهم الميراث من قومهم إذا خرجوا وأظهروا أمرهم، وقد كانوا يستحلون موارثتهم ما كانوا بين أظهرهم، ويضلهم موارثة قوم يستحلون خمس أموالهم، ويضلهم خمس أموال قوم يحرمون موارثتهم، ويضلهم نكاح نساء قوم مشركين لا يأخذون منهم جزية وأكل ذبائحهم، ويضلهم ترك الجزية في قوم مشركين يستنكحون نساءهم، ويضلهم أيضاً بعهود قوم مشركين فكل هذا من بدعهم مضلّهم، وإن كانوا مشركين كما يقولون لهم، ويضلهم إن كانوا غير مشركين شهادتهم بالشرك عليهم، ويضلهم ونساءهم، ويضلهم قتلهم ذراريهم، ويضلهم استنكاح نسائهم، ويضلهم استعراضهم، ويضلهم خمس أموالهم، ويضلهم انتحال الهجرة من دارهم وقد مات فيها

طوائف من أصحاب نبيّهم بعد أن كفروا قومهم، يرونهم ماتوا على هجرتهم منهم: عبد الرحمن بن عوف، وعبد الله بن مسعود، وأبو ذر وناس كثير من المسلمين. فإن يكن أولئك ماتوا على هجرتهم فليس تحل لهم الهجرة من ديارهم، وإن يكن الفتن أبطلت هجرتهم فإنّه لم تبطل هجرتهم إلا فتن أضلّتهم، وإن يكونوا ضلوا فقد ضلوا هم بتوليتهم على ضلالتهم، فكان هذا من بدعهم مضلهم، ويضلهم إن كانوا غير مشركين ما ابتدعوا من الشر فيهم، ويضلهم أن لو كان دينهم ظاهراً فأحدث طائفة منهم مثل إحداث قومهم اليوم، إن سيرتهم اليوم في قومهم وإن سيرهم هذه المفترقة وبدعهم المحدثة إنما أضلهم فيها شهادتهم بالشرك على قومهم ثم انتقاضهم شهادتهم بعد في سيرتهم.

ثم دان ناس آخرون بالإرجاء ليس لهم أسلاف يتبعون سبيلهم ولا أولياء يقتدون بهداهم، فقالوا: أما ما رأيناو حضرنا من أمر الفرقة الآخرة شهدنا عليه، وما غاب عنا من أمر الفرقة الأولى أرجأناه، لأنه غاب عنهم لم يدركوه. زعموا وقالوا: من شهد على أحد بضلال يشهده المسلمون في أمر غاب عنه، ءان لم يدركه؛ضلال. وزعموا هذا دين الله، فإن يكن هذا من قولهم حقاً فقد كفروا أهل الفرقة الأولى أجمعين وذلك أنَّ عليّاً خرج إلى أهل الكوفة فدعاهم إلى فراق عثمان والبراءة منه وقتال من طلب بدمه فأجابوه،و لم يروا عمل عثمان و لم يحضروه إلا ما بلغهم.

وخرج طلحة والزبير إلى أهل البصرة فدعوهم إلى موالاة عثمان والطلب بدمه وقتال علي وشيعته، فأجابوهما و لم يحضروا شيئاً مـمَّا اختلفوا فيه، فقد كفروا أهل الكوفة وأهل البصرة حين أجابوا إلى أمر كان عنه غيباً وأجازوا عليه شهادة من يرونه مسلماً إن كان الإرجاء حقاً، وكُفّر عليّ والزبير وطلحة

بدعاء قومًا إلى أمر لم يحضروه يستحلون عليه دماء المسلمين وبراءتهم ممن لم تجب إليه، وذلك أنهم خالفوا الإرجاء، إن كان الإرجاء دين الله على من غاب عنه أمراً و لم يدركه.

وكُفّرت المرجئة أيضاً بإرجائهم قوماً خالفوا دينهم، فإن يكن قولهم في أن من شهد على أحد يستقبل القبلة لم يدركه بضلالة ضال، فقد شهدوا بشهادة خالفوها في العمل، وذلك أنهم يدعون ناشئه قومهم إلى فراق معاوية والبراءة منه، فإن يكن شهادة الرجل المسلم على من لم يدرك شهادة المسلمين ضلالة فقد ضلّوا بدعائهم إلى أمر من أجابهم إليه أجابهم إلى ضلالة، وإن تكن شهادة الرجل المسلم على من لم يدرك شهادة المسلمين هدًى فقد ضلّوا بشهادتهم إن ذلك ضلالة.

وكل هذا بحمد الله لا مخرج لهم فيه. فإن قالوا إنّ معاوية ليس كأهل الفرقة الأولى، إن أهل الفرقة الأولى أصحاب رسول الله، فإن قالوا ذلك فإن معاوية ختن رسول الله وكاتبه، وإنما استعمله عمر بن الخطاب على أهل الشام لرغبته فيه وشدّة إعجابه به.

فإن قالوا اختلف علينا في أهل الفرقة الأولى شهادة أهل القبلة، فإنّ معاوية أيضاً اختلف فيه شهادة أهل القبلة، فمنهم من يرضاه ومنهم من يسخطه.

فإن قالوا: إنّ معاوية ليس يخالفنا فيه أحد إلا أحد هو ضال اليوم، فلا ينبغي لنا أن نرد شهادة المسلمين لقول الضلال أمرنا الله أن نؤمن للمؤمنين ونهانا أن نؤمن للضلال قال الله لرسوله: ﴿يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين﴾[1]،

1- سورة التوبة: 61.

وقال لآخرين: ﴿لا تعتذروا لن نؤمن لكم قد نبأنا الله من أخباركم﴾[1].

فإن قالوا إنَّ من يدعو من الناس إلى فراق معاوية والبراءة منه يعرف ضلالته لما أدرك من أثره، فإنا بحمد الله نعرف اليوم ضلالة من ضلّ من أهل الفرقة الأولى لما أدركنا من آثارهم ومن براءة المسلمين منهم، وكيف تعلمون أنَّ أبا بكر وعمر مهتديان وهم لا يدرون كما يزعمون من ضل من أهل الفرقة الأولى ممن اهتدى، وإنما كانوا بعدهما.

فإن قالوا: إنَّ أبا بكر وعمر قد اجتمعت لهما شهادة أهل القبلة بالهدى فتوليناهما لذلك، واختلفت في أهل الفرقة الأولى، فلذلك أرجأناهم، فإن احتجوا بذلك فإن أبا بكر وعمر قد اختلفت أيضاً فيهما شهادة أهل القبلة، فبرئ منهما ناس كثر من السبابة.

فإن قالوا: إنّا نعرف كذب السبابة على أبي بكر وعمر وظلمهم إياهما، إنّما أدركنا من القوم من ضلالتهم فليعرفوا كيف أولياء من ضل من أهل الفرقة الأولى فيهم أو صدقهم فيهم بما أدركوا من ضلالتهم أو هداهم.

فإن قالوا: كيف نرد شهادة قوم يشهدون بشهادتنا ويستقبلون قبلتنا ويصدقون نبيّنا؟ فكيف يردون شهادة السبابة في أبي بكر وعمر وهم يشهدون بشهادتهم ويستقبلون قبلتهم ويصدقون نبيَّهم؟ وكيف يردّون قول الأزارقة في الرجم وهم ممن يستقبل القبلة؟

وزعموا أن ملوك قومهم مؤمنون مسلمون أحلَّ الله فراقهم والبراءة منهم وحرم ولايتهم والاستغفار لهم، فإن يكونوا مؤمنين فقد ضلوا بتحريمهم ولايتهم والاستغفار لهم بعد قول الله: ﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء

1- سورة التوبة: 14.

بعض﴾(1). وقوله: ﴿استغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات﴾(2)، وإن تكن ولايتهم والاستغفار لهم حراماً من الله على كلّ مسلم فقد ضلوا بتسميتهم إياهم مؤمنين.

وزعموا أنّهم مؤمنون ضلال لا يعصمهم إيمانهم من الضلالة ولا يوجب لهم ضلالتهم الكفر، وتبريهم من الإيمان. وإنما الناس كلهم مؤمن وكافر وقد قضى الله ولا خلف لوعده أنّه هادي الذين آمنوا إلى صراط مستقيم، وأنه مثبّت الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة. وإن يكونوا مؤمنين فقد ضلوا بشهادتهم عليه بالضلالة وقد أخبرهم الله أنه هادي الذين آمنوا إلى صراط مستقيم، وليس من هداه إلى صراط مستقيم بضال، وإن يكونوا ضلالا فقد ضلّوا بشهادتهم بالإيمان.

ومنهم من يقول: أشهد أنهم كفّار أبرياء من الإيمان يعرفون ذلك زعموا من القرآن، وهم في ذلك يتولون من يشهد أنّهم مؤمنون أبرياء من الكفر، فإن يكونوا كفاراً كما يقولون أبرياء من الإيمان فقد ضلّ من شهد أنّ الكفار مؤمنون أبرياء من الكفر، وضلوا هم بتوليتهم إياهم على شهادتهم.

وإن يكونوا مؤمنين أبرياء من الكفر فقد ضل من شهد أنّ المؤمنين كفار أبرياء من الإيمان، وضلوا هم بتوليتهم إياهم على شهادتهم، فقد أسنح أمر المرجئة وتجمعهم من الضلالة أنهم دانوا برأيهم وتقدروا الأمر من قبل أنفسهم وخالفوا سبيل من هدى الله قبلهم وردّوا شهادة المسلمين بشهادة الضلال، وزعموا أنّ من أجاز شهادتهم فيما يدرك ضال.

فإن يكن هذا من قولهم حقاً يضلوا بدعائهم ناشئة قومهم إلى فراق

1- سورة التوبة: 71.

2- سورة محمّد: 19.

من لم يدركوا، ويضللهم تحريم ولاية ملوك قومهم وقطع البراءة منهم وفراقهم وترك الاستغفار لهم إن كانوا مؤمنين.

ويضللهم إن كانوا غير مؤمنين تسميتهم إياهم مؤمنين، وتوليهم من زعم أنهم مؤمنون، ويضللهم توليهم قوماً يجيبونهم إلى فراق عدوهم ولا يتولونهم مالم يبرءوا منهم، ويضللهم اختلاف شهادتهم وسيرتهم، ويضللهم تأويل كتاب الله على غير ما أنزل الله فأولوا في الإرجاء قول الله: ﴿**تلك أمّة قد خلت لها ماكسبت ولكم ماكسبتم ولاتسألون عما كانوا يعملون**﴾[1]، وسؤال فرعون موسى عن القرون الأولى فقال: ﴿**علمها عند ربّي في كتاب لا يضلُّ ربّي ولا ينسى**﴾[2].

ولعمر الله لئن أنزلنا من أدركت الفرقة من أهل القبلة منزلة هذه الأمَّة التي سماها الله قد خلت لننزلنّهم منزلة رسل الله المصطفين الأخيار، فما هذه الآية من الإرجاء في شيء، وإنَّ هذه الأمة التي قال الله لمن اختلف فيها من أهل الكتاب: ﴿**أم يقولون إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والاسباط كانوا هوداً أو نصارى قل اءنتم أعلم أم الله ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله وما الله بغافل عما تعملون تلك أمة قد خلت لها ماكسبت ولكم ماكسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون**﴾.

فما نحن بحمد الله مرجئي رسل الله، بل نشهد أنَّهم أهل الدرجات ونتولاهم، ونشهد لهم بالبراءة من الريبة والدنس، ولئن ضربنا مثل الفرقة الأولى مثلهم ما فيهم إذاً من شك ولا إرجاء.

وأما سؤال فرعون موسى عن القرون الأولى، فإن الله أرسل نوحاً وهوداً

1- سورة البقرة: 134.

2- سورة طه: 52.

وصالحاً وإبراهيم ولوطاً قبل موسى. فهم وتباعهم وعداؤهم القرون الأولى. افترى المرجئون أنَّ موسى أنزلهم منزلة واحدة ما فعل موسى ذلك بل تولّى إخوانه وبرئ من أعدائهم، فقد أخطؤوا والله محمود وجادلوا بغير برهان وحرّفوا ما تأوّلوا من القرآن عند مواضعه، واعتبروا الدّين بالجماعة.

فوالله لئن كان من أدركته الفرقة الأولى من عباد الله كفروا ما عرفوا كفرهم، ولئن كانوا تفرقوا على هدًى وضلالة ما وصلوا حبلهم بحبل واحد من الفريقين، وزعمت الفتنة أن ملوك قومهم قوم سوء مفتونون حرم الله جهادهم وقتالهم حتّى يراجعوا الحق وينزعوا عما هم عليه من الضلالات. وقد أمر الله في كتابه لو فقهوا عن الله بجهاد أهل البغي حتى يفوا إلى أمر الله، وبقتال أهل الفتنة حتى ينزعوا عنها، وحتى لا تكون فتنة، فقد أكذب الله حديثهم.

وزعموا أن الأيمة تهتدي بأمر يضل به الناس إن أخذوا في ذلك بمثل ما أخذت به الأمَّة، وذلك أنَّهم يزعمون أنَّ إماماً لو عمل بالحق كله ولزم طاعة ربِّه في كلِّ شيء نزل به فعاب عليه طائفة من الناس أشياء من الحقِّ فاستحلوا دمه إن لم ينزع منها حل للإمام جهادهم، وحلّ للمسلمين معونته على قتالهم حتى يتوبوا أو يقرّوا بما أنذروا من الحق، فإن رجع الإمام عن الحق إلى المنزلة التي استحل عليها جهادهم حرم عليهم من جهاده حتى يتوب الذي حلَّ له من جهادهم، حتى تابوا وحرم على المسلمين معاونتهم على ذلك الذي حلّ لهم من معاونة الإمام عليه فهذا والحمد لله من قولهم باطل .

وذلك أنما الإمام رجل من الناس ما اهتدى به إلاّ من شيء اهتدى الناس بمثله، وما ضلّ به الناس من شيء ضلّ به الإمام إذ هو عمل به، وزعموا أنَّ إماماً لو انتهى إليه حد من حدود فأراد أن يقيمه فحال بينه وبين ذلك ناس

واستحلوا دمه أن أقام ذلك الحدّ على صاحبه حلّ له جهادهم حتى يسلموا لحكم الله، وحلّ للمسلمين معاونته على ذلك فإن فعل الإمام مثل ذلك حرم عليهم من جهاده حتى يسلم لحكم الله الذي حلّ له من جهادهم حتى يسلموا وحرم على المسلمين معاونتهم على ذلك الذي حلّ لهم من معاونة الإمام عليه، وزعموا لو أن إماماً منعته طائفة من الناس زكاة أموالهم واستحلوا دمه أن قسرهم على الزكاة وهو مطيع لله يضع الصدقة الذي جعلها الله فيه حل له جهادهم وحلّ للمسلمين معاونة الإمام على ذلك. فإن الإمام ركب مثل الذي استحل عليه دماءهم في منع الصدقة من أهلها، حرم عليهم من جهاده حتى يرجع الحق الذي حل له من جهادهم حتى راجعوه، وحرم على المسلمين من معاونتهم على ذلك الذي حل لهم من معاونة الإمام عليه.

وزعموا أن إماماً لو تحاكم إليه ناس في مواريث فحكم بينهم بالحق فأنكروا الحق وأبوا أن يقرّوا به واستحلوا عليه دمه حل للإمام جهادهم حتى يرلجعوا الحق ويقرّوا بما أنكروا منه، وحل للمسلمين معاونة الإمام على ذلك، وإن الإمام حكم بينهم بغير الحق فاستحل دماءهم إن لم يقرّوا به حرم عليهم من جهاده حتى يراجعو الحق الذي حل له من جهادهم حتى راجعوا . وحرم على المسلمين من معاونتهم مثل الذي حل لهم من معاونة الإمام عليه.

وزعموا أن رجلاً لو قتل نفساً عمداً أو أخطأ فأبى أن يقرّ فيه بالقصاص والدّية وجعل طائفة من الناس بين الإمام وبينه، حل للإمام جهادهم حتى يسلموا لحكم الله في ذلك، ويقرّوا فيه بأمره وحل للمسلمين معاونته على ذلك، فإن الإمام أصاب مثل ذلك ثم لم يقرر فيه بحكم الله حرم عليهم من جهاده حتى يسلم لحكم الله في ذلك ويقرّ فيه بأمره الذي حل له من جهادهم حتى يسلموا لحكم الله وأقرّوا بأمره وحرم على المسلمين معاونتهم على ذلك

الذي حل له من معاونة الإمام عليه.

وزعموا أن ملوك قومهم قد ظلموا الناس وبغوا في الأرض بغير الحق، ولا يدرون استوجبوا من الله بذلك العقوبة أم استوجبوا به الرحمة، وقد قال الله: ﴿**إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق أولئك هم عذاب أليم**﴾(1).

ثم إنا لانرى اليوم شيئاً أفضل ولا أهدى ولا أقرب إلى طاعة الله ولا خيراً فيما بعد الموت ولا أوجب الحجة في الدنيا من الرضا بسبيل من هدى الله قبلنا واقتدى بصالح سنّتهم قال الله: ﴿**إنما يريد الله ليبيّن لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم**﴾(2)، فأمرنا تبع لأئمة المسلمين قبل نزول الفتنة للمسلمين يوم قتلوا عثمان ويوم الجمل ويوم أنكروا تحكيم الرجال في دينهم، ورأينا اليوم لرأيهم تبع يومئذ وتأويلنا القرآن اليوم لتأوّلهم يومئذ تبع لسنا مِمَّن يزعم أنه أفاد اليوم علماً في القرآن والسنّة حتى غلبهم.

نرى حق الوالدين، وحق ذى القربى، وحق اليتامى، وحق المساكين، وحق أبناء السبيل، وحق الصاحب، وحق الجار، وحق ما ملكت أيماننا علينا حقاً أبراراً كانوا أو فجاراً. ونؤدّي الأمانة إلى من استأمننا عليها من الناس كلهم من قومنا أو غيرهم . ونوفي بعهود قومنا من أهل الذّمة، ونردّ على أهل الذّمة إن استطعنا الذي يأخذونهم به من الظلم من قومنا أو من غيرهم، ونجير من استجارنا من قومنا ومن غيرهم. ويأمن عندنا منهم حضرة القتال الكاف المعتزل حتى يخلو إليهم الأمر من غير أن نكون نشك في ضلالتهم ولاتخاذهم

1- سورة الشورى: 42.

2- سورة النساء: 26.

بين الحق والباطل منزلة وليس بعد الحق إلا الضلال.

فإذا خلا إليهم الأمر دعوناهم إلى كتاب الله ومعرفة الحق وموالاة أهله، ومفارقة الباطل ومعاداة أهله، فمن عرف منهم الحقَّ وأقرّ به وتولانا عليه توليناه وحرمنا دمه وإن ينفر معنا، ومن أنكر حق الله منهم واستحبّ العمى على الهدى ومفارقة المسلمين على مجامعتهم فارقناه وقاتلناه حتى يفيء إلى أمر الله أو يهلك على ضلالته من غير أن نكون نراهم نزلوا منازل عبدة الأوثان، فنستحل سباهم وقتل ذراريهم وخمس أموالهم وقطع الميراث منهم.

ولا نرى الفتك بقومنا وقتلهم في السّر وإن كانوا ضلالاً ما دمنا بين ظهرانهم، نظهر لهم الرضى بالذي هم عليه، وذلك أن الله لم يأمر به في كتابه ولا نعلم أحداً ممن مضى من أولياء الله في الأمم الماضية استحل شيئاً من ذلك، وهو بمثل منزلتنا، فنقتدي بسنّتهم في ذلك.

ولم يفعله أحد من المسلمين ممن كان بمكة بأحد من المشركين فنفعله نحن بأهل القبلة. وقد أمر الله نبيّه أن ينبذ إلى من خاف منه خيانة فقال: ﴿**وإما تخافنّ من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحبّ الخائنين**﴾[1]. ويكره أن يتكلف أحد من المسلمين مع ملوك قومه ما كانوا على ضلالتهم، وذلك أنّ الرجل المسلم إذ هو غزى معهم فدعاهم إلى طاعتهم إنما يدعو إلى طاعة قوم شهد أنهم كفار، فلا ينبغي له أن يدعو الناس إلى طاعتهم، فإن أجابوه إليها برئ منهم وإن فارقوه عليها استحل قتالهم، إنما يصير المقاتل معهم على أحد منزلتين: إما على ولايتهم ورضى بأمرهم، وإما على نصرهم وتسديد سلطانهم.

ونرى مناكحة قومنا وموارثتهم، لا تحرم علينا ماداموا يستقبلون قبلتنا، لأن

1- سورة الأنفال: 58.

المسلمين قد كانوا يناكحون المنافقين ويوارثونهم وهم يعلمون. ويظهر منهم من المعاصي أكثر ما يظهر اليوم من كثير قومنا.

ولانرى أن نقفو أحداً ممن يستقبل قبلتنا ثم لا علم لنا بـه، فإنَّ كثيراً من الخوارج يستحلون في دينهم قذف من يعلمون أنَّه يـزنئ من الزنـا من قومهـم بفراقهم، زعموا إياه، ولعلهم لا يكونوا كلموه قط، ولا أخبرهم عنه أحـد ممن يتولون أنَّه كلمه ولايدرون على ما هو قال ا لله: ﴿**يأيهـا الذين آمنـوا كونـوا قوّامين لله شهداء بالقسط ولايجرمنّكم شنآن قوم علـى أن لاتعدلـوا اعدلـوا هو أقرب للتقوى واتقوا ا لله إن ا لله خبير بما تعملون**﴾[1].

مع أن من استحل ذلك منهم لو أن بعض أوليائه دعاه لغير أبيـه لم يستطع ذلك غير إذا كانت أمه من قومها، وإن كان يعلم أنَّ أمه محصنة لفرجهـا بريئة مما قذفوها به، ونحن نعلم بحمد ا لله ونعمته أنَّ رسول ا لله ﷺ قد كان يجلـد المنـافق والمنافقـة، وهـو يعلـم أنهمـا منافقـان كـافران، وإنمـا يحمله علـى ذلـك استقبالهما القبلة وإظهارهما تحريم الزنا في دينهما والبراءة مِمَّن زعم أن الزنا في دينه حلال.

ولا نرى استعراض قومنا ما داموا يستقبلون القبلة من قبل أن ندعوهـم إلى مراجعة الحق والأخذ به، لأن ا لله رضـي الدعـاء لنبيّه وأمـره بـه وأهـل الإيمـان وقال ا لله: ﴿**يأيها النبيّ إنا أرسـلناك شـاهداً ومبشـراً ونذيـراً وداعيـاً إلى ا لله بإذنه وسراجاً منيراً**﴾[2]، وقـال: ﴿**ادع إلى سـبيل ربـك بالحكمـة والموعظـة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضلّ عن سبيله وهو**

1- سورة المائدة: 8.

2- سورة الأحزاب: 46.

أعلم بالمهتدين﴾[1]، وقال له: **﴿قل هذه سبيلي أدعوا إلى ا لله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان ا لله وما أنا من المشركين﴾**، وقال: **﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون﴾**، ثم قال: **﴿ومن أحسن قولاً ممن دعى إلى ا لله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين﴾**.

ولا نرى قتل صغير من أهل قبلتنا لا ذنب له و لم يعمل مما اختلف فيه ممن يستقبل القبلة بينهم بذنب آخر كبير، قد غفل أمر ا لله وعلم الأمر الذي اختلف الناس فيه، ثم جهل بعد العلم وعمي بعد البيّنة، وإنما ذرية من يستقبل القبلة اليوم في ذلك بمنزلتهم، ولو كان عليهم إمام هدى يحكم عليهم بطاعة ا لله ففارقه بعض آبائهم في أمر شبهته فلم يعقلوا ولايته و لم يعقلوا البراءة، منه ممن فارقه من آبائهم.

ولا نرى أن يستحل فرج امرأة رجل تزوجها بكتاب ا لله وسنّة نبيّه حتى يطلّقها زوجها أو يتوفى عنها، ثم تعتد عدّة المطلّقة أو المتوفى عنها زوجها.

ونبرأ مِمَّن ظهر لنا منه عمل هو لله معصية أو وعد ا لله عليه العذاب وأمر بفراق من عمل بذلك العمل والبراءة منه، أو يتولى عليه حتى ينزع ويحدث منه توبة.

ولا نرى إن تولى أحد من الناس أحداً لا أظهر لنا منه معرفة حق ا لله وعمل بطاعة ا لله وموالاة لأوليائه ومفارقة لأعدائه.

ولا نرى انتحال الهجرة من دار قومنا كهجرة النبيّ وأصحابه من دار قومهم، ولكن يخرج من خرج منا مجاهداً في سبيل ا لله على طاعته، فإن هو

1- سورة النحل: 125.

رجع ألى دار قومه توليناه إذا كان عارفاً لحق الله مقرّاً به في نفسه وماله.

ونرى أن يتولى المرأة والمملوك على الخروج إذا ما نحن علمنا منهما قبل الخروج الرضى بالحق والمعرفة له والموالاة عليه، ولم يخرجهما إلا الرغبة في الإسلام والأثرة على ما سواه لأن الله يقول: ﴿**والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويوتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم**﴾.

ولانرى النفر من المسلمين أن يبايعوا إمامهم إلاّ على الجهاد في سبيل الله والطاعة بالمعروف، حتى يهلكوا على ذلك أو يظهروا على عدوّهم فيولوا الأمر أفاضلهم وفقهاءهم أنفسهم، وتولي ماضينا وقاعدنا وبعرف قاعدنا لماضينا الفضيلة التي أعطاه الله.

ونتولى من لم ندرك من المسلمين ولم نر منهم بشهادة المسلمين. ونبرأ ممن لم ندرك من أيمة الظلم ولم نره منهم وأوليائهم بشهادة المسلمين.

ونرضي من ملوك قومنا أن يتقوا الله ولا يتبعوا أهواءهم إذا خالفها الحق، ولايجحدوا سنة، ولا يصروا على ذنب بعد معرفة، ويضعوا الصدقة والفيء حيث أمرهم الله.

ونرضى من السبّابة أن يتّقوا الله ولا يفارقوا من لم يحكم إلا الله في أمر قد حكم الله فيه، ولا نتولى من ترك حكم الله رغبة عنه وحكم غير الله.

ونرضي من الخوارج أن يتقوا الله ولا يغشموا في دينهم ولا يرغبوا في سبيل من هدى الله قبلهم، ولايتولوا قوماً ويخالفوا أعمالهم، ولايفارقوا على سيرة قوم يتولونهم.

ونرضى من المرجئة أن يتقوا الله ربهم وأن يؤمنوا للمؤمنين في ولاية من لم

يدركوا من المسلمين والبراءة مِمَّن لم يدركوا من أئمة الظلم فيتولوا بشهادتهم كشهادة من يشهدون اليوم عليهم بالضلال، ويسمون الحكام بغير ما أنزل الله بالاسم الذي سماهم الله به.

ونرضى من الفَتنة أن يتقوا الله وأن يقرّوا بحكم القرآن ويوقنوا بوعده، وأن يستحلوا من أهل البغي والعدا والظلم من أحل الله من فراقهم وقتالهم حتى يتوبوا.

ونرضى من البدعيّة أن يتقوا الله وأن يعملوا بسنة رسول الله ويتولوا على العمل بها وإن ضعفوا عنها.

ونرضى من سائر قومنا أن يتقوا الله ربّهم ولا يجعلوا حكمه تبعاً لحكم قومهم، وأن لا يمسكوا بعهد قوم يعصونه، فإن الله لم يأذن لأحد أن يعطي عهده من يعصي أمره.

فهذا الأمر الذي ندعوا إليه والذي نحن عليه إن شاء الله ولاحول ولاقوة إلا بالله، ندعوا إلى الله ونحن المسلمون، ندعوا إلى أن يطاع الله فنحل حلاله ونحرم حرامه، ونحكم بما أنزل الله في كتابه ونتبع سنة نبيّه وسنة الصالحين من عباد الله.

ليس من رأينا بحمد الله الغلوُّ في ديننا، ولا القسم في أمرنا، ولا العدا على من فارقنا، حكّمنا اليوم في من ترك قبلتنا ووجه غيرها حكم نبيّنا فيمن ترك قبلته وحكم المسلمين بعده فيمن وجَّه غير قبلتهم، وحلالنا اليوم في دار قومنا حلالنا إذا خرجنا، وحرامنا إذا خرجنا حرامنا اليوم في دار قومنا.

نعلم بحمد الله أنّه لا يحرم على الخارج منّا شيء هو للقاعد حلال، ولا يحل للقاعد منا شيء هو على الخارج حرام، وليس أنَّ الله قد رخّص لمن كان

مقيماً بين ظهراني أهل الضلالة في التقّية، و لم نعذر أحداً أعلن الحق ودعا إليه في أن يتقي أحداً من أهل الضلالة في شيء من أمر الله.

فالحمد لله الذي وفقنا لهذا وهدانا له وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، لقد جاءت رسل ربّنا بالحق. نسأل الله أن يجعلنا وإياكم من الذين ينادَون أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون.

خطبة عبد الله بن يحي بعد فتح اليمن

فلمّا استولى عبد الله بن يحي على بلاد اليمن خطب الناس، فحمد الله جلّ وعزّ وأثنى عليه وصلى على نبيّه ﷺ، ووعظ، وذكّر، وحذّر، ثم قال: «إنّا ندعوكم إلى كتاب الله تعالى وسنّة نبيِّه وإجابة من دعا إليهما: الإسلام ديننا، ومحمد نبيُّنا، والكعبة قبلتنا، والقرآن إمامنا؛ رضينا بالحلال حلالاً، لا نبغي به بديلاً، ولا نشتري به ثمناً قليلاً، وحرّمنا الحرام، ونبذناه وراء ظهورنا؛ ولا حول ولاقوة إلا بالله، وإلى الله المشتكى، وعليه المعوّل.

من زنى فهو كافر، ومن سرق فهو كافر، ومن شرب الخمر فهو كافر، ومن شكَّ في أنّه كافر فهو كافر؛ ندعوكم إلى فرائض بيِّنات، وآيات محكمات، وآثار مقتدًى بها.

ونشهد أنَّ الله صادق فيما وعد، عدل فيما حكم، وندعوا إلى توحيد الربِّ، واليقين بالوعيد والوعد، وأداء الفرائض، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والولاية لأهل ولاية الله، والعداوة لأعداء الله.

أيّها الناس، إنَّ من رحمة الله أن جعل في كل فترة بقايا من أهل العلم يدعون من ضلَّ إلى الهدى، ويصبرون على الألم في جنب الله تعالى، يقتلون على الحقِّ في سالف الدهور شهداء، فما نسيهم ربُّهم، وماكان ربّك نسياً.

أوصيكم بتقوى الله، وحسن القيام على ماوكّلكم الله بالقيام به، فأبلوا لله بلاء حسناً في أمره وزجره؛ أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم»[1].

1- الأغاني، ج23/236.

خطب أبي حمزة الشاري في المدينة

الخطبة الأولى: (1)

دخل أبو حمزة الشاري المدينة سنة ثلاثين ومائة، ومضى عبد الواحد ابن سليمان إلى الشام، فرقي أبو حمزة المنبر، فحمد الله وأثنى عليه وقال: «يا أهل المدينة سألناكم عن ولاتكم هؤلاء فأسأتم - لعمر الله - فيهم القول. وسألناكم هل يقتلون بالظن؟ فقلتم: نعم. وسألناكم هل يستحلون المال الحرام والفرج الحرام؟ فقلتم: نعم. فقلنا لكم: تعالوا نحن وأنتم فنناشدهم الله أن يتنحَّوا عنَّا وعنكم ليختار المسلمون لأنفسهم، فقلتم: لا تفعلون، فقلنا لكم: تعالوا نحن وأنتم نلقاهم فإن نظهر نحن وأنتم نأت بمن يقيم فينا كتاب الله وسنة نبيه، وإن نظفر نعمل في أحكامكم ونحملكم على سنة نبيكم ونقسم فيئكم بينكم، فإن أبيتم وقاتلتمونا دونهم فقاتلناكم فأبعدكم الله وأسحقكم.

يا أهل المدينة، مررت بكم في زمان الأحول هشام بن عبد الملك وقد أصابتكم عاهة في ثماركم، فركبتم إليه تسألونه أن يضع خراجكم عنكم، فكتب بوضعها عنكم، فزاد الغني غنى وزاد الفقير فقرا، فقلتم جزاكم الله خيراً، فلا جزاه الله خيراً ولا جزاكم».

1- **الأغاني**، ج23/ص248. وانظر- سالم بن حمد الحارثي: **العقود الفضية**، ص: 206-209.

الخطبة الثانية: أبو حمزة يخطب بأهل المدينة(1)

إنَّ أبا حمزة خطب بهذه الخطبة: رقي المنبر، فحمد الله وأثنى عليه وقال: «أتعلمون يا أهل المدينة أنـَّا لم نخرج من ديارنا وأموالنا أشراً ولا بطراً، ولا عبثاً ولا لهواً، ولا لدولة ملك نريد أن نخوض فيه، ولا ثأر قديم نيل منـَّا.

ولكنا لـمَّا رأينا مصابيح الحقّ قد عطلت، وعنّف القائل بالحقِّ، وقتل القائم بالقسط، ضاقت علينا الأرض بما رحبت، وسمعنا داعياً يدعو إلى طاعة الرحمن وحكم القرآن، فأجبنا داعي الله ﴿**ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض...**﴾(2).

فأقبلنا من قبائل شتَّى، النفر منـَّا على بعير واحد، عليه زادهم وأنفسهم، يتعاورون لحافاً واحداً. قليلون مستضعفون في الأرض، فآوانا الله وأيدنا بنصره وأصبحنا والله بنعمته إخواناً، ثـمَّ لقينا رجالكم بقُديد فدعوناهم إلى طاعة الرحمن وحكم القرآن، ودعُونا إلى طاعة الشيطان وحكم مروان وآل مروان.

شتان لعمر الله ما بين الغي والرشد، ثـمَّ أقبلوا يهرعون ويزفون، قد ضرب الشيطان فيهم بجرانه، وغلت بدمائهم مراجله، وصدق عليهم ظنه. وأقبل أنصار الله عصايب وكتايب بِكُلِّ مَهند ذي رونق، فدارت رحانا، واستدارت رحاهم، بضرب يرتاب منه المبطلون.

وأنتم يا أهل المدينة إن تنصروا مروان وآل مروان يسحتكم الله بعذاب

1- الأغاني، ج23/ص248.

2- سورة الأحقاف: 32.

من عنده أو بأيدينا ويشف صدور قوم مؤمنين.

يا أهل المدينة، إنَّ أولكم خير أوَّل وآخركم شرُّ آخر.

يا أهل المدينة، الناس منَّا ونحن منهم، إلاَّ مشركاً عابد وثن، أو كافراً من أهل الكتاب، أو إماماً جائراً.

يا أهل المدينة، من زعم أنَّ الله تعالى كلَّف نفساً فوق طاقتها أو سألها عمَّا لم يؤتها فهو لله عدوٌّ، لنا حرب.

يا أهل المدينة، أخبروني عن ثمانية أسهم فرضها الله تعالى في كتابه على القوي للضعيف، فجاء التاسع وليس له منها ولا سهم واحد، فأخذ جميعها لنفسه مكابراً محارباً لربه، ما تقولون فيه وفيمن عاونه على فعله؟

يا أهل المدينة، بلغني أنَّكم تنتقصون أصحابي، قلتم: هم شباب، أحداث وأعراب جفاة. ويْحكم يا أهل المدينة، وهل كان أصحاب رسول الله ﷺ إلاَّ شباباً أحداثاً!، شباب والله مكتهلون في شبابهم، غضيضة عن الشرِّ أعينهم، ثقيلة عن الباطل أقدامهم، قد باعوا أنفساً تموت غداً بأنفس لا تموت أبداً، قد خلطوا كلالهم بكلالهم وقيام ليلهم بصيام نهارهم، منحنية أصلابهم على أجزاء القرآن، كلَّما مروا بآية خوف شهقوا خوفاً من النَّار، وإذا مروا بآية شوق شهقوا شوقاً إلى الجنَّة.

فلمَّا نظروا إلى السيوف قد أنضيت، وإلى الرماح قد أشرعت، وإلى السهام قد فوقت، وأرعدت الكتيبة بصواعق الموت، استخفوا وعيد الكتيبة عند وعيد الله، ولم يستخفوا وعيد الله عند وعيد الكتيبة، فطوبى لهم وحسن مآب.

فكم من عين في منقار طائر طالما بكى بها صاحبها من خشية الله،

وكم من يد قد أبينت عن ساعدها طالما اعتمد عليها صاحبها راكعاً وساجداً، أقول قولي هذا وأستغفر الله من تقصيرنا وما توفيقي إلاّ بالله عليه توكلت وإليه أنيب».

الخطبة الثالثة: لأبي حمزة على أهل المدينة[1]

قام أبو حمزة يخطب بالمدينة، فحمد الله وأثنى عليه، ثمَّ قال: «يا أهل المدينة، مالي رأيت رسم الدِّين فيكم عافياً، وآثاره دارسة لا تقبلون عليه عظة، ولا تفقهون من أهله حجَّة. قد بليت فيكم جدَّته، وانطمست عنكم سنته. ترون معروفه منكراً والمنكر من غيره معروفاً، إذا انكشفت لكم العبر وأوضحت لكم النذر وعميت عنها أبصاركم وصمت عنها أسماعكم، ساهين في غمرة، لاهين في غفلة.

تنبسط قلوبكم للباطل إذا نشر، وتنقبض عن الحقِّ إذا ذكر، مستوحشة من العلم، مستأنسة بالجهل، كلّما وقعت عليها موعظة زادتها عن الحقِّ نفوراً، تحملون منها في صدوركم كالحجارة أو أشدَّ قسوة من الحجارة، أوَلَم تلن لكتاب الله الذي لو أنزل على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله.

يا أهل المدينة، ما تغني عنكم صحَّة أبدانكم إذا سقمت قلوبكم، إنَّ الله قد جعل لِكُلِّ شيء غالباً يقاد له ويطيع أمره، وجعل القلوب غالبة على الأبدان، فإذا مالت القلوب ميلاً كانت الأبدان لها تبعا، وإنَّ القلوب لا تلين لأهلها إلاّ بصحتها، ولا يصححها إلاّ المعرفة بالله وقوَّة النية ونفاذ البصيرة، ولو استشعرت تقوى الله قلوبكم لاستعملت بطاعة الله أبدانكم.

1- **الأغاني**، ج23/ص251.

يا أهل المدينة، داركم دار الهجرة ومثوى رسول الله ﷺ ومنه منه به داره، وضاق به قراره، وآذاه الأعداء وتجهّمت له، فنقله إلى قوم نصروه لم يكونوا أمثالكم، متوازرين مع الحقّ على الباطل، ومختارين الآجل على العاجل، يصبرون للضرّاء رجاء ثوابها، فنصروا الله وجاهدوا في سبيله، وآووا رسول الله ﷺ ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه، وآثروه على أنفسهم ولو كانت بهم خصاصة.

قال الله تعالى لهم ولأمثالهم ولمن اهتدى بهداهم: ﴿**ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون**﴾[1]. وأنتم أبناءهم ومن بقي من خلفهم، تتركون أن تقتدوا بهم أو تأخذوا بسنتهم، عميُ القلوب صمُّ الآذان، تتبعتم الهوى فأرداكم عن الهدى وأسهاكم، فلا مواعظ القرآن تزجركم فتزدجروا، ولا تعظكم فتعتبروا، ولا توقظكم فتستيقظوا.

لبئس الخلف أنتم من قوم مضوا قبلكم، ما سرتم بسيرتهم، ولا حفظتم وصيتهم، ولا احتذيتم مثالهم. لو شقّت عنهم قبورهم فعرضت عليهم أعمالكم لعجبوا كيف صرف الله العذاب عنكم».

الخطبة الرابعة: لأبي حمزة الشاري على أهل المدينة[2]

بلغ أبا أنَّ أهل المدينة يعيبون أصحابه لحداثة أسنانهم، وخفّة أحلامهم، فبلغه ذلك عنهم؛ فصعد المنبر، وعليه كساء غليظ، وهو متنكّب قوساً عربية فحمد الله، وأثنى عليه وصلّى على نبيّه ﷺ وآله ثم قال: «يا أهل

1- سورة التغابن: 16.

2- **الأغاني**، ج23/ص252.

المدينة، قد بلغتني مقالتكم في أصحابي، ولولا معرفتي بضعف رأيكم وقلّة عقولكم لأحسنت أدبكم.

ويحكم! إنَّ رسول الله ﷺ أنزل عليه الكتاب، وبيّن له فيه السّنن، وشرع له فيه الشرائع، وبيّن له فيه ما يأتي وما يذر، فلم يكن يتقدَّم إلاَّ بأمر الله، ولا يحجم إلا عن أمر الله، حتّى قبضه الله إليه ﷺ وقد أدّى الذي عليه، لم يدعكم من أمركم في شبهة.

ثمْ قام من بعده أبو بكر، فأخذ بسنّته، وقاتل أهل الرّدة، وشمّر في أمر الله؛ حتّى قبضه الله إليه والأمّة عنه راضون، رحمة الله عليه ومغفرته.

ثمَّ ولي بعده عمر، فأخذ بسنة صاحبيه، وجنّد الأجناد، ومصّر الأمصار، وجبى الفيء، فقسّمه بين أهله، وشمّر عن ساقه، وحسر عن ذراعه، وضرب في الخمر ثمانين، وقام في شهر رمضان، وغزا العدوَّ في بلادهم، وفتح المدائن والحصون؛ حتى قبضه الله إليه والأمّة عنه راضون، رحمة الله عليه ورضوانه ومغفرته.

ثم ولي من بعده عثمان بن عفان فعمل في ستِّ سنين بسنة صاحبيه، ثمَّ أحدث أحداثاً أبطل آخر منها أولاً، واضطرب حبل الدين بعدها، فطلبها كلُّ امرىء لنفسه، وأسرَّ كل رجل منهم سريرةً أبداها الله عنه، حتّى مضوا على ذلك.

ثم وليَ عليّ بن أبي طالب، فلم يبلغ من الحق قصداً، و لم يرفع له مناراً، ومضى.

ثم وليَ معاوية بن أبي سفيان لعين رسول الله ﷺ وابن لعينه، وحِلف من الأعراب، وبقية من الأحزاب، مؤلّف طليق، فسفك الدم

الحرام، واتخذ عباد الله خولاً، ومال الله دولاً، وبغى عوجاً ودغلاً، وأحلّ الفرج الحرام، وعمل بما يشتهيه؛ حتى مضى لسبيله، فعل الله به وفعل.

ثم ولي بعده ابنه يزيد، يزيد الخمور، ويزيد الصُّقور، ويزيد الفهود، ويزيد الصيود، ويزيد القرود. فخالف القرآن، واتبع الكهّان، ونادم القِرد، وعمل بما يشتهيه؛ حتى مضى على ذلك لعنه الله، وفعل به وفعل.

ثم وَلِيَ مروان بن الحكم طريد لعين رسول الله ﷺ وابن لعينه، فاسق في بطنه وفرجه، فالعنوه والعنوا آباءه.

ثم تداولها بنو مروان بعده، أهل بيت اللعنة، طُرداء رسول الله ﷺ وآله، وقوم من الطلقاء ليسوا من المهاجرين والأنصار، ولا التابعين لهم بإحسان، فأكلوا مال الله أكلاً، ولعبوا بدين الله لعباً، واتّخذوا عباد الله عبيداً، يُورِّث ذلك الأكبر منهم الأصغر، فيالها أمةً، ما أضيعها وأضعفها! والحمد لله ربّ العاملين.

ثم مضوا على ذلك من أعمالهم واستخفافهم بكتاب الله تعالى، قد نبذوه وراء ظهورهم، لعنهم الله؛ فالعنوهم كما يستحقّون، وقد وَلِي منهم عمر بن عبد العزيز، فبلغ و لم يكد، وعجز عن الذي أظهره، حتّى مضى لسبيله.

ثم وَلِيَ يزيد بن عبد الملك، غلام ضعيف سفيه غير مأمون على شيء من أمور المسلمين، لم يبلغ أشدَّه، و لم يُؤانِس رُشده، وقد قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿**فإن آنستم منهم رُشداً فادفعوا إليهم أموالهم**﴾[1] فأمرُ أمّة محمدٍ في أحكامها وفروجها ودمائها أعظم من ذلك كلّه، وإن كان ذلك عند

1 سورة النساء آية 6.

ا لله عظيماً؛ مأبون في بطنه وفرجه، يشرب الحرام، ويأكل الحرام، ويلبس الحرام؛ ويلبس بردتين قد حيكَتا له، وقوِّمتا على أهلهما بألف دينار وأكثر وأقلّ، قد أُخِذت من غير حلّها وصُرفت في غير وجهها، بعد أن ضُربت فيها الأبشار، وحُلِقت فيها الأشعار، واستُحلّ ما لم يحل ا لله لعبدٍ صالح، ولا لنبي مرسل؛ ثم يُجلس حبابة عن يمينه، وسلامة عن شماله تغنيانه بمزامير الشيطان؛ ويشرب الخمر الصّراح المحرمة نصاً بعينها، حتى إذا أخذت مأخذها فيه، وخالطت روحه ولحمه ودمه، وغلبت سورتها على عقله مزّق حُلّتيه، ثم التفت إليهما فقال: أتأذنان لي أن أطير؟ نعم، فطر إلى النار، إلى لعنة ا لله وناره حيث لا يردّك ا لله».

ثم ذكر بني أمية وأعمالهم، وسيرهم، فقال: «أصابوا إمرة ضائعةً وقوماً طغاماً جهّالاً، لا يقومون لله بحق، ولا يفرّقون بين الضلالة والهدى، ويرون أنَّ بني أمية أرباب لهم، فملكوا الأمر، وتسلّطوا فيه تسلُّط ربوبية، بطشهم بطش الجبابرة؛ يحكمون بالهوى، ويقتلون على الغضب، ويأخذون بالظن، ويعطّلون الحدود بالشفاعات، ويؤمِّنون الخونة، ويقصون ذوي الأمانة، ويأخذون الصدقة في غير وقتها على غير فرضها، ويضعونها في غير موضعها، فتلك الفرقة الحاكمة بغير ما أنزل ا لله، فالعنوهم، لعنهم ا لله!

وأما إخواننا من هذه الشيعة فليسوا بإخواننا في الدين، لكن سمعت ا لله عزَّ وجلَّ قال في كتابه: **﴿ياأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا﴾**[1]، شيعة ظاهرت بكتاب ا لله، وأعلنت الفرية على ا لله، لا يرجِعون إلى نظر نافذٍ في القرآن، ولا عقلٍ بالغ في الفقه، ولا تفتيشٍ عن حقيقة الصواب، قد قلّدوا أمرهم أهراءهم،

---

1 سورة الحجرات أية 13.

وجعلوا دينهم عصبيَّة لحزبٍ لزموه، وأطاعوه في جميع ما يقوله لهم، غيا كان أو رُشداً، أو ضلالةً أو هدًى؛ ينتظرون الدّول في رجعة الموتى، ويؤمنون بالبعث قبل الساعة، ويدَّعون علم الغيب لمخلوق لا يعلم أحدهم ما في داخل بيته، بل لايعلم ما ينطوي عليه ثوبه أو يحويه جسمه؛ ينقمون المعاصي على أهلها، ويعملون إذا ظهروا بها، ولا يعرفون المخرج منها.

جفاة في الدين، قليلةٌ عقولهم، قد قلّدوا أهل بيتٍ من العرب دينهم، وزعموا أنَّ موالاتهم تغنيهم عن الأعمال الصالحة، وتنجيهم من عقاب الأعمال السيئة ﴿**قاتلهم ا لله أنّى يوفكون**﴾[1] فأيّ هؤلاء الفرق يا أهل المدينة تتبعون؟ أو بأيٍّ مذاهبهم تقتدون؟

وقد بلغني مقالتكم في أصحابي، وما عبتموه من حداثة أسنانهم، ويحكم! وهل كان أصحاب رسول ا لله ﷺ وآله ـ المذكورون في الخير إلا أحداثاً شباباً؟ شباب وا لله مكتهلون في شبابهم، غضيضة عن الشرِّ أعينهم، ثقيلة عن الباطل أرجلهم، أنضاءُ عبادة.

قد نظر ا لله إليهم في جوف الليل، منحنيةً أصلابهم على أجزاء القرآن، كلما مرَّ أحدهم بآية من ذكر ا لله بكى شوقاً، وكلما مرَّ بآية من ذكر لله شهق خوفاً، كأنَّ زفير جهنّم بين أذنيه، قد أكلت الأرض جباههم وركبهم، ووصلوا كلال الليل بكلال النهار؛ مصفرَّة ألوانهم، ناحلةً أجسامهم من طول القيام وكثرة الصيام، أنضاء عبادةٍ، موفون بعهد ا لله، منتجزون لوعد ا لله، قد شروا أنفسهم، حتّى إذا التقت الكتيبتان وأبرقت سيوفها وفوِّقت سهامها، وأشرعت رماجها لقوا شبا الأسنّة، وشائك السهام، وظباة السيوف بنحورهم ووجوههم وصدورهم؛ فمضى الشابُّ

[1] سورة التوبة أية30 .

منهم قدماً حتى اختلفت رجلاه على عنق فرسه، واختضبت محاسن وجهه بالدماء، وعفّر جَبينه بالثرى، وانحطت عليه الطير من السماء، وتمزقته سباع الأرض، فكم من عين في منقار طائر، طالما بكى بها صاحبها في جوف الليل من خوف الله!، وكم من وجهٍ رقيق وجبين عتيق قد فُلق بعمد الحديد. ثم بكى وقال: آه آه على فراق الإخوان، رحمة الله على تلك الأبدان، وأدخل الله أرواحهم الجنان».

قصيدة عمرو بن الحصين في رثاء طالب الحق

وقال عمرو بن الحصين - ويقال: الحسن العنبري - مولى لهم يرثي عبد الله بن يحي وأبا حمزة .

هبَّت قُبيل تبلُّج الفجر ... هندٌ تقول ودمعها يجري
أن أبصرت عيني مدامعها ... ينهلُّ واكِفها على النَّحر[1]
أنى اعتراك وكنت عهديَ لا ... سَرِبَ الدموع وكنت ذا صبر
أقذًى بعينك ما يفارقها ... أم عائرٌ أم مالها تُذري؟[2]
أم ذكر أخوان فُجِعت بهم ... سلكوا سبيلهم على خُبْر
فأجبتها بل ذكر مصرعهم ... لا غيره عبراتها تَمري
يا ربّ أَسلِكني سبيلهم ... ذا العرش واشدد بالتّقى أزري
في فتيةٍ صبروا نفوسهم ... للمشرفيّة والقنا السُّمْر
تا لله ألقى الدهر مثلهمُ ... حتّى أكون رهينة القبر
أوفي بذمتهم إذا عقدوا ... وأعِفّ عند العُسر واليُسر
متأهِّلين لكل صالحة ... ناهين مَن لاقوْا عن النُّكْر
صُمتٌ إذا احتضروا مجالسهم ... وُزُن لقول خطيبهم وُقر[3]
إلاّ تجيبهم فإنهم ... رُجُف القلوب بحضرة الذِّكر

---

1 وكف الدمع: سال.

2 العائر: العوار وكل ما يعل فيسبب دمعها.

3 الوقر: جمع وقور وهو الرزين. وفي البيت «إقواء».

متأوِّهون كأنّ جمرَ غَضا | للخوف بين ضلوعهم يسري[1]
تلقاهمُ إلاّ كأنّهمُ | لخشوعهم صدروا عن الحشْرِ
فهم كأنّ بهم جوى مرضٍ | أو مسّهم طَرْفٌ من السِّحر
لا ليلُهم ليلٌ فيلبسهم | فيه غواشي النوم بالسُّكْر
إلاّ كذا خُلساً وآونةً | حذرَ العقابِ وهم على ذُعْر
كم من أخ لك قد فُجعت بِهِ | قوّامُ ليلته إلى الفجر
متأوِّهٍ يتلو قوارع مِن | آي القُران مفزَّع الصدر
نَصِبٍ تجيشُ بنات مُهجته | بالموت جَيْش مُشاشةِ القِدر[2]
ظمآن وقدة كلِّ هاجرةٍ | تَرّاكُ لذّته على قَدْرِ
ترّاك ما تهوى النفوس إذا | رُغبُ النفوس دَعْت إلى النذْر[3]
(ومبرّاً من كل سيئةٍ | عفٌّ الهوى ذو مِرّةٍ شَزْر)[4]
والمصطلي بالحرب يسعَرُها | بغبارها وبفِتيةٍ سُعْرِ
يجتاحها بأقل ذي شُطب | عضبِ المضارب قاطعِ البَتْر[5]
لا شيءَ يلقاه أسرَّ له | من طعنةٍ في ثُغْرةِ النحرِ

1 الغضى والغضا: شجر من الأثل خشبه أصلب الخشب، وجمره يبقى زماناً طويلاً لا ينطفئ. واحدته: غضاة. ويسمّى أهل نجد: أهل الغضى، لكثرته هنالك.

2 نصب: تعب. ـ المشاشة: رأس العظم اللين الذي يمكن مضغه. ـ وجيش: جيشان واضطراب وغليان.

3 النذر: ما يقدّمه المرء لربه. وهنا الأحل.

4 المرّة: القوة والشدة. وفي التنزيل العزيز: ﴿**علّمه شديد القوى ذو مرّةٍ فاستوى**﴾ . والشزر: الغضب.

5 عضب: قاطع. ومضارب: جمع مضرب وهو حدّ السيف.

نـجلاء مُنـهرَة تَجيشُ بما ... كانت عواصي جوفِه تجري[1]
كخليلكَ المختار أذْكِ بـه ... من مقـتدٍ فـي الله أو مُـشْرِ
خوّاص غمرة كل مَتلفةٍ ... في الله تحت العِثْيرَ الكُدْرِ[2]
ترّاك ذي النّخوات مُختضباً ... بنجيعه بالطّعنة الشّـزْرِ[3]
وابن الحصين وهل له شبَه ... في العرف أنّى كان والنُكرِ
بسّامةٍ لم تُحنَ أضلُعه ... لذوي أُخوَّته على غِمْـرِ
طلق اللسان بكل مُحكمة ... رآبُ صدع العَظم ذي الوقرِ[4]
لم ينفِكك في جوفه حزنٌ ... تغلـي حرارته وتستشري
ترقى وآونة يُخفّضُها ... بتنفّس الصُّعداء والزّفرِ
ومُخـالطي بَلجٍ وخالصت ... سُم العـدوّ وجابر الكَسْرِ
نكّلِ الخصوم إذا هم شغِبوا ... وسداد ثُلمة عورة الثـغرِ[5]
والخائض الغمرات يخطرفي ... وسط العـادي أيّما خطر
بمشطّبٍ أو غير ذي شَطب ... هام العِـدا بذبـابه يَفري[6]
وأخيك أبرهة الهجان أخى الـ ... حرب العـوانِ مُلقّحِ الجمر
بمُرِشّةٍ فرعٍ تَثُجُّ دماً ... ثجَّ الغويِّ سُلافَةَ الخَمْـرِ[7]

1 منهرة: واسعة.

2 العثير: الغبار.

3 النجيع: الدم.

4 الوقر: الصدع في الساق أو النقرة في العين والعظم.

5 شغبوا: ثاروا وهيّجوا الشر.

6 ذباب السيف: حدّ طرفيه. ويفري: يشق.

7 تثج: تسيل

والضارب الأخدودِ ليس لها … حدٌّ ينهنهها عن السَّحْر[1]
ووليُّ حكمهم فجعتُ بِهِ … عمرو فَواكَبِدي على عمرو!
قوَّالُ مُحكَمةٍ وذي فهم … عفٌّ الهوى متثبّتِ الأمرِ
ومسيَّبٍ فاذكر وصيّته … لا تنسَ إمّا كنت ذا ذُكْر
فكلاهما قد كان مُحْتسِباً … لله ذا تَقوى وذا بِرٍّ
في مُخْبِتين ولم أُسَمِّهِمُ … كانوا يدي وهمُ أُولو نصري
وهم مساعرُ في الوغى رُجُحٌ … وخِيارُ من يمشي على العَفْر[2]
حتى وفوا لله حيث لَقُوا … بعهودٍ لا كذبٍ ولا غدر
فتخالسوا مُهجاتِ أنفسهم … وعُداتهم بقواضبٍ بُتْر
وأسنّةٍ أُثْبِتن في لُدُن … خطّيةٍ بأكفّهم زُهْرِ
تحت العَجاج وفوقهم خِرَقٌ … يخفقن من سودٍ ومن حُمر[3]
فتفرّجت عنهم كماتُهُمُ … لم يُغمِضوا عيناً على وِتْر[4]
فشعارهم نِيرانُ حربهِمُ … ما بين أعلى الشَّحْر فالحِجْر[5]
صرعى فحاجِلةٌ تنوشُهُم … وخوامعٌ لحُماتهم تَفْري[6]

---

1 الأخدود: الشق المستطيل في الأرض. وأخاديد السياط: آثارها.

2 العفر: التراب.

3 العجاج: الغبار. والخرق هنا: الرايات.

4 الكماة: جمع كمي وهو المحارب الشجاع. والوتر: الثأر.

5 الشحر: هو صقع على ساحل بحر الهند من ناحية اليمن. قال: الأصمعي: هو بين عدن وعمان.

(معجم البلدان 3: 327) ـ الحجر: اسم ديار ثمود بوادي القرى بين المدينة والشام. وهي قرية صغيرة قليلة السكان.(معجم البلدان 2: 221).

فهرس المصادر والمراجع

1. ـ أبو إسحاق إبراهيم اطفيش: **الفرق بين الإباضية والخوارج**؛ ط: مكتبة الضامري، سلطنة عمان 1991م.

2. ـ أبو إسحاق إبراهيم اطفيش: **مجلة المنهاج**؛ ج1 م1، 1344هـ.

3. ـ أبو إسحاق إبراهيم اطفيش: **النقد الجليل على العتب الجميل**؛ ط: المكتبة السلفية، القاهرة 1924م.

4. ـ أبو إسحاق الحضرمي: **مختصر الخصال**؛ ط: وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عمان 1404هـ/1984م.

5. ـ أبو الفرج الأصفهاني: **الأغاني**؛ تح: سمير جابر، ج23ط:دار الفكر 1986م.

6. ـ أبو اليقظان إبراهيم بن الحاج عيسى: **العزابة**؛ (مخطوط) 1968.

7. ـ أبو زكرياء يحي بن أبي زكرياء: **سير الأئمة وأخبارهم**؛ ت: عبد الرحمن أيوب، تونس 1986.

8. ـ أحمد أحمد غلوش (الدكتور): **الدعوة الإسلامية**؛ ط: دار الكتاب المصري، ط. الأولى 1987م.

9. ـ أحمد الحوفي (الدكتور): **أدب السياسة في العصر الأموي**؛ ط: دار القلم، بيروت، لبنان

10. ـ أحمد بن حمد الخليلي (الشيخ): **الجملة وتفسيراتها**؛ ط: مكتبة الاستقامة، سلطنة عمان. 1414هـ.

11. ـ أحمد بن سعيد الشماخي: **كتاب السير**؛ وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عمان 1407هـ/1987م.

12. ـ أحمد زكي صفوت: **جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة**؛ ط: المكتبة العلمية، بيروت. لبنان.

13. ـ أحمد سليمان معروف: **قراءة جديدة في مواقف الخوارج وأدبهم**؛ ط: دار طلاس، دمشق 1988م.

14.ـ أحمد شلبي (الدكتور): **موسوعة الحضارة الإسلامية**؛ ج1-2.

15.ـ أحمد شلبي (الدكتور): **موسوعةالتاريخ الإسلامي**؛ ط: مكتبة النهضة المصرية، القاهرة. الطبعة السادسة 1974.

16.ـ أحمد عبد الله الكندي: **المصنف**؛ ج2-1 ط: وزارة التراث، سلطنة عمان

17.ـ أحمد كمال زكي (الدكتور): **الحياة الأدبية في البصرة**؛ ط: دار المعارف، مصر (د.ت)

18.ـ أحمد مختار العبادي (الدكتور): **تاريخ المغرب والأندلس**؛ ط: دار النهضة العربية، بيروت.لبنان 1978م.

19.ـ أرنولد ويلسون: **تاريخ الخليج**؛ مسقط 1985م.

20.ـ إبراهيم بحاز: **الدولة الرستمية**؛ نشر جمعية التراث، الجزائر 1988م.

21.ـ إحسان النص (الدكتور): **الخطابة العربية في عهدها الذهبي**؛ ط: دار المعارف، مصر 1962م.

22.ـ إلياس حسين (الدكتور): **دور فقهاء الإباضية في إسلام مملكة مالي**؛ ندوة العلماء الأفارقة، ط: مكتبة الضامري، سلطنة عمان (د.ت)

23.ـ ابن أبي الحديد: **شرح نهج البلاغة**. ت: حسن تميم، م،١ . دار مكتبة الحياة، بيروت، 1963 .

24.ـ ابن الأثير: **الكامل في التاريخ**؛ تحقيق: أبي الفداء عبد الله القاضي، ج7، ط: دار الكتب العلمية، بيروت .لبنان، الطبعة الأولى، 1407هـ/1987م.

25.ـ ابن الصغير: **تاريخ الأئمة الرستميين**؛ ت: محمد ناصر وابراهيم بحاز، ط:دار الغرب الإسلامي، بيروت 1986م.

26.ـ أبو نعيم الاصفهاني .: **حلية الأولياء وطبقات الأصفياء**؛ ج3،ط: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع .

27.ـ ابن حجر العسقلاني: **تهذيب التهذيب**؛ ج2، ط:دار إحياء التراث العربي، ط. الأولى 1412هـ/1991م.

28.ـ ابن عبد ربه الأندلسي: **العقد الفريد**؛ ج4، ط: دار الكتاب العربي، بيروت. لبنان 1403هـ/1983م.

29ـ اسماوي صالح بن عمر: **نظام العزابة**؛ دبلوم دراسات معمّقة. جامعة الجزائر،1986.
30ـ البرادي إبراهيم: **الجواهر المنتقاة**؛ طبعة حجرية، القاهرة 1302هـ.
31ـ الجاحظ: **البيان والتبيين**؛ تح: المحامي فوزي عطوي، ط: دار صعب (د.ت)
32ـ الدرجيني: **طبقات المشايخ بالمغرب**؛ ت: إبراهيم طلاي، ج1، ط: الضامري للنشر والتوزيع، عمان (د.ت)
33ـ الذهبي: **تذكرة الحفاظ**؛ ط: دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى 1412هـ/1991م.
34ـ الرقيشي: **مصباح الظلام**؛ (مخطوط) مكتبة خاصة.
35ـ السبيد الجميلي: **عجائب القرآن**؛ ط: دار ومكتبة الهلال، بيروت. لبنان 1990م.
36ـ الشيخ أحمد الخليلي: **الحق الدامغ**؛ الضامري للنشر والتوزيع، سلطنة عمان 1991م.
37ـ الشيخ إسماعيل الجيطالي: **قواعد الإسلام**؛ ط: الاستقامة عمان، 1992م.
38ـ الطاهر أحمد مكي (الدكتور): **دراسة في مصادر الأدب**؛ ط: دار المعارف، الطبعة الرابعة 1977م.
39ـ الماوردي: **الأحكام السلطانية**؛ ط: دار الكتب العلمية، بيروت . لبنان ط.الأولى 1405هـ/1985م.
40ـ المدني أحمد توفيق: **كتاب الجزائر**؛ 1931م.
41ـ المسعودي: **مروج الذهب**؛ ت: محمد محي الدين عبد الحميد، ج2، ط: دار الفكر، الطبعة الخامسة، 1393هـ/1973م.
42ـ جواد بن محمد الخابوري: **الأدوار العمانية في القارة الهندية**؛ (مرقون)، مكتبة السيد محمد بن أحمد السيب، رقم 996 (د.ت) سلطنة عمان
43ـ حسني أحمد محمود (الدكتور): **الإسلام والثقافة العربية في إفريقيا**؛ ط: دار الفكر العربي، القاهرة، 1986م.
44ـ حسين محمد ابراهيم غيطاش: **الدعوة الإسلامية**؛ ط: المكتب الإسلامي، بيروت 1985م.

45.ـ خميس بن سعيد الشقصي: **منهج الطالبين وبلاغ الراغبين**؛ ج2، ط: وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عمان.
46.ـ خير الله طلفاح: **علي بن أبي طالب المسلم الأول**؛ ج15، بغداد 1986م.
47.ـ رجب محمد عبد الحليم (الدكتور): **الإباضية في مصر والمغرب وعلاقتهم بإباضية عمان والبصرة**؛ ط: مكتبة العلوم بمسقط 1410هـ/1990م .
48.ـ سالم بن حمد الحارثي: **العقود الفضية**؛ سلطنة عمان، (د.ت)
49.ـ سرحان بن سعيد الأزكوي: **كشف الغمة الجامع لأخبار الأمة**؛ ت: أحمد عبيدلي، نيقوسيا، 1986م.
50.ـ سعد زغلول عبد الحميد (الدكتور): **تاريخ المغرب العربي**؛ ط: نشأة المعارف، الإسكندرية. مصر 1993م.
51.ـ سعيد بن ناصر الغيثي (الشيخ): **إيضاح التوحيد بنور التوحيد**؛ تح: محمَّد ابن موسى باباعمي ومصطفى بن محمَّد شريفي؛ نشر معهد القضاء الشرعي، سلطنة عمان، ط1: 1417هـ/1996م.
52.ـ سعيد حسين منصور (الدكتور): **القيم الأخلاقية في الخطابة العربية**؛ ط: الهيئة المصرية العامة للكتاب، الإسكندرية 1979م.
53.ـ سليمان الباروني: **الأزهار الرياضية**؛ ج2، ط: حجرية (د.ت)
54.ـ طلاي إبراهيم محمد: **ميزاب بلد كفاح**؛ قسنطينة، 1970م.
55.ـ عبد الحميد يونس (الدكتور): **الهلالية في التاريخ والأدب الشعبي**؛ ط: دار المعرفة، مصر 1968م.
56.ـ عبد الله السالمي (الشيخ): **تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان**؛ ط: مكتبة الاستقامة 1417هـ.
57.ـ عبد الله علي علاَّم (الدكتور): **الدعوة الموحدية في المغرب**؛ ط: دار المعرفة، القاهرة، 1994م.
58.ـ عدون جهلان: **الفكر السياسي عند الإباضية**؛ ط: المطبعة العربية، غرداية، 1990م.

59ـ علماء السعودية: **فتاوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء**؛ المجلد الثاني، ط: دار عالم الكتب، الرياض 1991م.

60ـ علي الطنطاوي: **طرق الدعوة إلى الإسلام**؛ ط: دار المنارة، جدة 1991م.

61ـ علي جريشة: **مناهج الدعوة وأساليبها**؛ المنصورة، مصر. 1986م.

62ـ علي يحي معمر: **الإباضية بين الفرق الإسلامية**؛ ط: مكتبة أبي الشعثاء (د.ت)

63ـ علي يحي معمر: **الإباضية في موكب التاريخ**؛ (الحلقة الأولى)، ط: مكتبة وهبة، القاهرة، 1964م .

64ـ علي يحي معمر: **الإباضية في موكب التاريخ**؛ (الحلقة الرابعة)، غرداية، 1986.

65ـ عمر بن الحاج محمد: **كشف الحالة لذوي الألباب والعيون**؛ (رسالة) الجزائر، 1906

66ـ عمرو خليفه النامي (الدكتور): **دراسات عن الإباضية**؛ (مخ) مترجم من الإنجليزية (مكتبة خاصة).

67ـ عوض محمد خليفات (الدكتور): **نشأة الحركة الإباضية**؛ ط: مطابع دار الشعب. عمان. الأردن 1988م.

68ـ عوض محمّد خليفات (الدكتور): **النظم الاجتماعية والتربوية عند الإباضية في شمال إفريقية**؛ عمان، 1982.

69ـ فاروق عمر (الدكتور): **التاريخ الإسلامي وفكر القرن العشرين**؛ ط:دار إقرأ، بيروت 1985م.

70ـ فاروق عمر (الدكتور): **مقدمة في دراسة مصادر التاريخ العماني**؛ بغداد 1979م.

71ـ لقبال موسى: **الحسبة المذهبية في بلاد المغرب العربي**؛ الجزائر، 1971.

72ـ ليفتسكي تادوز (بولوني معاصر): **دائرة المعارف الإسلامية (بالفرنسية)**، المجلد الثالث مادة (الحلقة).

73ـ مالك بن نبي: **مجلّة الثورة الإفريقية**؛ (مقال)، ع:274 (20–22 ماي 1968).

89ـ مهدي طالب هاشم: **الحركة الإباضية في المشرق العربي**؛ ط: دار الاتحاد العربي، مصر 1981م.

90ـ موتلانسكي (بولوني معاصر): **القرارة منذ التأسيس (بالفرنسية)** Guerrar depuis sa fondation؛ الجزائر 1908م.

91ـ ناصر عبد الكريم العقل: **الخوارج**؛ ط: دار الوطن، الرياض ط.الأولى 1416هـ.

92ـ نايف عيد جابر السهيلي (الدكتور): **الإباضية في الخليج العربي في القرنين الثالث والرابع الهجريين**؛ ط: مطابع دار الوطن، الكويت 1994م.

93ـ نعمان القاضي (الدكتور): **الفرق الإسلامية في العهد الأموي**؛ ط: دار المعارف مصر.

محتويات الكتاب

مقدّمـــــة 5
تمهيـــــد 15
تعريف المنهج 15
تعريف الدعوة 16
نشأة الإباضيَّة 24
تمييز الإباضيَّة عن الخوارج 42

الباب الأوّل (المهاد التاريخي)

الفصل الأوّل: من الفتنة إلى ظهور الشراة المعتدلين

المهاد التاريخي 61
وفاة أبي بكر ومبايعة عمر بن الخطاب 62
خلافة عثمان بن عفّان 65
خلافة علي بن أبي طالب 67
موقعة الجمل 68
موقعة صفين 70
موقعة النهروان 73

الفصل الثاني: نشأة الإباضيَّة (مرحلة الكتمان)

أهل الدعوة في البصرة (الشراة المعتدلون) 79
أبو بلال مرداس بن حدير، إمام الشراة المعتدلين 81

الإمام جابر بن زيد، العالم المؤسِّس 96
الإمام عبد الله بن إباض، الزعيم السياسي 108
الإمام أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة، المخطّط المحنّك 115

الفصل الثالث: الإباضيّة في الميدان (مرحلة الظهور)

في حضرموت، واليمن، والحجاز 125
في عمان 142
في المغرب الإسلامي 147

الباب الثاني: السمات والخصائص الحضارية

الفصل الأوّل: من الأصول العقدية

الإيمان: عقيدة، وقول، وعمل 160
معنى مبدأ «لا حكم إلاّ لله» 169
مجتمع الأمر بالعروف والنهي عن المنكر 181
نظرية الحكم عند الإباضيّة 197

الفصل الثاني: الدور الحضاري

الاعتدال والتسامح 227
الإباضيّة العمانيون ونشر الإسلام 248
نشر الإسلام بشرق إفريقيا 250
نشر الإسلام في الهند 253
نشر الإسلام في الصين 256
أندونيسيا وما جاورها 260

دور إباضيّة المغرب في نشر الإسلام في غرب إفريقيا 262
حلقة العزابــة 272

ملحق النصوص

رسالة الإمام علي بن أبي طالب إلى عبد الله بن عبّاس 311
جواب عبد الله بن عبّاس للإمام علي بن أبي طالب 314
كتاب عبد الله بن إباض إلى عبد الملك بن مروان..... 324
رسالة أبي عبيدة مسلم إلى دعاة المغرب 338
سيرة سالم بن ذكوان 340

خطبة عبد الله يحي طالب الحقّ بعد فتح اليمن 387
خطب أبي حمزة الشاري في المدينة..... 388
قصيدة عمرو بن الحصين في رثاء طالب الحقّ..... 398

رقم الأيداع : ١٩٩٧/٤٥م

مطابع النهضة ، تليفون : ٥٦٣١٠٤ ، سلطنة عمان